في اللسانيّات العامّة

تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها

د. مصطفى غلفان



في اللسانيّـات العامّـة

تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها

الدكتور مصطفى غلفان

دار الكتاب الجديد المتحدة

في اللسانيّات العامّة: تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها

الدكتور مصطفى غلفان

الطبعة الأولى
كانون الثاني/يناير/أي النار 2010 إفرنجي

موضوع الكتاب لسانيّات
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
الحجم 17 × 24 سم
التجليد برش مع ردّه

ردمك ISBN 978-9959-29-504-0
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)

رقم الإيداع المحلي 2009/361

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + خليوي 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + فاكس 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + نقال 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: oeabooks@yahoo.com

مقدّمة

مرّ على ظهور اللسانيّات العامّة وتوظيفها في مختلف مجالات العلوم الإنسانية زمن غير قصير. وبالرغم مما يتوافر في المكتبات الأجنبية من مؤلّفات هامّة تعرف بهذا النوع من الدرس اللّغوي الحديث وتعرض نتائج تطبيقاته في مجال دراسة اللّغة وغيرها، فإنّ المكتبة العربيّة لا تُقدّم للقارئ العربي ما يُسعفه على متابعة تفاصيل هذا العلم والمنهج المتّبع فيه في تشعباته وتفريعاته العامّة. صحيح أننا نملك بعض الكتابات اللّسانية العربيّة المتفاوتة الأهميّة التي تقدّم بعضاً من ملامح هذه اللسانيّات، غير أنّ ما يعرض يرد مرتبطاً، إما بقضايا فلسفية عامّة مثل، الدراسة الهامّة والرّائدة لزكريّا إبراهيم «مشكلة البنية»[1] ودراسة فؤاد زكريّا «الجذور الفلسفيّة للبنائيّة»[2]، وإما بقضايا أدبيّة كما في دراسة صلاح فضل «النظريّة البنائيّة»[3]. وثمة في الثّقافة العربيّة الحديثة بعض النّصوص اللّسانيّة والمقالات المترجمة في مؤلّفات أخرى مثل البنيويّة للحناش[4]. ويعد عمل مبارك حنون[5] متميّزاً في تقديم أهم أفكار مؤسّس اللسانيّات الحديثة.

وليس بإمكان المتتّبع للّسانيّات في العالم العربي أن ينكر جهود كثير من

---

(1) زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة، من دون تاريخ (منتصف السبعينيات في تقديرنا).

(2) فؤاد زكريا، الجذور الفلسفية للبنائية، حوليات كلية الآداب، الحولية الأولى، الكويت، 1980.

(3) صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1977/1980.

(4) محمد الحناش، البنيوية، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1980.
مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، منشورات عيون المقالات، الدار البيضاء، طبعة 2/الأولى، القاهرة، 1986.

(5) مبارك حنون، مدخل للسانيّات سوسير، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987.

الرّوّاد أمثال تمام حسّان وإبراهيم أنيس وكمال محمد بشر وأنيس فريحه وأحمد مختار عمر وريمون طحّان.. الذين قدموا للمكتبة اللُّغوية العربيّة العديد من الدّراسات والمقدّمات النّظريّة والتّطبيقيّة في اللّسانيّات الحديثة، إما بصفة عامة، وإما في مستوى مُعيّن من التحليل اللّساني كالأصوات والدلالة، وهي كلها كتابات مفيدة، رغم أنها لم تقف دائماً عند ما يحتاج إليه الطالب أو المبتدئ.

ما يمكن أن نؤاخذ عليه كثير من هذه الدّراسات الرّائدة وغيرها هو إمّا تكرارها المملّ للعديد من الأمور اللُّغوية التي لم تعد ذات أهميّة في الدرس اللّساني العام، وإمّا طابعها الانتقائيّ في التعامل مع لسانيّات معينة، أو انتقاء مفاهيم معيّنة من اللّسانيّات العامّة من دون تبرير نظريّ أو منهجيّ، وإمّا طابعها العام الذي لا يراعي اهتمام القارئ ومستواه ومتابعة القضايا اللّسانيّة في أصولها وتطوراتها، والربط بين أوّليّات اللّسانيّات في بعدها النظريّ والمنهجيّ العام.

وليس في نيتنا سدّ الفراغ المهول الذي تشكوه الثقافة العربيّة في مجال الكتب التي تعرّف باللّسانيّات العامّة أو الادّعاء بأن هذا المؤلَّف أفضل من سابقيه، ولكنه يطمح ما أمكن إلى تجنّب ما نراه سلبيّاً فيها غير متردّدين في الأخذ منها[6] كلما بدا لنا ذلك مفيداً بالنسبة إلى القارئ العربي، لاسيما وأنه يتوجّه إلى فئة محددة من القرّاء هم الطلبة المبتدئون في اللّسانيّات أو الرّاغبون في استثمارها في مجالات معرفيّة أخرى كالأدب والنّقد وغيرهما وطلبة علوم التربية وجمهور المثقّفين.

لقد حاولنا الوقوف على بعض الأسس الفكريّة والمنهجيّة التي قام عليها ما اصطُلح عليه بـ«اللّسانيّات العامّة» وعلى أهمّ الموضوعات المتصلة بها وليس كلّها (ومن هنا ورود حرف الجر «في» ضمن عنوان هذا الكتاب) أو التي يتعين

(6) لاشك أن بعض المؤلفات العربيّة التي صدرت في السنوات الأخيرة حققت قفزة نوعية في المضامين النّظريّة والمنهجيّة التي تكفّلت بتقديم اللّسانيّات، وأخص بالذكر:
- صالح الكشو: **مدخل في اللّسانيّات**، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1985.
- محمد محمد يونس علي: **مدخل إلى اللّسانيّات**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004.
- محيي الدين محسّب: **انفتاح النّسق اللّساني، دراسة في التداخل الاختصاصي**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008.

معرفتها في حقل اللّسانيّات العامّة. ولقد حاولنا قدر المستطاع ألّا نعرض للموضوعات التي استُهلكت في العديد من الكتابات اللّسانيّة العربيّة مثل نشأة اللّغة والأسر اللغوية والتعريف بفروع اللّسانيّات، وبمستويات البحث اللّساني، ولاسيّما ما يتعلق بعلم الأصوات فهذه الموضوعات وما يشبهها متوافرة باللّغة العربيّة، وبالتالي لا نرى داعياً لتكرار القول فيها. وقد اتّجهنا في إعداد هذا الكتاب نحو الجمع بين العمق والتبسيط، وبين المتابعة التاريخيّة والتقديم الوصفيّ العامّ للقضايا اللّسانيّة العامّة من جهة، وللمفاهيم النّظريّة والإجرائيّة من جهة ثانية. وقد راعينا في التقديم كل عناصر التبسيط والتوضيح والتمثيل وإعادة الأفكار والتذكير بها بعبارات مختلفة كلّما دعت الضرورة إلى ذلك من دون الإخلال بالدّقّة المطلوبة والأمانة العلميّة.

ولا يسعني في الختام إلا أن أشكر أفواج طلبة شعبة اللّغة العربيّة بكلية الآداب-الدّار البيضاء عين الشق تخصّص لسانيّات، الذين شاركوا في تلقّي أصل هذا الكتاب على مدى أكثر من عقدين من الزمن.كما أتوجه بالشّكر الجزيل إلى الأستاذ حافظ إسماعيلي علوي أستاذ اللّسانيّات بكلية الآداب أغادير/المغرب على تشجيعه ودعمه لنشر هذا الكتاب وعلى ما قدّمه من مساعدات تقنية في إعداده وإخراجه إلى القارئ.

الدكتور مصطفى غلفان



الباب الأول

اللّغة في بعدها الإنسانيّ

الفصل الأوّل

الطّبيعة النّفسيّة للُّغة

تقديم: اللّغة وكينونة الإنسان

أبسط تعريف للُّغة هو أنها نظام من الأصوات يتواصل به أفراد مجتمع للتعبير عن حاجاتهم الماديّة والمعنويّة. وهو تعريف لا يضيف إلى الأذهان شيئاً جديداً. وقد نتقدم قليلاً فنعرّف اللّغة صوريّاً أو شكليّاً بأنها **«وسيلة للتواصل أو أداة للتعبير عن الأفكار»**، أو أنها **«نظام من العلامات لنقل الأفكار»؛ فهذه** التعريفات جميعها كما سنرى، مهما كانت الاعتبارات المنهجيّة والتضمينات النّظريّة في صياغتها، تبدو لنا غير قادرة على الإحاطة بجوهر اللّغة وبأبعادها الفرديّة والجماعيّة. ويبدو أنه ليس بإمكان التّعريفات التي تم تقديمها في الأدبيّات المتعلّقة باللّغة، قديماً وحديثاً، ما من شأنه أن يميّز تعريف اللّغة البشريّة من سواها من أنظمة التواصل والتخاطب الأخرى بصرف النظر عن طبيعة المنظومة المستعملة والأفكار المراد التعبير عنها.

لذا من الصعوبة جداً أن نجد تعريفاً للغة يكون جامعاً مانعاً كما يقال. وبالرغم من أننا اعتدنا شيئاً اسمه **«اللّغة»**، سواء في استعمالنا لها عبر الكلام ونحن نمارسها، أو في التعرّف إليها ونحن نستمع أو نتلقى الخطابات اللُّغوية في كل وقت وحين، فإنّ ثمّة أكثر من صعوبة تعترض تقديم تعريف للّغة قادر على تحقيق الإجماع عليه. وتكمن أولى الصُّعوبات المتعلّقة بتحديد اللّغة، أنّ ثمّة عدداً لا يحصى ولا يُعدّ من التّعريفات التي أعطيت للّغة؛ وهي تعريفات يقترب بعضها من بعض أو يبتعد جزئيّاً أو كليّاً. «فالفلاسفة -مثلاً- يرون اللّغة من زاوية اتصالها

بالفكر، ومن ثم فهي عندهم وسيلة نقله، وطريق التعبير عنه. والمناطقة يدرسون قوانين الفكر وانعكاساها على اللّغة، وعلماء الاجتماع يهتمّون بالطّبيعة الاجتماعية للّغة ودورها في قيام مجتمع ما، وفي تحديد أنماط علاقات أعضائه. وعلماء النّفس تشغلهم زاوية تأثير اللّغة على مجمل مظاهر التّنظيم السّلوكي والعمليّات النّفسيّة المختلفة كالإدراك والتفكير والذّاكرة... إلخ، ومنظّرو الحضارة ينظرون إلى اللّغة من جهة تأثيرها في عمليات الصراع الحضاري، والتغيّر الثقافي، وعلاقاتها بطبيعة المكان ودوافع الهجرات وقضايا التأثير الحضاري... إلخ»[1].

والمؤكدّ أنّ المجال الذي يُوضع فيه هذا التعريف أو ذاك؛ والوجهات المعتمدة التي يُنظر من خلالها إلى اللّغة، والأهداف المنتظرة دراستها، كلها عوامل تساهم إلى حدّ كبير في تفسير هذا التّباين والتّعدُّد الملاحظ بشأن تعريف شيء عاديّ بالنّسبة إلى الإنسان اسمه «اللّغة».

إنّ اللّغة هي كينونة الإنسان وماهيّته. إن أصل اللّغة عند الفرد نابع من طبيعته الاجتماعيّة التي تلازمه، ومن حاجته إلى التواصل مع الغير. إن اللّغة عند الفرد تجسّد الرغبة في تحقيق نوع من التماهي مع الذّات والذّوبان بين الذّات والآخر من جهة، وبين الذّات والعالم الخارجيّ الموضوعيّ من جهة أخرى. ووفق تعبير جان بول سارتر (1905-1980) «الإنسان هو اللّغة، إن الإنسان هو أولاً ما يقوله»[2] «*l'homme est langage, il est d'abord ce qu'il dit*».

فاللّغة رابط حيويّ وبيولوجيّ ونفسيّ يربط الفرد بالمحيط، ويمنحه الاطمئنان النفسي والاجتماعي، والأمان في علاقته الخاصة والعامّة مع الآخر، والتعبير عن الإرادة الطبيعية في حقّ الوجود. إن اللّغة باختصار «شرط إمكان وجود الإنسان والإنسانيّة»[3]. يقول شارل بالي Charles Bally «يتحدث كثير من

(1) محيي الدين محسّب: انفتاح النسق اللساني، دراسة في التداخل الاختصاصي، ص14، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008.

(2) J.-P. Sartre: *L'être et le néant*, Paris, Gallimard, 1943/1976, p. 400.

(3) لمزيد من الاطلاع على بعض المواقف الفلسفية المتعلقة بطبيعة اللغة، يمكن الرجوع ضمن العديد من الكتابات إلى ما يلي:

- كمال يوسف الحاج: فلسفة اللغة، دار النهار للنشر، بيروت، ط2، 1978. =

العلماء عادة عن حياة اللّغة»، وعن «حياة الكلمات»، وعن «صراع اللّغات من أجل الحياة»، لكن اللّغة لا توجد إلا في أدمغة أولئك الذين يتكلمونها، وإنّ قوانين الفكر الإنساني وقوانين المجتمع هي التي تفسّر الوقائع اللغويّة(4).

في الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب، نسعى إلى تقديم تعريف للّغة يحيط بها عموماً، ويحدد طبيعة مكوّناتها، وأبعادها النّفسيّة والاجتماعيّة والرّمزيّة والثّقافيّة. وقد لا يفيدنا كثيراً سبر أغوار المناقشات الفكريّة والفلسفيّة المتعلّقة بطبيعة كينونة اللّغة عند الإنسان في أبعاده المتعددة، وهي من دون شك مناقشات هامّة ولها قيمتها، لذلك نأخذ المسألة من بداياتها لننطلق من الملاحظات الأوليّة المتعلقة بالسّلوك اللّغوي عند الإنسان.

1. السّلوك اللّغوي

يُلاحظ داخل العشائر البدائيّة والمجتمعات المتحضّرة على السواء، أن أفرادها يتكلمون بشكل منتظم ومنسّق، ـ وهو ما قد يبدو للأجنبيّ عنها مجرد إصدار «أصوات غير مفهومة» ـ يجعل المجموعات البشريّة؛ مهما كان عددها ومستواها الحضاريّ والفكريّ والاجتماعيّ، قادرة على أن تتواصل فيما بينها؛ لتعبر عن أغراضها المتباينة والمتعارضة أحياناً، وتحقّق نوعاً من الانسجام المجتمعيّ بينها، وتخلق أشكالاً قارّة من التّراتبيّة الاجتماعيّة رغم كل الصّراعات اليوميّة الضّمنيّة والصّريحة منها. إن عملية الكلام تبدو للمتكلّم أمراً عاديًّا جدّاً وسهلاً، لا تتطلب بذل أيّ مجهود يذكر، لذلك فهو في غالب الأحيان لا يُعيرها أدنى اهتمام. لقد ألِف كل منا اللّغة منذ صغره، وقد لا يتصوّر نفسه بدونها أو مستقلاً عنها.

= - Brice Parain: *Recherches sur la nature et les fonctions du langage*, Paris, Gallimard, 1942.

- Le langage: *actes du XIIIe congrès des sociétés de Philosophie de langue française*, Genève 2-6-Août 1966, Publication A la Baconnière, Neuchatel, 1966.

(4) Charles Bally: *Le langage et la vie*, Genève, Droz, 2ième edition, 1965/1925, p. 14.

إنّ أفراد المجتمع يتكلمون فيما بينهم، يسمعون ما يقوله لهم غيرهم، يتبادلون الأفكار والآراء، يعبّرون عن مشاعرهم وأحاسيسهم بواسطة مجموعة من الأصوات التي هي عبارة عن سلسلة فيزيائيّة وسمعيّة ينتجها الجهاز الصوتيّ الإنسانيّ. إن عملية التواصل والتخاطب تعني في نهاية التحليل أن كل إنسان متكلم وسامع في الآن نفسه، يصدر ويؤوّل ما لا حصر له من الجمل؛ حسب ما يقتضيه المقام التّواصليّ والتّفاعل بينه وبين السّامع، وتلبية الحاجات والأغراض.

إن مجموع هذا النشاط العادي والغريب في الوقت ذاته هو ما نسميه السُّلوك اللغويّ، وهو جزء من السُّلوك الرمزيّ عند الإنسان الذي يمكن اعتباره كائناً لغوياً أو سيميائياً بامتياز، نظراً إلى المحيط الرّمزيّ العامّ الذي يعيش فيه كل إنسان، ويتفاعل معه (الرّسم والفنون والإشارة والإيماء وسائر قوانين الاتّصال الأخرى). ويُعدّ السُّلوك الرمزي في شموليته خاصّيّة يتميز بها الإنسان من غيره من الكائنات الحيّة؛ مهما كانت درجة ذكائها وقوتها الجسدية. إنّ اللّغة صفة ملازمة لكل فرد بشريّ بصرف النظر عن أي انتماء عشائريّ أو عرقيّ أو حضاريّ أو فكريّ.

وإذا كان الاختلاف حول طبيعة اللّغة وخصائص جوهرها حاصلاً بين المفكّرين منذ قدم التاريخ البشري، فإنّ أهميّة اللّغة ودورها في حياة الفرد والجماعة، وقيمتها في دعم الشّخصيّة، وفضلها على الوحدة القوميّة بالنسبة إلى كثير من الأمم ليست محلّ نقاش أو جدل. وإذا كان ثمة اختلاف ما؛ فهو قائم حول توظيف التّصوّرات والتّأويلات التي قد يقود إليها هذا الموقف من اللّغة أو ذاك. فالاهتمام بالسُّلوك اللّغويّ عند البشر ليس وليد اليوم، بل شغل الإنسان منذ أقدم العصور بهذه الأداة الرّائعة والغريبة في الوقت ذاته. ويكفي إلقاء نظرة بسيطة على ما خلّفته مختلف الحضارات والثّقافات من أدبيّات ومواقف إزاء اللّغة؛ لندرك عمق الإحساس بأهمية اللّغة ودورها في حياة الإنسان والإنسانية.

لهذا السبب، فإن ظهور اللّسانيّات بوصفها الدّراسة العلميّة للّغة البشريّة في ذاتها ومن أجل ذاتها، ليس بدعة فكريّة أو ترفاً علميّاً بين مختلف العلوم التي ما فتئت تحاول اقتحام مجهول اللّغة، لأن الفهم العميق للغة البشريّة هو فهم لطبيعة العقل والمعرفة عند الإنسان. فاللّسانيّات ليست سوى واجهة ضمن عدد من

المعارف والعلوم التي تتفاعل كلّها لفهم أعمق وتحليل أدقّ وتفسير أعم للظّواهر اللّغويّة. إنه مطلب كثير من العلوم التي تلتقي مع اللّسانيّات في موضوع دراسة اللّغة مثل علم الاجتماع وعلم النّفس والأنثروبولوجيا والمنطق والفلسفة والرّياضيّات والإعلاميّات والبرمجة وعلوم التّربية وغيرها...

من هذا المنطلق يصعب علينا، كما ذكرنا، أن نقدّم التّعريف القادر على جمع شتات ومواقف كل هذه التخصّصات والمعارف المرتبطة باللّغة نظراً إلى استحالة توحيد الرؤى والأبعاد التي يُنظر من خلالها إلى اللّغة وإلى طبيعتها النّفسيّة والاجتماعيّة والمعرفيّة والفكريّة وإلى الدّور الذي تقوم به فرديّاً واجتماعيّاً.

لتجاوز صعوبة، بل استحالة، تقديم التعريف الجامع المانع؛ سنعرض في هذا الفصل بعض التّصوّرات والتّعريفات التي ينظر كل منها إلى اللّغة، وإلى السّلوك اللّغويّ من زاوية خاصّة به، تاركين للقارئ إمكانية اختيار ما يخدم اهتمامه ورؤيته الخاصة وما يتوقّعه من دراسة اللّغة.

1.1. بين اللّسانيّات وعلم النّفس

تجدر الإشارة بدءاً إلى الاختلاف الحاصل بين المقاربة اللّسانيّة والمقاربة النّفسيّة للّغة، صحيح أنهما يشتركان في مادة واحدة هي «اللّغة»، لكنّ لكل مجال معرفي مفاهيمه النّظريّة والإجرائيّة الخاصّة به، والأهداف المتوخّاة بلوغها. وحتى بالنسبة إلى الموضوع الذي هو اللّغة نفسها، فإن نظرة المتخصّصين إليها مختلفة. فما تدرسه اللّسانيّات ليس هو ما يدرسه علم النّفس أو علم النّفس اللّسانيّ. وغاية اللّسانيّات ووسائلها في دراسة اللّغة ليست بأيّ حال من الأحوال هي الغايات والأهداف المتبعة في علم النفس. «اللّسانيّات تدرس اللّسان من حيث إنّه بنية لها قواعدُها وضوابط اشتغالها. وإذا كانت البنية اللّغويّة غير قابلة للدّراسة إلاّ من خلال أمثلة ملموسة وواقعيّة، فإنّ اللّسانيّات لا تدرس ما هو واقعيّ من البنية، بل تبحث عن صياغة عامّة للقواعد المتحكّمة فيها. وبعبارة أخرى، تقتصر اللّسانيّات على دراسة خصائص نسق الإشارات أو الشّفرة code التي يمكن وصفها انطلاقاً من بنية الرسائل messages. إلاّ أن دراسة النّسق اللّسانيّ système linguistique لا يمكن أن يتمّ إلا من خلال دراسة الأمثلة الخاصة أو وحدات من الكلام الملموس. وهذا لا يعني أن موضوع اللّسانيّات هو هذه الوحدات

الملموسة، بل هو النّسق الثّاوي وراء هذه الحالات الملموسة.

أما علم النّفس[5] فيدرس اللّغة باعتبارها حدثاً حركياً وصيرورة نفسيّة Processus. عالم النّفس يهتم باشتغال المعرفة الضّمنيّة mise en oeuvre عند الفرد المتكلّم[6]. وهو بذلك يهتمّ باللّغة في تحقّقها الفعليّ عند الفرد متناولاً إنتاج وتأويل الأقوال في ظروف حقيقيّة؛ أي في مستوى الإنجاز الفعليّ للّغة performance لا القدرة compétence باعتبارها نسقاً مكوّناً من عدّة بنيات كما هو الشأن بالنسبة إلى اللّسانيّات. وتُخْتَصَرُ قضايا اللّغة المتنوعة سواء ما يتعلق باكتساب اللّغة وتعلُّمها، أو إدراك معاني الجُمل عند علماء النّفس في إطار إشكالية أساسية وواحدة تتمثل في الوقوف على الطبيعة النّفسيّة لقضايا اللّغة المتعلقة بالمعنى sens والدلالة signification؛ وما يرتبط بهما من إشكالات تتعلق بإدراكهما ذهنياً أو عمليّاً. ففي الدّراسات اللّسانيّة، تُعدّ اللّغة نسقاً موضوعيّاً مُبَنْيَناً structuré، وهي في علم النّفس اللّساني psycholinguistique واقعة/حقيقة نفسية un fait/réalité psychologique[7]، إذ يتفق علماء النفس المهتمون باللّغة على أن اللّغة ظاهرة نفسيّة بامتياز. فهي من جهة طاقة نفسيّة تمكّن الفرد من إنتاج وتأويل عدد لامتناهٍ من الجُمل، وهي من جهة ثانية سلوك إنساني كباقي التّصرّفات النّفسيّة مثل الخوف والفرح والاضطراب يستعملها الفرد المتكلم للتعبير عن واقع نفسيّ محدّد من خلال التّعبير عن مشاعره وعواطفه المتعدّدة.

غير أنّ علماء النفس يختلفون بعد ذلك حول ماهيّة هذه الطّبيعة النّفسيّة للّغة:

---

(5) Hans Hörmann: *Introduction à la psycholinguistique*, Paris, Larousse, 1972/1971, p. 21-22.

(6) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:
جوديث غرين: **علم اللغة النفسي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972/1993، ترجمة زكي سعيد التوني.
- جمعة سيّد يوسف: **سيكولوجية اللغة والمرض العقلي**، ص16-17، عالم المعرفة، العدد 145، الكويت، 1990.
- H. Hörmann: *Introduction à la psycholinguistique*, Paris, Larousse, 1972/1971.

(7) - C. Bayon et Paul Fabre: *La sémantique*, Paris, Nathan, 1974, p. 27.
- H. Hörmann: *Introduction à la psycholinguistique*.

- هل اللّغة فطرّية innée أم مُكْتَسَبة وكيف ذلك؟
- هل اللّغة سلوك خاصّ بالكائن الإنسانيّ؟
- كيف يكتسب الطفل اللّغة؟ وكيف تُتعلّم؟ وما علاقاتها بباقي القدرات الإدراكيّة والتمثيلات الذّهنيّة المصاحبة لها ؟

وغير هذا من الأسئلة التي تعجّ بها الأدبيّات السّيكولسانيّة. في هذا السياق يمكن أن نميز بين ثلاثة مواقف في علم النفس الحديث:

- التّصوّر السُّلوكيّ.
- التّصوّر العقلانيّ.
- التّصوّر التّكوينيّ.

2. التّصوّر السُّلوكيّ(8)

يقوم علم النّفس السُّلوكيّ على قاعدة عامّة مُفادها اختصار التحليل العلميّ

(8) ليست السُّلوكيّة مدرسة متجانسة، ولكنّها تضم العديد من الأسماء التي تلتقي في بعض المبادئ وتختلف في أخرى. وفي إطار المدرسة السُّلوكيّة يمكننا أن نميز بين الاتجاهات التالية:
- أولاً: السُّلوكية التقليديّة؛ ويمثلها: بافلوف Pavlov Ivan Petrovich (1842-1936)، ثورنديك Thorndike (1874-1949)، واطسون Watson (1878-1958)، هول كلارك Hull Clark (1884-1952).
- ثانياً: السُّلوكيّة الأداتيّة؛ ويمثلها سكينر B.F.Skinner (1904-1990) وتعرف نظريته بالنّظريّة الإجرائيّة، ومع سكينر تحوّل علم النّفس السُّلوكيّ إلى نظرية للتعلم Learning theory وفيها وضع أسس التحليل التجريبي للسلوك. وقد مرّت المدرسة السُّلوكيّة الإجرائيّة في مرحلتين مختلفتين: مرحلة اقتصرت الدّراسة فيها على دراسة سلوك الحيوانات ومرحلة تمّت فيها معالجة سلوكات الإنسان ولاسيّما بعض السُّلوكيّات الأكثر تعقيداً مثل السُّلوك اللغويّ.
- ثالثاً: السُّلوكيّة الوسيطيّة: يمثلها عدد من علماء النفس وعلماء السيكولسانيّات أمثال أوسجود Osgood وسيبوك Sebeok.
وواضح أنّ هناك ارتباطاً كبيراً بين هذه التصورات أو النماذج السُّلوكيّة في مجملها، ولا سيّما الاتجاهين الأخيرين اللذين يعرف أصحابهما بالسُّلوكيّين الجدد. فما يمكن تفسيره من ظواهر في النموذج الأوّل يمكن تفسيره كذلك في النموذج السُّلوكيّ =

للظّواهر النّفسيّة عند الإنسان والحيوان على السّواء، في السُّلوك القابل للملاحظة، ويمكن ضبطه من خلال ثنائيّة مثير (الحافز) Stimilus/استجابة (رد الفعل) Réponse. ويتفرع من القاعدة السالفة مجموعة من المبادئ الفكريّة العامّة للمدرسة السُّلوكية يمكن تلخيصها فيما يلي:

- رفض كل ذهنيّة أو تصوّريّة.
- المماثلة بين السُّلوك الإنسانيّ والسُّلوك الحيوانيّ.
- اختصار الاستعدادات الفطريّة والغريزيّة عند الإنسان في عمليّات تعليميّة بسيطة تقوم على تفضيل المحيط والتربية على الوراثة والفطرة والطّبيعة.
- الصيغة الحتميّة والآليّة للمقاربة السّلوكيّة (تأثير الوضعيّة المنطقيّة)[9].

1.2. السُّلوكية التّقليديّة

اهتمّ علم النّفس السُّلوكيّ الذي تأسّس على يد كل من فايس Weiss وثورندايك Thorndike وواطسون Watson اهتماماً بالغاً باللّغة البشريّة من حيث إنها سلوك نفسي بالغ الأهمّيّة. وينطلق الموقف السُّلوكيّ في تعامله مع اللّغة البشريّة من المقولة السُّلوكيّة المتمثلة في أن «جميع مشاكلنا النّفسيّة يمكنها أن تجد حلّاً في إطار الثّنائيّة مثير استجابة (رد الفعل) ويعرف هذا التوجه أيضاً بنظريّة الإشراط conditionnement التي صاغها أول الأمر عالم الفيزيولوجيا الروسي بافلوف. ويقوم مفهوم الإشراط في تجربة بافلوف على تقديم مثير غير عاديّ (غير طبيعيّ)، مثل رنين الجرس قبل مثير عاديّ (طبيعي) (قطعة اللحم تقدم للكلب) عدة مرات، ثم إيقاف المثير العاديّ، الأمر الذي يؤدي عند الكلب إلى اقتران الاستجابة (إفراز اللعاب) بالمثير غير العاديّ (رنين الجرس). ويعد الرّنين

= الثّاني. تهتمّ السُّلوكيّة التّقليديّة بإشراط conditionnement الاستجابة الخاصة جداً والقابلة للإثارة بواسطة مثير اعتباطي، بينما تهتمّ السُّلوكيّة الجديدة بدور «التحفيز» (الاندفاع impulsion) والتعزيز (الجزاء renforcement)، بحيث تصلح الاستجابة السّليمة للحصول على الجزاء، وإذا لم يكن هناك استجابة سليمة، فإن الجهاز العضويّ لن يُكافأ. نحن في النموذج الأداتي أمام تعلُّم أكثر فاعليّة عما هو عليه في الإشراط التقليدي.

(9) بتصرف عن J. Lyons: *Eléments de sémantique*. Paris, Larousse, 1978, p. 101-103.

مثيراً مشروطاً stimuli conditionnel واللحم مثيراً غير مشروط stimuli inconditionnel وإفراز اللّعاب بعد اللحم استجابة غير مشروطة réaction inconditionnelle والإفراز بعد الجرس وحده استجابة مشروطة»(10).

ويتمثل الإشراط في مجال اللّغة أو في السُّلوك اللّغويّ كما يسمّيه السُّلوكيّون، في نقل transfert سلوك المتكلّم إزاء الأشياء إلى الكلمات؛ أي إسناد دور مماثل لما يسبّبه الشيء الموجود في العالم الخارجيّ من سلوك إلى الكلمة.

ويلاحظ في مجال السُّلوك اللّغويّ، أنه لا يوجد دائماً ارتباط بين المثير والمثير، وبالتّالي يتمّ اللّجوء إلى مفهوم التعميم الدّلاليّ généralisation sémantique، حيث يمكن للمنبّهات القريبة أو المتشابهة أن تثير الاستجابة نفسها. فعلى سبيل المثال عندما يتم إشراط فرد متكلّم مع مفردة مثل «كلب». «فالكلب الحيوان ذاته يعد مثيراً شيئياً لمن يراه قد يستجاب لوجوده بشكل من الأشكال. أما الكلب الكلمة فهو مثير لفظي للكلب الحيوان حيث تؤدي لمن يسمعها أو يقرأها إلى استجابة متوسّطة ـ وسيطيّة ـ تنتج بدورها مثيراً وسيطياً يؤدّي بدوره إلى استجابة المعنى»(11). يلاحظ أنّه بالإمكان عند ذاك الحصول على الاستجابة نفسها عندما نكون بصدد كلمات أخرى، مثل: (حيوان/ طوم Tom (لقب كلب)/ نباح/ سُعار).

ودرس واطسون في كتابه «السُّلوكيّة» Le béhaviorisme العلاقة بين السُّلوك اللّغويّ Comportement verbal والفكر pensée عند الفرد، معتبراً أن اللّغة ليست في نهاية الأمر سوى عادات لفظيّة؛ مثل باقي التّصرّفات والسُّلوكات الإنسانيّة الأخرى. واللّغة في نظر واطسون مجموع العادات الكلامية عند الفرد، والفكر «لغة تحت الكلام» Un langage sub-vocal. إنّ السُّلوك المُحنجَر comportement laryngé هو أحد الأشكال الرئيسية المتوافرة لدى الإنسان لتنظيم السُّلوك إلى جانب التّنظيم الغدديّ والتنظيم اليدويّ(12). وتمتاز اللّغة ـ بحسب واطسون ـ من

(10) محمد علي الخولي، **معجم علم اللغة التطبيقي**، ص17، مكتبة لبنان، بيروت، 1976.

(11) جوديث غرين، **علم اللغة النفسي**، ص21، هامش رقم 1.

(12) P. Fraisse: *in La psycholinguistique (Lectures)*, édité par Tatiana Salama Cazacu, Paris, Klincksiek, 1972, p.56.

غيرها من التّصرّفات والعادات السُّلوكيّة عند الإنسان؛ بأنها نشاط له وظيفة هامّة تتمثّل أساساً في تعيين الأشياء والأحداث الواقعة في العالم الخارجي، وتسميتها Dénomination مما يتسبّب بإثارة سلوكات أخرى، سواء كانت كلاميّة أو غير كلامية.

وتكمن أهمية اللّغة بوصفها سلوكاً في كون كلمات اللّغة تصبح قادرة على إثارة السُّلوك مثلما تفعل ذلك الأشياء Objet الموجودة فعلاً في العالم الخارجيّ التي تنوب عنها أو تعوّضها. هذا الأمر يعطي اللّغة خاصّيّة إضافيّة هي خاصّيّة الاقتصاد في الاستعمال قصد التّبليغ والتّواصل. فلو احتجنا كلمّا أردنا الحديث عن أشياء معينة أن نُحْضِرَ هذه الأشياء بعينها، لكان هذا الأمر شاقاً أحياناً ومستحيلاً أحياناً كثيرة. بهذا المعنى تصبح الكلمات معوّضات أو بدائل Substituts عن الأشياء. وهو ما جعل واطسون يقول بأن الإنسان يحمل معه عالمه، وبالتالي يمكنه أن يتحكّم manipuler في العالم بواسطة الكلمات حتى وهو في عزلته.

ويربط واطسون بين اللّغة والحركة action. ما يعنيه الإنسان لغويّاً هو ما يفعله وليس شيئاً آخر. فلا «وجود لفكر مستقل عن اللّغة» بحسب واطسون. إنّ اللّغة ليست تعبيراً عن الفكر، بل هي الفكر نفسه. أنْ أفكر ليس سوى أن أتكلّم مع ذاتي وإلى ذاتي. ومعنى شيء معين لدى الفرد هو أن نحدد تجريبيّاً جميع الاستجابات المنظّمة التي يمكن أن يوحي بها شيء معيّن لدى هذا الفرد. إن المعنى هو السُّلوك الذي ينتهي إلى الكلمة والسُّلوك الذي تحدده الكلمة.

مثل هذا الموقف السُّلوكيّ في تفسير طبيعة اللّغة وجد صداه عند كبير اللّسانيين الأميركيين ليونارد بلومفيلد (L.Bloomfield) (1887-1949) في كتابه الشهير اللّغة Le langage، «الذي إليه ترجع العلاقة الوثيقة بين علم اللّغة وعلم النفس والذي أدخل مبادئ علم النفس التي كانت مسيطرة في عصره في دراسة اللّغة»[13].

(13) جوديث غرين، **علم اللغة النفسي**، ترجمة مصطفى التوني، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1993/ 1972، ص3.

يعتبر بلومفيلد اللّغة سلوكاً تجريبيّاً صرفاً. إنها عبارة عن سلوك خارجيّ يمكن إدراكه موضوعيّاً من خلال معرفة المثير مما يجعل اللّغة عمليّاً مثيراً واستجابة تتم في مراحل زمنية هي[14]:

1- أحداث عملية سابقة للحدث الكلامي (مثيرات): رؤية التّفاحة-الشعور بالجوع.

2- الكلام (الاستجابة): «أريد تفّاحة» الذي يصبح بدوره مثيراً.

3- أحداث عملية تالية للحدث الكلامي: قطف التّفّاحة أو إحضارها ثم تقديمها الخ...

لنبدأ أوّلاً بالأحداث العمليّة. لنتصوّر مشهداً من الحياة العادية نرى فيه فتاة (Jill) وفتى (Jacques) يجولان في حديقة ما. تشعر الفتاة بالجوع؛ فتتقلص بعض عضلاتها، وتفرز بعض السّوائل والغدد في المعدة. وقد تشعر الفتاة كذلك بالعطش فيجفّ لسانها وشفتاها. كما أن هناك اتّصالاً مادّياً بين الأشعة الضّوئيّة التي عكستها التّفّاحة وعين الفتاة، مما جعلها تطلب إلى رفيقها أن يحضر لها التّفّاحة. هذه الأحداث يُطلق عليها بلومفيلد **مثير المتكلّم**، وهي أحداث تسبق عادة عمليّة الكلام؛ وتكون بمثابة مثير لشيء ما في العالم الخارجيّ.

أما الأحداث التالية للحدث الكلامي، فتتعلق بسلوك السّامع [الفتى] وتتلخص مثلاً في سلوكات مثل تحرّكه لإحضار التّفّاحة وتقديمها للفتاة. يطلق على هذه الأحداث **استجابة السامع**؛ أي الأحداث النّاتجة عن القول. فلو افترضنا مثلاً أنّ هناك حيواناً أحسّ بالجوع؛ وأبصر شيئاً يؤكل (مثير) لذهب بنفسه باحثاً عن فريسته، أو لو أنّ الفتاة كانت في الحديقة بمفردها لقطفت التّفّاحة بنفسها.

يمكن رسم السّلوك العمليّ عند الحيوان وعند الفتاة (بمفردها) على الشّكل التّالي:

(14) هذا التقديم اللاحق للسّلوكيّة نأخذه بتصرف عن الترجمة الفرنسية لكتاب بلومفيلد اللغة الصادر باللغة الإنكليزية سنة 1933.

Leonard Bloomfield: *Le language*, Paris, Payot, 1970/1933.

م ———◄س م = مثير / س= استجابة

لكن بدل أن تذهب الفتاة بمفردها إلى التفّاحة؛ تصدر كلاماً يجعل الفتى يقوم باستجابة مباشرة. فكلام الفتاة الموجّه إلى رفيقها (استجابة لمثير الجوع ورؤية التفّاحة) هو ردّ فعل لغويّ عوضاً عن الحدث العمليّ نشير إليه في الرّسم بالحروف المرققة في الشكل التالي:

م ———◄س (استجابة عمليّة)

م ———◄س (استجابة لغويّة)

(يشير السهم إلى العلاقة السببية. أما الحرفان م و س بالخط الغليظ فيشيران إلى الاستجابة المباشرة، بينما يشير الحرفان العاديّان إلى العلاقة التّعويضيّة).

يمكننا أن نقوم بالتّحليل نفسه للمثير. إن الفتاة تصدر أصواتاً تصل إلى مسامع من يرافقها، فيقوم بحركة تكون بمثابة مثيرات بالنسبة إلى الفكر. والاستجابة التي يقوم بها الفتى في هذه الحالة تكون سبباً له هو نفسه كمثير عملي = م.

ويمكن أن يكون المثير لغوياً صادراً عن الفتاة التي تطلب مثلاً إلى زميلها أن يأتيها بالتّفّاحة وهو ما نصوره على الشكل التالي:

(مثير عملي) م ———◄س

(مثير لغوي) م ———◄س

من هذا المنطلق المتمثل في محاولة ضبط السُّلوك الإنسانيّ وصوغه في قوانين بسيطة محكومة بمبدأي المثير والاستجابة، يمكننا أن نرسم السُّلوك اللّغويّ عند الفرد كما يلي:

م ———◄س .... م ———◄ س

2.2. السُّلوكيّة الأداتية

بلغت الأطروحة السُّلوكيّة التي عبّر عنها واطسون قمتها النّظرية والتّطبيقيّة مع عالم النفس سكينر Skinner (1904-1990) في كتابه الشهير السُّلوك اللّغويّ Verbal behavior (1957) الذي لاقى إقبالاً قل نظيره في الفكر الحديث وأثار جدلاً واسعاً في المحافل العلميّة والفكريّة.

طوّر سكينر التّصوّر السُّلوكيّ التّقليديّ بالتّأكيد على البعد العملي لثنائيّة المثير والاستجابة، وذلك بإدخال أنواع جديدة من الارتباط بينهما، متسائلاً عن كيفيّة اشتغال هذه الثنائية في سلوكات أخرى أكثر تعقيداً. وقد انتهى سكينر إلى خلاصات جديدة في تحليل السُّلوكات البشريّة (ومنها السُّلوك اللّغويّ)، مفادها أنّ الاستجابة (أو الاستجابات) ليست دائماً نتيجة مثيرات محدّدة ومضبوطة، بل يمكن أن تتحول هذه السُّلوكات إلى إجراءات عمليّة تحصل تلقائيّاً وتكون قابلة للتكرار وتشكّل سلوكاً محدّداً إذا توافر ما يقوّيها ويدعمها. إن ظهور سلوكات جديدة يحصل كلما تعززت السُّلوكات المماثلة أو المتقاربة كليّاً أو جزئيّاً. وكان لهذا التصوّر السُّلوكيّ الجديد أثره الفعال في تفسير العديد من السُّلوكات المعقّدة التي عجزت السُّلوكيّة التّقليديّة عن تفسيرها مثل حلّ مشكلة التفكير واللّغة والقراءة أو قيادة سيارة. وهي سلوكات لا يمكن تفسيرها في منظور سكينر في إطار الخطاطة السُّلوكيّة التّقليديّة (م ——← س). ولم يعد المحيط الموضوعي وحده المصدر الرئيس، بل أصبح الأمر يتطلب تدخّل الكائن الحيّ الذي يختار السُّلوك الذي يرغب فيه ويتمّ تعزيزه وتقويته. فحين يكون جسم ما قابلاً للتحفيز motivable كأن يكون في حالات الجوع أو العطش، وانطلاقاً من معرفة مسبقة بأوقات الحرمان من الأكل والشرب، فإنّ استجابة سليمة ستكون متبوعة بجزاء ملائم وهو ما أسماه سكينر الإشراط الإجرائيّ conditionnement opérant.

في هذا السّياق نورد تجربة سكينر المعروفة بعلبة سكينر حيث وُضع فأر (جائع) وفي كل مرة يضغط فيها الفأر على رافعة levier داخل العلبة ولو مصادفةً يُقدّم له الطعام كجزاء له بطريقة آليّة، ولوحظ بعد ذلك أن الفأر أصبح يضغط أكثر فأكثر على هذه الرافعة؛ رغبة في الحصول على المزيد من الأكل؛ أي مزيد من الاستجابات مقابل مزيد من الجزاء. ومعنى هذا أن تكرار الاستجابة

المستحقة للجزاء تتكاثر إلى حدود معيّنة بعد كل محاولة يكافأ عليها الجسم، وبذلك فإن الاستجابة تتعلم عندما تنتج باحتمال كبير[15].

يعتقد سكينر أنّ التّجربة نفسها تصدق على اللّغة. فالاستجابات اللّفظيّة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمثيرات من دون الحاجة إلى تدخّل متغيرات مثل المعنى أو الأفكار أو القوانين النحويّة[16]. يُصْدِرُ الطفل جملاً يكون لبعض منها في محيطه استجابات تلبي حاجاته؛ وتعززها مما يسمح بظهورها أكثر فأكثر. يختصر سكينر اللّغة بـ «تصرّف موضوعي محدّد آنيّاً ومكانيّاً» مبعداً إمكانية تصوّر أي وجود مستقل للّغة عن الوظيفة السّلوكيّة للفرد المتكلم. إنّ ما يوجد فعلاً وواقعياً هو السُّلوك الكلامي والوظيفة المرتبطة به مثل باقي السُّلوكات الأخرى. إن الدلالة اللّغويّة ليست شيئاً معطى في ذاته، وليس لها أي قيمة بمعزل عن المقام الذي تنتج فيه. إنّ الدّلالة اللّغويّة ليست مكتسبة، بل هي نتيجة الاتصال المباشر بالمحيط وبالمقام التواصلي الخارج لغوي extralinguistique. لهذا السّبب، يبعد سكينر في تحليله للسلوك اللّغويّ عنصر المعنى Signification وكل ما يرتبط به. فهو مثلاً يتساءل عن المعنى الدّقيق لبعض الألفاظ داخل الجملة مثل: «اندهاش»/ «ذكاء» / «رؤيا». فهذه المفاهيم وغيرها بالنسبة إلى سكينر مفاهيم فلسفيّة مجرّدة وليست علمية، لأنه يستحيل وضعها على محكّ الملاحظة المباشرة تجريبيّاً التي هي من مقاييس العلميّة. إنّ السُّلوكيّة تحاول حلّ المشاكل الذّهنيّة المرتبطة بالمعنى من دون أن تسمّيها؛ محاولة إقصاء كل إحالة للنّشاط الدّاخليّ عند الفرد المتكلم؛ أي كل ما يرتبط بتدخله الذّهنيّ، وإعمال الفكر لتحديد المعنى وإدراكه. إنّ السُّلوكيّة تحصر معرفة المعنى والدّلالة في دراسة العناصر الخارجيّة مثل، المقام والمثيرات والاستجابات مكتفية بضبط السُّلوك القابل للملاحظة، بحيث يتم العمل على تحديد العلاقة القابلة للملاحظة المباشرة والقياس بين المثيرات الصادرة عن المحيط الخارجيّ، والاستجابات التّلقائيّة أو المكتسبة التي تثيرها في الجسم.

(15) Jekins: *The learning theory approach*, p.48 in T. salama Cazacu: *La psycholinguistique*.

(16) جوديث غرين، علم اللغة النفسي، ص22.

إنّ المقاربة السُّلوكيّة عند سكينر مقاربة وظيفية أو تحليل وظيفيّ للسّلوك اللّغويّ، إذ يتعلق الأمر بتشخيص المتغيّرات التي تحدّد السُّلوك اللّغويّ وتبيّن تفاعلها. يجب، بحسب سكينر، أن يكون الوصف موضوعيّاً، وأن تكون التحديدات ذات طابع عمليّ إجرائيّ، بمعنى أن تكون قابلة للتحديد الموضوعي والقياس الاختباريّ الخارجيّ مثل: المثير والاستجابة والتعزيز. أما البنية الداخليّة للّغة فلا مكان لها في هذا التّحليل؛ لأنها ليست من السُّلوك الذي يمكن ملاحظته.

ويُعَدّ تحليل السُّلوك اللّغويّ في نظر سكينر تحليلاً علميّاً عندما نتمكن من التّنبؤ بالسُّلوك اللّغويّ للفرد انطلاقاً من عناصر أخرى قابلة للملاحظة، سواء كانت سلوكيّة أو مقاميّة، ثم البحث عن المتغيّرات المحدّدة للسّلوك الذي يتمركز حول المثيرات الحاضرة والتّعزيزات السّابقة. ويميز سكينر خمسة أصناف من الإشراطات الإجرائيّة للسّلوك اللّفظيّ وهي:

أ ـ الطّلب Mands: إجراء ينبثق من دوافع الحرمان deprivation ويتجسّد في صور أوامر وطلبات تستخدم عندما يريد الفرد شيئاً ما، أو يحتاج إليه. فالحاجة إلى الملح ـ مثلاً ـ تستثير استجابتك لتقول للشّخص الذي أمامك «ناولني الملح» فيعزز ذلك الشخص استجابتك بمناولتك الملح، فتقول له في مقابل ذلك «أشكرك» لكي تعزز استجابته، ولكي يستمرّ أيضاً في تعزيز استجابتك في مناسبات لاحقة في المستقبل، حيث إنّه سيقول في مقابل كلمة الشكر «عفواً» لكي يعزز استجابتك في مقابل تعزيزك وهلمّ جرّاً.

ب ـ الاتّصال Tacts: وهو إجراء يتطلّب مثيراً يكون ـ في الأغلب ـ غير لفظيّ، فإمكان حدوث استجابة معيّنة يصبح أكبر في مثير معين. ومثال ذلك حين يقول شخص: من فضلك أعطني القلم الأزرق، وذلك حين يكون ـ بالفعل ـ نظر إلى مجموعة من الأقلام المختلفة التي تشتمل على قلم واحد (أو أكثر) يكون أزرق[17].

(17) يمكن التعرف إلى تشكُّل هذا النّوع من السُّلوك اللّغويّ لدى الفرد بالرجوع إلى تاريخه، لأن الاستجابات الاتّصالية تعزيز renforcement ثانٍ لا يلبّي راهناً حاجات المتكلم، لكنها ترتبط في الماضي بمثيرات ذات تعزيز أوّليّ سابق.

جـ ـ الإجراء الصدويّ Echoic: ومثاله تمرينات المحاكاة والتّرديد في تعليم اللّغة. فمكون المثير هنا يتشكل من الكلمة أو الكلمات التي يقولها المعلّم أو الوالد، ويريد من المتعلّم أن يردّدها وراءه. وهذا النّوع من السُّلوك له مغزاه في لغة الطّفل، لأنه يساعد الوالد أو المعلم على التحكم في السُّلوك اللّفظيّ للطّفل.

د ـ الإجراء النّصيّ Textual: ومثال هذا الإجراء الاستجابة اللّفظيّة النّاتجة عن مثير مكتوب. وفي هذه الحالة، فإن الاستجابة اللّفظيّة والنّصّ المكتوب يجب أن يكونا متماثلين.

هـ ـ الإجراء المابين لفظ Interverbal: عندما يتكلم الشخص بشيء ما، ويكون ما يقوله ينتج استجابة لفظيّة (...) ومثال ذلك الشخص الذي يريد أن يعطي أمثلة للأشياء المحسوسة، فيبدأ بكلمة كتاب. فهذه الكلمة ربما تكون مثيراً يجعله ينطق بعدها بكلمة (قلم)، وهذا الإجراء الأخير له صلة وثيقة بمبدإ الترابط الاستدعائي (التداعي) بين الكلمات[18].

3.2. السُّلوكيّة الوسيطيّة وإشراط المعنى conditionnement du sens

تشكّل السُّلوكيّة الوسيطيّة Béhaviorisme médiationniste مرحلة متطورة في تاريخ السُّلوكيّة لتجاوز الطابع الآليّ الحادّ الذي تميزت به السُّلوكيّة التقليديّة والصّعوبات النّظريّة والمنهجيّة المتعلّقة بمسـألة ربط المعنى اللّغويّ بالسُّلوك العاديّ من جهة وبالصعوبات التي ترتبط بظاهرة «تعميم الدلالة» généralisation sémantique المتمثّلة في كون عدة مثيرات يمكنها أن تنتج استجابة لغويّة واحدة وسيطيّة، وأن المثير نفسه يمكن أن يكون سبباً في استجابات وسيطيّة مختلفة.

---

(18) محيي الدين محسّب، انفتاح النسق اللساني، دراسة في التداخل الاختصاصي، ص 116-117، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008. والواقع أنه لا غنى للمهتمّ بالدّرس اللّساني الحديث، لاسيّما في الجانب المتعلّق بعلم الدّلالة، عن إدراك الأبعاد النّفسيّة للّغة من حيث تكوين العلامات اللّغويّة وتصوّرها عند الأفراد، لذلك لا يخلو مؤلّف في علم الدّلالة أو علم النّفس اللّغوي من عرض أساسيّات التّصوّر السُّلوكيّ في الموضوع. لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى:

- J. Lyons: *Eléments de sémantique*, Paris, Larousse, 1978, p. 101-114.

- H. Hörmann: *Introduction à la psycholinguistique*, p. 158-191.

إذا قلنا إنّ الإشارة المشروطة؛ وهي الكلمة التي تنوب عن الشّيء وتعوّضه؛ أي تحلّ محلّه وتكون بديلاً منه se substituer، فمن السهل أن نبين أنّ الاستجابة لكلمة ما ليست استجابة للشيء الذي تُحيل عليه. إن كلمة «كلب» لا تنبح؛ كما أننا لا نأكل كلمة «تفاحة». فالتّصوّر الوسيطيّ يقوم على خصائص بعض المقامات المشروطة، ذلك أنّ بعض الاستجابات المشروطة يمكن أن تملك عناصر مشتركة، وأنّ بعض جوانب الاستجابات التي لا يمكنها أن تنقل إلى سلوكات خارجيّة؛ قد تلعب دور المثير بالنسبة إلى استجابة جديدة يمكنها أن تبرز خارجيّاً. وتقوم الوساطة بوظيفتين[19]:

- تحليل العلاقة من الدّالّ إلى المدلول؛ وهي العلاقة التي كانت السُّلوكيّة التّقليديّة والسُّلوكيّة الأداتيّة تعالجانها في إطار ما كان بافلوف يُسمّيه النّسق الثّاني للتشوير second système de signalisation.

- توضيح علاقة التنبؤ التي اعتبرتها السُّلوكيّة الوسيطيّة أساسيّة ومركزيّة في دراسة اللّغة.

ويمرّ التّحليل الوسيطيّ للسّلوك اللّغويّ عبر ثلاثة مستويات:

أ- رابط مشروط: م ← س مثير واستجابة بالمعنى التّقليديّ مع إمكانيّة تقسيم الاستجابة إلى استجابة صريحة وأخرى ضمنية.

ب- رابط مشروط ثانوي؛ تلعب فيه الاستجابة الضّمنيّة دور المثير لاستجابة جديدة صريحة.

ج- يمكن للاستجابة الضّمنيّة أن تنتج من قبل عدة مثيرات. هذه الاستجابة هي الوساطة التي تفسّر الرّوابط الدّلاليّة والمعنويّة التي يطلق عليها التّعميم الدّلاليّ كما مرّ بنا.

لنفرض حالة أخرى نحصل فيها على مثير لامشروط؛ أي منبّه من المحيط الخارجيّ؛ وليكن التّفّاحة كما هي موجودة في العالم الخارجيّ. قد يثير هذا المثير استجابة تامة Réponse totale؛ وهي مجموع الاستجابات التي يتطلب

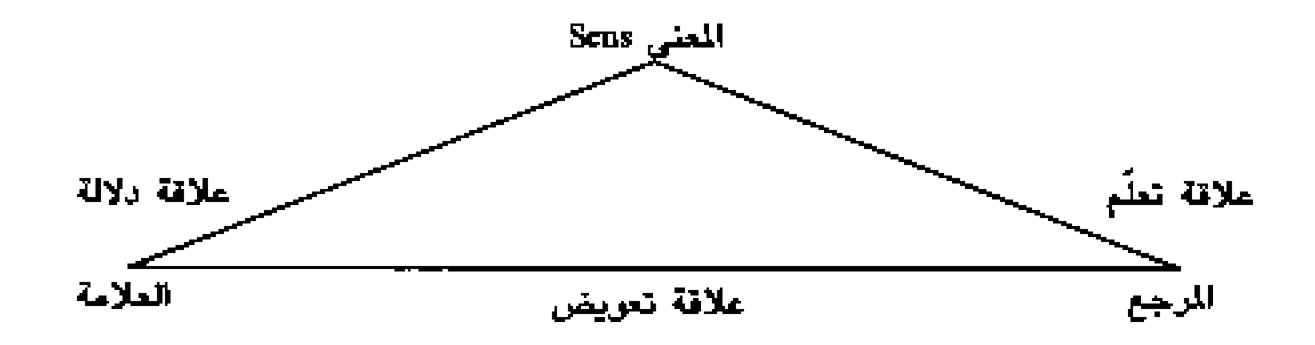
---

(19) H. Hörmann: *Introduction à la psycholinguistique*, p. 165-170.
- C. Bayon et Paul Fabre: *La sémantique*, Paris, Nathan, 1974, p. 30-32.

بعضها استحضار الأشياء الموجودة فعلاً، ويتطلب بعضها الآخر استجابة وسيطية Réponse médiationniste. وتتكوّن الاستجابة التّامة من عدة مكوّنات غير متجانسة مثل: رؤية التفّاحة/مدّ اليد لقطفها أو تناولها/سيل اللّعاب/الشّعور/لذة الأكل... إلخ. فإذا صاحبنا المثير غير الشّرطي بالكلمة/tuffahatun/، فإنهما يصبحان معاً كلمة ـ مثيراً مشروطاً لن تثير استجابة تامة، وإنما جزءاً منها (استجابة وسيطيّة). إنّ الاستجابة الوسيطيّة غير القابلة للملاحظة المباشرة، تصبح بدورها مثيراً وسيطياً stimuli médiationniste ينتج عنه استجابة ظاهرة؛ أي كلمة ـ استجابة مختلفة عن الاستجابة التامّة.

وقد اقترح أوسجود[20] Osgood وسيبوك Sebook في إطار التحليل السّيكولساني Psycholinguistique تصوّراً مخالفاً لما كان سائداً في السُّلوكيّة التّقليديّة من ربط مباشر بين المعنى والسُّلوك؛ أي العلاقة بين العلامة والمرجع. فالمعنى حلقة وسطى بين العلامة والمرجع (الشيء الموجود في العالم الخارجي)، وعن طريق هذه الوساطة يتمّ الربط بين العلامة والمرجع.

وتصوّر أطراف العملية المتعلقة بالمعنى في المثلث التالي:



يمكن توضيح مكوّنات المثلّث السّابق بما يلي:

– المعنى ـ العلامة: تحيل العلامة على طريق معنى معين مرتبط بالشّيء السّمعي أو المكتوب بواسطة علاقة الدّلالة.

(20) Charles Osgood: «*On understanding and creating sentences*» (1963), p. 60-64 in *La psycholinguistique (Lectures)* édite par T. Salama Cazacu, Paris, Klincksiek, 1972.

- المعنى ـ المرجع: علاقة تعلّم، لأننا نتعلّم معنى العلامات باتّصالنا بالأشياء.

- العلامة ـ المرجع: علاقة تعويض، لأن العلامات تعوّض ما تدلّ عليه. وتسمح علاقة التّعويض بالحصول على سلوكات سيميائيّة تجعلنا لا نباشر الواقع ذاته، وإنما علامات هذا الواقع[21].

وبهذه الكيفية تكون السّلوكيّة الوسيطيّة قد انتقلت من معالجة مشكل المعنى بوصفه علاقة علامة ـ مرجع إلى العلاقة علامة ـ علامة، بمعنى أن «المثير المشروط-كلمة» يمكنه أن يُرْبَط بعلامات أخرى.

ويمكننا أن نلخّص تصوّر السّلوك الوسيطي لتداول اللّغة في الرسم التالي:

م ـ كلمة ← س و ← م و ← س ـ كلمة

(حيث: س و= استجابة وسيطية م و= مثير وسيطي و س= استجابة)

يسمي أوسجود الربط بين م-كلمة و س و بالعادات الفارزة للترميز Habitudes de décodage، ويسمي العمليّة التي تربط م و ب س ـ كلمة بعادات التّرميز Habitudes d'encodage. وطبيعيّ أنّ كلّ العادات متلازمة عند الفرد المتكلم الواحد نفسه إذ تستدعي إحداهما الأخرى[22].

وقد بلغت نظريّة إشراط المعنى conditionnement du sens أَوْجَها عند مورر Mowrer الذي حاول في تحليله تجاوز حدود دلالة العلامة الواحدة؛ متسائلاً عمّا يقع داخل الجملة وكيف يمكن تفسير ذلك من وجهة سلوكيّة وساطيّة. يقال عادة بأن الجملة تنقل معنى من المتكلّم إلى السّامع. لكن مورر في أبحاثه بين أن المعنى ليس شيئاً في ذاته يمكن نقله من المصدر إلى السّامع بواسطة موجات سمعيّة، بل إنه صيرورة متحرّكة، سواء في المصدر (المتكلم) أو عند السّامع. في

---

(21) C. Bayon et Paul Fabre: *La sémantique*, p. 30.

(22) Charles Osgood: «On understanding and creating sentence» (1963), p. 62 in *La psycholinguistique (Lectures)* édité par T. Salama Cazacu.

عملية التواصل لا تنقل الدّلالة في نظر مورر من شخص إلى آخر، بل من علامة إلى علامة عند الشّخص نفسه. فالدّلالة مشتركة بين المتكلم والسامع وماهيّة التّواصل أن تغيّر دلالة العلامات التي تحمل معنى محدداً.

يمكن تحليل دلالة جملة مثل «أحمد لِصّ» من منظور هذا التصوّر كما يلي: عملياً المثير المشروط-كلمة 'أحمد' له استجابة تامّة تكون سبباً في جزء من الاستجابة التي يثيرها حضور الشخص الذي هو 'أحمد' والتلفظ بـ 'أحمد' يشكل استجابة وسيطية. وعندما نكون بصدد المتوالية: 'أحمد لصّ'، فإن لفظ 'لصّ' من حيث إنه صفة مجردة تعد استجابة تامة. لكن بحسب مبدإ الإشراط، فإن الاستجابة التي تتسبّب بها العلامة الثانية 'لصّ' تمر عن طريق العلامة الأولى 'أحمد' باعتبارها تعزيزاً أوّليّاً و'لصّ' تعزيزاً ثانياً، وبالتالي تصبح العلامة 'لصّ' استجابة وسيطيّة يكون جزء منها تابعاً للاستجابة الوسيطيّة الأولى 'أحمد'[23].

يلاحظ بصدد السّلوكيّة عموماً والوسيطية منها بصفة خاصّة، أنّها تقوم بالإضافة إلى مفهومَي المثير والاستجابة على مفهوم التّداعي Association الذي هو نوع من الرّبط التّلقائيّ بين الكلمة والمرجع يقوم على التّشابه والتّقارب وحتّى التّقابل أو التّعارض. إلا أن كلمة التّداعي لها أكثر من دلالة؛ ويمكنها أن تعبّر عن كثير من المظاهر النّفسيّة. كيف يتمّ الرّبط؟ متى يكون؟ ومتى لا يحصل هذا الربط؟ وهل يكون هذا الربط مشتركاً بين جميع الأفراد المتكلمين بلغة واحدة أم هو خاصّ بكل فرد على حدة؟ وهل يكون ناتج هذا الربط ثابتاً أم متغيّراً حسب سنّ الفرد والمقام والثقافة أم ماذا؟

لُوحظ مثلاً أن بنية المعجم تختلف في الزمان؛ أي أنها في تطوّر مستمرّ، وبالتّالي فهي عند الطّفل غير نظيرتها عند البالغ. فالكبار يقومون بنوع من الرّبط بين الكلمات على أساس محور الاختيار، بينما يتم الرّبط عند الأطفال على أساس المحور السّياقيّ أو التّوزيعيّ. (عند الكبار مثلاً: كلمة طاولة تُربط

(23) بتصرف نقلاً عن:

- C. Bayon et Paul Fabre: *La sémantique*, p. 32-33.

وعمل مورر المشار إليه هو:

- Oscar Mowrer: *Learning theory and symbolic processes*, 1960.

بكرسي، بينما الطاولة عند الطفل هي التي يأكل عليها).

4.2. ملاحظات حول التّصوّر السُّلوكيّ لطبيعة اللّغة

هذه النظرة الآلية هي التفسير الذي يقدمه السُّلوكيون وعلى رأسهم زعيم المدرسة اللّسانيّة التّوزيعية بلومفيلد للّغة؛ بحيث اعتبروها نوعاً من السُّلوك الإنساني. ولقد كان بلومفيلد يقصد من وراء سلوكيته أن يبعد الدرس اللّغويّ عن كل ما هو باطني، فهو يرفض أيّ تناول للعناصر الغامضة المرتبطة بالذّهن والعقل والشّعور، لأنها لا تخضع لأيّ مراقبة أو للملاحظة التجريبية وهذا تأثير واضح للوضعيّة المنطقيّة في التفكير اللّغويّ الحديث.

إنّ النّظرة السُّلوكيّة إلى طبيعة اللّغة فيها كثير من البساطة والآلية المفرطة، وذلك حينما تربط التجربة اللّغويّة بكل تعقيداتها بالمحيط الخارجي؛ كما لو كانت اللّغة سلوكاً عادياً. ولا تفيد السُّلوكيّة في فهم الكثير من الأسرار والظواهر التي تتضمنها العمليّة اللّغويّة. إنّ المقاربة السُّلوكيّة بمختلف تصوّراتها تفترض اللّغة معطى موضوعياً في محيط موضوعي وقارّ، حيث ترتبط المكونات من موضوعات ومراجع référents ومقامات بالأقوال اللّغويّة المنتجة عن طريق علاقة مطّردة ودائمة. ومن الملاحظ أنّ هذه العلاقة المشار إليها لا تكون دائماً علاقة مستقرّة، بمعنى أنه لا يمكن إطلاقاً البرهنة على أن اللّغة محكومة بمثيرات قابلة للتحديد أو حالات محددة من الحاجات القابلة للتشخيص.

قد نستنتج في بعض الحالات أنّ هذا المثير المادي يقود إلى هذه الاستجابة اللّغويّة، إلا أنه يتعذّر علينا أن نتنبأ بالاستجابة اللّغويّة السّليمة أو الملائمة لما هو موجود في العالم الخارجي من مثيرات، وليس من الضّروريّ أن يكون للمثير الواحد الاستجابة نفسها. وفي مجال سيكولوجيّة الإدراك بمجرد ما نتجاوز وصف ما هو خالص فيزيائيّاً نصادف العديد من الأسئلة ومنها: ما هو المثير الحقيقي؟ هل الموجات الصّوتية أم التفريغ المحكم الهامشيّ؟ هل الماء الذي نراه أم العطش الذي نحسّ به؟[24].

(24) H. Hörmann: *Introduction à la psycholinguistique*, p. 13.

إن اللّغة ليست دائماً مثيراً واستجابة؛ إذ من الممكن أن نتحدث في غياب المثيرات الماديّة الفعليّة؛ كأن نحكي عن أشياء غائبة، أو وقعت لنا بالأمس أو ستقع غداً. و اللّغة تسمح لمستعمليها بتصوّرات خياليّة لا حدّ لها ؛ و لا وجود لها إلا في عالم آخر غير العالم الملموس وبتعابير تخرق حدود المألوف من الأشياء والتّصوّرات. في مجال اللّغة يمكننا أن نفسّر وجود الأساليب البلاغيّة والصُّوَر الفنّيّة ومختلف تقنيّات إنتاج البيان اللّفظيّ والمعنويّ بأنها انعكاس للحرّيّة التي تتوافر لدى كل متكلم للتّعبير عن الشحنة اللّغويّة الكامنة فيه والتي تتمكن اللّغة من التعبير عنها بأشكال مختلفة من الجُمل والأقوال؛ ولو تعلّق الأمر بالوقائع نفسها والأحداث نفسها المعبّر عنها.

إن السُّلوكيّة بهذا المعنى تبسّط عملية اللّغة؛ معتبرة إياها عملية آلية يكفي للحصول عليها الوقوع تحت تأثير العوامل الفيزيولوجيّة التي تسبّبها المثيرات الماديّة. إنّ تعلّم اللّغة في نظر المدرسة السُّلوكيّة كباقي أنواع التّعلّم الأخرى، اكتساب سلوك لفظيّ استناداً إلى التّكرار والتّقليد والتّعزيز. و غير خافٍ على أحد أن اللّغة جهاز معقّد يستحيل اختصاره في مثير واستجابة بالنّظر إلى ضخامة التّجربة اللّغويّة وتعقيدها كمّاً وكيفاً عند البشر. إن اللّغة تحمل لنا معلومات ثمينة عن عقلية المتكلم والسامع وحالتهما النّفسيّة والاجتماعيّة والفكريّة، وهو ما لا يمكن للمثيرات والاستجابات المتعدّدة أن تنقله إلينا، أو نقوم باستخلاصها منها. إن السُّلوكيّة تسلب الإنسان خصائص ماهيّته ووجوده المتمثّلة في العقل والإبداع وحرّيّة الإرادة والتّحكّم في التّصرّف، محاولة بذلك أن تجعل منه كائناً أشبه بكلب بافلوف الذي لا يمكنه أن يتحكّم في ردود فعله إزاء شروط فعل معيّنة.

3. التّصوّر العقلانيّ[25]:

منذ أقدم العصور؛ يُعَدّ التصوّر العقلانيّ في تسمياته العديدة الموقف المضاد للتّجريبيّة الماديّة في أشكالها المختلفة وللسّلوكيّة بوجه خاصّ. ويستمدّ

(25) الأدبيّات العقلانيّة المتعلّقة باللّغة عديدة بعضها قديم وبعضها حديث، بعضها فكريّ عامّ وبعضها لسانيّ صرف. ومن بين المصادر الأساس في عقلانيّة اللغة نذكر أعمال الفيلسوف ديكارت وأعمال تشومسكي وأتباعه في النحو التوليدي على سبيل التمثيل لا الحصر.

الموقف العقلاني المعاصر جذوره الأولى من الفلاسفة العقلانيّين في القرن السابع عشر، أمثال رينيه ديكارت René Descartes (1596-1650) وغوتفريد لايبنز Gottfried Leibniz (1646-1716) ثم همبولدت William Von Humboldt (1767-1835). ومن أبرز ممثلي العقلانية في اللّسانيّات الحديثة اللساني الأميركيّ تشومسكي Noam Avraham Chomsky (1928-   ) صاحب النّظريّة اللّسانيّة المعروفة بالنّحو التّوليديّ.

يرفض العقلانيّون أطروحة السّلوكيّين القائلة بأنّ الإنسان يُولد صفحة بيضاء Tabula rasa، وأنّ المحيط الخارجيّ هو الذي يكسبه هذه اللّغة في إطار ثنائيّة المثير والاستجابة عن طريق التجربة، أو عن طريق التّعلّم بمختلف توجّهاته وطرائقه. ومقابل هذا التّصوّر التجريبي يؤكّد العقلانيّون فرضيّة ما يعرف بالفطريّة Innéisme؛ أي الوجود الأوّليّ للأفكار والبنيات المعرفيّة، ومنها البنيات اللّغويّة عند الإنسان. فالإنسان دون غيره من الكائنات الحيّة يولد مزوّداً ببنية لغويّة، وهي معرفة أوّليّة مستقلّة عن أيّ بيئة؛ تجعله قادراً على اللّغة من دون تعلّم خاصّ. والقول بالفطريّة يعني أيضاً الاستعداد البيولوجيّ الخاصّ عند الإنسان للّغو، مثلما يلاحظ من استعداد خاص للقدرة على الطّيران عند الطّيور أو العيش تحت الماء بالنسبة إلى الكائنات المائية. فقدرة هذه الكائنات على القيام بهذا النوع من السّلوكات التي تنفرد بها تتم على أساس استعداد قَبْليّ؛ من دون تعلّم يُذكر أو تدخّل المحيط. ويؤكّد العقلانيون الطابع الإبداعي للّغة، فكل متكلم يكون قادراً انطلاقاً من موادّ لغوّية محدودة على إنتاج وتأويل ما لا حصر له من الجمل، وهي جمل لم يسبق له أن أنتجها أو فهمها من قبل. كما تؤكّد العقلانيّة مبدأ استقلال اللّغة عن الذّكاء؛ أي عدم وجود أي علاقة عضويّة أو وظيفيّة بين مستوى ذكاء المتكلّم وقدرته على اكتساب اللّغة واستعمالها. فأبلد إنسان يتكلم وأذكى الحيوانات لا تستطيع ذلك (فكرة واردة عند ديكارت في القرن السابع عشر).

إنّ خصوصيّة اللّغة عند الإنسان تتمثّل في كونها خاصّة بالجنس البشريّ، وهو ما يؤكد ضرورة افتراض وجود الاستعداد الأوّليّ للفعل الكلامي بوصفه صفة بيولوجيّة ملازمة للإنسان، بل يمكننا أن نفترض بحسب التصوّر العقلاني أنّ اللّغات الطبيعيّة مهما اختلفت بنياتها الصّوتيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة، فإنها تمتلك

صفات وقواسم مشتركة يطلق عليها الكلّيّات اللّغويّة Les universaux linguistiques. والكلّيّات نوعان: مادّيّة وصوريّة.

تتمثل الكلّيّات المادّيّة في كون اللّغات البشريّة تشترك في بعض الأصوات اللّغويّة من حيث هي مادة وفي بعض الخصائص المميّزة بينها، مثل الشفوية والانفجارية والاحتكاكية. وفي مستوى التركيب، يلاحظ أن كلّ اللغات تتوافر فيها جملة من المقولات، مثل الفعليّة والاسميّة والحرفيّة والوصفيّة. وفي مستوى المدلول، يلاحظ اشتراك اللّغات البشريّة في مجموعة من الخصائص التّصوّريّة المتعلّقة بدلالة كثير من مفردات المعجم أو برؤيا دلاليّة عامّة، مثل المفعوليّة والغاية والحدث والفاعليّة والنسبة وغيرها.

أما الكلّيّات الصّوريّة فتتجلّى في كون اللّغات البشريّة تعرف عدداً مشتركاً من المبادئ الصّوريّة العامّة المتعلقة بتنظيم اللّغات من الناحية الشكليّة، سواء في مستوى الدّلالة، أو مستوى التركيب:

- جميع اللّغات تتوافر بها بنيات سطحيّة وبنيات عميقة.
- جميع اللّغات تلجأ إلى مفهوم التحويل الذي يمكن بواسطته الانتقال من البنيات السّطحيّة إلى البنيات العميقة.

وما تختلف فيه اللّغات هو كيفية تطبيقها لهذه التحويلات بالنسبة إلى الظّواهر الخاصّة بها بحسب طبيعة نسقها التّركيبيّ[26].

ويرفض الاتّجاه الفطريّ إعطاء الأولوية للمحيط الخارجيّ في مسألة تعلّم اللّغة، فالقوانين والمبادئ العامّة المتحكّمة في تعلّم اللّغات هي مبادئ داخليّة؛ أي تأتي من البنية الدّاخليّة للعقل الإنسانيّ نفسه. هذا الموقف لا يعني إطلاقاً إنكار أهمية المحيط ودوره في تعلّم اللّغة واكتسابها، ولكن يعني أنّ دور المحيط ثانويّ، إذ لا بُدّ من الاستعداد الأوّلي للّغو؛ أي القدرة على استعمال اللّغة، ليقوم المحيط بدوره التّفاعليّ في بلورة هذا الاستعداد، وليس العكس كما يقول التجريبيّون الذين يعتبرون أنّ المحيط هو الذي يمدّ الفرد بهذه اللّغة، أو أنّ

(26) Noam Chomsky: *Aspects de la théorie syntaxique*, Paris, Aux éditions du Seuil, 1971/1965.

المحيط هو مصدر كلّ ما لدى الطفل من المهارات اللّغويّة عن طريق التجربة (الاحتكاك ـ تقليد الكبار ـ القياس).

بعض الباحثين يُسمّي هذه الفطرة اللّغويّة **«معجزة غير منتظمة»** وهو ما يردّ عليه تشومسكي بالتّساؤل عن الأسباب التي تجعل العنكبوت قادراً دون سواه على نسج بيته بهذه الكيفية التي تبدو لنا جدّ مثيرة ومعقّدة. إنّ سبب قدرة العنكبوت يرجع بالدّرجة الأولى إلى الفطرة وحدها، أي الاستعداد الأوّليّ الموجود لدى العنكبوت دون غيره من الكائنات ويتمّ هذا من دون تعلّم أو تدخل من المحيط (البيئة)[27].

إنّ اللّغة ليست، بحسب العقلانيّين، سلوكاً تجريبيّاً يكتسبه الطفل نتيجةً لما يقدمه المحيط من مؤثّرات خارجيّة أو نتيجةً لتقليد العبارات اللّغويّة المستعملة التي يسمعها الطّفل، بل إنها صفة بيولوجية ملازمة للإنسان يتميز بها من غيره من الكائنات الحية. ويرى العقلانيّون أنّ المحيط لا يملك أي بنية متجانسة أو أساسية تجعله قادراً على إكساب الطفل نظاماً معقّداً في مستوى اللّغة البشريّة. وليس هنالك قوانين خارجيّة للاكتساب اللّغويّ عند الطّفل، بل تأتي كل القوانين من داخل البنية المعرفية عموماً واللّسانيّة خصوصاً. ومعنى هذا أن كلّ بنية أوّلية مرتبطة بالإدراك، سواء كانت من مصدر بيولوجيّ أو معرفيّ أو لسانيّ، فهي مفروضة من الجهاز نفسه (الاستعداد الأوّلي للّغو) على المحيط وليس العكس[28].

4. التّصوّر التّكوينيّ

يدخل التّفسير التّكوينيّ لطبيعة اللّغة في إطار نظريّة إبستيمولوجيّة عامة تعرف بالإبستيمولوجيا التكوينية Epistémologie génétique التي صاغ أسسها العامّة عالم النّفس السويسري جان بياجيه Piaget. فاللّغة، بالنسبة إلى التّكوينيّة، نشاط

(27) Piattelli-Palmarini: *Théories du langage et apprentissage des langues*, (débat entre Chomsky et Piaget), Paris, Aux éditions du Seuil, 1979.

(28) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:

- Noam Chomsky: *La linguistique cartésienne*, Paris, Seuil, 1969.
- *Théories du langage et apprentissage des langues* (débat entre Chomsky et Piaget), Paris, Seuil, 1979.
- N. Chomsky: *Réflexions sur le langage*, Paris, Maspéro, 1979/1977.

مثل باقي الأنشطة الإدراكيّة والفكريّة والحركيّة عند الإنسان وهو نشاط يتم بناؤه مثل باقي الأنشطة المعرفيّة عند الطّفل عبر مراحل متتابعة. (ومن هنا جاءت تسمية هذه المدرسة بالبنائيّة constructivisme)، وبالتالي فإن البنائيّة تهتم بالعمليّات الإدراكيّة cognition بمفهومها الشّامل عند الفرد؛ الأمر الذي تتجاهله السُّلوكيّة وترفضه لاعتبارات سبق الحديث عنها.

إن اللّغة باعتبارها نشاطاً ذا صبغة إدراكية؛ يتم استخلاصه من مجرى تمثيلات flux de représentation لها عدد من الثوابت invariants التي تشكّل أساس بنية الذّكاء ذاتها. وتتميز هذه الثوابت بخاصّيّتين أساسيّتين:

– الفردانيّة Individuel؛ أي أن كلّ فرد يبني عالمه الخاصّ من خلال نشاط خاصّ به في تلاؤم مع العالم الخارجيّ.

– الكليّة Universels باعتبار كل الأفراد العاديين يقومون ببناء هذه الثّوابت. إلا أن هذه الكلّية ليست مرادفة للفطرية كما يقول بذلك تشومسكي.

ويقدم بياجيه تفسيراً تكوينياً للّغة عند الطّفل. إنها تبنى عبر مراحل متعدّدة قبل أن تكتمل. في هذا الصدد يميّز بين نوعين من اللّغة[29]:

– اللّغة المتمركزة حول الذّات Langage égocentrique

– اللّغة الاجتماعيّة Langage social وهي التي تمثل مستوى اللّغة المكتملة عند الفرد الواعي لما يقول حيث يدور الحوار في سياق عاديّ.

بالنسبة إلى اللّغة المتمركزة حول الذّات وهو مستوى اللّغة عند الطّفل يميّز بياجيه بين ثلاثة أصناف من اللّغو:

– الترديد (مرحلة المناغاة) La répétition (l'écholalie)

– المونولوج le monologue

– (المونولوج) الجماعي le monologue collectif

(29) Jean Piaget: *Le langage et la pensée chez l'enfant*, Paris, Editions Denoël et Gonthier, 4ième Edition, 1984/1923, p. 24 et suivantes.

في الحالة الأولى، يعيد الطّفل كلامه ويكرّره حبّاً وتلذُّذاً بالكلام نفسه، من دون أن تكون هناك نيّة مقصودة في الكلام، أو دافع محدّد له، أو أن يكون للطّفل رغبة أو اهتمام بتوجيه الكلام لشخص آخر.

في الحالة الثّانية، تصاحب كلام الطّفل مجموعة من الحركات اليدويّة لدعم الكلام وتقويته، وأحياناً لتعويض الكلام نفسه، وكأنّ الطّفل في هذه المرحلة يتكلم وهو يفكّر بصوت عالٍ.

في الحالة الثالثة، يتشكل كلام الطّفل من مجموع المواقف التي يكون فيها النّشاط اللّغويّ مشتركاً بين مجموعة من الأطفال، بحيث يظهر الأطفال وهم يتكلّمون فيما بينهم، إلا أنّهم في الحقيقة لا يهتمّون بأن يُسْمعوا من قبل محاوريهم من الأطفال[30].

وقد طوّر بياجيه تصوّره في موضوع اللّغة عبر كتاباته العديدة التي دامت عدة عقود من الزمن. ويمكن القول بأن التّصوّر التّكوينيّ للّغة يقوم على مبدأين أساسيّين:

- أولاً: ليست اللّغة هي السّمة المميّزة للإنسان من غيره من الكائنات، (كما يقول بذلك العقلانيون ديكارت/ نحاة بور رويال ومدرسة النّحو التّوليديّ بزعامة تشومسكي)، بل إن هناك شيئاً أكثر عمومية من اللّغة ذاتها عند الإنسان. إن الكائن البشري يملك ما يسميه بياجيه طاقة إدراكية عُلْيا Capacité cognitive supérieure التي تجعل الفكر التمثّليّ عنده أمراً ممكناً.

- ثانياً: إن اللّغة ليست سوى جزء من التظاهرة الرّمزيّة العامّة التي يعدّها الإنسان في إطار تفاعله مع المحيط الطّبيعي والاجتماعي الذي يعيش فيه. إنّ توظيف هذه الرّمزيّة (ومنها اللّغة) يكون نتيجة استعمال الإنسان لهذه الطاقة الإدراكية العُليا[31].

(30) المصدر نفسه ومن هذا الكتاب قدمنا بكثير من التصرف تصور بياجيه التكويني حول اللغة عند الطفل.

(31) Joseph Leif: *Le langage: nature et acquisition*, Paris, Editions ESF, 1981, p.33-34.

ويرفض بياجيه افتراض تشومسكي المتعلق بالفطريّة؛ لأن وجود نظام قَبْليّ أو بنيات فطريّة أوّليّة بحسب بياجيه، لا يسمح بتفسير عملية اكتساب اللّغة عند الطّفل تفسيراً معقولاً وواقعيّاً. إنّ اكتساب اللّغة لا يتم دفعة واحدة كما توحي بذلك فكرة البنية الجاهزة عند تشومسكي. إن اللّغة ليست جهازاً قائماً بذاته؛ لأن كل جهاز يعني الاكتفاء بذاته وهو ما لا نلاحظه في عمليّة اكتساب اللّغة. وحتّى لو تمّ التسليم بوجود هذا الجهاز فإنّ ذلك يتطلّب الكثير من الوقت أو مراحل معيّنة من النُّضج الفكريّ عند الفرد حتى يتمكّن من استعمال هذا الجهاز(32). إنّ اللّغة عند الفرد (الطّفل) هي أولاً بناء يتمّ ببطء وفي مراحل تكون مرتبطة بمراحل نموّ مدارك معرفيّة وتصوّريّة أخرى لا تقل أهميّة عن اللّغة؛ تتكامل وتتفاعل مع المَلَكة اللّغويّة؛ أي أنّ عملية اكتساب اللّغة وتعلّمها ترتبط بمراحل النّموّ الذّهنيّ والجسمانيّ عند الطّفل. إن تكوين البنيات الإدراكية عند الطّفل يكون بمثابة تكوين الوظيفة الدلاليّة في ربطها بثوابت أخرى (تكوين المفاهيم- الصيّغ الحركيّة- الصور...) ويشكّل الكُلّ ما يسميه بياجيه الوظيفة الرّمزيّة أو السّيميائيّة fonction symbolique/sémiotique وهي الطّاقة التي تمثل أنشطة التمثيل كافّة عند الطّفل (صوَر/إشارات)؛ أي تمثيل المدلولات وتصوّرها (أشياء/وقائع/أفكار) بواسطة دوالّ (إشارة/صورة/كلمة)؛ أي تركيب العلامات واستعمالها.(33) وتظهر الوظيفة السّيميائيّة في المرحلة الحِسّيّة-الحركيّة sensori- motrice عند الطّفل ابتداء من الشّهر الثّامن عشر. وتتمظهر في سلوكات مختلفة:

• التّقليد المحوّل Imitation transférée؛ أي قدرة الطفل على تقليد شيء ما في غياب هذا الشيء؛ وهو ما يعكس قدرة الطفل منذ سنّ مبكرة على تصوّر وجود مسافة بين الدّالّ والمرجع.

• التّخييل: حيث يلاحظ قدرة الطفل الواعية والمقصودة على إسناد معانٍ جديدة إلى معانٍ معروفة:

• الرّسم.

(32) Piattelli-Palmarini: *Théories du langage et apprentissage des langues* (débat entre Chomsky et Piaget), Paris, Aux éditions du Seuil, 1979.

(33) Piaget: *Le langage et la pensée chez l'enfant.*

• الصُّوَر الذّهنيّة.

• القدرة على التّذكّر.

• اللّغة باعتبارها نشاطاً ضمن أنشطة أخرى وظيفتها تقديم معلومات عن أشياء غائبة(34).

5. اكتساب اللّغة

يمكن النظر إلى مسألة اكتساب الطّفل للّغة من زاويتين مختلفتين متكاملتين:

الزّاوية اللّسانيّة (ما تقدمه السّيكولسانيّات على وجه التحديد) والزّاوية النّفسيّة (علم النّفس بصفة عامّة)، إذ بالنسبة إلى اللّسانيّات تكمن مهمة اللّسانيّ في تحديد الصّفات والخصائص التي تتميز بها لغة الأطفال من حيث الصّوت والتّركيب والدّلالة عبر مختلف المراحل والفترات التي تمرّ منها اللّغة عند الطّفل. أما علم النّفس فيبحث مسألة اكتساب اللّغة عند الطّفل كمظهر من مظاهر التّعلّم المعرفي العامّ عنده أو كواقعة نفسيّة مستقلة وقائمة بنفسها أو من خلال إدراك التمثّل النّفسيّ لقضايا المعنى sens والدّلالة signification من خلال اكتساب التّصوّرات عنده. ونظريات اكتساب اللّغة عند الطفل كثيرة ومتعددة، لكننا سنقف عند أهمها في اعتقادنا الشخصي، ألا وهي نظريّة بياجيه التّكوينيّة باعتبارها أكثر واقعية من غيرها، ونظراً إلى ما تميزت بها أعمال بياجيه ومدرسته من شموليّة واستمراريّة في البحث فترة فاقت السّتة عقود من القرن العشرين. ما يهمنا من علم النفس التّكويني عند بياجيه هو بالتحديد مكانة اكتساب اللّغة في علاقتها بالنّمو الذّهنيّ والفكريّ العامّ لدى الطّفل.

فيما يتعلق باكتساب الأصوات من منظور اللّسانيّات يمكن القول بأن فرضيّة

(34) المصادر المتعلقة بنظريّة بياجيه متوافرة بكثرة سواء باللغة الفرنسية أو اللغة العربيّة. وللمقارنة بين التّصوّر الفطريّ عند تشومسكي والتّصوّر البنائيّ عند بياجيه يمكن الرّجوع إلى المناظرة التاريخية التي جرت بين الاثنين حول طبيعة اللغة المشار إليها في هامش 32 ص 38.

ياكبسون[35] تتميّز بكثير من العمق والتّفسير العامّ لظاهرة الأصوات عند الأطفال. فهو يرى أنّ اكتساب الطّفل للأصوات وتطوّر البنيات الصّوتية يتمّان في المراحل التالية:

في بداية الأمر يكتسب الطفل مجموعة من السمات المميزة Traits distinctifs بحسب التسلسل التالي:

- الصوامت Voyelles أ-إ-وْ a-o-i-u
- الصوائت: Consonnes ويبدأها بالتقابلات بين ما هو شفويّ وما هو أنفيّ
- اكتساب الأصوات ذات المقابلة بين ما هو شفويّ وأسنانيّ /p-t/

هذا التّسلسل في اكتساب الأصوات، سواء منها الصوامت أو الصوائت، يكاد يكون كلّيّاً universel؛ أي أنه مشترك بين جميع أطفال العالم مهما اختلفت اللّغات الخاصّة التي سيتكلمونها لاحقاً. كما أن السمات المميزة التي تظهر أولاً عند الطفل هي الأكثر شيوعاً في معظم لغات العالم. أما ما يتعلق باكتساب المفردات فيلاحظ ما يلي:

لا يستعمل الطفل في سنته الأولى سوى مفردات قليلة جداً، بعضها يتضمن معاني، وبعضها لا معنى له، بل هو تقليد أو محاكاة صوتية لكلمات الكبار أو دلالة على أشياء محدّدة مادّيّاً في العالم الخارجيّ. ويزداد عدد هذه المفردات بين السّنة الثّانية والثّالثة، بحيث يلاحظ قيام الطفل بتصحيح بعض المفردات التي كان ينطقها بدون ضبط واكتساب مفردات جديدة. وابتداءً من سنته الرّابعة يصبح عدد مفردات الطّفل حوالي ألف مفردة، ثم يصل هذا العدد إلى حدود العشرين ألف مفردة. وفي كل هذه المراحل، تعرف لغة الطّفل تغيراً كيفيّاً واتّجاهاً واضحاً نحو الاكتمال المعياريّ، بحيث كلما ازداد سنّ الطّفل ونموّه الذّهنيّ، تبدأ الأشكال اللّغويّة عنده تتطابق تدريجيّاً والأشكال اللّغويّة التي يستعملها الكبار[36].

(35) نعتمد في هذا التقديم على كتاب ياكبسون:
Roman Jakobson: *Le langage enfantin et aphasie*, Paris, Editions de Minuit, 1969.

(36) هذه الأرقام نسبيّة وتهم الأطفال المتكلمين بلغات أجنبية مثل الإنكليزية والألمانية، وليس لدينا دراسة حقيقية عن واقع اكتساب اللغة العربيّة الفصحى عند الطّفل العربيّ.

والملاحظ أن الطّفل قبل سنّ العاشرة لا يتحكم كلّيّاً في معاني المفردات من حيث استعمالها وتداولها مع الآخر. فهو مثلاً يفهمها جيداً، ولكنه لا يستعملها في تراكيب الجملة كما ينبغي لها أن تكون. ويستعين الطّفل في استعمال المفردات بالموقف التّواصلي، وبما يكون لديه من معلومات عن الأشخاص الذين يحاورهم أو الموضوعات التي يتحدث عنها.

أما تركيب لغة الطّفل فيتميّز بما يلي:

– في الفترة الأولى من عمر الطّفل إلى حدود الشّهر الثّامن عشر تكون الجملة عبارة عن مفردات متفرقة يربط بينها الموقف التّواصليّ أو الأفكار العامّة التي يقصد الطّفل تبليغها.

– بعد الشّهر الثّامن عشر، يستعمل الطفل كلمة واحدة (ما يسميه علماء النّفس بالكلمة الجملة «one word sentence» «le mot phrase») تكون بمثابة جملة.

– وبعد السّنة الثّانية يصبح في مقدرة الطفل أن يشكل جملة تتكوّن من أكثر من كلمتين.

– بعد الثالثة ينتج الطّفل عادة جملاً أكثر طولاً وذات بنيات محدّدة يلاحظ فيها أن الكلمات التي يبتدئ بها تكون هي بؤرة كلامه والأكثر أهمّيّة بالنسبة إليه.

وبعد هذه الفترة يدخل الطّفل مرحلة لغويّة جديدة يستطيع فيها أن يطابق بين الأسماء والأفعال كاستعماله للمؤنث في محله والمطابقة بين الصفة وموصوفها، لينتقل بعد ذلك لاستعمال صيغ الجمع بكثير من الإتقان. والطّفل في كل هذه المراحل، وحتى بعدها، يمكنه أن يرتكب أخطاءً ما، كأن يلجأ إلى بعض القياسات الخاطئة (بالنسبة إلى الطّفل المغربيّ يجمع كلمة مْرَه/ (امرأة) بِمْرَوَات بدلاً من «عيالات») ومع النّمو الفكريّ وبعض التّصحيح الذّاتيّ المباشر أو من قبل الوسط (العائلة وغيرها) يتوصّل الطفل إلى اكتساب جميع قواعد اللّغة.

ما تتميّز به النّظرية التكوينيّة من السُّلوكيّة والعقلانيّة على السواء، هو أنها تحاول الموافقة بين المعطى المعرفيّ عند الإنسان والمحيط الماديّ الذي يتبلور فيه هذا المعطى، وهي نظريّة في اكتساب المعرفة والتعلّم بصفة عامة، تجمع بين ما هو بيولوجيّ وما هو سلوكيّ عنده. فبياجيه من جهة يرفض الهيمنة المطلقة للبيئة وحدها في تشكيل الظّواهر النّفسيّة وتطويرها، كما تقول بذلك السُّلوكيّة، وهو من جهة ثانية يرفض القول بالبنيات المعرفيّة المُعَدَّة قَبْليّاً مثلما نجد في أبحاث تشومسكي العقلانيّة. إن تصوّر عالم النّفس بياجيه ومدرسته قائم على انسجام بين الماديّ الموضوعي والذّهنيّ الضّمنيّ وتفاعلهما. إن الظّواهر النّفسيّة (ومنها اللّغة) عند الطّفل ليست معطيات ماديّة أو تصوّريّة قائمة بذاتها ومهيّأة كاملة وتامّة ومستقلة بنفسها ومنغلقة، بل إن الظاهرة الواحدة هي نتيجة تكوين وبناء تدريجي يتمّ عبر مراحل Stades تتفاعل فيما بينها وتتكامل في توافق تامّ واتساق مع تكوين وبناء مَلَكات ذهنيّة وفكريّة أخرى عند الطفل على الشكل التّالي:

- **المرحلة الحسّية الحركيّة** Sensori-motrice السّابقة على اللّغة حيث يسود عند الطّفل ما يمكن تسميته منطق الحركات Logique des actions وعلاقات الرّتبة وتداخل الأشكال وتفاعل الأشياء وتقابلها، والأشياء الثابتة، وتنظيم المكان، والسببيّة.

- **مرحلة التّصوّراتية** Stade de la conceptualisation (بين السّنة الثّانية والسّنة السّابعة) وفيها يصبح الطّفل قادراً على تصوّر الحركات؛ أي تمثيل وكشف الوظائف بين مختلف الظّواهر والمطابقة بينها من دون معرفة بجميع حيثيّات الكلام العاديّ.

- **مرحلة الحوار** Stade du dialogue (بين السّنة السّابعة والسّنة العاشرة) وفيها يتمكن الطّفل من التجميع المنطقي للأشياء ولكنه مع ذلك يظلّ مرتبطاً باستعمال الأشياء.

- **المرحلة النهائية** بين السّنة الحادية عشرة والسّنة الثّانية عشرة حيث يتكوّن لدى الطّفل منطق قضوي Logique propositionnelle فرضيّ استنباطيّ مع القدرة على التّنسيق بين المجموعات والأجزاء.

وطبيعي أن المراحل السابقة مراحل متوالية ومتسلسلة بمعنى أنّ المرحلة الواحدة ضروريّة لوجود الأخرى كما أنّها قد تتداخل زمانياً ولو في فترة وجيزة. ووظيفة اللّغة الأساس بالنّسبة إلى تكوينيّة بياجيه هي التّمثيل Représentation. ويرادف هذا المفهوم عند التّكوينيّة مفهوم الفكر أي «كلّ ذكاء لا يعتمد على الإدراكات والحركات فقط»[37].

(37) لمزيد من الاطّلاع على نظريّة بياجيه يمكن الرجوع إلى: جورج إي فورمان: النّظريّة البنائيّة لبياجيه ضمن كتاب: **نظريات التعلم دراسة مقارنة**، عالم المعرفة، عدد 70، تشرين الأول/أكتوبر، الكويت، 1983، ص321-403.
- عبد الستار إبراهيم: **الإنسان وعلم النفس**، عالم المعرفة، عدد 86 شباط/فبراير، الكويت، 1985، ص121-144.



الفصل الثاني

الطّبيعة الاجتماعيّة للّغة

تقديم: اللّغة والمجتمع تحصيل حاصل

إنّ تأكيد كثير من الدارسين على الجانب الاجتماعيّ للّغة أمر أكثر من بديهيّ. فاللّغة مؤسّسة اجتماعيّة بامتياز، بحيث لا يمكن تصوّرها خارج المجتمع كما لا يمكن تصوّر أي مجتمع بدونها. ولا يخفى على أحد أن كل لغة تعكس واقعاً اجتماعيّاً، كما تعكس بوضوح نمط العلاقات الاجتماعيّة القائمة بين أفراد مجتمع معيّن، وهي كذلك تحمل آثار مطابقة للمستويات الطّبقية التي يحياها المتكلمون بها. فهناك لغة الفلاّح ولغة العامل ولغة التّاجر ولغة المثقف...

واعتبر اللّساني الفرنسي أنطوان ميّه Antoine Meillet أبرز اللّغويّين التاريخيّين المتأثّرين بعلم الاجتماع، أنّ اللّغة البشريّة هي أساساً معطى اجتماعيّ في مقام تاريخيّ ثقافيّ مؤكّداً الرّابط العضويّ الوثيق بين اللّغة والثقافة ومختلف الأشكال الاجتماعيّة للشّعب الذي يتكلم هذه اللّغة. وقد اعترض ميّه على تعريف دو سوسير للّغة الذي يقول بأنّها «نظام من العلامات المعبّرة عن أفكار» قائلاً بأنّه تعريف يصبّ كل اهتمامه على الجانب النّسقيّ ولا يعطي أيّ أهمّيّة للإنسان الاجتماعيّ في العمليّة اللّغويّة[1]. ويأسف ميّه لكون سوسير لم يتحدث عن الكلام باعتبار أن اللّسان حقيقة اجتماعيّة ولسانيّة، وواقع اللّسان أنه اجتماعيّ بامتياز.

---

(1) Antoine Meillet: «L'état actuel des études de linguistique générale» *in Linguistique historique et linguistique générale*, Paris, Librairie H. Champion, 1965/1921, p.17.

وقد دافع اللّغويّون الروس (في الحقبة السوفياتية من 1917 إلى 1990) أكثر من غيرهم في القرن العشرين عن الطابع الاجتماعيّ للّغة انطلاقاً من مبدإ فكريّ عامّ يقول بوجود رابط عضويّ بين الماهيّة الاجتماعيّة للّغة ووظيفتها التواصليّة والإخباريّة التي تُحَدَّدُ في النّهاية بالرّجوع إلى الهويّة الاجتماعيّة للوعي الإنسانيّ. كما يمكن أن تُحَدَّدَ كل وظائف اللّغة بوصفها إحدى تظاهرات النّشاط الاجتماعيّ عند الإنسان القائم على الروابط الاجتماعيّة بين الأفراد وفق الشروط المادّيّة الملموسة لحقبة تاريخيّة اجتماعيّة معيّنة. إن اللّغة تعكس الواقع الاجتماعيّ بمختلف معطياته باعتبار الأحداث اللّغويّة مؤشّرات دالّة على الظّواهر الاجتماعيّة نفسها. «**إنّ الإنسان ليس تجريداً ولكنه حصيلة اجتماعيّة**» كما يقول كارل ماركس K. Marx[2]. وفي هذا التّصوّر المادّيّ الماركسي للّغة، فإن المنهجيّة التي يجب أن تُتّبع في اللّسانيّات النّظريّة ينبغي أن تقوم على قاعدتين أساسيّتين أولاهما الطّابع الاجتماعيّ للّغة وثانيتهما عدم التمييز بين اللّغة والفكر[3].

وغير بعيد من تصوّر علماء الاجتماع للّغة، تصوّر علماء الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا الذين يؤكّدون أنّ اللّغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو التّواصل[4]. إنّها حلقة في سلسلة النّشاط المنتظم. إنها جزء من السُّلوك الإنسانيّ؛ وليست أداة تعكس الفكر فقط. إنّ كثيراً من هذه الآراء والتّصوّرات أصبحت اليوم موضوع دراسات ميدانيّة متخصّصة مستقلّة نسبيّاً عن اللّسانيّات ذاتها. يتعلق الأمر باللّسانيّات الاجتماعيّة Sociolinguistique التي تتناول بالتحليل والتفسير علاقة اللّغة بالظاهرة الاجتماعيّة؛ أي دراسة العلاقة أو العلاقات القائمة بين ما هو لسانيّ وما هو اجتماعي. وتهدف اللّسانيّات الاجتماعيّة إلى الكشف عن القوانين أو المعايير الاجتماعيّة المحدّدة للسلوكات اللّغويّة[5].

(2) Groupes d'auteurs: *Questions théoriques de la linguistique*, Publications de l'Académie des sciences de l'URSS, Moscou, 1977, p.6.

(3) المصدر السابق ص6-7.

(4) انظر مثلاً موقف سابير ومالينوفسكي فيما يتعلّق بتحديد اللّغة كنشاط إنسانيّ ديناميكيّ.

(5) J. Fishman: *Sociolinguistique*, Paris, Nathan, 1972/1966, p.19.

وتوجد اليوم جملة أخرى من التّخصّصات الحديثة العهد التي تدرس العلاقة بين ما هو لغويّ وما هو اجتماعيّ نذكر منها:

- علم اللّهجات Dialectologie: ويتناول دراسة اللّهجات وتحديد خصائصها وعلاقتها بالمجتمع وباللّغة الرسميّة.

- الجغرافية اللّسانيّة Géographie linguistique: وتدرس الإطار الجغرافي للسان محدد، أي المجال المكانيّ الذي يتكلّم فيه.

- علم اجتماع اللّغة Sociologie du langage ويدرس الظّواهر اللّغويّة باعتبارها أمارات على ظواهر اجتماعيّة معيّنة مثل: لغة الفئات الاجتماعيّة/علاقة اللّغة بالدين/علاقة اللّغة بالإيديولوجيا.

- الإثنولوجيا اللّسانيّة Ethnologie linguistique وتهتمّ بدراسة لسان معيّن باعتباره تعبيراً عن الثقافة بمفهومها العام كسلوك حضاريّ وعرقيّ وطقوس وممارسات اجتماعيّة خاصّة بعشيرة لغويّة محدّدة.

وواضح أنّ هذه التخصّصات تعرف نوعاً من التّلاقي والاختلاف في موضوعاتها والمناهج المتّبعة لدراستها. ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأنّ اللّسانيّات (النّظريّة أو الخالصة) لا ينبغي لها أن تتميز عن اللّسانيّات الاجتماعيّة ذلك «أن دراسة اللّغة من دون الرجوع إلى السّياق الاجتماعيّ جهد لا يستحقّ العناء» ولو أدركنا نوعيّة وكمّ المعلومات الاجتماعيّة التي يمكن أن نحتاج إليها بوصفها مِهاداً لعلم النّحو لتجنّبنا التصوّرات الخاطئة بأنّ اللّغات أنظمة محكمة كاملة من القواعد مغلقة على ذاتها، وكذلك لو أدركنا أنّ الأحكام الخاصّة بالنّحويّة وأحكام التكوين ودرجة القبول لا تعكس خصائص تراكيب بعينها فحسب، بل تعكس أيضاً الخلفيّة الاجتماعيّة لمن يطلقون مثل هذه الأحكام يستوي في ذلك أن تصدر هذه الأحكام من علماء اللّغة أو من غيرهم[6].

---

(6) د. هدسون: **علم اللغة الاجتماعي**، عالم الكتب، القاهرة، 1990/1980، ص36. ومفاهيم النّحوية وأحكام التكوين ودرجة القبول التي يُشير إليها المؤلف مفاهيم أساسية في النّظريّة التّوليديّة التّحويلية التي صاغها تشومسكي.

2. علاقة اللّغة بالفكر

تقدم لنا التّعريفات النّفسيّة والاجتماعيّة للظّاهرة اللّغويّة وجهاً آخر للّغة أكثر تعقيداً وتداخلاً مع عناصر أخرى، يتعلّق الأمر بعلاقة اللّغة بالفكر. وواضح أنّنا لا نقصد بالفكر التّمثيلات الذّهنيّة أو العقليّة الخالصة للأشياء الموجودة في العالم الخارجيّ فقط؛ أي تبيان الكيفيّة التي يتم بها إدراك الأشياء في العالم الواقعيّ عن طريق اللّغة. لقد عرف الفكر الإنسانيّ منذ اليونان مثل هذه القضايا في إطار ما يعرف بنظريّة المعرفة التي بحثت جوانب كثيرة من هذا الإشكال، كما نجد ذلك في محاورات أفلاطون، لكن العلاقة بين اللّغة والفكر قد أخذت في العصور الحديثة بعداً آخر يتمثل في الوقوف على علاقة اللّغة بالحضارة بمفهومها الشّموليّ للأمة التي تستعمل هذه اللّغة بصفة عامة، والبعد السّوسيو- ثقافي على وجه التّحديد. ولمزيد من التوضيح نعرض في الفقرات التالية أهمّ الأطروحات المعروفة حول علاقة اللّغة بالفكر من الوجهة الثّقافيّة وهي ثلاثة تصوّرات أساسيّة في مجالها يكمل بعضها بعضاً. يتعلق الأمر بتصوّر هيردر وهمبولدت وتصوّر وورف- سابير.

1.2. هيردر Herder: علاقة عقليّة الشّعب باللّغة

اهتمّ المفكرون والفلاسفة ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر بمسألة العلاقة بين اللّغة والفكر من الناحية الاجتماعيّة والثّقافيّة. كان السؤال المطروح هو: **ما تأثير آراء الشّعب في اللّغة وتأثير اللّغة في ذهنيّة الشّعب؟** يتعلق هذا السّؤال العامّ بمعرفة مدى تأثير تفكير شعب معيّن في اللّغة التي يستعملها وتأثير اللّغة في تفكير هذا الشّعب[7]. هذا السؤال وما يماثله من صياغات تصوّرية حول الموضوع نفسه يمكن أن يلخّص من جديد في جملة من التساؤلات التي تقتضي الإجابة عن العديد من القضايا الفرعيّة الهامّة ومنها:

- أولاً: هل اللّغة صورة أم شكل للفكر؟
- ثانياً: هل اللّغة مرآة الشّعب الذي يتكلّمها؟

(7) Adam Schaff: *Langage et connaissance*, Paris, Editions Anthropos, 1969/1964, p.17.

- ثالثاً: من يُحدّد العَالَمَ الخارجيّ اللّغةُ أم الفكرُ؟ وكيف ذلك؟

ينطلق هيردر (1744-1803) من السّؤال-القضيّة الثّاني محاولاً أن يبرهن على أطروحة خاصّة به مفادها إجمالاً أنّ كلّ أمّة تمتلك رؤية خاصّة للعالم الخارجيّ في شموليّته وجزئيّاته تفرضها عليها كيفية تنظيم اللّغة المتكلّم بها. ويتفرّع من هذه القضيّة بدورها سلسلة من التّصوّرات التي حاول هيردر أن يبرهن على أهميتها وصحتها من خلال تحليل معمّق ودقيق لهذه القضيّة، التي اختصرها في مجموعة من العلاقات الأساسية بين مكوّنات القضيّة المعروضة وهي:

- علاقة اللّغة بتاريخ الشّعب.

- علاقة اللّغة بمعرفة العالم.

- علاقة اللّغة بالإيديولوجيا (الفكر بصفة عامّة).

بالنّسبة إلى المسألة الأولى ذهب هيردر إلى القول بأنّ اللّغة حلقة ثابتة في الحاضر تربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل. إن اللّغة بهذا المعنى- بحسب هيردر- مستودع تجارب الأجيال الماضية، ووسيلة للحفاظ على هذا الموروث واستمراره حياً في ذاكرة الأمة. فبواسطة اللّغة يمكننا أن ننقل هذه التجارب والمعارف الماضية أو الحاضرة إلى الأجيال المقبلة.

أمّا بالنسبة إلى المسألة الثانية، فإن اللّغة تُعدّ وسيلة لمعرفة العالم الخارجيّ، إنّها صورة وإطار يحدّدان الفكر. فنحن لا نعرف أفكار الآخرين إلا من خلال لغتهم، بل إنّ وجود الفكر نفسه ليس ممكناً إلا بوجود اللّغة. وكما لا يمكنك معرفة أفكار الفرد إلا من خلال لغته، فإنّه من غير الممكن الوصول إلى أفكار الشعب من دون معرفة لغته؛ لأنّ النّاس يفكّرون كما يتكلّمون، ويتكلّمون كما يفكّرون.

ويذهب هيردر في مسألة العلاقة بين اللّغة والإيديولوجيا إلى القول بأنّنا لا نفكّر إلا من خلال المفاهيم، لأنّ اللّغة هي الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بها أن نحدد كلّ معرفة إنسانية ونضبط محيطها. وفي هذا السّياق يقترح هيردر إبعاد الأفكار التي لا توجد إلا بالكلمات؛ أي عندما نتكلّم أو نعبّر ونحن لا نفكّر في أيّ شيء. لذلك دعا هيردر إلى ضرورة إيجاد لغة مثاليّة لا التباس فيها ولا

غموض بين شكلها ومضمونها. إنّ المطلوب وجود لغة يكون لكلّ شكل معجميّ فيها دلالة واحدة فقط ولكل دلالة واحدة شكل معجميّ واحد فقط.

إن موقف هيردر من طبيعة اللّغة البشريّة والدعوة إلى لغة مثالية يعيد صوغ الأفكار والمواقف التي كان بعض الفلاسفة والرياضيّين الأوروبيّين أمثال باسكال B. Pascal ولايبنز في الحقبة الزّمنية نفسها تقريباً، قد عبّروا عنها بشأن غموض اللّغة الإنسانيّة وعدم قدرتها على التعبير الدقيق الذي تتميز به اللّغة العلمية التي لا التباس فيها.

ولا تزال بعض القضايا التي عالجها هيردر تثير تساؤلات عدد غير قليل من الباحثين والدارسين في اللّسانيّات الأنثروبولوجية وغيرها وهي تساؤلات نظريّة ومنهجيّة نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- إلى أي حدّ يمكن تمحيص هذه الأطروحات والتأكّد منها على أرض الواقع؟ أي كيف يمكن البرهنة على أن اللّغة العربيّة تتفق مع العقليّة العربيّة أو لا تتفق معها؟

- ما قيمة المطابقة بين اللّغة والعقلية على مستوى الإنتاج الأدبيّ أو العلميّ؟

- ما دور اللّغة في التصوّرات التي تملكها هذه اللّغة أو تلك بشأن بعض التخيّلات؟

- إلى أي حدّ يمكن أن نقول بأن اللّغة العربيّة مثلاً هي التي فرضت على العقليّة العربيّة التي تتخيل الجنّ دائماً في صورة رجل له قرنان وذيل، وأن الموت يأتي في صورة شبح رجل يرتدي لباساً أبيض؟

- هل هناك تطابق بين قواعد اللّغة والخصائص النّوعيّة للشّعب الذي يتكلّمها؟

2.2. همبولدت[8] (1767-1835): اللّغة تخلق الأمّة والأمّة تخلق اللّغة

إنّ الرّومانسية والمثاليّة اللتين عبّر عنهما هيردر وردّدهما غيره من كُتّاب

(8) بالنسبة إلى أعمال همبولدت لا توجد حسب علمنا المتواضع ترجمات عربيّة كاملة، هناك بعض الفقرات التي ترجمها أحمد شاكر الكلابي في إطار ترجمته لكتاب أعلام **الفكر اللّغويّ**، ج1، الفصل الثاني عشر، حول همبولدت والتنوع اللغوي، =

ومفكّري ألمانيا خلال القرن الثامن عشر، بلغتا قمّتهما مع ويليام فون همبولدت. إن مواقفه المتعلّقة بعلاقة اللّغة بالأمّة والعقليّة هي في الواقع استمرار لأفكار هيردر السّابقة وتدقيق لها. يقدّم رجل الفكر والسياسة الألماني الفيلسوف ويليام فون همبولدت بعض التّوضيحات بشأن التساؤلات السابقة وغيرها، معيداً صوغها في سؤال أعمّ وهو:

- هل يمكن أن نقول بأن خصوصيّات لغة ما مرآة الأمّة التي تتكلّم بها؟

إن الأمر كذلك بالنسبة إلى همبولدت. فكل لغة تعبير أعلى وأمثل عن الذّهنيّة أو العقليّة الوطنيّة. إنها بالنسبة إلى الشعب بمثابة مرآة تعكس تاريخه وحركاته وأفراحه وهمومه. إنّ أمارات العقليّة (الذّهنيّة) الوطنيّة تظهر جليّاً من خلال اللّهجات والخصوصيّات اللّسانيّة من أمثال وحِكَم. ويؤكد همبولدت أنّ الثقافة تأتي من الشّعب، وأن اللّغة تعبّر وتكيّف ذهنيّة/esprit الشّعب وروحه فيما يتعلق بأهم ما لديه من خصوصيّة ونوعيّة. إن اختلاف اللّغات ينبغي أن يطرح على أساس أنّه اختلاف بين العقليّات. ويبدو أن فهم همبولدت لعلاقة اللّغة بالخصوصيات الثّقافيّة والرّوحيّة لأمّة من الأمم ليس في واقع الأمر سوى امتداد لآراء هيردر السّابقة وتصوّراته لعلاقة اللّغة بعقليّة الشّعب الذي يتكلّمها، بل يمكن القول بأن موقف همبولدت يبدو لنا أكثر تطرُّفاً وأقلّ موضوعيّة.

تتلخّص نظريّة همبولدت في عدد من المبادئ الأساسيّة نذكر منها:

- للّغة شكل داخليّ خاصّ بها مستقلّ عن العالم يحدد إدراك العالم لدى المتكلّم وينظّمه.

= دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص223-240؛ وباللغة الفرنسية يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:

- G. De Humboldt: *De l'origine des formes grammaticales* (1822), (suivi de) Lettre à M. Abel Rémusat, (Sur la nature des formes grammaticales 1827). Bordeaux, Collection Ducros, 1969.

- W. von Humboldt: *Introduction à l'œuvre sur le Kawi*, Paris, Aux éditions du Seuil, 1974/1836.

ويضمّ هذا الكتاب مقالات لهمبولدت وكتابه مدخل للغة الكاوي الذي نشر بعد وفاته سنة 1836.

- استعمال مفهوم الأمّة بدل مفهوم العشيرة اللّغويّة.

- الرؤية المثاليّة في تناول القضايا اللّغويّة.

- استحضار البُعد الاجتماعي-التّاريخيّ (القوميّ سياسيّاً) لمسألة العلاقة بين اللّغة والفكر.

- توظيف مفهوم المجال الحيويّ (نظرة عرقيّة عنصرية).

- الاستغلال السياسيّ لإشكاليّة العلاقة بين اللّغة والفكر من منظور ثقافيّ.

يبتعد همبولدت عن مواطنه هيردر فيما يتعلق بتفسير الاختلافات الحاصلة بين اللّغات. فإذا كان هيردر يردّ اختلاف اللّغات للتغيّرات التي تعرفها الشّعوب أو اللّغات على مستوى الزمان والمكان والبيئة، وما يطرأ عليها من عوامل تغيير، فإن همبولدت يفسّر هذا التغيير بأنه نتيجة اختلاف في العقليّات كما يظهر من استعماله لمفهوم الحيوية الذي يعني القول بوجود شعوب أرقى ذهنيّاً من شعوب أخرى.

ويرى همبولدت أن اللّغة تخلق أو تساعد على خلق تصوّر العالم الخارجيّ؛ لأن هذا العالم لا يمكن معرفته إلا بواسطة اللّغة، وفي غيابها فإنّ وجوده لن يكون سوى تراكم أو سديم. إنّ اللّغة هي التي تجعل من هذا العالم الموجود في ذاته en soi عالماً لنا نحن. إنّ اللّغة تحوّل العالم من عالم موضوعيّ إلى عالم مختلف ندركه بواسطة الفكر. فاللّغة ليست معطى متناهياً ولا جامداً، وإنما هي حركة وصيرورة وطاقة. يقول همبولدت: إن اللّغة في ذاتها ليست بناءً تامّاً Ergon ولكنها نشاط Energeia في مرحلة الإنجاز ولذلك فإن تعريفها لن يكون إلا تكوينيّاً[9].

يقوم تصوّر همبولدت على فلسفة مثاليّة تعتقد بإمكانيّة اللّغة/الفكر في خلق العالم الماديّ وهي مسألة ليس من السهل قبولها أو رفضها بصفة قطعيّة. هذا البعد المثاليّ يدمجه همبولدت في إطار اجتماعيّ تاريخيّ، انطلاقاً من أطروحة سابقة لسلفه هيردر، والمتمثّلة في أنّ معرفة العالم تتمّ من خلال اللّغة وحدها.

(9) W. Von Humboldt: *Introduction à l'œuvre sur le Kawi*, p.183.

ويؤكّد همبولدت المطابقة بين عقلية الشعب واللّغة والتوحد بينهما؛ لأن الشعب يفكر كما يتكلّم ويتكلّم كما يفكر. إن اللّغة تُشَكِّلُ الشعب وتُكَوِّنُه، وهي أساس كل فكر جماعيّ، إنّ هناك تمازجاً بين اللّغة والشّعب، فاللّغة تخلق الشّعب والشّعب يخلق اللّغة(10). ولدعم الطّابع الاجتماعيّ لعلاقة اللّغة بالعقليّة، يؤكد همبولدت على التاريخ وأهميته في اللّغة، وهي مرة أخرى فكرة هيردر المتمثلة في كون اللّغة تعدّ مستودعاً لتجميع تجارب الشّعب وتخزينها. وبهذا المعنى تصير اللّغة عبر تاريخها مرآة جماعية للشّعب الذي يتكلمها، لا لأن اللّغة تسمح بالحديث عن الماضي المشترك فحسب، وإنّما وبالخصوص لأنّها تعكسه بطريقة معيّنة.

ويؤكّد همبولدت بشكل صريح مفهوم الحيويّة(11) محاولاً بواسطته أن يبرهن روحيّاً على التّوحّد Identification بين اللّغة والأمّة والمماثلة بينهما. إن الأمر لم يعد يتعلّق باعتبار دور البيئة مثل المناخ في تشكيل اللّغة (ومن خلالها العقليّة)، بل إن همبولدت سعى جاهداً إلى التّبرير العِرْقي لبيان دور للّغة في تكييف الخصائص الطّبيعيّة والذّهنيّة والعقليّة للشّعوب المعنيّة. إن اللّغة ضرورة وقيد في الوقت ذاته، إنّ لها صورة داخلية Forme intérieure تجبرنا على الحديث بطريقة معيّنة، وعلى تصوّر العالم الخارجيّ من خلال اللّغة ذاتها، وليس من خارجها. إنّ الفرق بين اللُّغات يكمن في اختلاف هذه الصُّوَر الدّاخليّة وخصوصيّتها بالنسبة إلى كل لغة على حدة، وليس في اختلاف الأصوات أو الصيغ الصّرفية أو الألفاظ(12).

من المؤكد أنّ كثيراً من الآراء الواردة في تصوّر همبولدت ــ كما في تصوّر هيردر قبله ــ قد يكون مطابقاً لواقع بعض الثّقافات والعقليّات واللّغات، كالقول بأن اللّغة مرآة لروح الأمة وعقليتها وبأنها ذاكرة للتجارب ومستودع لها ووسيلة لنقل تجارب الماضي إلى الحاضر إلخ... إلّا أن نظريّة همبولدت بأسرها تبشّر

(10) Adam Schaff: *Langage et connaissance*, p. 22 note 1.

(11) سيستعمل هذا المفهوم بكثرة في الأدبيّات الألمانيّة منذ القرن الثامن عشر عند غير همبولدت مثل نيتشه Nietche ليبلغ أخيراً قمة استثماره السياسي عند النازيّة مع هتلر A.Hitler.

(12) W. Von Humboldt: *Introduction à l'œuvre sur le Kawi*, p. 231 et suivantes.

من جهة ثانية بنوع من المذهبيّة العرقيّة حين يشيد بحيوية وديناميكية الشّعب الذي يتكلم الألمانية مقرّاً صراحة بتفوق العنصر الجرماني؛ وبأحقّيته في الحياة قبل غيره من الشّعوب التي تتكلّم لغات غير الجرمانيّة. إنّ «نظريّة همبولدت إذاً في أولى بداياتها وفي مبادئها الأساسيّة نظريّة عنصريّة في جذورها. وحسب ما يرى همبولدت هناك شيء ذهنيّ وآخر روحيّ وثالث عضويّ كلها تختلف باختلاف الأمم (أو الشعوب والأجناس). وهذه الأشياء هي التي تجعل الناس يعبّرون عن أنفسهم بشكل خلّاق بالطريقة التي يقومون بها في الأصل ويستمرّون ضمن حدود معيّنة بفعل ذلك من خلال تاريخهم. وتبدو نظريّة همبولدت في هذا المجال صيغة من **صيغ الحتمية المنصريّة**»[13].

وفي إطار السّياق التّاريخيّ لمفهوم المجال الحيوي، يمكن القول بأن هذا التّصوّر ينمّ عن نظرة عرقيّة شعوبيّة، أو «عنصريّة لسانيّة»، واستغلال سياسيّ مفضوح للمسائل اللّغويّة سواء داخل ألمانيا أو خارجها.

داخليّاً، تعكس نظريّة همبولدت نظرة سطحيّة للعلاقة بين ما هو اجتماعي وما هو وطنيّ قوميّ. إنها نظريّة رسمية تخدم مصالح القادة السّياسيّين وأهدافهم وهي تقدّم الشعب الجرمانيّ المتكلم بالألمانيّة (بروسيا الكبرى) في صورة مثاليّة يتجلى من خلالها الجرمان وكأنهم شعب متجانس في لغته وعقليته التي صاغتها اللّغة لا يعرف أي نوع من الصّراع الطّبقي بين مختلف شرائحه.

وعلى المستوى الخارجي شكّل تصوّر همبولدت خطاباً سياسيّاً موجّهاً لجيران ألمانيا يعلن صراحة أهليّة العِرْق الجرمانيّ وتفوقه على سواه من الأجناس لا في مجال اللّغة فحسب، ولكن في كل المجالات المعرفيّة الأخرى، مما يسمح بتبرير طبيعيّ مزعوم للتوسّع السياسي وسيطرة الجرمان على غيرهم وأهليّتهم في حكم الآخرين. ولا يخفى على أحد أن هذه الفكرة ستكون حاضرة بقوة عند هتلر في الثلاثينيّات من القرن العشرين؛ ناهيك عما ستؤدي إليه من ويلات الحروب وآثارها المدمّرة على إنسانيّة القرن العشرين.

(13) **أعلام الفكر اللغوي**، ج1، مرجع سابق، ص229.

3.2. فرضية وورف ـ سابير[14]

هناك اختلاف بين الآراء السابقة عند هيردر وهمبولدت وما سنعرض له الآن على الأقل من حيث الإطار المنهجيّ العامّ. فقد ظهرت آراء هيردر وهمبولدت حول علاقة اللّغة بالفكر من الوجهة الثّقافيّة والاجتماعيّة، من منظور يغلب عليه الطّابع الفكريّ العامّ يندرج بصفة عامة في ما كان يسمّى بفلسفة اللّغة وتحرّكه أهداف سياسيّة واضحة بحكم طبيعة الظروف التي ظهرت فيها هذه التصوّرات، علاوة على الأدوار الفكريّة والسّياسيّة التي لعبها أصحابها (كان همبولدت وزير دولة).

أما ما يعرف بفرضيّة سابير وورف Sapir-Whorf[15] فهي وإن كانت تعالج

---

(14) Adam Schaff: *Langage et connaissance*, p. 83-131.
وفي هذه الصّفحات تحليل دقيق وعميق لأفكار سابير وورف وعلاقتها بتصورات هيردر وهمبولدت السابقة.

(15) تنسب هذه الفرضية إلى العالم اللّساني والأنثروبولوجي إدوار سابير 1884-1939 تلميذ الأنثروبولوجيّ واللّغويّ فرانز بوعاز، ويُعدّ سابير أحد أقطاب اللّسانيّات الحديثة، وواحداً من أشهر الأنثروبولوجيين في الولايات المتحدة في بداية القرن العشرين. على مستوى اللّسانيّات كان رائداً في صوغ بعض التّصورات التي لم تكن بعيدة عن أفكار سوسير. وقد عرض ذلك في كتابه اللغة (1923) مؤكّداً الطابع اللاّشعوري للّغة وعلاقتها بالنظام الثّقافي في صورته الشّمولية. أما وورف (1897-1941) فتخصّص في الكيمياء من معهد ماستشوستس الشهير في أميركا. تابع دروس سابير ليصبح مساعداً له بجامعة ييل Yale؛ وحاول أن يختبر ميدانياً الآراء الأنثروبولوجية واللّسانيّة التي كان سابير يقول بها في مستوى العلاقة بين اللّغة والفكر. وقد تعامل وورف مباشرة مع اللّغات الهندو أميركية التي يتقن العديد منها. ونعتمد في تقديم آراء سابير وورف على المصادر التالية:

Edward Sapir: *Le langage*, Paris, Payot, 1923.

La linguistique, Paris. Editions de Minuit, 1968.

وهو مجموعة من المقالات التي جمعت بعد وفاته.

Anthropologie, Paris, (collection points), Editions de Minuit, 1967.

Benjamin Lee Whorf: *Linguistique et anthropologie*, Paris, Denoël Gonthier. 1956/1996.

وقد طبع هذا الكتاب بعد وفاته. ويمكن الاقتراب أكثر من آراء سابير وورف بالرجوع إلى ما صدر باللغة العربيّة: =

القضايا نفسها المرتبطة بعلاقة اللّغة بالعالم الخارجيّ وبالمحيط، فإنها تندرج في إطار الأنثروبولوجيا كعلم حديث قائم في ذاته يعتمد التّجربة والوصف المحدّد للأحداث المدروسة وتحديداً دراسة الجانب الثقافي المتمثّل في العادات والتّقاليد والعلاقات الاجتماعيّة وتصوّرات الزّمان والمكان وموضعة الأشياء في العالم الخارجيّ عبر اللّغة. يقول سابير: «الدراسة المشاكل الجوهريّة في الثّقافة الإنسانيّة؛ فإن معرفة الآليات اللّسانيّة السانكرونيّة والدياكرونيّة تكشف أهمية متزايدة كلّما كان السُّلوك الاجتماعيّ أكثر تعقيداً. إن اللّغة دليل رمزيّ على الثقافة»[16]. إلا أن هذا لا يعني أن سابير وورف لم يتعرفا إلى آراء أسلافهما. فقد أقرّ سابير أنه اطّلع على آراء همبولدت[17].

وإذا كان هيردر وهمبولدت وغيرهما من الفلاسفة والمفكرين يحيلون في تحليلاتهم على لغات معيّنة هي اللّغات الهندو-أوروبيّة عامّة والألمانية خاصّة؛ أي لغات ذات حمولة ثقافيّة وحضاريّة محدّدة ومعروفة في الزّمان والمكان، فإن سابير وورف ومن حذا حذوهما يعتمدون في تصوّراتهم وأبحاثهم الميدانيّة على معطيات من لغات طبيعيّة تختلف شكلاً ومضموناً عن اللّغات الأوروبيّة. إنّ تعاملهم المباشر وممارستهم للغات جديدة مثل لغات الهنود الحمر في أميركا ليس لها أي بعد حضاريّ أو ثقافيّ معروف هو الذي قادهم إلى هذه التّصوّرات الجديدة. لاحظ سابير أنّ اللّغات الهنديّة الأميركيّة أي لغات شعوب أميركا تقدّم تصوّراً للعالم الخارجيّ يختلف كلياً عن التصوّر الذي تقدّمه اللّغات الهندو-أوروبيّة تصبح معه ترجمة بعض النّصوص من هذه اللّغات من باب المستحيل.

إذا كان هيردر وهمبولدت قد فسّرا العالم الموضوعي (الخارجي) تفسيراً

= - **أعلام الفكر اللغوي** لمجموعة من المؤلفين، ج2، الفصل الأول: سابير ص21-41، الفصل الرابع، وورف: ص81-100، ترجمة أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2006.
- سعيد الغانمي: **اللغة والخطاب الأدبي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1993. في هذا الكتيّب مقالتان لسابير: مدخل للتعريف باللغة (ص7-28) واللغة والأدب (ص 29-40) مترجمتان عن كتاب سابير: **اللغة**، الصادر سنة 1923.

(16) Edward Sapir: *La linguistique*, p. 135.

(17) Adam Schaff: *op.cit.*, p. 90.

مثاليّاً ورومانسيّاً، فإن تفسير سابير يسير في اتجاه آخر؛ حيث يقدم نظرة مادّيّة صِرفة مؤكّداً علاقات التفاعل بين اللّغة والثقافة والواقع. يرى سابير أن اللسان يتكوّن في العالم الخارجي ليؤثّر بعد ذلك في الطّريقة التي يتصوّر بها المجتمع العالم الخارجيّ (الواقع). بمعنى آخر، يبقى العالم المادي موجوداً سواء عاش فيه الإنسان أم لا، وسواء تصوّره عن طريق اللّغة أو لم يتمكن من تصوّره. إن اللّغة تنظم بشكل كبير جميع تفكيرنا مُسَاهِمَةً بذلك في تكييف طريقة تصوّرنا لهذا العالم الموضوعيّ[18].

وفي هذا الصدد يقدم سابير تعريفاً خاصّاً به للّغة بنى على أساسه تصوّره الخاص للعلاقة بين اللّغة والمجتمع. إنّ اللّغة في نظره «أكثر من تقنية بسيطة للتواصل»[19]، إنّها أداة قوية للتّنشئة الاجتماعيّة Socialisation في استقلال عن الوظيفة الحرفيّة للوظيفة[20]، بل إنها بحسب تعبير سابير نفسه «قوة للتّنشئة الاجتماعيّة والوحدة وهي أقوى العناصر المساهمة في نموّ الفردانية»[21]. فنحن البشر لا يمكن أن نوجد خارج المجتمع[22] إذ إنّ العلاقات الاجتماعيّة لا يمكنها أن توجد من دون هذه الأداة[23]. ويستنتج سابير من كل هذه المسائل، أنّ اللّغة هي الدّليل القاطع على التضامن الذي يجمع بين مستعملي اللّغة نفسها. «إنّ اللّغة ـ يقول سابير ـ أداة قوية للتّنشئة الاجتماعيّة، وبدون شكّ الأقوى، ونحن لا نريد أن نقول بأنّ العلاقات الاجتماعيّة الواقعيّة لن توجد إذا لم توجد اللّغة، لكننا نريد أن نؤكد أنّ امتلاك لسان ما يشكّل بالخصوص علامة قوية على التضامن الاجتماعيّ تربط بين أفراد المتكلمين بهذا اللسان». ووصل به هذا الاستنتاج مثل سابقيه هيردر وهمبولدت إلى أن اللّغة تلعب دوراً حاسماً وأوّليّاً في تجميع الثقافة وتخزينها، لنقلها بعد ذلك إلى الأجيال المقبلة.

أما وورف فيذهب مذهب همبولدت مؤكّداً أنّ العالم الخارجيّ دونما تدخُّل

---

(18) Ibid, p. 60.
(19) Ibid, p. 43.
(20) E. Sapir: *La linguisrique*, p. 42.
(21) Ibid, p. 44.
(22) E. Sapir: «La parole en tant qu'élément de personnalité» *in Anthropologie*, p. 5.
(23) E. Sapir: *La linguistique*, p. 42-43.

النّظام اللّغويّ (اللّغة) ليس إلا فوضى وتظل معرفته مرتبطة باللّغة. إنّ العالم الموضوعيّ يوجد فعلاً، ولكن ليس من الممكن إدراكه علميّاً لأن معرفته دون اللّغة[24]. وتأثير هذه النّماذج اللاشعوريّة وعلى رأسها اللّغة له أثر كبير وعميق في سلوكنا الاجتماعي[25] وعبر كتاباته العديدة التي حُرّرت بأسلوب واضح يفهمه جميع القراء وليس فقط كبار العلماء وذوي الاختصاص، فإن سابير ظلّ يعيد تأكيده على دور اللّغة الفعّال وتأثيرها في المحيط الاجتماعيّ والثقافيّ. ولعلّ في النّصّ التّالي ما يؤكد وضوح رؤية سابير لهذه المسألة التي لم تكن عابرة أو مرتبطة بحسابات نظريّة ومنهجيّة فقط وإنما كانت قناعات شخصية. يقول سابير: «اللّغة دليل على الواقع الاجتماعيّ، فاللّغة تكيّف بقوّة كل فكرنا حول التشاكل والسيرورات الاجتماعيّة. إنّ الأفراد لا يعيشون في عالم موضوعيّ ولا في عالم النّشاط الاجتماعيّ بالمعنى العاديّ لهذه العبارة، ولكنهم يخضعون بدرجة كبرى لمتطلبات اللّسان الخاصّ الذي أصبح وسيلة للتعبير عن مجتمعهم. وليس صحيحاً الاعتقاد أنه بالإمكان الاتصال بالواقع دون اللجوء إلى اللّغة. في الواقع، إنّ العالم الواقعيّ في جزء كبير منه، قائم لاشعورياً على عادات لسانيّة للمجموعة. لا يوجد هناك لسانان متطابقان تماماً ليمكن أن نعتبرهما تمثيلاً للوقائع الاجتماعيّة نفسها. إنّ العوالم التي تعيش فيها جميع المجتمعات هي عوالم منفصلة وليست عالماً واحداً فقط تحت أوْسام مختلفة»[26].

وقد حاول وورف أن يجد في لغات الهنود الحمر التي كان يتقنها ما يدعم بالملموس أفكار وقناعات أستاذه سابير. وقد حصل له هذا عبر تحليله الدّقيق لبنيات اللّغات الهندو ـ أميركية كاشفاً بذلك عن دور اللّغة في تحديد العالم الخارجيّ وإدراكه. ويتفق وورف وسابير على افتراض أساس مفاده أنّ المعرفة التي يملكها شعب ما عن العالم تحدد بالنسبة إلى لغته؛ أي أنّ تصوّر العالم الخارجيّ لا يمكنه أن يتمّ إلاّ عبر اللّغة وبواسطتها. فاللّغة تساهم بشكل فعّال في خلق التّمثيلات التي يملكها الأفراد عن العالم الخارجيّ في إطار حضاريّ معين،

(24) B. L. Whorf: *Linguistique et anthropologie*, p. 12.
(25) E. Sapir: *Anthropologie*, p. 40.
(26) E. Sapir: *La linguistique*, p. 134.

وفق الشروط الماديّة الخاصّة بكل مجتمع، وهو ما يؤكد الدور الطليعي الذي تلعبه اللّغة في حياة الأفراد والمجتمعات والثقافات، بل حتى في تصوّر الأنماط الفكرية الراقية مثل التفكير العلميّ. إن التصوّرات التي تزودنا بها الثقافة الغربيّة عن الآخر باتت في حاجة إلى إعادة نظر، فإذا كانت الثقافة تنظيماً للمجال البيئيّ والأحاسيس ورؤية الأشياء وموضعتها في العالم الخارجيّ، وعلاقة المتكلم بكل هذا، قرباً وبعداً، ألفة وغرابة، فإن ذلك لا يمكن أن يتمّ إلا من خلال اللّغة وبواسطتها. وفي هذا السياق يدعو وورف إلى ضرورة التخلّي عن الأحكام الجاهزة أو المسبقة عن الحضارات الأخرى «إنّ إحدى المراحل المقبلة بالنسبة إلى الفكر الغربيّ تكمن في إعادة النظر في خلفية تفكيره، بل في خلفية أي تفكير»[27]. إنّ النّظرة الأحادية البعد التي يمارسها الغرب في رؤيته للآخر على المستوى الحضاريّ يجب أن يعاد فيها النظر؛ لأنها ليست شموليّة، «فالثقافة الغربيّة قامت، من خلال اللّغة بتحليل مؤقّت للواقع وفي غياب أيّ تصحيح، فإنها تعتبر هذا التحليل نهائيّاً»[28]؛ ذلك أن ما يسمّى بالفكر العلميّ pensée scientifique ليس إلا تخصيصاً للّسان الهندو ـ أوروبيّ من النوع الغربي الذي ولّد ليس مجموعة من الجدليات dialectiques المختلفة فقط، وإنما خلق لهجات[29] قارب من خلالها الغرب ما يعتقد أنّه الحقيقة والموضوعيّة؛ لأنّ جدلية العلوم تثبت في القالب الصّرف لبعض البنيات اللّسانيّة غالباً ما تغرس في موادّ الثّقافة الهندو ـ أوروبيّة التي نبعت منها كل العلوم[30]. إنّ التصحيح الوحيد الذي يتعيّن أن يقوم به الفكر الغربي لتجاوز هذا الوضع يكمن في أن جميع الألسن الأخرى (غير الألسن الهندو ـ أوروبية) بعد آلاف السنين من التّطور المستقل وصلت هي الأخرى إلى تحليلات مختلفة ولكنها منطقيّة (معقولة) أيضاً[31]. فمن ناحية التّحليل النّحويّ الصّرف، فإن تطبيق مبادئ التحليل المتبّع بالنسبة إلى الألسن

(27) B. L. Whorf: *Linguistique et anthropologie*, p. 185.
(28) Ibid, p. 180.
(29) Ibid, p. 184.
(30) Ibid, p. 184.
(31) Ibid, p. 180.

الهندو ـ أوروبيّة كتحليل الجملة إلى موضوع ومحمول لا يصدق بالنسبة إلى الألسن الهندو ـ أميركية، ففي لغة مثل النّوتكا يكون إسناد محمول ما بمثابة تكوين الجملة برمتها التي لا يمكن تقسيمها إلى أجزاء للدلالة على الموضع أولاً ثم المحمول ثانياً، بل إنّ الجملة الواحدة البسيطة تعبّر عن مجموعة من العمليات أو الوقائع[32].

يعتبر سابير أنّ معجم لغة Lexique معيّنة هو المنظّم المركزيّ لتجربة الشعب الذي يتكلم اللّغة. فالعلاقة بين التجربة والتّصوّرات الخارجيّة لا تتعدى إطار المعجم، ولا علاقة لها بالأنساق اللّغويّة الأخرى (كالتّركيب والصّرف والصّوت). إنّ عنصر المعنى في صورته المعجميّة هو وحده الذي يجعل اللّغة خاضعة للثّقافة. ومعنى هذا، أنّ تطوّر الثقافة وتطوّر اللّغة لا يسيران بالضرورة بشكل متوازن ومتساوٍ. وليس من الممكن أن تكون بينهما علاقة سببية (cause à effet)؛ لأن اللّغة تتطور ببطء إذا ما قيست بتطور الثقافة[33].

يُطلق كثير من الباحثين على آراء كلٌ من وورف وسابير اسم النّظريّة اللّسانيّة النّسبيّة Linguistique relativiste أي أن كلّ لغة هي رؤية خاصّة للعالم الخارجيّ. إنّ معرفة العالم الخارجي ليست معطاة كليّاً وموضوعيّاً باستقلال عن الأفراد والمجتمعات، ولكنها تتحدّد من خلال كيفية تصوّر اللّغة لهذا العالم الخارجي. إنّ إدراك العالم الخارجيّ يظل مرهوناً باللّغة المتكلّم بها، وذلك بحسب قدرة كل نسق لغويّ على تصوّر هذا العالم الخارجيّ. ويعرف تصوّر وورف وسابير أيضاً بالحتميّة اللّسانيّة détérminisme linguistique باعتبار أن اللّغة هي التي تحتّم علينا تحديد الفكر وتقدم لنا بالضرورة هذه الصورة عن العالم الخارجيّ وليس تلك.

لكنّ هذه التصوّرات على أهمّيّتها وجاذبيّتها الفكريّة، تطرح عدة تساؤلات. إنّ تصوّر وورف وسابير يفترض عدم إمكانيّة وجود عدة شعوب مختلفة تتكلم اللّغة نفسها. لكن كيف نفسّر أنّ شعوباً مختلفة لا تتكلم اللّغة نفسها يكون لها رؤى موحّدة للعالم الخارجيّ، وأنّ كثيراً من الشعوب التي تتكلم لغة واحدة ليس لها الرؤية نفسها للعالم الخارجيّ؟

(32) Ibid, p. 176.

(33) E. Sapir, *La linguistique*, p. 75 et p. 81; Paris, Editions de Minuit, 1969/1956.

الفصل الثالث

التّعريف السّيميولوجيّ للّغة

1. اللّسانيّات والسّيميولوجيا

ينظر علماء السّيميولوجيا إلى اللّسان La langue[1] في أبسط تعريف له على أنه «نظام من العلامات المعبّرة عن أفكار»[2]، وإذا أمعنّا النّظر في هذا التّعريف نجد أنفسنا مضطرّين مبدئيّاً لإدماج اللّغة البشريّة le langage في عدد كثير من الأنظمة التي لها الطّابع التّواصلي نفسه المتمثّل في نقل معلومات معيّنة أو التعبير عنها بكيفيّة أو بأخرى مثل: الكتابة وأبجديّة الصمّ البكم وقانون السير وقانون الملاحة البحريّة وشيفرة مورس Morse ودليل الخرائط والرّسوم البيانيّة ونظام الاتّصال السّلكي واللاّسلكي واللّغات الإعلاميّة والبرمجيّة واللّغات الاصطناعيّة من لغة المنطق والرّياضيّات ولغة الطّيور والنّمل ولغة الحيوانات ولغة الورود والعيون والطّقوس الدينية وكل أشكال الآداب والمجاملات، فهذه جميعها أنظمة تواصل بالاصطلاح والعرف ووظيفتها الأساس «نقل أفكار بواسطة رموز».

يقترح سوسير لدراسة هذا النّظام التّواصليّ العامّ القائم على العلامات signes علماً جديداً يسميه السّيميولوجيا Sémiologie تكون وظيفته «دراسة

---

(1) نخصص مصطلح لسان لنقابل به مفهوم La langue عند دو سوسير، بينما نستعمل مصطلح اللّغة لمقابل لمفهوم Le langage. حول ضبط هذين المفهومين يمكن الرّجوع إلى الفصل المتعلق بمادة اللّسانيّات وموضوعها.

(2) F. de Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 34, Paris, Payot, 1974/1916.

العلامات في حضن المجتمع». يقول دو سوسير: «يمكننا أن نتصوّر علماً يدرس حياة العلامات داخل المجتمع سيشكل جزءاً من علم النّفس وبالتّالي من علم النّفس العامّ سنسمّيه السّيميولوجيا»(3) وقد اعتبر سوسير أن اللّسانيّات بوصفها دراسة علميّة للّغة ليست سوى جزء من السّيميولوجيا باعتبارها دراسة العلامات والرموز بصفة عامة، وبالتالي فإنّ القوانين العلميّة التي ستكشف عنها السّيميولوجيا ستطبّق أيضاً على اللّسانيّات.

أما رولان بارت R. Barthes فقد عكس العلاقة التي أشار إليها سوسير بين اللّسانيّات والسّيميولوجيا معتبراً أنّ السّيميولوجيا جزء من اللّسانيّات، لأنّ كلّ نظام تواصليّ غير لغويّ، لا يمكنه أن يكون إلّا لغة langage. وعلى هذا الأساس، فإنّ المطبخ والأزياء والإشهار والسينما أنظمة لا يمكن التعبير عن طبيعتها السّيميولوجيّة إلا بواسطة اللّغة. يقول رولان بارت «من المؤكد أنّ الأشياء والصّور والسُّلوكات يمكنها أن تدل على [شيء ما] وهذا ما تفعله بكثرة، ولكن ليس ذلك أبداً بشكل مستقلّ. إن كل نسق سيميولوجيّ يمتزج باللّغة. فالعديد من الأنظمة السّيميولوجيّة لا يمكنها أن ترقى إلى مستوى الأنساق مروراً باللّسان. ومن الصعب أن نتصوّر نظاماً من الصّور أو الأشياء يمكن لمدلولاتها أن توجد خارج اللّغة. يجب أن نتقبّل منذ الآن إمكانية عكس اقتراح سوسير يوماً ما، إن اللّسانيّات ليست جزءاً ولو كان متميزاً لعلم العلامات العامّ. إنّ السّيميولوجيا هي الجزء من اللّسانيّات الذي يتكفّل بالوحدات الكبرى الدّالّة في الخطاب»(4).

ويعرّف بويسنس Buyssens السّيميولوجيا بأنها «دراسة الإجراءات التّواصليّة، أي الوسائل المستعملة للتّأثير في الآخر والمنظور إليها بهذه الصفة من طرف من تريد التأثير فيه»(5).

ولم يحدد سوسير في المحاضرات ما يميز اللّسان من غيره من أنظمة

(3) F. De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 34.

(4) Roland Barthes: «*Eléments de sémiologie*», in *Communications*, n°4, Paris, Aux éditions du Seuil, 1966, p. 2.

(5) إريك بويسنس: السّيميولوجيا والتّواصل، الناشر مجموعة البحث في البلاغة والأسلوبية، 2005، الدار البيضاء. (ترجمة جواد بنيس)، ص14.

التّواصل. وتولى البحث في الموضوع كثير من اللّسانيّين من بينهم الأرجنتينيّ لويس بريتو L. J. Prieto، وإيريك بويسنس ورولان بارت الذين جعلوا من البحث السّيميولوجيّ مجالاً معرفيّاً هامّاً، كان له الأثر الكبير في الدّراسات الأدبيّة وغيرها. لكنّ علماء السّيميولوجيا مختلفون حول هذا الموضوع. ولعلّ ما قاله اللّسانيّ الفرنسيّ أندريه مارتينيه André Martinet يستحق كل الاهتمام النظري(6): «إن لفظ لسان يجب أن يحتفظ به للدّلالة على كل أداة للتواصل المتلفّظ ازدواجيّاً». ويعد التلفظ المزدوج double articulation في نظر مارتينيه، حدّاً فاصلاً بين اللّغة البشريّة وغيرها من أنظمة التّواصل. يقول مارتينيه عن هذه الخاصّيّة النّوعيّة للّغة البشريّة: «إذا اعتبرنا التّلفظ المزدوج نواة مركزيّة، وباقي الخصائص مميزات نوعيّة هامشيّة، فإننا بهذا المفهوم نجعل اللّسان في مأمن من جميع أشكال التّواصل المبهمة التي لا يمكن إخضاعها للتّقطيع المزدوج». ومع ذلك، فإن التعريف السابق للّسان la langue يدفع إلى طرح العديد من الأسئلة المهمّة المتعلّقة بطبيعة اللّغة البشريّة le langage كما نتداولها. ومن بين هذه الأسئلة:

- كيف يمكن التمييز بين ما هو لغويّ، وما هو غير لغويّ؟
- إذا كان اللّسان نظاماً من العلامات، فهل يكون كلُّ نظام من العلامات لساناً؟
- ما السمات المميزة للّغة البشريّة من غيرها من الأنظمة التّواصليّة؟
- ما السمات المشتركة والمختلفة بين مجموع هذه الأنظمة؟
- هل تدخل لغة الحيوانات في إطار السّيميولوجيا؟
- هل نعدّ كلّ نظام من العلامات ذات العلاقة الاعتباطيّة لساناً يدخل في مجال البحث اللسانيّ؟

استعملت كلمة السّيميوطيقا عند الغربيّين في البداية عند جون لوك John Lock (1632-1704) سنة 1690 حين حدّدها بأنها معرفة العلامات، وهو المعنى الذي كانت تدل عليه الكلمة في العصر اليونانيّ تقريباً «ترتيب علامات في

(6) A. Martinet: *Langue et fonction*, Paris, Denoël Gonthier, 1969, p. 43.

الفكر». وفي العصر الحديث أحيا المصطلح نفسه الفيلسوف والرياضيّ الأميركيّ تشارلز ساندرز بيرس C.-S. Peirce (1874-1914)، الذي أطلق مصطلح سيمياء Semiotic على «علم العلامات» وعرّفها بأنها نظريّة للعلامات أو النّظريّة العامّة للتّمثيل. يقول بيرس: «إنّ المنطق في معناه العامّ ليس إلا اسماً للسّيميائية وهي التّعاليم شبه الضّروريّة أو الصّوريّة للعلامات»[7]، وبالتالي فإن التسمية الإنكليزيّة Semiotic هي مقابل اللفظ الفرنسيّ Sémiologie الذي وضعه سوسير. وليس المنطق بمفهومه العام عند بيرس إلا اسماً آخر للسّيميوطيقا. إنّ السّيميوطيقا نظريّة شبه ضروريّة أو نظريّة شكليّة للعلامات «تقوم عنده برصد طبيعة العلامات بكيفية مجرّدة وعامّة». وفي هذا الإطار كان تقسيم بيرس للعلامة ومكوّناتها الأساس وهي المصوّرة Représentation والرّكيزة Grund والمفسّر Interprétant والموضوعة Objet. وتمكّن بيرس[8] من تقديم تشريح عميق للعلامات في مختلف جوانبها التّصوّرية والإدراكيّة بكيفيّة شاملة قلّ نظيرها في كتابات سيميائية أخرى.

وانطلاقاً من أفكار بيرس، حاول شارل موريس Charles Morris في بداية القرن العشرين وضع نظرية عامة للعلامات بكل أشكالها وصورها وتجلّياتها المختلفة عند الكائنات الحيوانيّة أو البشريّة، سواء كانوا فرادى أو جماعات، أصحّاء أو مرضى، وسواء أتعلق الأمر بالعلامات اللّغويّة أو بالعلامات غير اللّغويّة. وعُمّم مصطلح السّيميوطيقا ليشمل في النّصف الثّاني من القرن العشرين كل ما له علاقة بوظيفتّي التّواصل والتّعبير مثلما هو الشّأن عند سيبوك Sebook. واعتبر إيكو Umberto Eco[9] أنّ مجال الدّراسات السّيميائية العامّ يشمل سائر الظّواهر الطّبيعيّة والثّقافيّة عند الإنسان باعتبارها علامات تقوم في عمقها على التّواصل.

وتلجأ بعض الأدبيات الفرنسيّة إلى استعمال مصطلح Sémiotique للجمع

(7) C.-S. Peirce: *Ecrits sur le signe*, Paris, Aux éditions du Seuil, 1978, p. 120.

(8) للمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى:

C.-S. Peirce: *Ecrits sur le signe*, p. 120-191.

(9) Umberto Eco: *La structure absente*, Paris, Mercure de France, 1972, p. 14-35.

بين التسميتين، مع توسيع مجال البحث في علامات التعبير أيّاً كانت طبيعتها بدءاً مما هو تعبير تلقائيّ وعفويّ إلى ما يتطلب إعمال الفكر والذهن عن طريق تقنيّات البيان والصّور الفنّيّة كما هو الحال في الآداب والفنون. وقد سارت الدّراسات السّيميائية الحديثة في اتّجاهين بارزين انفرد كل منهما بمستوى معيّن من دراسة الوقائع السيميائية، وهذان المستويان هما:

- مستوى أنطولوجيّ يتعلق بدراسة ماهيات الأحداث السّيميولوجيّة من حيث وجودها الطّبيعيّ وعلاقاتها بالموجودات الأخرى التي تشبهها أو تختلف معها. ويعتبر بيرس أبرز من دشّن الدّراسة العلمية الحديثة لهذا المستوى.

- مستوى إجرائي يهتمّ بدراسة فاعليّة العلامات اللّسانيّة ووظيفتها في الحياة العامّة؛ أي دراسة العلامات في عمليات الاتّصال ونقل المعلومات. ويعدّ سوسير أبرز من بدأ دراسة هذا المستوى في إطار ما أسماه بالسّيميولوجيا التي حدّد موضوعها في دراسة حياة العلامات في حضن المجتمع. وتلتقي سيميائيّات سوسير وبيرس في مبدأين أساسيّين هما(10):

• ليس هناك فكر بدون علامات؛ أي بدون مساعدة العلامات اللّسانيّة التي تقوم بنقل هذا الفكر. و بدون العلامات لن يكون بمقدورنا أن نميّز بين فكرتين بكيفيّة واضحة وثابتة.

• القول بأنّ ليس في اللّغة إلا الاختلاف Différence، فالعلامة القائمة بنفسها أو المستقلة بنفسها غير موجودة، وإنما هي موجودة بالقياس على غيرها مما يوجد معها. وهذا المبدأ يمكن أن يطلق عليه مبدأ النفعية Pragmatisme.

2. الوقائع السّيميولوجيّة les faits sémiologiques

يميّز في مجال السّيميولوجيا بين الأنماط التّواصليّة اللّغويّة وغير اللّغويّة (الوقائع السّيميولوجيّة) التّالية(11):

---

(10) Deladelle: *La théorie du signe de Peirce*, Paris, Payot, p. 40.

(11) لتفاصيل أكثر حول مجمل الوقائع السّيميولوجيّة التي تدرسها السّيميائيّات يمكن الرّجوع إلى:
=

- **الأمارة** Indice/index: أو ما يطلق عليها أيضاً (المؤشر) التّلقائيّ[12] وهي واقعة أو حدث سيميائيّ يعبّر لاإرادياً عن فكرة مباشرة أو يبلّغ رسالة message يمكن إدراكها مباشرة مع عدم النّيّة في التّواصل/الإخبار information.

الأرض مبللة ←———— أمارة على سقوط المطر

وهي في نظر لويس بريتو ثلاثة أنواع[13]:

• أمارة تلقائية indice spontané ويعرّف بريتو الأمارات بأنها «الأحداث التي تقدم إشارات دون أن تكون قد أنتجت لهذه الغاية، أو أن الأمر يتعلق بأحداث طبيعيّة، أو أنها أحداث أنتجها الإنسان بكيفيّة لاإراديّة، أو لغاية أخرى غير غاية الإشارة إلى أي شيء»[14].

• أمارة تلقائية مفتعلة indices faussement spontanés

• أمارة قصدية indices intentionnels

- **العَرَض** symptôme (الجمع أعراض)، وهو علامة تعتبر جزءاً من

=
- U. Eco: *La structure absente*, Paris, Mercure de France, 1972, p. 172 et suivantes.
- Alain Rey: *Théories du signe et du sens*, Lectures 2, Paris, Klincksiek, 1976, p.13-38.
- Bernard Toussaint: *Qu'est ce que la Sémiologie*, Toulouse, Privat, 1978, p.32-59.
- بالنسبة إلى تعريف هذه الأحداث السّيميولوجية عند بيرس يمكن الاطّلاع على ما جاء في:
- سيزا قاسم: **السّيميوطيقا حول بعض المفاهيم والأبعاد**، ص26-34؛ تشارلز بيرس، **تصنيف العلامات**، ص137-143، ترجمة فريال جبّوري غزول ضمن مدخل للسّيميوطيقا، ج1، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، منشورات عيون، الدار البيضاء، المغرب، 1986.

(12) إريك بويسنس: **السيميولوجيا والتّواصل**، ترجمة جواد بنيس، الناشر مجموعة البحث في البلاغة والأسلوبية، الدار البيضاء، 2005، ص5، 20.

(13) Louis Preito: *Pertinence et Pratique: Essais de sémiologie*, Paris, Editions de Minuit, 1975, p. 15.

(14) Ibid, p. 15-16.

المدلول عليه، أي المرجع الموجود في العالم الخارجي: حُمّى المريض دلالة على وجود تعفن بالجسم. ولا وجود في العرض للعلاقة بين الدّالّ والمدلول.

- **الإشارة: Le signal**: حدث سيميائيّ مرتبط بلحظة زمنيّة معيّنة يعبر إراديّاً عن رغبة في التّواصل. وتنعدم العلاقة بين ما ترمز إليه الإشارة والواقع: حين نكون على شاطئ البحر، يشكّل رفع العَلَم الأحمر إشارة إلى خطورة البحر (الرسالة: انتبهوا السباحة خطرة)، أما العَلَم الأسود: فيشير إلى كون السباحة ممنوعة. ومعلوم أن تحريك الأعضاء مثل اليد والرأس إشارة للتّعبير عن مواقف معيّنة في المجتمع: المناداة/الرفض/القبول/التردّد/أمر شخص بالقدوم أو الذّهاب.

- **الرّمز Le symbole**: وهو إشارة تعبّر عن علاقة طبيعية (عرفيّة مع ذلك) بين الصّورة الرّمزيّة وما تدلّ عليه في العالم الخارجيّ. (الميزان رمز للعدالة/الحمَام رمز للسّلام). و قد تكون العلاقة بين الرمز وما يدلّ عليه في الواقع علاقة مباشرة أو قابلة لأن تدرك بشكل مباشر.

- رسم الشوكة والملعقة متقاطعتين معلق على واجهة بناية رمز لوجود مطعم.

- الرأس العظمي الأسود رمز للخطر أو الموت أو لوجود تيار كهربائي مرتفع التوتر غير محمي.

- **الأيقونة Icône**: حدث سيميائيّ تكون فيه العلاقة بين الدّالّ والمدلول علاقة مشابهة وتقارب، كدلالة الرّسمين الهندسيّين: 'O' على الدائرة و ═ على الخطين المتساويين.

- العلامة **اللّسانيّة Le signe linguistique**: حدث سيميائيّ صوتيّ أو كتابيّ يحدد اعتباطيّاً arbitraire في ظلّ عُرف اجتماعيّ محدّد سلفاً للتمثيل على شيء موجود واقعيّ أو خياليّ أو تصوّريّ. وللعلامة اللّسانيّة وجهان:

- دالّ Signifiant وهو المادة الصّوتيّة أو الحرفيّة (الحرف المكتوب).
- مدلول Signifié وهو الجانب التّصوّريّ المعنويّ الذي يحمله الدّالّ الصّوتيّ أو الحرفيّ المكتوب. وداخل العلامة يميّز بار هيلل Bar-Hillel مطوراً آراء الفيلسوف الأميركي تشارلز ساندرز بيرس بين العلامة النّمط signe type

والعلامة الورود signe occurrence أو العلامة الاستعمال. فالعلامة النمط هي العلامة خارج أي تداول أو استعمال، بل هي عبارة عن مدخل معجميّ موضوعيّ مستقلّ عن الفرد وهي محدودة العدد. ومن سمات العلامة الاستعمال، فهي علامة نمط توضع في تركيب وسياق معين يختلف باختلاف السياق والاستعمال والعناصر الأخرى الموجودة معها؛ أي أنها عندما تُسْتَعْمَل في سياقات أخرى مع عناصر أخرى تقبل البعض منها ولا تقبل البعض الآخر[15].

وهذه السمة الهامّة التي تطبع العلامة اللّسانيّة تسمح لها بالدخول في الخطاب والتآلف مع وحدات أخرى وهو ما يسمّيه اللّسانيّ الفرنسيّ إميل بنفينيست Émile Benveniste[16] الدّلاليّة (من دلّ) La signifiance. واللّغة البشريّة وحدها تملك هذه الخاصّيّة الدّلاليّة التي تسمح بالتّنوّع والتّعدّد والاقتصاد والشّموليّة في التعبير عن الحاجات والمتطلبات.

واللّغة البشريّة أبرز نظام مكوّن من علامات لسانيّة بالمعنى الذي أوردناه سابقاً. إلا أنّ مفهوم العلامة بوجهَيها الدّالّ والمدلول قد يستعمل تجاوزاً للتّعبير التّقنيّ أو الإجرائيّ عن مكوّنات كلّ الوقائع السّيميولوجيّة السّابقة حتى ولو لم يتوافر في هذه الوقائع أي محتوى صوتيّ أو مكتوب، بل قد يصبح الحدث علامة مرئيّة (الصّورة) أو سمعيّة (موسيقى) لها دالّ ومدلول. وثمة شبه اتفاق عامّ على أن جُلّ الأحداث السّالفة الذّكر هي موضوع الدّراسات السّيميولوجيّة والسّيميائيّة، بينما العلامات اللّسانيّة موضوع اللّسانيّات البنيويّة الأوروبيّة.

يتّسم النّسق السّيميولوجيّ (عدا اللّسان البشريّ) بخصائص معيّنة حدّدها اللّسانيّ الفرنسيّ بنفينيست[17] كما يلي:

(15) Alain Rey: *Théories du signe et du sens*, p. 41-42.

(16) Emile Benveniste: *Problèmes de linguistique générale*, Paris, Gallimard, 1966, tome 1, p. 127 et suivantes.

(17) بتصرف عن:
Émile Benveniste: «Sémiologie de la langue» *in Problèmes de linguistique générale*, T1, p. 57 et suivantes.

- الكيفيّة الإجرائيّة Mode opératoire
- مجال الصّلاحيّة Domaine de validité
- طبيعة الرّموز وعددها Nature et nombre de symboles
- نمط الاشتغال Type de fonctionnement

يمكننا أن نمثل للسّمات السّابقة انطلاقاً من تطبيق حدث سيميولوجيّ بسيط هو علامة الإشارة الضّوئيّة (الأحمر والأخضر).

1- **الكيفيّة الإجرائيّة:** تتمثّل الطّبيعة العمليّة للأضواء المستعملة في قانون السّير في كونها طبيعة مرئيّة يمكن للسّائقين والرّاجلين على السواء مشاهدتها وإدراكها مباشرة. وغياب الطبيعة المرئيّة أو تعطيل أحد اللونين؛ أو هما معاً لسبب من الأسباب يعني بكل بساطة غياب الوظيفة التي يقوم بها الضوءان الأحمر والأخضر؛ وهي وظيفة تنظيم السّير والمرور داخل المدار الحضريّ.

2- لكلّ نسق أو حدث سيميولوجيّ مجال يجري فيه ويكتسب منه قيمته وصلاحيته العامّة. إنّ اشتغال الضّوء في قانون السّير مهمته تنظيم السّير والمرور داخل المجال الحضريّ وليس خارجه؛ وبالتالي فإنّ القيمة التي تسند إلى الضّوء الأحمر أو الأخضر تنحصر في مجال تنظيم السّير ولا تتعداه. فاللّون الأحمر ليس له أي قيمة أو دور خارج مجال تنظيم السير في المجال الحضري وهو ما يحدد صلاحيّته ودوره.

3- وبما أنّ هذا الجزء من قانون السير يقوم على لونين (أحمر-أخضر)، فإنّ عدد الرّموز هو أيضاً اثنان. إن علامة المرور بواسطة الضوء تشكل نسقاً ثنائيّاً وليس ثلاثيّاً باعتبار اللّون البرتقاليّ مرحلة انتقالية بين اللونين الأحمر والأخضر (وظيفته الانتباه)، ولأنّ التعارض الأساسيّ الذي يقوم عليه الضّوء نفسه، هو التّقابل الحاصل بين اللّونين الأحمر والأخضر فقط، وليس بين اللّون الأخضر ولون آخر أو بين اللّون الأحمر وغيره من الألوان عدا الأخضر. إن هذا التعارض هو ما يشكل طبيعة هذين اللّونين الرّمزين.

4- يتمثل نوع الوظيفة في العلاقة الموجودة بين هذين الرّمزين [الأحمر والأخضر]، إذ لكل منهما وظيفة محددة هي التي تمثّل قيمته الرّمزيّة ودوره داخل

المنظومة الموجود فيها. والوظيفتان هما وظيفة تقابل أو اختلاف Différenciation. إنّ العلاقة بين اللّونين الأحمر والأخضر في قانون السّير وليس خارجه هي علاقة تبادل Réciproque ويوجدان في توزيع تكاملي كما يقال، بحيث لا يمكنهما أن يوجدا معاً في الآن نفسه؛ أي إذا ظهر الواحد اختفى الآخر وهكذا...، وبالتالي لا قيمة للواحد منهما إلا في علاقته بالآخر. إنّ التقابل بين الأحمر والأخضر يعني الأوامر التالية:

- أحمر ←—— طريق مسدود (المرور غير مسموح به).
- أخضر ←—— طريق مفتوح (المرور ممكن).

وبلغة قانون السير نحن أمام ثنائية: قف/سر.

بصفة عامّة فإن التّعريف السّيميولوجيّ ينظر إلى اللّغة البشريّة على أنها نسق تواصليّ له هدف محدّد غايته الإخبار ونقل أفكار كما هو الحال بالنسبة إلى الأنظمة التّواصليّة الأخرى التي تنتظم بشكل معيّن وتشكّل نسقاً تواصلياً يمكن من خلاله التعبير بطريقة اقتصادية وسهلة عن معلومات محدّدة.

3. خصائص اللّغة البشريّة

1.3. من التّعبير إلى التّواصل

عندما نسعى لتحديد مفهوم اللّغة تحديداً شاملاً ووظيفتها أو وظائفها يتعيّن علينا بدايةً التّعريف بمفهومين أساسيين مرتبطين بجوهر اللّغة في أبعادها الفرديّة والجماعيّة وهما التعبير expression والتّواصل communication. فالتّعبير والتّواصل يحدّدان ماهيّة اللّغة ويكرّسان عمليّاً وجودها الفعليّ. ومن الممكن أن يُفْهَمْ التّعبير والتّواصل على أنهما وظيفة واحدة وموحدة بحسب الطّبيعة التي تُسند إليهما. ومع ذلك لا بدَّ لنا من التمييز بينهما وإلّا لن يكون بمقدورنا تمييز خصائص الفعل اللّغويّ البشريّ من غيره من السّلوكات الدّالّة[18].

التّعبير Expression وظيفة طبيعيّة وعامّة تتجاوز حدود ما هو لغويّ بالمعنى

(18) Joseph Leif: *Le langage: nature et acquisition*, p. 39 et suivantes, 1.

الدقيق يشمل كلّ التّظاهرات الدّالّة وغير الدّالّة، المُعَبِّرَة بكلّ الأشكال والوسائل عن مختلف الأنشطة الجسديّة أو الفكريّة أو العاطفيّة منفردة أو مجتمعة. ويكون التعبير نشاطاً رمزيّاً عفويّاً أو مقصوداً، إراديّاً أو لاإراديّاً لبيان حالة ذهنيّة أو شعوريّة أو موقف عاطفيّ مما يختلج داخل الذّات والجسد والفكر إزاء العالم الخارجيّ وإزاء الذّات المعبّرة نفسها[19].

قد يحصل التّعبير بأبسط الوسائل وأقلّها (الانفعالات التّلقائيّة/الإشارات الجسديّة) إلى أكثرها تنظيماً وإتقاناً وتعقيداً كما هو الشّأن في اللّغة والآداب والفنون. فالإشارة باليد أو الرأس تعبير، والابتسامة تعبير، والضّحك تعبير، والبكاء تعبير، والتحيّة تعبير، والقصّة والرواية والشّعر تعبير، وتنظيم حفل أو مهرجان ثقافيّ أو رياضيّ أو فلكلوريّ تعبير، العادات والتّقاليد تعبير، احترام قانون السّير تعبير، والانتفاضة الفلسطينية تعبير وهلُمّ جرّاً. وحين يكون التعبير لغويّاً Expression linguistique فإنه يتوسل باللّغة المكتوبة أو المنطوقة المؤسّسة دلاليّاً عن طريق تناسق العلامات اللّسانيّة وحدها وترابطها.

أما التّواصل فهو تعبير موجّه إلى الغير يُفهم ويُؤوّل بالضرورة بين مجموعة من الأفراد تتواضع على دلالة الوحدات اللّسانيّة ومعانيها وطرائق استعمالها في إطار مجتمع لغويّ محدد. ويقوم التّواصل على وسائل لسانيّة بالدّرجة الأولى، وهو ما يميّز التّواصل الإنسانيّ من غيره من أي تواصل لا مقصود بواسطة إصدار الأصوات تلقائيّاً[20]، ولكنّه قد يحصل أيضاً بوسائل أخرى كالرّسم والحركة (الإشارة) والكتابة وهو ما يجعله تعبيراً فنّيّاً أو غيره. ولا تخفى العلاقة بين التّعبير والتّواصل، ومع ذلك لا ينبغي الخلط بينهما. فكل تواصل تعبير ولكن ليس كل تعبير تواصلاً. فالحوارية والتفاعلية والتبادل اللّغويّ أساس التّواصل، بينما لا يتطلب التعبير ضرورة حضور الآخر ومشاركته كشرط لتحقيق التّعبير.

التّواصل أساس حياتنا. فمن السؤال عن الأحوال إلى تبادل المشاعر والأفكار واستعراض الأخبار ووجهات النّظر نتّصل ونتواصل مع الآخر. وبهذا يكون التّواصل هو كل عمليّة تبادل المعلومات والآراء والأفكار والتّجارب ونقلها

(19) Ibid, p. 40.

(20) Ibid, p. 39 et aussi p. 43.

من شخص إلى آخر بقصد التّفاعل والتّأثير المعرفيّ أو الوجدانيّ أو الإخبار بشيء أو الارتقاء بمستواه الجماليّ أو القيميّ أو التّرفيه عنه أو إقناعه. وبالتّواصل يتم توزيع الأنشطة المختلفة في المجتمع في مظاهره وبنياته الطّبيعية والثّقافيّة المتنوّعة. إنه خاصّيّة إنسانية، فهو يتمّ بين البشر وحدهم. وانطلاقاً من كون اللّغة ظاهرة اجتماعيّة، فإن التّواصل الاجتماعيّ شكل من أشكال الوجود الاجتماعيّ مع الأخر. ويكشف التّواصل عن الاستعدادات الفرديّة والجماعيّة في كنف الحياة العامّة. وارتباط الأحداث اللّغويّة بالأحداث الاجتماعيّة يرجع أساساً إلى كون طبيعة الإنسان تتضمن شيئين:

- قابلية التّواصل Communicabilité
- قابلية الاجتماع Sociabilité

وهما مظهران أساسيّان في البُعد الفرديّ والاجتماعيّ للإنسان يصعب الفصل بينهما، أو تحديد أيّهما أسبق في الوجود. وبديهي أنه خارج الشفرة المقنّنة والمشتركة (اللّسان الخاصّ بمجتمع معين)، لا يمكن الحديث عن أي قابلية اجتماعية أو تواصلية.

وليس التّواصل بالأمر الجديد بالنسبة إلى الإنسان، إلاّ أنّ الأوضاع العامّة والملابسات التي سادت العالم منذ بداية القرن العشرين وما ارتبط بها من مظاهر التّحضر والتّطور العلميّ والتكنولوجيّ أعطى التّواصل عبر وسائله المتنوعة (اللّغة- الإعلام بجميع أنواعه- الهاتف- الكمبيوتر- الإنترنيت)، مكانة خاصّة بحيث تمّ تطوير أساليبه وتقنيّاته بشكل مذهل حتى بات العالم قرية (التشبيه لـمارشال ماكلوان). ولا يوجد اليوم ميدان من ميادين الحياة لا يعرف توظيفاً للتّواصل.

وقد نجد من يطلق لفظ التّواصل غير اللّغويّ communication non verbale على كل سلوك إنسانيّ أو حيوانيّ يمكنه أن يؤول على أساس أنه إشارة، لكنه ليس بالضرورة تواصلاً رغم أنه قد يكون محمّلاً بالإخبار[21].

(21) J. Lyons: *Eléments de sémantique*, p. 52.

لا يتحقق التّواصل على الوجه الأكمل إلا بوجود بعض المكوّنات الأساسية وهي:

- المرسِل مصدر الرّسالة عمليّة التّواصل.
- الرّسالة وهي الموضوع أو المحتوى (الأفكار) المراد إيصالها؛
- الوسيلة وهي الطريقة أو القناة التي تنتقل بها الرّسالة.
- المستقبِل وهو الجهة أو الشخص الذي توجّه له الرسالة ويستقبلها من خلال إحدى أو كل حواسّه المختلفة (السّمع والبصر واللّمس)

وترتبط وظائف التّواصل بحاجات النّاس المادّيّة وغير المادّيّة على السّواء، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، والحاجة إلى التّواصل والإخبار، برهان على التّطلع الكامن في أعماق الفرد إلى حياة أفضل يُثريها التّعاون مع الآخرين. فالنّاس يتطلّعون إلى تحقيق نموّ ذواتهم من ثقافة، وحرية، واستقلال، واحترام الكرامة الإنسانيّة وكل ما يعكس التّطلعات غير المادّيّة التي يتم السعي إلى تحقيقها من خلال التّواصل، فضلاً عن إشباع حاجاتهم المادّيّة. وتشكل وسائل التّواصل بالنّسبة إلى ملايين البشر، الوسيلة الأساسيّة للحصول على الثّقافة وجميع أشكال التّعبير الخلّاق، كما أنّ للتواصل دوراً حاسماً في تدبير شؤون التعلّم والمعرفة وتنظيم الذاكرة الجماعيّة للمجتمع.

يرتبط التّواصل بمفهوم هامّ في الدّرس اللّغويّ عموماً وفي السّيمائيّات والسّيكولسانيّات ونظريّة التّواصل بصفة خاصة هو مفهوم الإخبار information. ومثلما يتمّ التّمييز بين التّعبير والتّواصل رغم التّداخل الحاصل بينهما، يتعيّن تمييز التّواصل من الإخبار. ليس الإخبار هو اللّغة وإن كان أساساً يقتضي التّواصل[22].

ينبع الإخبار من حاجة الفرد والجماعة إلى تبليغ الآخر ما يخالج الذّات من رغبات وأحاسيس متنوعة. وكما في اللّغة نفسها، هناك نوع من عدم التّوازن بين الكائنات البشريّة، سواء فيما يتعلق بالمعلومات المتبادلة أو بعدم التّوازن في النّيات أو المقاصد التّواصليّة المراد التّعبير عنها. ليس هناك مماثلة أو تشابه مطلق بين أفراد مجتمع لغويّ معيّن فيما يتعلّق بالمعلومات التي يودّون تبادلها

(22) H. Hörmann: *Introduction à la psycholinguistique*, p. 54.

وفي مستوى إدراكها. إن عدم التّوازن بين المتكلّمين في قدراتهم اللّغويّة وعدم الدّقّة ومستوى الفرق لديهم في إدراك وفهم الرّسائل اللّغويّة تُعدّ كلها خصائص مميّزة للفعل اللّغويّ عند الكائنات البشريّة.

مبدئيّاً عندما يتحدث شخصان (أ) و (ب) فإن الأول ينقل شيئاً يملكه هو ولا يملكه الثاني، أي يعرفه هو ولا يعرفه الثاني. إن هدف الإخبار أن يصف بدقة وضبط كل ما يجب أن ينقل لإزالة وإقصاء كل ما له علاقة باللايقين[23] incertitude.

لكن ما طبيعة هذا الإخبار؟ هل يمكن اعتبار تلقّي تلغراف أو إلقاء خطاب أو رسالة بمثابة إخبار أم أنها وسائل تحتوي على الإخبار؟[24] هل الإخبار هو ما يكون مكتوباً بالمداد على ورقة التّلغراف أو الرّسالة أي المُعطى الموضوعيّ، أم أنّه ما يوجد في وعي المتلقّي بعد قراءة التّلغراف؛ أي التّجربة الذّاتيّة النّاجمة عن القراءة؟

الإخبار بالنسبة إلى العديد من علماء النفس ليس لا هذا ولا ذاك! إنه ليس لا مادة، ولا حالة فكريّة ذهنيّة. المكالمة الهاتفيّة مثلاً تمكّنني من الحصول على جملة من المعلومات الأساسيّة حول مخاطبي مكانه/سنّه/حالته النّفسيّة ووعيه وأشياء أخرى، لكن الرّسالة الأساس في المكالمة هي مثلاً: «سأصل إلى الدّار البيضاء عبر القطار في الساعة الواحدة زوالاً»[25].

ولمصطلح الإخبار دلالتان:

- إخبار إشارة information du signal أي كون هذه السّلسلة من الإشارات أو العلامات مختلفة عن غيرها بحيث يكون المتلقّي قادراً على التمييز بين علامتين لغويّتين أو أكثر. نحتفظ بكلمة إشارة signal بالنظر إلى طابعها التّقنيّ العامّ المستعمل عند تقنيّي التّواصل والإعلام ولاسيما في الأدبيات الأميركيّة. (لغويّاً تقابل لفظة إشارة كلمة العلامة اللّسانيّة Signe linguistique).

(23) J. Hörmann: *Introduction à la psycholinguistique*, p. 51.

(24) Ibid, p. 51. Est-ce que c'est une information ou contient de l'information?

(25) المرجع نفسه.

– إخبار دلاليّ information sémantique ويتعلّق الأمر بالمعنى الذي تحمله هذه الإشارة أو تلك التي يترتب عليها تأويل interprétation معيّن. المعلومة الدّلاليّة هي ما يتبادله شخصان، بحيث أن المتلقّي لم يكن يعرفها من قبل[26].

إنّ الاختلاف بين تشخيص إشارة معينة وتحديد نوعيّتها وطبيعتها وتأويلها؛ أي تحديد معناها هو الفرق الحاصل بين الإخبار الإشاريّ والإخبار الدّلاليّ. تكون الإشارة تواصليّة signal communicatif إذا كانت هذه الإشارة تحمل خبراً من المتكلّم يجهله السّامع. ويتحدد الإخبار فيما يكون له معنى بالنسبة إلى الباثّ. وتظهر قصديّة التّواصل من جديد باعتبارها تشكل رغبة المتكلّم في نقل ما هو غير معلوم للمتلقي. فالإخبار هو كل ما له معنى بالنسبة إلى المتلقّي وهذا ما يحدّد قيمته[27]. ليس هناك إخبار دلاليّ إلا إذا ساهم التّواصل في إضافة معلومات جديدة. عندما أدخل البيت وأنا مبلّل الثّياب ويسألني أحد أفراد العائلة: أيهطل المطر؟ فإن هذه الرّسالة لا تحمل لي أي معلومة لأني لم أكن في حالة اللّايقين. واللّايقين يلازم التباس الرّسالة. وتقاس درجة الإخبار على أساسين:

– موقعه ومكانته في القناة التّواصليّة.

– محتواه الإخباري؛ أي المعلومة التي يحمل.

إنّ كمّيّة الإخبار Quantité de l'information أو المحتوى الإخباري للرّسالة مرتبط بكمّيّة اللّايقين التي يمكن للرّسالة أن تزيلها من ذهن المتلقّي.

لتحديد كمّيّة الخبر أي المحتوى الإخباريّ يُلاحظ التّناسب العكسيّ بين المحتوى واحتمال الورود occurrence، بمعنى أنه كلّما كان ورود إشارة معيّنة متوقّعاً بنسبة عالية قلّ خبر الإشارة. وبعبارة أخرى ارتفاع درجة ورود الإشارة يقلّل من نسبة الجديد الذي تحمله. يكون الإخبار منعدماً أو صفراً nul عندما يكون احتمال إشارة معيّنة من درجة 1 أي ورودها متنبأ به % 100، كما أن الإشارة التي يمكن تحديد محتواها الدلاليّ عن طريق السّياق لا تحمل إخباراً أي الجديد (بالمعنى السابق).

(26) J. Lyons: *Eléments de sémantique*, p. 40.

(27) Ibid, p. 34.

ويعتبر علماء الإخبار أنّ قيمة المفاجأة valeur de surprise هي التي تحدّد كمّيّة الإخبار، فكلّما كانت قيمة المفاجأة لخبر ما كبيرة كانت الإشارة دالّة أكثر؛ أي تحمل كمّيّة أكبر من المعلومات الجديدة. إن جملة: «**الرجل عضّ الكلب**» ذات قيمة مفاجئة أكبر من قيمة نظيرتها: «**الكلب عضّ الرجل**» بحكم الخبر غير المألوف الذي تحمله الجملة الأولى(28).

لكن ما يهم نظريّة الإخبار من الوجهة التّقنيّة وهذا هو أصلها الفعليّ (نظريّة الاتّصال عند شانون وويفر Shanon and Weaver 1949 مثلاً) ليس هو ما يهمّ الباحثين الآخرين في علم الدّلالة والسّيكولسانيّات. وما يهم المهندس التّقنيّ في التّواصل هو خبر information الرسالة وما يهمّ الآخرين هو دلالتها.

2.3. مميزات اللّغة البشريّة من غيرها

الأنظمة التّواصليّة التي ذكرنا بعضاً منها سابقاً لغات بالمعنى الصّوريّ للكلمة تشترك مع اللّغة البشريّة في جملة من السّمات والخصائص النّوعيّة ومنها:

– أولاً: الإخبار information؛ أي نقل جملة من المعلومات والأخبار.

– ثانياً: المواضعة Convention؛ أي الاصطلاح على إسناد جملة من المعاني والدّلالات للوقائع حتى تقوم ببعض الأدوار والوظائف المنوطة بها في إطار مجتمع أو عشيرة معيّنة. وهذه السّمة تنطبق على اللّغة والصّورة والأيقونات وغيرها من أنظمة التواصل الاصطناعيّة الأخرى.

– ثالثاً: الاعتباطية Arbitraire حيث لا يوجد أيّ رابط مهما كانت نوعيته بين أوجه الحدث السّيميائيّ؛ أي من جهة الدّالّ المرئي أو المسموع أو المكتوب و المدلول وهو ما يعبر عنه من تصوّرات أو دلالات، ومن جهة ثانية بين الحدث بوجهيه الدّاليّ والمدلوليّ والشيء ذاته الموجود فعلاً في العالم الخارجي.

مبدئياً تشترك كل الأنظمة السّيميولوجيّة في القدرة على التّواصل والتّعبير. غير أن التّواصل في اللّغة البشريّة لا يقف عند حدود الإخبار المحايد أو القارّ، بل يسعى إلى الرغبة الأكيدة في مشاركة الآخر الذي هو المتلقي مع فعل

(28) Idem, p. 43.

التّواصل والتأثير فيه وانتظار جواب منه، سواء أكان إرادياً أم تلقائياً. أما الأنظمة السّيميولوجيّة، فإنها لا تصل إلى هذا المستوى من التفاعليّة. فالآداب والفنّ واللّغات العلميّة (رياضيّات/كيمياء) لا تستجيب لمواصفات التّواصل اللّغويّ ولا تحقق التّواصل الذي تقوم به اللّغات الطّبيعيّة.

ماذا يميّز اللّغة البشريّة إذن؛ من غيرها من أنظمة التّواصل؟ ليس من السهل الإجابة عن هذا السّؤال. نعم هناك إحساس تلقائيّ وموضوعيّ بأن ثمة فوارق فعلاً بين اللّغة البشريّة واللّغات الأخرى أو ما أسماه البعض أشباه اللّغات quasi-langage نظراً إلى الاختلاف الذي يُلاحظ حول مفهوم اللّغة نفسه كمفهوم تقنيّ وحول طبيعة الوقائع السّيميائيّة وخصائصها العامّة وما تتميّز به، وأخيراً بالنّظر إلى الكيفيّة التي يحصل بها التّواصل والتّعبير سواء بواسطة اللّغة البشريّة أو بواسطة أنظمة أخرى.

يذهب البعض إلى اقتراح قصديّة (نيّة) التّواصل intention de communication باعتبارها معياراً أوّليّاً للتمييز بين اللّغة الطّبيعيّة واللّغات الأخرى. لكن الملاحظ أنّ هذا المعيار المباشر في اللّغة البشريّة موجود فعلاً في الأنظمة الأخرى بكيفيّة غير مباشرة. فشفرة الملاحة في البحار أو مجال الطيران أو المورس Morse أو غيرها تتضمّن بكيفيّة غير مباشرة قصديّة واضحة في التّواصل بالدّرجة نفسها الموجودة في اللّغة البشريّة؛ أي أن ثمة طرفاً آخر يوجّه هذا التّواصل أو يقصد إلى خلق جسر معيّن مع المتلقّي للتّأثير فيه. الشيء نفسه يصدق على الخطاب الإشهاريّ بالصّورة مثلاً[29].

قريب من هذا المعيار ما يراه بويسنس من كون اللّغة البشريّة تشكل نظام تواصل مباشراً، بينما اللّغات الأخرى تعتبر أنظمة تواصل تعويضيّة substitutifs أي أنها تترجم وحدات الصّورة المكوّنة لها إلى نسقٍ ثانٍ. فكل أنواع الكتابة Ecriture وقانون المورس والملاحة البحريّة والجوّية ولغة الصم البكم كلّها أنظمة تعويضيّة بهذا المعنى[30].

(29) G. Mounin: *Clefs pour la linguistique*, Paris, Editions, Seghers, 1968, p. 37-38.

(30) انظر تحليل إريك بويسنس في كتابه: السيميولوجيا والتواصل.

- عديدة هي الدّراسات التي تناولت موضوع خصائص اللّغة البشريّة قياساً بالأنظمة =

في الأدبيّات اللّغويّة الحديثة عدة اقتراحات بشأن ما تتميز به اللّغة الطبيعيّة من غيرها من الأنظمة السّيميائيّة من خصائص؛ وهي خصائص لم تكن في يوم من الأيام موضع إجماع الدّارسين في هذا المجال، نظراً إلى اختلاف وجهات النّظر والميادين التي يشتغل الباحثون فيها. ودون أن نعني أنّ ما نقدّمه من اقتراحات لدى بعض الدّارسين هو أفضل مما لدى غيرهم، نعرض لبعض الخصائص المميّزة للّغة البشريّة[31]:

– اللّغة نسق من الأصوات التي يكتسبها الإنسان بسهولة، تنتظم في نسق فونولوجيّ خاصّ بكل لسان على حدة. وما يحتاج إليه هذا اللّسان قد لا يحتاج إليه لسان آخر.

– اللّغة سلوك إراديّ تلقائيّ، بينما يغلب الجانب الاصطناعيّ على باقي الأنظمة السّيميولوجيّة التي يطلق عليها تجاوزاً مصطلح اللّغة، فالضّحك والبكاء والسّعال ليست لغات بالمعنى الدقيق.

– خطيّة اللّغة Linéarité أي أنّه لا يمكن إصدار أكثر من عنصر واحد في المرّة الواحدة على عكس الموسيقى مثلاً. ومعنى هذا، أنّ تتابع العناصر والتّرتيب الذي تظهر فيه له قيمة أساسيّة في تحديد الخطاب وبالتالي التّواصل المزمع تحقيقه.

– تحديديّة اللّغة Discrétion: يكون الصّوت (اللّغويّ) دائماً محدّداً. فالصّوت إمّا/ ب/ وإمّا/ م/ ولا يمكن أن يكون الاثنين معاً. وكان سوسير أول من نبّه إلى هذه الخاصّيّة المهمّة. وكل عنصر لغويّ أيّاً كانت طبيعته يقع في نقطة زمنيّة محدّدة بالقياس على غيره من العناصر، فلا يمكن أن نجد أكثر من كلمة واحدة في الوقت ذاته. وعلى عكس اللّغة البشريّة ليست الابتسامة (لغة سيميولوجيّة)

= السّيميائيّة الأخرى ومن بين هذه الدّراسات التي رجعنا إليها نذكر ما يلي:

Yuen Ren Chao: *Langage et systèmes symboliques*, p. 11-14, Paris, Payot, 1970/1968.

G. Mounin: *La linguistique*, au XXième siècle, p. 28-39 et p. 45-60.

J. Lyons: *Eléments de sémantique*, p. 62-74.

(31) محيي الدين محسّب: انفتاح النسق اللساني، مرجع سابق، ص16-22.

خطّيّة، والابتسامة ابتسامات بحيث يمكن أن يكون لها عدة دلالات في الوقت نفسه.

وكان شارل هوكيت Charles Hockett أكثر اللّسانيّين اهتماماً بخصائص اللّغة البشريّة التي جمع منها ما ظهر متفرقاً عند غيره من الباحثين. وخصائص اللّغة البشريّة كما عرضها هي:

- الاعتباطيّة.

- الثّنائيّة وهي أنّ اللّغة تتشكل من الصّوت والمعنى وهذه الخاصّيّة قريبة جداً مما أسماه مارتينيه التلفّظ المزدوج.

- الإنتاجية وهي تقابل ما تتميز به اللّغة البشريّة من إبداع وخلق أي القدرة على إنتاج وتأويل ما لا حصر له من الجمل.

- الطّابع التّحديديّ.

- الدّلاليّة.

- الانتقال أي الحديث عن أشياء غائبة أو غير موجودة واقعياً.

- التّبادليّة أي إمكانية التبادل بين السّامع والمتلقّي في الوقت نفسه (التّواصل).

- الاستردادّية feed-back وهي القدرة على استرجاع الكلام السّابق وتذكّره.

- التخصّصيّة أو الإثارة؛

- النقل الثقافي أي لا تنتقل اللّغة بالوراثة أو بالغريزة وإنّما بالتعلّم.

- قابلية التعلّم learnability.

- ردّ فعل reflexe.

- إمكانيّة استعمال اللّغة لتضليل الآخر أو للتّمويه أو للكذب Prévarication وما شابه ذلك[32].

---

(32) J. Lyons: *Eléments de sémantique*, p. 62-74.

ويجعل مارتينيه André Martinet من خاصيّة **التلفظ المزدوج** double articulation الحدّ الفاصل بين اللّغة البشريّة وأشكال التّعبير الأخرى. يقول مارتينيه: إذا اعتبرنا التلفّظ المزدوج نواة مركزيّة وباقي الخصائص المميّزة للّغة سمات هامشيّة؛ فإننا بهذا المفهوم سنجعل اللّغة (البشريّة) في مأمن من جميع أشكال التّواصل المبهمة التي لا يمكن تحليلها إلى مستويين من التّلفّظ. واللّغة الطّبيعيّة في نظره هي المنظومة التّواصليّة الوحيدة التي تتميّز بصفة نوعيّة أساسيّة هي التّلفّظ المزدوج، «**إن لفظة لغة يجب أن يحتفظ بها للدّلالة على كل أداة تواصل تتلفّظ ازدواجياً**». ومعنى التلفّظ المزدوج أنّ القول أو الجملة يحلّل إلى مستويين:

- مستوى أوّل هو مستوى التّلفّظ الأوّل Première articulation حيث يُحلّل القول إلى الوحدات الأساس التي تكوّنه والتي هي وحدات لها دلالة في ذاتها يسميها مارتينيه المونيمات Monèmes.

- مستوى التّلفّظ الثّاني Deuxième articulation وفيه تحلّل المونيمات إلى وحدات صغرى ليس لها دلالة يسميها الفونيمات Phonèmes وهي وحدات صوتية ليس لها معنى في ذاتها[33].

3.3. وظائف اللّغة

يستعمل لفظ الوظيفة للدّلالة على الغاية التي يروم المتكلّم تحقيقها من خلال نشاطه اللّغويّ؛ وبعبارة أوضح فإن وظيفة اللّغة هي الهدف الذي تستعمل من أجله اللّغة في مقام تواصليّ معيّن. والواقع أنّ هناك اختلافات نظريّة كثيرة لا مجال لحصرها حول وظيفة اللّغة؛ وهي اختلافات ناتجة عن اختلاف البعد النّظريّ والفكريّ الذي يُنظر من خلاله إلى قضايا اللّغة بصفة عامّة وللتّعريف الذي يُعطى للّغة بصفة خاصّة.

تُسند إلى اللّغة عادة مجموعة من الوظائف. فالدّراسات الفلسفيّة والفكريّة العامّة جعلت وظيفة اللّغة نقل الوقائع faits. واعتبرها أرسطو مرآة للفكر. وأصبحت إشكالية الوظائف في العصر الحديث من أبرز القضايا التي تناولها

(33) André Martinet: *La linguistique synchronique*, Paris, PUF, 1974, p. 7 et suiv.
- André Martinet: *Eléments de linguistique générale*, Paris, Armand Colin, 1974/1960.

المفكّرون على اختلاف مشاربهم. لكنّ السُّلوكيّين يرفضون إعطاء أي دور أو وظيفة خاصة للّغة باعتبارها سلوكاً مثل باقي السُّلوكات البشريّة الأخرى.

وقد مرّ بنا أنّ عالم النفس بياجيه يحدد وظيفة اللّغة الأساس في التّمثيل Représentation. وقد كان للفلاسفة والمناطقة وكلّ مهتمّ باللّغة تعريف لوظيفة اللّغة كما يرونها من خلال اختصاصهم ومجالهم الفكري وما يخدم إطار الفرضيّات التي يدافعون عنها: اللّغة عند أرسطو مرآة للفكر وهي عند المناطقة أداة للاستدلال إلخ....

يميّز الدّرس اللّسانيّ بين وظيفة أساسيّة ووظائف ثانويّة للّغة. تتمثّل الوظيفة الأولى في كون اللّغة وسيلة للتّواصل وهو ما يهمّ اللّسانيّ في الدّرجة الأولى. أما الوظائف الثّانويّة فهي مجمل ما يسنده الدّارسون في مجالات معرفيّة أخرى من وظائف إلى اللّغة كالقول بأنّها وسيلة للإبداع أو لنقل الأفكار.

إلى هذا الرّأي يذهب شارل بالي Charles Baily حينما أكّد أنّ «اللّغة التي تتكلّمها جميعاً ليست في خدمة العقل الخالص ولا في خدمة الفنّ. إنّها لا تهدف إلى مثال منطقيّ أو مثال أدبيّ. إنّ وظيفتها الأساسيّة ليس بناء القياسات المنطقيّة أو الخضوع للأوزان والتفعيلات الشعريّة. إنها ببساطة في خدمة الحياة الاجتماعيّة لا حياة الأفراد وإنما حياة المجتمع»(34).

ويؤكّد اللّسانيّون الوظيفيّون أهمّيّة دراسة اللّغة باعتبارها وسيلة للتّواصل؛ وبالتّالي فإنّ الأساس في التّحليل اللّسانيّ هو الكشف عن الخصائص والمميّزات التي تجعل عمليّة التّواصل أمراً ممكناً.

ولعلّ أشهر نموذج في تاريخ اللّسانيّات تمّ فيه تحديد وظائف اللّغة بشكل ممنهج ومضبوط هو النّموذج الذي وضعه رومان ياكبسون Roman Jakobson (1897-1982)(35). وهذا النموذج في الواقع تطوير لما ورد عند بوهلر Bühler من

(34) Charles Bally: *Le langage et la vie*, Genève, Droz, 1965/1925, p. 14.

(35) Roman Jakobson: *Essais de linguistique générale*, Paris, Editions de Minuit, 1963, p. 213-218.

وظائف أضاف إليها ياكبسون بعض الأفكار التي أفرزتها في منتصف القرن العشرين نظريّة التّواصل théorie de la communication عند شانون وويفر.

انطلاقاً من البنية العامّة لعملية التّواصل بين السّامع والمتكلم حدّد ياكبسون المكوّنات السّتة التي تقوم عليها بنية التّخاطب وهي:

1- المرسِل [المتكلّم] Destinateur.

2- المستقبِل [المتلقّي/ السّامع] Destinataire.

3- الرّسالة [الخطاب] Message.

4- الاتّصال Contact.

5- المرجع Référent.

6- الشفرة code.

يبعث المرسِل رسالة إلى المستقبِل بحيث يكون لها مرجع تندرج فيه ويشمل مجموع الأشياء التي يتمّ الحديث عنها. ولكي يدرك المستقبِل هذه الرّسالة يجب أن يكون هناك اتّصال بينه وبين الباثّ، وهو عبارة عن قناة فيزيائيّة (الأصوات اللّغويّة) ويتمّ الاتّصال بواسطة شفرة مشتركة هي اللّغة. ويقدم نموذج ياكبسون للوظائف على الشكل التالي:

المرجع

الخطاب

المرسل ———————— المستقبل

الاتصال

الشفرة

ويرى ياكبسون أن كلّ مكوّن من هذه المكوّنات يمكنه أن يمدّنا بوظيفة معيّنة. وعلى هذا الأساس نستطيع الحصول على ستّ وظائف رئيسية متنوعة الأهمّيّة بحسب المكوّن الذي يتمّ الاهتمام به أثناء التّواصل، وقد يؤدّي الخطاب نفسه عدة وظائف في الوقت ذاته. والوظائف الستّ هي:

– **الوظيفة التّعبيريّة** Fonction expressive يكون محورها الفرد المرسِل من خلال ما ينتجه من عبارات تدلّ على حالته النّفسيّة ومشاعره الانفعاليّة. فالجمل مثل: «**أنا سعيد جداً» و«مسرور لكوني فزت بالسّباق بعد أن عانيت كثيراً وتحملت، آه كانت لحظة جميلة، أنا سعيد، لا أجد ما أعبّر به عن فرحتي..**» تعبّر بوضوح عن حالة صاحبها النّفسيّة.

– **الوظيفة التّأثيريّة** Fonction conative وتتركّز حول المستقبِل؛ وتشمل كلّ أساليب النّداء والأمر والطّلب؛ وكلّ ما يُراد به التّأثير في المستقبِل لحمله على فعل شيء، أو تصوّره. (هي الوظيفة التي تنظر إلى اللّغة على أنها أداة لتحقيق جملة من المآرب الفرديّة).

– **الوظيفة المرجعية** Fonction référentielle وتتمحور حول الأشياء الموجودة في العالم الخارجيّ التي يتحدّث عنها الخطاب كما في: «البذلة جيّدة» «السّماء صافية». «الجوّ ممطر» «اللّعبة مرتفعة الثّمن».

– **الوظيفة اللاغية** Fonction phatique (من اللّغْو) وتقوم أساساً بدور المحافظة على التّواصل والاتّصال بين قطبَيْ عمليّة الخطاب واستمرارها. (هل تسمعني؟ هل فهمت؟ إسمع ما أقول/نعم، نعم، أسمعك،فهمت، أنا أعرف جيداً ما تقول).

– **الوظيفة الماورائيّة** Fonction métalinguistique وتتمركز حول الشفرة؛ أي اللّغة ذاتها كما هي الحال عندما يتعلق الأمر بالتّعريفات اللّغويّة أو المُعجميّة وتحديد المفاهيم حيث تتكلم اللّغة عن نفسها أو تصف نفسها. مثلاً القاعدة النّحويّة: (المبتدأ اسم مرفوع يقع في أول الكلام) مثال واضح لهذه الوظيفة وهذا يصدق على لغة العلوم بصفة عامة.

– **الوظيفة الشاعرية** Fonction poétique وتتمحور حول الخطاب نفسه. وينظر من خلال هذه الوظيفة إلى الخصائص الجماليّة والفنّيّة للنّصّ اللّغويّ أيّاً كانت طبيعته.

ويمكن تصوير هذه الوظائف على الشّكل التالي:

إحاليّة

تعبيريّة ———————— تأثيريّة

شاعريّة

لاغية

إنّ نموذج ياكبسون رغم ما يقدّمه من إيجابيات في مجال تحديد وظائف اللّغة بالقياس إلى غيره من النّماذج اللّسانيّة وغيرها يطرح مع ذلك جملة من التّساؤلات. فهو يعتبر التّواصل عمليّة بسيطة تشبه في بنيتها العامّة نظام نظريّة التّواصل Théorie de la communication التي وضعها شانون و ويفر في نهاية الأربعينيّات والذي كان له أثر كبير في اللّسانيّين وغيرهم، غير أنّ نموذج ياكبسون لا يقدّم أي معايير صوريّة لتحديد الوظائف المعروضة، فما لدينا سوى بعض المؤشّرات اللّغويّة التّقنيّة والدّلاليّة العامّة المرتبطة بهذه الوظائف. ومهما يكن فإنّ اعتبار اللّغة وسيلة أو أداة للتّواصل أو للتّعبير عن الفكر أو لنقل الأفكار يوحي وكأنه من الممكن تصوّر أيّ وجود مستقل للّغة خارج ماهيّة الإنسان نفسه.

في ظل ازدهار النّظريّات الحديثة في التّواصل والإعلام (نتائجه ملموسة في وسائل الإعلام الجماهيريّة تلفزيون/ سينما من خلال مظاهره المتعددة الإشهار/ الصورة) بات من المؤكد القدرة على التّحكّم في التّواصل لتكييف ما يمكن توجيهه للمتلقّي بكيفيّة تكون قادرة على إقناعه والتّأثير فيه بشكل ملموس أو كما يقال لصنع رأي عامّ وفق مقاييس محدّدة ولغايات معيّنة سلفاً. نعم أصبح من الممكن التّحكّم في قيمة المعلومات والكمّيّة المراد نقلها وبالتّالي أصبح النّظر موجّهاً إلى «الكيف» كقيمة إجرائيّة تستمدّ أصولها مما تقدمه العلوم الأخرى وفي مقدّمتها اللّسانيّات.

الباب الثاني

اللّسانيّات تاريخ وتطوّر

الفصل الرابع

تاريخ اللّسانيّات: أيّ تاريخ؟ لأيّ لسانيّات؟

1. في تاريخ اللّسانيّات

ليس البحث في اللّغة وما يرتبط بها من قضايا معرفيّة شيئاً جديداً في الفكر الإنساني. فهو قديم قدَم اللّغة نفسها. فمنذ أن وُجِدَ الإنسانُ، وحيثما وُجِد، وُجِدَ معه تفكير حول اللُّغُو واللّغة. ومنذ وعى الإنسان أهمية اللّغة ودورها في حياته العامّة والخاصّة، طرح بصيغة تلقائيّة جملة من الأسئلة الهامّة منها:

- ما أصل اللّغة؟
- ما أقدم لغة؟
- كيف وصلت إلينا؟
- لماذا لا يتكلّم الناس جميعاً اللّغة نفسها؟
- ما علاقة الكلمات بالأشياء المتحدّث عنها؟
- كيف يحصل التّفاهم باللّغة؟

لقد انتبه الإنسان إلى هذه الآلة العاديّة والغريبة في الوقت ذاته. ووَصَلَ به الإعجاب إلى درجة التّقديس والتّأليه، فجعلها مفتاح الكون الذي عاش فيه، وشفرة لفكّ كثير من الأسرار المحيطة به، فربطها بالقوة الغيبية والممارسات السّحريّة، وبالطّقوس الدّينية والشّعائر الاجتماعيّة المختلفة[1]. وتبيّن النّقوش

(1) Julia Kristeva: *Le langage cet inconnu: une initiation à la linguistique*, Paris, Seuil, Collection Points, 1981/1968.

والآثار القديمة رغبة الإنسان في تجسيد مظاهر لغته، كما هي الحال في الكتابة المصريّة القديمة وفي غيرها.

هذا الوضع الأوّليّ للفكر اللّغويّ يجعل كتابة تاريخ الفكر اللّغويّ شيئاً صعباً تُطْرَحُ معه جُمْلَةٌ من الإشكالات المنهجيّة والنّظريّة. فكتابة التّاريخ عموماً هي كتابة ذاتيّة، تنطلق من إطار وأدوات معرفية مختلفة في الزّمان والمكان عن الموضوع المؤرَّخ له. إنّ مؤرِّخي كلّ حقبة يدوّنون التّاريخ ويفهمونه انطلاقاً من وجهة نظرهم، وهو ما يعني أنّنا نكتب التّاريخ كما نريده أو على الأقل كما نفهمه ونتصوّره، إنّه نوع من الإسقاط. إنّنا نخلق التّاريخ الذي نقوم بكتابته بحسب نمط تفكيرنا[2]. وبهذا المعنى فإنّ كتابة التّاريخ قراءة حديثة لمعطيات قديمة، تطرح مشكل حدود قراءة الآراء والتّصوّرات اللّغويّة القديمة وتأويلها.

والدّراسات التّاريخيّة غالباً ما تَنْظُر إلى الفكر اللّغويّ القديم بعيون الحاضر وتصوّراته مقتصرة على الجوانب التي تبدو متّصلة على نحو خاصّ بالمقاربات والأفكار الحاليّة أو تبدو غير متّصلة بها. وتعكس النّظرتان معاً تصوّراً مغلوطاً لتاريخ علم معيّن، حيث يتم النّظر إليه بوصفه تقدّماً مطّرداً حيناً وغير مطّرد أو منحرفاً أحياناً، نحو هدف محدّد سلفاً من قبل الوضع الراهن للعلم[3].

وتأسيساً على ما سبق، فإنّ كتابة تاريخ الدّراسات اللّغويّة القديمة انطلاقاً من موقف لسانيّ حديث، تعني بكل بساطة رفض كثير من جوانب التّفكير اللّغويّ القديم، خاصة ما يتعلق بنشأة اللّغة، والقول بأفضلية بعض اللّغات على أخرى لاعتبارات غير علميّة، والاهتمام ببعض المستويات اللّغويّة دون غيرها، ومعالجة

(2) G. Mounin: *Histoire de la linguistique des origines au XXième siècle*, Paris, PUF, 1968, p. 7.

توجد ترجمة عربية لهذا الكتاب الأساسي في تاريخ الفكر اللغوي بعنوان **تاريخ علم اللغة منذ نشأتها إلى القرن العشرين**، ترجمة بدر الدين القاسم، منشورات الجامعة السورية، دمشق، 1972.

(3) روبنز: **موجز تاريخ علم اللغة**، ص20، ترجمة أحمد عوض، عالم المعرفة رقم 227 الكويت، تشرين الثاني/نوفمبر، 1998 وهو ترجمة:

R. H. Robins: *Brève histoire de la linguistique: de Platon à Chomsky*, Paris, Seuil, 1976/1967.

بعض القضايا بطرق معيّنة. وقد أدّى هذا الموقف بكثير من الباحثين اللّغويّين المحدثين إلى رفض الفكر اللّغويّ القديم جملة وتفصيلاً. لكنّ هذا لا يعني التقليل من أهمية الفكر اللّغويّ القديم الذي كانت له مواقف سليمة في كثير من القضايا التي وقف عليها بعمق ودقّة، وإن لم تكن أسسه المنهجيّة واضحة دائماً بشكل كافٍ.

ولا شكّ أنّ ابتكار الخطّ والكتابة عند المصريين والأكّديّين والسّومريّين والفينيقيّين ثم الهنود هو في ذاته ابتكار حضاريّ هامّ، وهو أيضاً مثال على المستوى الذي بلغه الدّرس اللّغويّ في هذه الحقبة الضّاربة في عمق التّاريخ، رغم أنّ المصادر التّاريخية القديمة والحديثة لا تتحدث عن وجود كتابات لغويّة حقيقيّة قائمة في ذاتها. إلا أنّ هذا لا يعني انعدام تفكير لغويّ. فالمستوى الحضاريّ الذي بلغه السّومريّون (4000 سنة قبل الميلاد) والأكّديّون (3600 سنة قبل الميلاد) ثم المصريون (2600 سنة قبل الميلاد) في مجالات الإدارة والتّشريع والفكر والهندسة والمعمار والصّناعة والاقتصاد وما يتطلبه من تنظيمات وضبط، كل ذلك لا يمكن تصوّره من دون معرفة دقيقة ومضبوطة بالوسيط اللّغويّ القادر على جعل هذه الشبكة من المعارف متداولة بين الأفراد والمؤسّسات القائمة آنذاك، ومشاعة بين الأجيال المتعاقبة، وبالتالي لا يمكننا أن نتصوّر مثلاً، قيام هندسة بناء الأهرامات والآثار التي عاصرتها أو بُنيت قبلها أو بعدها من دون وجود بحوث لغويّة متطورة تُمَكّن من مسايرة هذه اللّغة وتداولها في مختلف المستويات، وتكون قادرة على التّعبير عن المجالات الفكريّة والصّناعيّة والاجتماعيّة المختلفة.

وقد مرت الكتابة الإنسانيّة بثلاث مراحل أساسية هي[4]:

- **مرحلة الكتابة التّركيبيّة** Ecriture synthétique: ويعود تاريخ هذا النوع من الكتابات التركيبية إلى الحياة الأولى للبشرية في سيبيريا وآلاسكا وهنود أميركا

(4) Patrick Guelpa: *Introduction à l'analyse linguistique*, Paris, Armand Colin, 1997.
- ويمكن الرجوع في موضوع تطور الكتابة عند الإنسان إلى جورج يول: **معرفة اللغة**، الفصل2، ص21-30، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ط1، 1995/ 2000.

منذ 5000 سنة قبل الميلاد، وتتمثل في مجموعة من الرموز التي تمثل قولاً بأسره فهي كتابة أفكار Ecriture idéographique لأنها ترمز إلى أفكار محددة.

– **مرحلة الكتابة التّحليلية** Ecriture analytique: عرف هذا النّمط من الكتابة مع السّومريّين والمصريّين والصّينيين، وفيها أصبحت الكتابة قادرة على أن ترمز إلى شيء أو فكرة برمز محدّد. فلكلّ كلمة شكل محدد وحيد وثابت يحدد موقعه في القول الواحد.

– **مرحلة الكتابة الصّوتية** Ecriture phonétique: وهي الكتابة التي نتعامل بها اليوم في جُلّ اللّغات العالمية والتي تم فيها التّحرّر من النّوعين السّالفين من الكتابة. وتتميّز الكتابة الصّوتيّة باقتصادها في عدد الوحدات الصّوتيّة والصّرفيّة والاستقلاليّة في الوظيفة التّركيبيّة والدّلاليّة عكس ما كان متداولاً في الكتابة التّركيبية والكتابة التّحليليّة. وتُعَدّ الكتابة الصوتية مرحلة حاسمة في تطوّر الفكر البشريّ نظراً إلى ما كان لها من أثر إيجابيّ في نقل التّراث الإنسانيّ من المحلّيّة إلى الإنسانيّة كما يشهد على ذلك انتقال التّراث الهنديّ واليونانيّ والعربيّ الإسلاميّ خارج حدود المناطق التي ظهر فيها هذا التّراث.

وقد كان للكتابة أثر إيجابيّ في الدّرس اللّغويّ وهو ما أشار إليه اللّسانيّ الفرنسيّ أنطوان مييّه Antoine Meillet قائلاً إن أولئك الذين أوجدوا الكتابة وأتقنوها كانوا من فحول اللّغويّين وهم الذين أبدعوا علم اللّغة[5]. ذلك أنّ تاريخ الكتابة ودراسة الطّرق المتّبعة في الكتابة ذو صلة وثيقة بالبحث في طبيعة اللّغة وبنيتها. «فاختراع الكتابة أدّى بالبداهة إلى التفكير في اللّغة، لأن هذه التّقنيّة أبرزت عناصر اللّغة الشّفهيّة ثم فصّلت عباراتها على الأقل إن لم نقل مفرداتها»[6].

2. العلوم وتاريخها: أيّة علاقة؟

نظراً إلى ما تطرحه إشكاليّة التّأريخ للعلوم من قضايا منهجيّة لاسيّما في

(5) نقلاً عن جورج مونان: **علم اللغة منذ نشأتها إلى القرن العشرين**، ص35.
(6) المرجع السابق نفسه.

المستوى الإبستيمولوجيّ، فإنّ الرجوع إلى أرضيّة معرفية عامّة يمكن اعتمادها أساساً للحديث عن تاريخ الفكر اللّغويّ أمر لا مفرّ منه، من شأنه أن يساعد القارئ على تمثّل وإدراك بعض القضايا المنهجيّة التي يثيرها التّأريخ للعلوم بصفة عامّة والنّتائج المترتّبة على تاريخ الفكر اللّغويّ بصفة خاصّة. إنّ كثيراً من الكتابات المتعلّقة بتاريخ اللّسانيّات عربية وغربية على السواء لا يمكن استيعابها إلا بالنّظر إلى مثل هذه المنطلقات الإبستيمولوجية والإشكالات المرتبطة بها.

إنّ البحث في تاريخ العلوم ليس بالمسألة الهيّنة. هل من ضرورة نظريّة ومنهجيّة لتاريخ العلوم؟ سؤال لا يحظى منذ النّهضة العلميّة الحديثة بإجماع العلماء أنفسهم، سواء أتعلق الأمر بمختلف المجالات العلميّة، أم بالتاريخ أو بالفلسفة. ويُبَيّنُ البحث في تاريخ العلوم أن العلوم لا تنشأ بين عشيّة وضحاها، بل إنّها مجموعة من المراحل المتفاعلة يأخذ بعضُها من بعض. هذا التصوّر لنشأة العلم يوصف بالاستمراريّ؛ أي استمراريّة العلم وتطوّره عبر مراحل تتفاعل فيما بينها أخذاً وعطاءً سلباً وإيجاباً لتصل إلى درجة النّضج.

ومقابل هذا التّصوّر الاستمراريّ نجد الموقف الذي يقول بالقطيعة بين مراحل الفكر العلميّ. ويتزعّم هذا الاتجاه الفيلسوف الفرنسيّ غاستون باشلار Gaston Bachelard الذي يرى أنّ العلم-أو الثّورة العلميّة الحقيقيّة- لا ينشأ ولا يتحقّق إلا إذا قطع كلّ الأواصر المعرفيّة والتصوّريّة والمنهجيّة التي تربطه بعلم العصر الذي سبقه «إنّ تاريخ العلم هو أخطاء العلم. إنّ تاريخ العلم ليس تاريخاً للحقيقة، بل هو تاريخ ما ليس العلم إيّاه، وما لا يريد العلم أن يكونه، وما يعارضه العلم. تاريخ العلم هو تاريخ اللاعلم»[7].

وسواء أتعلق الأمر بالتّصوّر الاستمراريّ أم بالقطيعة، فمن الواضح أنه ينبغي التمييز بين ما يسمى بدايات العلوم Commencements وأصولها Origines، فليس لهما الوضع الإبستيمولوجيّ نفسه. فمن العلوم ما تكون مرحلته ما قبل العلمية Pré-scientifique من قبيل ما هو قبل تاريخي Pré-historique. وبالتالي لا

(7) محمد عابد الجابري، **مدخل إلى فلسفة العلوم**، ج1، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1976، ص50.

قيمة له، ومن العلوم ما يشكّل تاريخها جزءاً أساسيّاً منها، يساعد العلمَ على تجاوز نفسه ويدفعه نحو التّطوّر والتّقدّم. فالتأريخ لبدايات علم من العلوم قد يكون ضروريّاً بالنّسبة إلى بعض العلوم، وقد لا يكون كذلك إطلاقاً بالنّسبة إلى أخرى. ويحصل أنّ كل تجديد وتقدّم وتطوّر يقتضي بالنسبة إلى بعض العلوم تجاهل المرحلة ما قبل العلميّة، بينما تظل المرحلة الماضية حاضرة في ذاكرة بعض العلوم واستمرارها في الحاضر والمستقبل، مثلما هو الأمر في جوانب عديدة من البحث اللّسانيّ الحديث.

إن «تاريخ العلم» من حيث إنّه مجموعة متماسكة من المبادئ والتصوّرات العامّة المتحكّمة في تناول الظّواهر الطّبيعيّة، ومن حيث إنّه طريقة عمل خاصّة في التّحليل الفكريّ يُحيل على التّطورات الحاصلة في صوغ المبادئ العامّة للممارسة العلميّة والعقبات التي اعترضتها. وتاريخ العلم بهذا المعنى، هو العلم ذاته إلى حدّ ما، لأنه يعود بنا إلى أصول الممارسات العلميّة لفهمها بكيفيّة أفضل وأعمق من أجل توضيح شروط إنتاج المعرفة العلميّة ذاتها، «والعلم بالمعنى الواسع له تاريخه شأنه في ذلك شأن النّاس، وشأن المفاهيم العقليّة والأخلاقيّة. والعلماء في كل جيل لا يبدؤون من فراغ، ولكنهم يعملون من خلال وعلى أساس الوضع الذي ورثه علمهم وورثه العلم بوجه عامّ في ثقافتهم وفي عصرهم»[8].

إن نظرة العلماء بخصوص موضوع التّأريخ للعلم تختلف من زمان إلى آخر ومن حقبة معرفيّة إلى أخرى. فقد يصبح تاريخ العلم هو تاريخ المعرفة الإنسانيّة نفسها، «إن تاريخ العلم هو في آنٍ واحد تاريخ المعرفة البشريّة وتاريخ الرّجال الذين يتعلّمون معرفة العالم» (...) «إنّ تاريخ العلم هو قبل كل شيء تاريخ فهم العلم»[9]. وتاريخ العلم ليس تاريخاً موحّداً، ولكنه أصناف وأنواع ليس هنا مجال الخوض في تفاصيلها[10]. ويكفي القول إنّه تاريخ متشعّب يشمل زوايا متعددة تصبّ في مجملها في خِضَمّ البحث عن الأسس العلميّة والمنهجيّة التي قام عليها العلم في مرحلة من مراحله، أو التي استندت إليها نظريّة من النّظريّات

(8) روبنز، **موجز تاريخ علم اللغة**، مرجع سابق، ص19.
(9) الجابري، **مدخل إلى فلسفة العلوم**، مرجع سابق، ج1، ص52.
(10) المرجع السابق، ص47 وما بعدها.

العلميّة، أو إنها في النهاية صورة ما تقريبيّة عن واقع ممارسة علميّة في مجال معرفيّ معيّن.

ومع ذلك، فإنّ هذين الموقفين، «الاتّصال والانفصال» يطرحان جملة من الإشكالات الدّقيقة المترتبة على العلاقة بين العلم والتّاريخ، أو على الأصحّ بين العلم وتاريخه، تلك العلاقة التي كانت دائماً علاقة توتّر واستفزاز كلّ منهما للآخر. إنّ العلاقة بين العلم وتاريخه تفرز مجموعة من المشاكل الحقيقيّة، وتطرح عدداً من الأسئلة التي لا نحصل دائماً على أجوبة شافية عنها:

- متى ينبغي الربط بين العلم وتاريخه؟
- كيف يجب أن يتمّ ذلك؟
- هل هناك نظريّة عامّة لتاريخ العلوم؟
- ما النتائج العلميّة والمنهجيّة المترتّبة على الرّبط بين العلم وتاريخه؟
- هل يتعلّق الأمر بفضول فلسفيّ إزاء العلم، أم بهاجس علميّ نحو الفلسفة والتّاريخ؟

إنّنا بصدد مشاكل فلسفيّة ومنهجيّة تعانق العلم، كنظريّة عامّة، والفلسفة والتّاريخ، إضافة إلى المجال العلميّ الخاصّ بهذا العلم أو ذاك: رياضيّات، وفيزياء، وبيولوجيا، ولسانيّات... كل هذه المعارف مجتمعة في الوقت ذاته. وسواء أتعلق الأمر بالاستمراريّة أم بالتّطوّر الطّفريّ أم بالتّحوّلات في نماذج العلوم[11]، فإن مشكل تاريخ هذه العلوم يظل قائماً تُطْرَحُ معه جملة من المشاكل المنهجيّة والفلسفيّة. والأسئلة الهامّة في تاريخ العلوم تتعلّق بالتساؤلات المشروعة حول الفائدة المنتظرة من تاريخ علم من العلوم-هو اللّسانيّات هنا:

- أيكون تاريخ علم ما وسيلة لاكتشاف الحقيقة الماضية فقط، أم أنّه وسيلة للوصول إلى المنهج العلميّ الصّحيح؟

---

(11) Voir: *La notion de paradigme chez Thomas Kuhn dans: Structure de révolution scientifique.*

- هل يكون تاريخ العلم تاريخ انتقال المذاهب اللّغويّة ونظريّاتها، وانتقال المبادئ والطّرائق المتّبعة؟

- هل يكون تاريخ العلوم تاريخاً في المصادر والتأثيرات الكبرى التي عرفتها؟[12]

ومن الأسئلة المنهجيّة والفكريّة التي تطرح نفسها بإلحاح، وتُشكّل نواة العمل التاريخي، ما دام هناك حاجة إلى تاريخ اللّسانيّات أو الفكر اللّغويّ القديم على الأصح، ما يلي:

- أيّ لسانيّات نقصد؟

- أيّ تاريخ للّسانيّات؟

- كيف ينبغي أن يكون هذا التّاريخ؟

1.2. اللّسانيات الحديثة: أيّ تاريخ لأيّ لسانيات؟

يذكر جورج مونان Georges Mounin أنّ لفظ لسانيّات Linguistique ظهر في اللّغة الفرنسية سنة 1833، بينما استعملت كلمة لسانيّ Linguiste لأول مرة من قبل رينوار Rainouard سنة 1816 في مؤلفه **مختارات من شعر التروبادور** Troubadeurs[13]. ومن المعلوم كذلك أنّ اللّسانيّات العامّة Linguistique générale لم تصبح علماً عامّاً قائماً في ذاته إلا في بداية القرن العشرين مع دروس دو سوسير ما بين 1906 و1911 وعلى أبعد تقدير مع نشر هذه الدروس سنة 1916. لذا فإنّ القول بظهور اللّسانيّات على يد سوسير، يعني ببساطة إلغاء قرون طويلة من النّشاط اللّغويّ في حضارات مختلفة هنديّة ويونانيّة وعربيّة إضافة إلى الجهود اللّغويّة لفترة ما بعد النّهضة الأوروبيّة.

كيف يمكن للدّارس أن يتناول موضوع تاريخ التفكير اللّغويّ في ضوء الموقفين السّالفين؟

(12) جورج مونان، **تاريخ علم اللغة منذ نشأتها إلى القرن العشرين**، ص5.
(13) G. Mounin: *La linguistique du XXième siècle*, p. 5.

إنّ الفكر اللّغويّ يشمل مجمل الأفكار والآراء والتّصوّرات التي تمّ إنتاجها في مجال اللّغة منذ أمد بعيد، وفي مختلف اللّغات والثّقافات. وبهذا المعنى، فإنّ اللّسانيّات لا تشكّل سوى جزء خاصّ من التّفكير اللّغويّ الممتدّ عبر التّاريخ والحضارات الإنسانيّة الكبرى. إنّها أوّلاً وأخيراً فكر له سماته وخصوصيّاته التي تميّزه من غيره من أنواع التفكير اللّغويّ الأخرى كالفكر اللّغويّ التّاريخيّ والفكر اللّغويّ المقارن.

إنّ إطلالة سريعة على الأدبيّات اللّسانيّة الحديثة تبيّن بجلاء وجود هذين التّصوّرين في التّعامل مع تاريخ الفكر اللّغويّ. يذهب بلومفيلد مثلاً إلى القول إنّ «الدراسة العلميّة للّغة لم تبدأ إلا منذ القرن الماضي فقط عن طريق الملاحظة الواعية والواسعة وبالتالي ليست اللّسانيّات سوى في بداياتها»(14)، وهو بذلك يحدّد ميلاد اللّسانيّات على أبعد تقدير في القرن التاسع عشر، أي مع ظهور المنهج التّاريخي-المقارن على وجه التّقريب.

إنّ موقف بلومفيلد المتشدّد الذي يُلغي الفكر اللّغويّ القديم، لا يأخذ به لسانيّ آخر. وفي اتجاه مغاير لموقف بلومفيلد السابق، يحاول روبنز R. H. Robins في كتابه الهامّ **التاريخ الموجز للسانيّات من أفلاطون إلى تشومسكي**: *Brève histoire de la linguistique de Platon à Chomsky* توضيح طبيعة العلاقة بين التصوّرات اللّغويّة القديمة والتّصوّرات اللّسانيّة الحديثة: «إنّ اللّسانيّات اليوم، مثلها مثل فروع العلم والمعرفة الإنسانيّة الأخرى، ومثل كلّ مناحي الثّقافات الإنسانيّة، عبارة عن نتاج لماضيها، وعبارة عن مادّة لمستقبلها. والأفراد يولدون وينمون ويعيشون في بيئة تتحدّد فيزيائيّاً وثقافيّاً بماضيها، وهم يشتركون معاً في هذه البيئة»(15).

يعبّر عن الموقف نفسه جورج مونان الذي يرى أن أصول اللّسانيّات تضرب في عمق التاريخ الفكريّ والمعرفيّ الإنسانيّ، «إنّ اللّسانيّات الحديثة لم تنبثق فجأة في القرن التاسع عشر كما تنفجر العاصفة في سماء صافية. لقد مهدّت

(14) Léonard Bloomfield: *Le Langage*, p. 9, Paris, Payot, 1972, (V. O1933).

(15) روبنز، **موجز تاريخ علم اللغة**، مرجع سابق، ص19.

لظهورها آراء سابقة في اللّغة، على الأقل منذ مصر القديمة»[16]. إنّ هذا الكلام ردّ مباشر وصريح على موقف بلومفيلد.

وفي سياق آخر، يوضح مونان فكرته السّابقة مشيراً إلى هذه القضية في بعدها التّاريخيّ والمعرفيّ مع ما تطرحه مسألة نشأة اللّسانيّات من اختلافات جوهريّة في رؤيتنا لتحديد تاريخ اللّسانيّات نفسها. يقول: «يختلف تاريخ اللّسانيّات بحسب وجهة النّظر التي قد يتّخذها الباحث، وعليه فإن اللّسانيّات قد تكون نشأت حوالى القرن الخامس قبل الميلاد (يشير إلى اللّغويّ الهنديّ الشهير بانيني Panini)، أو مع بوب Bopp سنة 1816 أو مع سوسير سنة 1916، أو مع تروبتسكوي سنة 1926، أو مع تشومسكي سنة 1956»[17].

ومعلوم أن الأسماء التي ذكرها مونان تُحيل على محطّات هامّة في تاريخ الفكر اللّغويّ قديمه وحديثه، وهي محطّات كان لها أكبر الأثر على تطوّر الدّرس اللّغويّ عموماً وفي اللّسانيّات بصفة خاصّة. وبقدر ما يشكّل هؤلاء الأعلام محطّات تاريخيّة توحي لأول وهلة بالاستمرارية على المستوى الزمنيّ المحض، فإنّها من حيث المضمون النّظريّ للّسانيّات تعكس أيضاً قطائع إبستيمولوجيّة بارزة مكّنت اللّسانيّات من تجاوز ذاتها وتاريخها في آنٍ واحد.

ويلاحظ متتبع تاريخ الفكر اللّغويّ عموماً واللّسانيّات بصفة خاصّة، أنّ اللّسانيّين الذين كان لهم دور الريادة في اللّسانيّات الحديثة، وشكّلوا بدون شك منعطفاً تاريخيّاً حاسماً في تطوّرها، كان لهم موقف إيجابيّ إزاء الإرث اللّغويّ القديم، سيّان في ذلك ما تلقّوه عن غيرهم من اللّغويّين أو الذين عاشوا في كنفه من دون تقبّله كليّاً أو جزئيّاً. هذا ما حصل لسوسير (1857-1913) وتشومسكي (1928 -) وهما من أقطاب اللّسانيّات الحديثة ورُوّادها من دون منازع.

إنّ سوسير الذي يُعدّ في نظر جميع مؤرّخي الفكر اللّغويّ مؤسّس اللّسانيّات، بوصفها علماً مستقلاً له أصوله وقواعده المنهجيّة ومفاهيمه النّظريّة،

(16) G. Mounin: *Histoire de la linguistique des origines au XXième siècle*, p. 32.

(17) G. Mounin: *Clefs pour la linguistique*, Paris, Seghers, 1968, p. 19.

لم يكن مقتنعاً بالآراء التي أذاعها روّاد المنهج التّاريخيّ في دراسة اللّغة إبّان العقدين الأخيرين من القرن التّاسع عشر، رغم أنه عاش في حضن اللّغويّين التّاريخيّين وتتلمذ عليهم. وبالرّغم من خلافه النّظريّ الهامّ معهم، فإنه يُقِرُّ صراحة في «المحاضرات» بقيمة اللّغويّين القدامى، فاللّسانيّات هي استمرار لمراحل لغويّة سابقة حدّدها في ثلاث مراحل أساسية هي:

– النّحو Grammaire: بدأه اليونان وأكمله الفرنسيون مع (بور رويال القرن السابع عشر)، وهو قائم على المنطق. إنه ممارسة معياريّة.

– الفيلولوجيا La philologie: وقد بدأت في الإسكندريّة خلال القرن الثالث ق.م.

– النّحو المقارَن أو الفيلولوجيا المقارَنة La philologie comparée: وبدأت مع فرانز بوب Franz Bopp[18].

وواضح أن سوسير لم يُنكر القيمة العلميّة لأسلافه من يونان ومقارنين وتاريخيّين. تجدُه غير مرّة يَذْكُر فَضْلَهُم وجُهْدَهم في تطوّر الدّرس اللّغويّ الحديث، معتبراً أن الفيلولوجيا مهّدت للّسانيّات التّاريخيّة «وأنّ أعمال النُّحاة المقارنين والتاريخيّين كانت خطوة حاسمة في تاريخ اللّسانيّات»[19].

أما رائد النّحو التّوليديّ تشومسكي، فإنه أرْجع أصْلَ نظريّته التّوليديّة التّحويليّة التي كانت ثورة حقيقيّة على اللّسانيّات الوصفيّة، إلى القرون السّابقة

(18) Ferdinand De Saussure: *Cours de linguistique générale*, Paris, Payot, 1974, 1ière édition 1916, p. 3.

وقد رأى بعض الدّارسين في التّقسيم الذي قدّمه سوسير وما أصدره من أحكام في حقّ كل مرحلة ولاسيّما المرحلة المتعلّقة بالنّحو بأنه تقليل من دور النّحو العامّ لدى جماعة بور رويال في القرن السابع عشر وبأنّ موقف سوسير ينمّ عن نظرة ساذجة إلى تاريخ اللّسانيّات وحكمه مشروط برؤية مبسّطة للتّاريخ العامّ للّسانيّات. انظر:

André Joly: ***F. Thurot: tableau des progrès de la science grammaticale, Discours préliminaire à Hermes***, 1796, Collection Ducros, Bordeaux, 1970, p. 26 note 9.

(19) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 13-14.

وتحديداً إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، عصر ازدهار الفكر العقلاني، لاسيّما في فرنسا مع ديكارت ورهبان بور رويال Port Royal[20]. كما عدّ تشومسكي اللّغويّ والفيلسوف الألماني همبولدت مصدراً أساسيّاً لكثير من أفكاره التّوليديّة، وعنوان كتاب تشومسكي Linguistique cartèsienne 1966 اللّسانيّات العقلانية أو اللّسانيّات الدّيكارتيّة دالّ على احتفاء تشومسكي بالأصول العقلانية لنظريّة النّحو التّوليديّ. ويذهب تشومسكي إلى القول إنّ النّحو التّوليديّ في جوانب عديدة منه تفسير لأوجه الحدس التي لحظها النّحو التّقليديّ ووقف عليها، وأن علوم النّحو التّقليديّة القديمة ليست سوى علوم نحويّة توليديّة تحويليّة بشكل غير صريح [21].

والمتأمّل في أعمال رائدَي اللّسانيّات، (سوسير وتشومسكي) يلاحظ أنّ أعمالهما التي شكّلت محطة تحوُّل كبرى أو قطيعة إبستيمولوجيّة في تاريخ الفكر اللّغويّ كما يقال، ظلّت محتفظة بالكثير من الأفكار اللّغويّة الماضية، على مستوى المفاهيم، والمصطلحات على السواء. فاللّسانيّات البنيويّة والتوليديّة باعتبارهما تصوّرات جديدة، احتفظت بالإرث المصطلحيّ والمفاهيميّ المعروف منذ الفكر اللّغويّ اليونانيّ. إنّ مفاهيم مثل أجزاء الخطاب (اسم، فعل، حرف)، ومفاهيم الجملة بأنواعها ومكوّناتها الدّاخليّة على سبيل التمثيل لا الحصر، وهي مفاهيم قديمة شكلاً ومضموناً تمّ الاحتفاظ بها جاهزة في اللّسانيّات البنيويّة والتّوليديّة على السواء من دون أي تعريف جديد لها، رغم أنّ اللّسانيّات الحديثة عملت على تغيير أساليب ضبطها وتحديدها من الناحية الشّكلية والإجرائية. «إنّ تشومسكي على سبيل المثال لم يقدم دليلاً تركيبيّاً واحداً قط لرتبة أنواع الصّيغ التي تظهر في قواعد نحوه. إنه يَحْدِسُ ببساطة أنّ المصطلحات التي ورثناها من الإسكندريّين (اسم- فعل- حرف) هي الأكثر صحة»[22].

---

(20) N. Chomsky: *La linguistique cartésienne*, Paris, Aux éditions du Seuil, 1966/1969.

(21) مصطفى غلفان وحافيظ إسماعيلي علوي وامحمد الملاخ: **اللسانيات التوليدية: من النّظريّة المعيار إلى البرنامج الأدنوي** (قيد الطبع).

(22) جيفري سامبسون: **المدارس اللغويّة، التطور والصراع**، ترجمة أحمد الكراعين، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، 1993، ص160.

ولم تَسْلَم اللّسانيّاتُ المعاصرةُ بدورها من هذا التفاعل الإيجابي بين مختلف النظريّات اللّغويّة والاتجاهات المشكّلة لها، وهو التّفاعل القائم على التّعديل والاحتواء والتجاوز. وفي هذا السّياق يبدو لكثير من مؤرّخي اللّسانيّات أنّ اللّسانيّات التّوزيعيّة مع بلومفيلد استمرار لتقاليد محدّدة عرفها النّحاة الجدد أو النّحاة الشباب في نهاية القرن التّاسع عشر، وأنّ النّحو التّوليديّ عند تشومسكي أُسِّسَ بدوره على نماذج توزيعيّة. وبَيْنَ اللّسانيّات في صورتها التّوليديّة واللّسانيّات التّقليديّة في صورتها البنيويّة علاقة مباشرة، حيث إنّ اللّسانيّات المعاصرة تعمل في إطار نماذج على درجة عالية من التّجريد والصّوريّة، وتشترط مجموع الحقائق والمعطيات التي تمّت مُلاحَظَتُها في اللّغويّات التّقليديّة. ومن هذا المنظور، فاللّسانيّات المعاصرة ليست علماً قائماً في فراغ، بل هي امتداد حتى للّغويات التّقليديّة[23].

من جهة ثانية، ليس بإمكان متتبع تطوّرات البحث اللّغويّ أن يُنْكِرَ القطيعةَ التي أحدثتها اللّسانيّات مع الفكر اللّغويّ القديم. لقد تمّ التّخلّي عن كثير من الأفكار الفلسفيّة المتعلّقة بأصل اللّغات ونشأتها وما شابه ذلك، إضافة إلى ما جاءت به اللّسانيّات من روح نظريّة ومنهجيّة جديدة قائمة على الوضوح والدّقّة في أدوات التّحليل وتقنيّاته.

إنّ القطيعة مع الفكر اللّغويّ القديم تتجلّى في مجمل المتطلّبات الجديدة التي طرحتها اللّسانيّات والمتعلّقة بتحديد موضوع اللّسانيّات، وضبط المفاهيم والأدوات الإجرائيّة الأساسيّة لمقاربته، علاوة على الرغبة المنهجيّة في استقلالية اللّسانيّات ذاتها والاستفادة من مجالات العلوم الأخرى سواء أكانت علوماً إنسانيّة أم علوماً دقيقة.

يصعب إذن، الحديث عمليّاً عن كون اللّسانيّات الحديثة تشكّل بالفعل قطيعة تامة مع تاريخها، أو أنّها استمرار له. إنّها في ضوء الأمثلة السّابقة على سبيل التمثيل لا الحصر، نموذج فريد في تاريخ العلوم. إنها استمرار وقطيعة في الوقت ذاته. وليس الأمر من باب التوفيق المصطنع بين المتقابلين. إنّ القطيعة

(23) جيرهارد هيلبيش: **تاريخ علم اللغة الحديث**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة 1974/2003، ص150 وما بعدها.

القائمة على الإلغاء التامّ للتصوّرات اللّغويّة السّابقة أو القديمة من حيث هي مفاهيم ومصطلحات لم تتمّ بعدُ في مجال اللّسانيّات.

وفي جميع الحضارات الإنسانيّة نجد اهتماماً باللّغة وإدراكاً لبعض الجوانب الأساسيّة منها، فيما يتعلق ببنيتها الصّوتيّة أو النّحويّة، أو بطبيعتها العامّة باعتبارها نظاماً للتواصل بين أفراد المجتمع. إنّ الحديث عن اللّسانيّات لا يمكن فهمه إلا في الإطار التّاريخيّ للبحث اللّغويّ الإنسانيّ والشروط المعرفيّة العامّة التي أنتجته؛ أي في ضوء الممارسات اللّغويّة السّابقة. والدّليل الواضح على هذا التّداخل الثّقافي في مجال دراسة اللّغة، ما يقف عليه متتبع تاريخ الفكر اللّغويّ من أوجه التّشابه والتّقارب بين الفكر اللّغويّ الإنسانيّ القديم في مختلف الثقافات والحضارات من خلال وضوح مظاهر التّفاعل والتّأثير المتبادل، سواء أتعلّق الأمر بنشأة المباحث اللّغويّة والنّحويّة، أم بالتّشابه الكبير في طرائق التّحليل اللّغويّ، أم بالمواقف الفكريّة العامّة إزاء مشاكل لغويّة معيّنة[24].

3. الفكر اللّغويّ العربيّ: أيّ موقع؟

كيف يمكن النّظر إلى الفكر اللّغويّ العربيّ القديم في إطار التّساؤلات السّابقة؟ وما مكانة هذا الفكر في إطار علاقته باللّسانيّات العامّة؟ من الممكن الإجابة عن هذه المسألة من زاويتين:

- الزّاوية الأولى، وتتعلّق بموقف الفكر اللّغويّ الغربيّ الحديث من نظيره العربيّ القديم.

- الزّاوية الثّانية، وتتعلّق بموقف اللّسانيين العرب المحدثين من هذا الفكر.

3 . 1. في الفكر اللّغويّ الغربيّ

لنتفحص أهمّ الدّراسات التي تناولت تاريخ الفكر اللّغويّ القديم باحثين عن مكانة الفكر اللّغويّ العربيّ القديم فيها.

(24) انظر مثلاً: التشابه الواضح بين البحث اللغوي الهندي والبحث اللغوي العربي لدى: أحمد مختار عمر، **البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب**، دار الثقافة، بيروت، 1972.

خصّ بلومفيلد في كتابه **اللّغة** *Le langage* الصادر سنة 1933 الفكر اللّغويّ القديم عموماً بما يقارب الخمس عشرة صفحة، لم يكن نصيب الفكر اللّغويّ العربيّ منها أكثر من سطرين، أشار فيهما إلى مسألتين:

- أنّ العرب وضعوا على أسس قديمة متداولة قبلهم (إشارة منه إلى تأثير الهنود واليونان في العرب) نحواً للشّكل التّقليديّ للّغة كما ظهرت في القرآن.
- أنّ اللّغويّين العبرانيّين ساروا على نهج العرب في التّأليف والتّحليل اللّغويّين[25].

أما موريس لوروا Maurice Leroy في كتابه: **الاتّجاهات الكبرى في اللّسانيّات** *Les grands courants de la linguistique* (باريس1963) فقد عرض للفكر اللّغويّ القديم قبل ظهور اللّسانيّات، لكنه لم يُشر لا من بعيد ولا من قريب إلى الفكر اللّغويّ العربيّ.

ورغم أنّ كتاب ميلكا إيفيتش Milka Ivic **اتّجاهات البحث اللّسانيّ** Trends in linguistics الصادر سنة 1965[26] يعدّ من أهم الكتب التي رصدت بنوع من التّدقيق والتفصيل تطوّر مسار الفكر اللّغويّ في مختلف الثقافات قبل ظهور اللّسانيّات، فإنه لم يخرج عن المألوف من الآراء الجاهزة والأحكام المسبقة التي كَوَّنَها الفكر الغربيّ عن الفكر اللّغويّ العربيّ القديم.

وتُختَصَرُ صورةُ البحث اللّغويّ العربيّ القديم في كَوْنِ العرب قد ساروا في تقاليدهم النّحويّة على خُطَى النّحاة واللّغويّين الهنود والإغريق، وأنه لَمَّا كان نمط اللّغة العربيّة مختلفاً عن نَمَطِ اللّغة الإغريقية، كانت الطريقة العربيّة في معالجة اللّغة العربيّة مغايرةً لليونان. واهتم النحاة العرب بلغة القرآن الكريم باعتباره الدّافع الأساس للبحث اللّغويّ العربيّ للمحافظة على النّصّ القرآنيّ، وهو ما

(25) Léonard Bloomfield: *Le Langage*, p. 15.

(26) يمكن الرجوع إلى الترجمة العربيّة التي أنجزها سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد لمؤلف ميلكا بعنوان، **اتجاهات البحث اللساني**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1968، ط2، 2000 والكتاب في أصله مكتوب باللغة الصربية، صدر سنة 1963 ومنها ترجم إلى الإنكليزية 1965.

يفسر عناية العرب البالغة بالجانب الصّوتيّ في دراساتهم اللّغويّة. وذاع صيت العرب، بحسب المؤلفة، في مجال الدّراسات المعجميّة لتعلقهم الشديد بلغتهم، لأن اللّغة العربيّة كانت بالنسبة إليهم في نظر ميلكا إيفيتش لغة مقدّسة شأنها شأن اللاتينيّة[27].

ويُعدّ كتاب روبنز: **التاريخ الموجز للسانيّات من أفلاطون إلى تشومسكي** الصادر بلندن سنة 1967، من أهم ما كتب عن المراحل اللّغويّة السّابقة على ظهور اللّسانيّات من حيث العمق والشّمولية. في هذا المؤلّف خصّص روبنز ضمن 250 صفحة، ثلاث صفحات (ص101–103) للفكر اللّغويّ العربيّ القديم تحدث فيها:

- عن اللّغويّين العبريّين في القرون الوسطى.

- التّشابه القائم بين تقديس اللّغة العربيّة واللاتينيّة وما حَظِيَتا به من اهتمام بالغ.

- تأثير المنطق الأرسطيّ والفكر الهيلينيّ في النّحو العربيّ.

- الإشادة بأعمال علماء الأصوات العرب (وخاصة سيبويه) الذين قال عنهم روبنز إنهم تَجَاوَزُوا الغربيّين في هذا المضمار، دونَ أن يصلوا إلى مستوى اللّغويّين الهنود الذين أثّروا فيهم بشكل واضح[28].

وفي كتاب تاريخ اللّسانيّات منذ نشأتها إلى القرن العشرين *Histoire de la linguistique des origines au 20ième siècle 1968* لـجورج مونان، حَظِيَ الفكر اللّغويّ العربيّ بثلاث فقرات ضِمْنَ حديثٍ مُطَوَّلٍ عن الفكر اللّغويّ في القرون الوسطى. وقد ردّدَ المؤلفُ بشأن الفكر اللّغويّ العربيّ جملة من آراء المستشرقين المعروفة في موضوع نشأة النّحو العربيّ وعلاقته بالبحث اللّغويّ الهنديّ والإغريقيّ من دون أن يتبنّى موقفاً صريحاً من هذه المسألة مؤكّداً أهمية الدّراسات الصّوتيّة عند العرب[29]. ويلخّص المؤلّف سمات البحث اللّغويّ العربيّ فيما يلي:

(27) المرجع السابق، ص30-32.
(28) روبنز، **موجز تاريخ علم اللغة**، مرجع سابق، ص102.
(29) Georges Mounin: *Histoire de la linguistique des origines au 20ième siècle*, Paris, PUF, 1973, p. 111.

– النّحو العربيّ نشاط لغويّ فيلولوجيّ أساساً، لأنه حصر اهتمامه في لغة القرآن وفي اللّغة العربيّة المكتوبة.

- إهمال الجانب المتعلق بتطور اللّغة العربيّة.

- تقديس اللّغة العربيّة كما حصل الأمر ذاته بالنسبة إلى اللّغة العبرية[30].

ويرى المؤلف أنّ اللّغة العربيّة منذ نصوصها الأولى حتى القرن العشرين لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر على عكس ما حصل بالنّسبة إلى اللّغة اللاتينيّة. مستنتجاً أنّ اللهجات العربيّة المحلية لن تصل في يوم من الأيام لتكون لغات وطنيّة قائمة في ذاتها، ومكتوبة مثلما حصل بالنسبة إلى اللّغات المحلّيّة التي تفرّعت من اللّغة اللّاتينيّة.

أما جون ليونز John Lyons في كتابه **اللّسانيّات العامّة: مدخل إلى اللّسانيّات النّظريّة**، الصادر سنة 1968 *Linguistique générale: Introduction à la linguistique théorique* بلندن [ترجم إلى الفرنسية لاروس 1970 باريس]، فعرض في سبع صفحات تاريخَ الفكر اللّغويّ قبل ظهور اللّسانيّات العامّة، لم يتجاوز نصيب الفكر اللّغويّ العربيّ منها السطرين، ذكر فيهما المؤلف أنّ النّحو العربيّ أُخِذَ عن السّريان وكان له اتصال مباشر بالفكر الإغريقيّ الرّومانيّ في الأندلس[31]، وأن الفكر اللّغويّ العبريّ تأثر بالنّحو العربيّ[32].

وليس في كتاب **نشأة الفكر اللّسانيّ وتكوينه** *Genèse de la pensée linguistique* لأندريه جاكوب André Jacob: ـ وهو عبارة عن نصوص لسانية ـ أيّ إشارة إلى الفكر اللّغويّ العربيّ القديم[33].

وقد تغيّرت نظرة المؤرخين الغربيّين إلى الفكر اللّغويّ والنّحويّ العربيّ في السّنوات الأخيرة على نحو ما نجد عند كريستيفا Julia Kristiva في كتابها اللّغة ذلك المجهول *Le langage cet inconnu* (1968) أو عند ألان راي Alain Rey في

---

(30) Idem, p. 117.

(31) John Lyons: *La linguistique générale*, Paris, Larousse, 1970, p. 1-17.

(32) Idem, p. 18.

(33) André Jacob: *Genèse de la pensée linguistique*, Paris, Armand Colin, 1974.

النّصوص التي جمعها حول نظريّة العلامة والمعنى *Théorie du signe et du sens* 1973 حيث أورد نصّاً لابن سينا. وقد قدمت كريستيفا صورة إيجابية عن الفكر اللّغويّ العربي عموماً وعن النّحاة العرب في البصرة والكوفة بشكل خاصّ.

2.3. في الفكر اللساني العربي الحديث

من خلال إطلالة سريعة على الأدبيّات اللّغويّة العربيّة الحديثة، ومن دون الخوض في التّفاصيل والجزئيّات، نُشير إلى أنّ مواقف اللّغويّين العرب متباينة بشأن مكانة الفكر اللّغويّ العربيّ. فمن جهة، هناك إشادة قوية بالتّراث اللّغويّ القديم نحواً ولغة ومعجماً[34]. إن كثيراً من اللّغويّين العرب المحدثين يعتقدون أنه لا فرق بين النّحو واللّسانيّات سوى أن الأوّل قديم، وأنّ الثّانيّة جديدة. أما المحتوى فهو نفسه في الحالتين. وكثيرة هي الدّراسات التي تتبنّى هذا الموقف.

ومقابل هذا الموقف الممجِّد للتّراث اللّغويّ العربيّ، نجد عدداً من الباحثين العرب على امتداد القرن العشرين إلى اليوم، ينتقدون أسس الفكر اللّغويّ المنهجيّة مِثْلَما حَصَلَ بالنّسبة إلى اللّغويّين العرب المتأثّرين باللّسانيّات الوصفيّة أمثال تمام حسّان وإبراهيم أنيس وعبد الرحمن أيوب على سبيل التمثيل لا الحصر الذين انتقدوا أسس النحو العربيّ من قياس وعامل وتقدير.

النّقد نَفْسه نَجِدُهُ عند اللّسانيّين العرب المشتغلين في إطار نظريّات لسانيّة حديثة مثل النّحو التوليدي، الذين يَعدّون الفكر اللّغويّ القديم غير صالح لمعالجة قضايا العربيّة، لأنه أصبح متجاوزاً جملة وتفصيلاً. إلا أنّ الجانب السلبيّ في هذه المواقف يتمثل في كون الذين لا يُمَيِّزونَ بين اللّسانيّات والفكر اللّغويّ القديم لم يُقدّموا أيَّ تَصَوُّرٍ أو مقاربةٍ جديدةٍ لمعالجة قضايا اللّغة العربيّة تبعاً للتطوّرات التي حصلت في الدرس اللّغويّ الحديث. ولم يتمكّن التّحليل اللّغويّ العربيّ الحديث بَعدُ من حلِّ كثير من المشاكل التي تعانيها اللّغة العربيّة.

أما اللّسانيّون العرب بمختلف اتجاهاتهم الذين يعتبرون اللّسانيّات تفكيراً لغويّاً جديداً لا علاقة له بالفكر اللّغويّ القديم، فإنهم لم يقدّموا بدورهم أيَّ

(34) مصطفى غلفان: اللّسانيّات العربيّة الحديثة قراءة نقدية تحليلية في الأسس النّظريّة والمنهجيّة، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء، عين الشق، 1998.

بديل لسانيّ حديث للانتقادات التي وجهوها للفكر اللّغويّ القديم، فضلاً عن أنّهم لم يتقيّدوا كُلّياً ببعض مبادئ الدّرس اللّسانيّ الحديث. ولم يتجاوزوا في تعاملهم مع اللّغة العربيّة حُدودَ معطياتِ النّحو العربيّ القديم نفسها. ولم يَتَمَكَّنِ الفكر اللّسانيّ العربيّ الحديث من خلق ثقافة لسانيّة حديثة فاعلة في المحيط العربيّ فكريّاً واجتماعيّاً، على غرار ما فعل النّحو العربي قديماً وحديثاً، ومن ثمّ لم يَتَمَكَّنِ الفكر اللّسانيّ الحديث من مَلْءِ الْحَيِّزِ الفكريّ الهامّ الذي كان وما يزال الفكر اللّغويّ العربيّ القديم يتمتع به في ثقافتنا العامّة والخاصّة.

أما المواقف المتباينة للّغويّين العرب المحدثين، فتتجلّى في كون كثير من الباحثين يُغيِّرُونَ مواقفَهم النّظريّةَ إزاءَ هذا التّراثِ اللّغويّ القديم. فَهُمْ أحياناً يُهاجِمُونَهُ، وأَحْيَاناً أخرى يُشيدُونَ به، وأحياناً كثيرة يَأْخُذونَ عنه مباشرة أو بكيفيّة غير مباشرة كثيراً من المعطيات والتّحاليل لِيُعيدوا طَرْحَهَا بِلُغَةٍ جديدة لا تَخْتَلِفُ كثيراً عن لغة القدماء إلا بتعديلات طفيفة.

ويَظَلُّ الاتجاه الأكثر حضوراً ونُفوذاً في حقل الدّراسات اللّسانيّة العربيّة الحديثة، هو ذلك التيّار الذي يُحاوِلُ التَّوْفيقَ بين الفكر اللّغويّ القديم واللّسانيّات في إطار ما سُمِّي بالقراءة، أي قراءةِ التُّراثِ اللُّغَوِي القَديم فِي ضَوْءِ النّظريّات اللّسانيّةِ الحَديثةِ، وكأن الفكر اللّغويّ القديم لا قيمةَ له، ولا يُمْكِنُ تَقْويمُه أو إدراكه وفهمُه إلا في إطارِ الجديدِ وبالقياس على هذا الجديد الذي هو اللّسانيّات. أكثر من هذا وذاك، نَجِدُ أنَّ مَنْهَجِيَّةَ القراءة المتّبعةَ لدى كثيرٍ من الدّارسين العرب تغيّر رُتْبَةَ العلاقة بين الفكر اللّغويّ العربيّ القديم وبين اللّسانيّات، إذ يصبح الأوّل سابقاً شكلاً ومضموناً على الثانية، وهو ما يعني أنّ إشكاليّة تاريخ العلم وتاريخ العلوم وتاريخ الفكر تسقط دفعة واحدة، وتصبح من دون جدوى في الفكر اللّغويّ العربيّ وهذا موضوع آخر(35).

(35) انظر تفاصيل الفكر اللساني العربي الحديث في: مصطفى غلفان، **اللّسانيّات العربيّة الحديثة قراءة نقدية تحليلية في الأسس النّظريّة والمنهجيّة**، منشورات كلية الآداب الدار البيضاء، عين الشق، 1998. وكذلك حافظ إسماعيلي علوي: **اللّسانيّات في الثقافة العربيّة المعاصرة**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009.

الفصل الخامس

اللّغويّات التّوفيقيّة

تقديم

في ضوء التّوضيحات السّابقة المتعلّقة بإشكالية التأريخ للفكر اللّسانيّ، سواء في إطار تاريخ العلوم أو في إطار اللّسانيّات وحدها، يمكننا أن نقدّم الآن نظرة عامّة عن المسار الذي قطعه الفكر اللّغويّ منذ المحاولات الأولى التي احتفظت بها ذاكرة الحضارة الإنسانيّة. لا يتعلق الأمر بسرد زمنيّ تسلسليّ مليء بالتّواريخ وأسماء المصادر والأعلام والآراء والتصوّرات اللّغويّة القديمة، وإنّما بنظرة عامة تتجاوز حدود الثّقافات اللّغويّة، وتهتمّ بالسّمات والخصائص العامّة للفكر اللّغويّ الإنسانيّ؛ بغضّ النظر عن مصدر الأفكار اللّغويّة المعروضة، وطبيعة محيطها الثّقافيّ والاجتماعيّ. إن تاريخ الفكر اللّغويّ عبر مراحله العديدة يعكس بجلاء ما يلي:

– الانتقال من الاهتمام بالظّواهر الملاحظة معاينة إلى الاهتمام بما هو أقل ظهوراً.

– الانتقال من دراسة الظّواهر المبسّطة إلى الظّواهر المعقّدة.

– التّحوّل من الاهتمام بمبدإ العنصر إلى الاهتمام بمبدإ المجموعات وعناصرها.

– التّحوّل من الوصف المباشر للمعطيات القائم على الملاحظة إلى التّفسير القائم على فرضيّات عامّة.

وتبعاً لما سبق، ليس تاريخ الفكر اللّغويّ سرداً نظريّاً يعتبر نموّ الفكر العلميّ تطوراً طبيعيّاً للأفكار والتصوّرات المعرفية من الحسن إلى الأحسن أو من النّاقص إلى الكامل أو من البسيط إلى المركّب. في هذا السياق، يمكننا أن نُقسّمَ مراحل الفكر اللّغويّ إلى المراحل التالية[1]:

- **المرحلة التوفيقيّة.**
- **المرحلة المقارنة-التّاريخيّة.**
- **المرحلة الوصفيّة.**
- **المرحلة التّفسيريّة.**

بصفة عامة، يمكن القول إنّ المراحل التّوفيقيّة والمقارنة التّاريخيّة التي سيأتي الكلام مفصّلاً عنها في الفصول اللّاحقة تعدّ سابقة للّسانيّات بمعناها الحديث، بينما تُعدّ المرحلتان الوصفيّة والتّفسيريّة من صميم الممارسة اللّسانيّة كما هو متعارف عليها بين المدارس اللّسانيّة بمختلف مشاربها وتوجّهاتها.

تُعنى **المرحلة الوصفيّة** أو ما يُعرف باللّسانيّات الوصفيّة التي بدأت مع سوسير، بدراسة اللّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها باعتبارها بنية مستقلّة. وتستهدف هذه المرحلة دراسة الظّواهر اللّغويّة باعتماد الأسس المنهجيّة التالية:

- ملاحظة أكبر عدد ممكن من الوقائع اللّغويّة ملاحظة موضوعية.
- تجميع الوقائع وتصنيفها بغية تنظيمها وترتيبها في مقولات وأقسام متجانسة.
- وصف الوحدات اللّغويّة الدّالّة والمميّزة.
- دراسة العلاقات القارّة بين مختلف الوحدات في مختلف المستويات.

(1) لتصوّر مغاير في التعامل مع الفكر اللّغوي يمكن الاطّلاع على مقدمة أندريه جاكوب في كتابه:
André Jacob: *Genèse de la pensée linguistique*, Paris, Armand Colin, 1974.

البحث عن الثّوابت الممكنة وتحديد القوانين العامّة (أنساق البنيات)[2].

وقد لعب سوسير ومن جاء بعده من اللّسانيّين البنيويّين أوروبيّين وأميركيين دوراً طليعيّاً في إرساء دعائم المرحلة الوصفيّة.

أما **المرحلة التّفسيريّة** التي دَشَّنَها تشومسكي ابتداء من سنة 1957 في كتابه **البنيات التركيبية** *Structures syntaxiques* فتتجاوز الملاحظة والتصنيف والوصف مستهدفة تفسير الظّواهر في إطار فرضيّات عامّة لا تتعلّق بلسان محدّد، وإنّما باللّغة البشريّة[3].

1. المرحلة التّوفيقيّة

1.1. في التّسمية والتّحديد الزّمنيّ

تتحدد المرحلة التّوفيقيّة زمنيّاً في الفترة الممتدّة من القرن العاشر قبل الميلاد إلى حدود منتصف القرن الثّامن عشر، لتشمل بذلك بحسب الوثائق والحفريّات المتوافرة مجمل المساهمات اللّغويّة التي عرفتها أقدم الحضارات الإنسانيّة بدءاً بالسّومريّين والأكّديّين والمصريّين والهنود مروراً باليونان والعرب ثم القرون الوسطى فمرحلة النّهضة الأوروبيّة الحديثة.

تطلق صفة **التّوفيقيّة** على هذه المرحلة؛ لأنها كانت في نظرنا، تُوفِّقُ بين البحث في اللّغة وقضايا فكريّة أخرى. فلم يكن البحث اللّغويّ فيها مستهدفاً لذاته، وإنما كان لغايات أخرى قد تقترب من اللّغة وقد تبتعد عنها. ومردّ ذلك؛ أنّه كان يُنْظَرُ إلى اللّغة بوصفها جزءاً أساسيّاً ومَركزيّاً في المحيط السّياسيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ. «إنّ العمل اللّسانيّ جميعه مِمّا تَمَّ إنجازه قبل بداية القرن التّاسع عشر، كان إمّا مُكَرَّساً لِحَلِّ المُشْكِلاتِ العمليّة للّغة في مجتمع بعينه، وإمّا أنّه كان إنجازاً قد تَمَّ في إطار هموم فلسفيّة أكثر اتّساعاً؛ أي هموم غير

(2) Enrico Arcaini: *Principes de linguistique appliquée*, Paris, Payot, 1972/1968, p. 21.

(3) انظر كتابنا في اللّسانيّات التوليدية بمساهمة حافيظ إسماعيلي علوي وامحمد الملاخ (قيد الطبع).

لسانيّة. باختصار، يمكن القول إنّه قبل القرن التّاسع عشر، لم يَكُنْ للّسانيّات وجود بوصفها مجالاً معرفيّاً مُتَمَيِّزاً لَهُ مَنْهَجُهُ العمليّ ونظريته العامّة الرّاسخة الأساس»[4].

وتتعدد الغايات والأهداف المتوخّاة من دراسة اللّغة في الفكر اللّغوي التّوفيقيّ بنسب متفاوتة بحسب اللّغات؛ وطبيعة كلّ ثقافة على حدة والعوامل المؤثّرة فيها. ومن هذه الغايات نذكر:

- الغاية الدّينيّة؛
- الغاية الفلسفيّة.
- الغاية الفيلولوجيّة.

2. الغايات

1.2. الغاية الدّينية

يعدّ الهنود من أقدم الأمم التي بحثت قضايا اللّغة لغاية دينيّة[4] وقد حصل هذا ابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد. فقد كان الهنود يقدّرون لغتهم ويقدّسونها باعتبارها لغة أوّل ديانة على الأرض. واللّغة السّنسكريتيّة لغة كتابهم المقدّس (الفيدا) هي في اعتقادهم من صنع الإله «إندرا» الذي أعطى كلّ الكائنات والأشياء أسماء خاصة بها. وترتّب على هذا الاستعمال الشّعائري للّغة الهنديّة جملة من المشاكل اللّغويّة، فقد كانت نصوص الفيدا تنقل بكيفيّة شفويّة ممّا جعلها تعرف عبر تاريخها الطّويل تغييرات هامّة وصلت إلى درجة ظهور عدة لهجات محلّيّة تختلف فيما بينها بنسب متفاوتة عن اللّغة السّنسكريتيّة الأولى التي انحدرت منها. لذا كان هدف النّحاة الهنود في معالجتهم اللّغويّة للسّنسكريتيّة، البحث في الوسائل العمليّة الكفيلة بالحفاظ على كتابهم المقدّس

(4) ليس لدينا في الثّقافة اللّغويّة العربيّة الحديثة، بحسب علمي المتواضع، كتاب يؤرّخ للبحث اللّغويّ عند الهنود إلا مؤلّف المرحوم أحمد مختار عمر: **البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب**، بيروت، 1972، وهو على أهمّيّة لا يكفي للاطّلاع على التراث اللّغوي الهندي، في حين يتوافر في المكتبات الإنكليزيّة والألمانيّة عدد من المؤلّفات العلميّة ذات المستوى العلمي الرفيع التي تحدّثت عن هذه الحقبة بكثير من التفصيل والدّقّة، وبكثير من الإعجاب والتقدير كذلك.

الفيدا Veda من اللّحن والتّحريف الصّوتيّ، أثناء التّرانيم (القراءة الجماعيّة) في المعابد، إذ لا تكون الطّقوس الهنديّة تامّة إلا بالقراءة الجماعيّة للنّصّ الدّينيّ قراءة سليمة. «وقد قدّم نحاة الهند نصائح عامّة للقارئ كي يتمكّن من تصحيح نطقه، ووضعوا شروطاً لجودة القراءة تتمثل في صحة أعضاء النّطق؛ وسلامة الشّفتين والأسنان وصفاء الحَنْجَرة، ثم هدوء المزاج وعدم الاضطراب، والتّباعد في حذف الأصوات، والمبالغة في النبر والخطإ في التنغيم، وأخيراً التخلص من بعض العادات الكلاميّة القبيحة؛ وتمييز بداية الحديث من نهايته»[5]. هذه الأهداف الدّينيّة تفسّر ولا شك؛ العناية الفائقة التي أولاها اللّغويّون الهنود للجانب الصّوتيّ في تناولهم للّغة السّنسكريتيّة. وتظهر القيمة العملية للبحث اللّغويّ الهندي من الأبجدية السّنسكريتيّة التي تشبه إلى حد بعيد الكتابة الصّوتيّة من حيث قدرتها المذهلة على مطابقة النّطق المرغوب فيه بطريقة دقيقة للغاية[6]. وقد بلغ العمل اللّغويّ الهنديّ قمّته مع العالم بانيني Panini (القرن الخامس قبل الميلاد أشهر نحاة الهند على الإطلاق). وقد حدّد بانيني في كتابه، المعروف بالمثمّن لأنه ذو ثمانية أجزاء، معايير اللّغة السّنسكريتيّة، ووصف كل مكوّناتها بدقّة متناهية وغير مسبوقة، في إطار تصوّر نسقي يشبه إلى حدّ كبير المقاربة البنيويّة الحديثة، وقد أثار انتباه العديد من اللّسانيين البّنيويين أنفسهم وفي مقدمتهم بلومفيلد الذي اعتبر نحو بانيني أحد أكبر المعالم على ذكاء الإنسانيّة[7]. وتضمن عمله ما يناهز الـ 4000 قاعدة نحوية رُتّبت بشكل منسق بحيث لا تفهم القاعدة الواحدة إلا بالرجوع إلى سابقتها. وتميزت لغة كتابة هذه القواعد بالصّوريّة والتجريد مما جعلها تشبه قواعد الحساب[8]. ولكتاب بانيني شروح عديدة أشهرها شرح pantajali المعروف بأعظم الشروح. وبصفة عامّة كان الدّرس اللّغويّ الهنديّ ذا غاية دينيّة سعى إلى تحقيقها بكيفيّة تعليميّة تروم التّقنين الموجز والدّقّة في التّعبير.

---

(5) أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند الهنود، ص47.

(6) المرجع السابق، ص22-27.

(7) L. Bloomfield: *Le langage*, p. 16.

(8) جورج مونان، تاريخ علم اللغة، ص64 وانظر في كتاب أحمد مختار عمر، ص35-36 مقتطفات موجزة من إطراء اللغويين المحدثين على عمل بانيني.

نَجِدُ الغايةَ الدّينيّةَ حاضرةً أيضاً في الفكر اللّغويّ العربيّ. فقد شَكَّلَ القُرْآنُ الكريم ـ كما هو معروف ـ منطلقاً حقيقيّاً للدّراسات النّحويّة واللّغويّة عند المسلمين. وكان الخوف على القرآن الكريم من لحن الشّعوب الحديثة العهد باللّغة العربيّة، والعرب المقيمين بالحواضر الإسلاميّة الجديدة دافعاً قويّاً للتفكير مليّاً في كل ما يمكن أن يُحافِظَ على سلامة تِلاوَةِ القرآن ومن خلاله المحافظة على اللّغة العربيّة. وحتى بعد قيام الدّولة الإسلاميّة ونشأة المجتمع العربيّ الجديد، ظلّ النّصّ القرآنيّ مِحْوَراً لا مَحيدَ عَنْه لكل الأبحاث اللّغويّة العربيّة. لقد كانت الغاية النّهائيّة من وراء البحث في اللّغة العربيّة الفهمَ الصحيح للقرآن الكريم بوصفه كتابَ تَشْريعٍ دينيّ ودنيويّ. وعُدَّ البحثُ في اللّغة العربيّة ونحوها مَدْخلاً للعلوم الدّينيّة والشّرعيّة من فِقْهٍ وأُصولٍ وتفسيرٍ لِلْقُرْآن والحديث النّبويّ وغيرِها من العلوم. ومن العلماء اللّغويّين المسلمين من عَدَّ البحثَ في اللّغة العربيّة واجباً دينيّاً. يقول أبو منصور الثّعالبيّ (350-430 هـ) **في فقه اللّغة**[9] «من أحبّ الله تعالى أحبّ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، ومن أحبّ الرسول العربي أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ العربيّة التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحبّ العربيّة عُنِيَ بها، وثابر عليها، وصرف همّته إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه حسن سريرة فيه، اعتقد أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم خير الرسل، والإسلام خير المِلل، والعرب خير الأمم، والعربيّة خير اللّغات والألسنة، والإقبال على تفهّمها من الدّيانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التّفقّه في الدّين وسبب إصلاح المعاش والمعاد».

وتحضر الغاية والدوافع نفسها في البحثِ اللّغويّ إبّان النّهضة الأوروبيّة، حيث شكّلت اللّغةُ اللّاتينيّة بصفتها لغةَ الكنيسة مِحْوَرَ عناية اللّغويّين واهتمامهم. وكان الهدفُ من وراء الدّرس النّحويّ واللّغويّ في هذه الفترة تَعليمَ اللّغة اللّاتينيّة الذي كان يُعَدُّ واجباً دينيّاً. وكَمَا هوَ الشأنُ بالنّسبة إلى الثّقافة العربيّةِ التي ظلّتْ

---

(9) أبو منصور الثعالبي، **فقه اللغة وسرُّ العربيّة**، حققه ورتبه ووضع فهارسه، مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ط3-ط1/ 1938.

مرتبطة بالنّصّ القرآني باعتباره مصدراً أوّليّاً للمعطيات اللّغويّة المُمَثِّلَةِ للّغة العربيّة، فإنّ الدّرسَ اللّغويَّ في أوروبا القرون الوسطى عرفَ الوضعَ نفسَه من خلال عودة اللّغويّين والنّحاةِ المستمرة للنُّصوصِ الدّينيّةِ القديمة والاستنادِ إليها لدَعْمِ القواعدِ النَّحْويَّةِ وَاللُّغَويَّةِ المقترحة. ومن الأمثلة التي تروى في هذا السياق أن «رئيس دير فرنسيّ في القرن التّاسع، كان حريصاً على أَخْذِ الأمثلةِ التي يستعملها في محاضراته عن القواعد من الكتاب المُقَدَّسِ حتى يتفادى اسْتِيَاءَ رِجَالِ الدين»[10].

2.2. الغاية الفلسفيّة

قد يَبْدو لأوّل وَهْلَةٍ أَنّ التّراثَ الفكريَّ الذي خَلَّفَهُ الإغريقُ لا يَتَضَمَّنُ تفكيراً لغويّاً قائماً في ذاته. هذا الاستنتاج صحيحٌ إلى حدّ ما. فالتفكير اللّغويّ عند اليونان لم يَنْسَلِخْ قَطُّ عن الفكر الفلسفيّ الذي احتواه ووَجَّهَهُ، فقد كانت الغايةُ من البحث في اللّغة خِدمةَ القضايا الفلسفيّة، المتمثّلة في طبيعة الأشياء، مما جعل البحث في اللّغة عموماً وفي اللّغة اليونانيّة خصوصاً، جزءاً غير منفصل عن البحث في الميتافيزيقا والمنطق والخطابة والجدل وحتى الأدب. وكان تعليم اللّغة الإغريقيّة والرومانيّة مرتبطاً بتلقين فنون الخطابة والكتابة لتدبير الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة في كبريات الحواضر اليونانيّة والرومانيّة.

ويمكن القول مع بلومفيلد بأنّ الفكر اليونانيّ يُقَدِّمُ لنا أفضلَ معرفةٍ عن اللّغويّات التّقليديّة، بالرّغم من أن أُولى الكتابات النَّحْويَّةِ التي وصلت إلينا من اليونان تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد مع ديونوس دو تراكس Dionysius de Thrax (توفي حوالى سنة 90 قبل الميلاد) وأبولينوس ديسكولوس Appolinus Dyscolus في القرن الثاني بعد الميلاد[11]. فإلى دو تراكس صاحب كتاب

---

(10) روبنز، موجز تاريخ علم اللغة، مرجع سابق، ص125 ويعدّ هذا الكتاب في نظرنا من أفضل ما ألّف عن المباحث اللغويّة عند الإغريق وضوحاً وعمقاً. انظر من ص31-90. كما يمكن الاطلاع على ما ورد عند أحمد مومن، اللّسانيّات: النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2002 ففيه عرض مفصل عن الدّراسات اللّغويّة عند الهنود واليونان والرومان والعرب إضافة إلى عصر النّهضة وما بعدها، ص10-62.

(11) Leonard Bloomfield: *Le Langage*, p. 9.

وللوقوف على آثار هذا النّحويّ اليونانيّ البارز يمكن الاطّلاع على الكتاب التالي: =

Techné grammatiké يرجع الفضل في وضع معظم المصطلحات النّحويّة واللّغويّة التي استعملها الغرب في نحوه التّقليديّ لوصف اللّغات اللاّتينيّة والإغريقيّة لاحقاً وهي المصطلحات التي تمّ نقلها إلى اللّغات الأوروبيّة الحيّة في عصر النّهضة وما بعدها.

والحقيقة أنّ مُحَاوَراتِ أفلاطون (427-347 ق.م) وكُتُبَ أرسطو (384-322 ق.م) في المنطق والخطابة والشّعريّة (شعريّة الأدب) وفلسفة الرّوَاقيِّينَ Stoïciens وجدل السّوفسطائيّين Sophistes تُبَيِّنُ بوضوح مدى ارتباط المباحث اللّغويّة عند الإغريق بالمباحث الفلسفيّة التي خاضُوا فيها وبها عُرِفُوا واشْتُهِرُوا. وكانت الفلسفة اليونانيّة عند هؤلاء تَشْمَلُ مجالات أوسع وأشمل مما تُفيدُهُ كلمةُ «فلسفة» في عصرنا الحاضر، إذ كانت تتضمن البحث في الفلك والفيزياء والرّياضيّات والأخلاق والسّياسة والمنطق والميتافيزيقا والتّاريخ الطّبيعي وغيرها من المعارف. ففكرة الأجناس (genre) التي باتت أوّليّة في كلّ التحليلات النّحويّة اللاّحقة والمتمثّلة في التّمييز بين المذكّر والمؤنّث تعود في أصلها إلى الفيلسوف بروتاغوراس كما تنسب إليه آراء نحويّة أخرى منها تحديد معاني الجمل من إثبات وأمر ونهي واستفهام وتمنّ إلخ[12].

إنّ نظريّة المعرفة عند أفلاطون (Théorie de la connaissance) كما تُجَسّدُها محاورة كراتيلوس Cratyle[13] تناقش قضايا تَرْتَبِطُ إجمالاً بِمَعْرفة الأشياء

= Emile Egger: *Apollinos Dyscole: Essai sur l'histoire des théories grammaticales dans l'Antiquité*, Paris, A. Durant Libraire (1854), p. 41 et suivantes.

(12) روبنز، موجز تاريخ علم اللغة، مرجع سابق، ص58 ومابعدها.

(13) Platon: *Cratyle*, traduit et noté par E. Chambry, Paris, Garnier Flammarion, 1967, p. 430 et suivantes.

يمكن الرجوع إلى هذه المحاورات باللغة العربية ضمن المصادر التالية:
- أفلاطون: محاورة كراتيلوس (في فلسفة اللغة)، ترجمها وقدم لها بدراسة تحليلية الدكتور عزمي طه السيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة، عمان، 1995 (201 صفحة).
- أفلاطون: محاورة بروتاغوراس، (في السوفسطائيين والتربية) ترجمة عزت قرني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001، (183 صفحة).
- أفلاطون: محاورة جورجياس، ترجمها عن الفرنسية محمد حسن ظاظا، راجعها علي سامي النشار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1970.

وإدراكِها في العالم الخارجيّ في إطار إشكال علاقة اللّغة بالفكر. وقد حاول أفلاطون من خلال المحاورة الإجابةَ عن جُمْلَةٍ من التّساؤلات الفلسفيّة المتعلّقة بنوع العلاقة القائمة بين اللّفظِ والمعنى: هل هي طبيعيّة أم اعتباطيّة؟ وعمل أفلاطون في هذه المحاورة وفي غيرها على تنقيح آراء سابقيه من فلاسفة اليونان (سقراط وبروتاغوراس) والدّفع بها إلى مستوى عالٍ من التّحديد والضّبط. فإلى أفلاطون ينسب التّمييز بين الجمل الفعليّة والجمل الاسميّة والتّمييز بين الأسماء والأفعال وذلك بالنّظر إلى طبيعة كل منهما وما يدلّان عليه من حدث أو صفة. ودرس أفلاطون كذلك قضايا لغويّة عامّة تتعلق بالاقتراض اللّغويّ والتّداخل اللّغويّ وتطوّر دلالة الكلمات ومعانيها. وفي أعمال أفلاطون أيضاً أمثلة للعديد من القضايا اللّغويّة التي ناقشها فلاسفة اليونان في خضم البحوث الفلسفيّة اليونانيّة والمتعلّقة بأصل اللّغات وكيف وصلت إلينا والبحث في اطّراد الظّواهر اللّغويّة وشذوذها[14]. وتَلْتقي بعض هذه الإشكالات الفلسفيّة في كثير من جوانبها مع العديد من القضايا التي تناولها اللّسانيّون المحدثون في إطار الدّرس اللّسانيّ والسّيميائيّ حول العلامة اللّسانيّة *Signe linguistique* ومع بعض قضايا الدّلالة عموماً والدّلالة المعرفية بصفة خاصّة[15].

ويُعدُّ ما قام به أرسطو تطويراً لما قَدَّمَهُ أفلاطون وغيره من أفكار عامّةٍ حول اللّغة وقضاياها. إنّ منطق أرسطو في الواقع نحو خاصّ باللّغة الإغريقيّة. والمقاربة المنطقيّة الفلسفيّة للُّغة عند أرسطو بادية بوضوح. فهو في منطقه المشهور يُعَرِّف الاسم بأنه اللفظ الذي لا يدخل الزمن في مدلوله، ولا يدلّ جزء منه مستقلّا عن الأجزاء الأخرى، والاسم لا يوصف بالصدق أو الكذب إلا إذا أسند. ومعلوم أن عبارة الصدق والكذب تستعمل في المنطق وتحليلاته وليس في الدّراسة النّحويّة. وأرسطو حين يتكلم عن الإثبات والنّفي، فهو يتناولهما من وجهة منطقيّة لا علاقة لها بأبواب النّحو المعروفة[16]. واهتمام أرسطو بمعرفة الأشياء على الطريقة الفلسفيّة دفعه إلى البحث بعمق في كينونة المفاهيم اللّغويّة.

---

(14) Platon: *Cratyle,* traduit et noté par E.Chambry.

(15) Alain Rey: *Théorie du signe et du sens*, tome 1, Klincksieck, Paris, 1973.

(16) تمّام حسّان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدّار البيضاء، 1974/ 1957، ص15.

فقد أقام أرسطو تفكيره في اللّغة على أساس فلسفيّ يحكمه مبدآن أبانا عن فعاليتهما التّصوّرية والمنهجيّة في فكر أرسطو الفلسفيّ والمنطقيّ، هما التعريف والعلّة؛ مما سمح له بإعادة النّظر في كثير من المفاهيم التي تداولها أسلافه اليونان. فمبدأ التّعريف يسمح بتحديد ماهيّة الأشياء، بينما يمكّن مبدأ العلة من الوقوف على العلل المؤثّرة فيها (تعرف الأشياء بعللها). وتميّز البحث اللّغويّ عند أرسطو كذلك بالتّخلّي عن الخوض في الكثير من القضايا اللّغويّة ذات الطّابع العامّ التي بحث فيها أفلاطون ومنها الاشتقاق اللّغويّ وأصل اللّغات وتتبع أصول معاني الكلمات ودلالتها.

ومن القضايا اللّغويّة الهامّة التي عرفها الفكر الفلسفيّ اليونانيّ المواجهة بين القائلين بطبيعة العلاقة بين الكلمة ومعناها. لقد كان الفلاسفة الطبيعيّون، ومنهم أفلاطون[17] يعتقدون أنّ شكل الكلمات يمكنه أن يدلّنا على أصلها وعلى معناها الحقيقيّ، ذلك أن اللّغة انحدرت من أصل تحكمه قوانين ثابتة لا تتغيّر. إنّ اللّغة منطقيّة وعقلانيّة، لذلك فإنّ العلاقة بين الكلمات وما تدلّ عليه لا يمكنها أن تأتي إلا على هذا المنوال، مما يُعد كلّ اعتباطية في تحديد العلاقة بين الكلمات وما تدلّ عليه. لا يمكن دائماً التّوصل إلى معرفة حقيقة العلاقة بين الكلمات والأشياء لاسيّما في عالم الحواسّ، باعتبار اللّغة جزءاً من العالم المثاليّ في نظر أفلاطون. إنّ كلمات اللّغة وضعت قبليّاً لتلبّي حاجات الإنسان الضروريّة في التّواصل والاتّصال. وكان الأبيقوريّون يعتبرون اللّغة ملكة شبه غريبة عن العقل، شبيهة إلى حدّ ما بما يكون لدى الحيوان عند ولادته لتلبية حاجات الحياة[18]. ودافع الرّواقيّون بدورهم عن طبيعيّة اللّغة الإنسانيّة، قائلين إنّ الأصل الطّبيعيّ للمفردات اللّغويّة هو كونها محاكاة للأصوات ورمزاً لها. وقد «جعلوا من الأنوماطوبيا المبدأ المولّد والخلّاق لجميع كلمات اللّغة»[19]. وأمّا الفلاسفة الاصطلاحيّون فكانوا يرون أنّ العلاقة بين الكلمة ودلالتها لا تعدو أن تكون

(17) حيث يذهب أفلاطون إلى القول بأنّ «الاسم محاكاة للشيء» *Cratyle*, p. 431, p. 452 et p. 457.

(18) Emile Egger: *Apollinos Dyscole: Essai sur l'histoire des théories grammaticales dans l'Antiquité*, p. 62.

(19) Idem, p. 62.

مجرّد اصطلاح بين مستعملي لغة معيّنة. وتبنّى أرسطو القول باصطلاحيّة اللّغة معتبراً أنّ اللّغة اصطلاح وتعاقد اجتماعي قائم على العُرف والتّوافق[20].

ووقف الفيلسوف أبيقور Epicure (341-270 ق. م) موقفاً وسطاً بين الرأيين السّابقين معتبراً أنّ صِيغَ الأشكال اللّغويّة نَشَأَتْ أوّل الأمر طبيعيّاً، ثمّ تغيّرت لاحقاً عن طريق العُرْفِ والاصطلاح.

واتّخذت البلاغةُ مع السّوفَسطائيّين في القرن الخامس قبل الميلاد بعداً لغويّاً متميّزاً حيث تمّت دراسة البلاغة وقضاياها من منظور عمليّ، بكيفيّة احترافيّة جعلت منها وسيلةً إجرائية وفَعّالَة للإقناع والتّأثير الفكريّ والاجتماعيّ والسّياسيّ في المنابر السّياسيّة والأوساط الشّعبيّة. وقد جاء على لسان جورجياس في محاورة أفلاطون التي تحمل اسمه وموضوعها «البيان والخطابة والدّور الذي يقوم به البلاغيّ في تلقين البيان باعتباره فنّ الأقوال»: «إنّي أعني القدرة على إقناع المرء بواسطة: القضاة في محاكمهم والشيوخ في مجلسهم وفي الجمعية الشّعبيّة وكذلك في كلّ اجتماع يجتمع فيه المواطنون، وتستطيع بهذه القدرة أن تسخّر كلّا من الطبيب ومدرّب الألعاب. أما بالنّسبة لرجل الأعمال الشهير سيدرك النّاس أنّه لا يكدس المال من أجل نفسه، بل من أجل الغير، من أجلك أنت الذي تعرف كيف تتكلم وكيف تقنع الجماهير»[21]. وقد وصل اهتمام اليونان بهذا الضّرب من المعرفة اللّغويّة أنّهم كانوا يؤدّون مبالغ ماليّة مرتفعة لاكتساب البيان وتعلّمه، البيان الذي هو «عامل إقناع والقدرة على توليده في النفوس»[22]. وبهذا أصبح «السّوفسطائي عَالِماً في جعل الشّخص ماهراً في الكلام»[23] وتعدّ هذه الفترة الحقبة الذّهبيّة للمباحث البلاغيّة والخطابيّة وما ارتبط بها من الأساليب الحِجاجيّة كالبيان والاستدلال والبرهان[24].

---

(20) J. Lyons: *Linguistique générale*, p. 9-10.

(21) أفلاطون: محاورة جورجياس، ص40.

(22) المرجع السابق، ص41.

(23) أفلاطون: محاورة بروتاغوراس، ص70.

(24) انظر محاورة جورجياس *Gorgias* ضمن المصدر المشار إليه سابقاً باللغة الفرنسية، والذي يضم محاورات أفلاطون كاملة في مجلد، ص164-284.

وكان للفلسفة الرواقية وفلاسفتها (أسّس هذه الفلسفة الفيلسوف زينون في أثينا سنة 308 ق.م) دور كبير في تنمية البحث اللّغويّ وتطويره. وقد عدّهم روبنز[25] من أكثر المدارس أهمّيّة في تاريخ العلوم اللّغويّة عموماً، وفي الفكر اليونانيّ بصفة خاصّة. وخصّ الرواقيون اللّغة بكتابات ودراسات مستقلّة، واضحة المعالم ومنظمة تنظيماً لم يُسْبَقُوا إليه. وبفضل أعمالهم حقّقت الدّراسة اللّغويّة نوعاً من الاستقلال والتّميّز داخل الحقل الفلسفيّ، وأصبحت تحتلّ مكانة مركزيّة في النّسق الفلسفيّ عموماً وفي الفلسفة الرّواقيّة خصوصاً. ومن آرائهم اللّغويّة:

– تفسيرهم الانطباعيّ لعمليّة اللّغو عند الفرد. «في بداية الأمر يتم الإدراك عن طريق الانطباع، وبعد ذلك يعبّر العقل بالكلمات مستفيداً من هذه التّجربة النّاشئة عن الانطباع. وكلّ الأشياء يمكن إدراكها عن طريق الدّراسة الجدليّة، وبالتّالي يتعيّن أن تبدأ دراسة الفلسفة من الوجهة الصحيحة وهي دراسة الجدل في جانبه الذي يبحث في الكلام»[26].

– قولهم بثنائيّة الصّيغة والمبنى وكذلك تمييزهم الواضح بين الدّالّ والمدلول والمدلول عليه والقول باعتباطيّة العلاقة بين الدّالّ والمدلول بشكل قريب جداً مما قال به دو سوسير في بداية القرن العشرين.

– تطوير تقسيم أرسطو الكلمة إلى سبعة أقسام، فقد «قام الرّواقيّون بتوضيح تصنيف أرسطو للكلمات والمقولات النّحويّة توضيحاً جعلها أكثر دقّةً وضبطاً وذلك في اتّجاهين:

– الزّيادة في عدد أقسام الكلمات.

– تقديم تعريفات أكثر دقّة لهذه الأقسام وإضافة مقولات نحويّة تغطّي جانباً من الصّرف وتغطّي أيضاً جزءاً من تركيب تلك الأقسام للكلمة.

– وضع مفهوم الحالة الإعرابيّة، وتقسيمها إلى حالات تتعلّق بالأسماء وأخرى بالأفعال وبعضها الآخر بالصّفات وما يندرج تحتها، كما أنّهم جعلوا

---

(25) روبنز، موجز تاريخ علم اللغة، مرجع سابق، ص41.
(26) المرجع السابق، ص42.

الحالة الإعرابية مميّزاً فاصلاً بين الأسماء والأفعال. وتُنسب إلى الرّواقيّين جميع التّفريعات المتعلّقة بالأفعال وتقسيمها إلى أفعال تامّة وغير تامّة وأفعال مبنيّة للمعلوم وأخرى للمجهول وأفعال لازمة وأخرى متعدّية[27].

وإجمالاً أقام اليونان وبعدهم الرّومان صرح الدّراسات اللّغويّة التّقليديّة التي ظلّت قائمة على التّصوّر والنّهج نفسهما في المفاهيم والتّحليل في العصور اللاّحقة، فكان أن قسّموها إلى نحو وصرف واشتقاق وصناعة معجمية ودراسة أسلوب وبلاغة. وما زالت هذه الفروع بتفاصيلها وجزئيّاتها متّبعة إلى اليوم في دراسة جلّ اللّغات العالميّة وتعليمها.

والدّراسات اللّغويّة اليونانيّة رغم خصب تصوّراتها وتعدّد موضوعاتها وإشكالاتها، وتنوّع مصادرها الفكريّة، لم تتجاوز مجال البحث في بنيات اللّسان اليونانيّ، وبالتالي، لم يتمّ التّأمّل في بنيات ألسن أخرى، أو في الطبيعة العامّة للّغة البشريّة. بهذه المميّزات لم تتمكّن الثقافة اليونانيّة من المساهمة في قيام تفكير عام حول اللّغة[28].

2.3. الغاية الفيلولوجيّة[29]

تتجلّى هذه الغاية عند كثير من العلماء اللّغويّين القدماء الذين كانوا يرومون من وراء البحث في اللّغة القديمة دراسة النّصوص القديمة بمختلف أنواعها والتحقّق من مصدرها للكشف عن حقائق مَعْرِفِيّة أخرى لغويّة وتاريخيّة وأدبيّة وغيرها. وللوقوف على طبيعة البحث الفيلولوجيّ الذي استمرّ حتّى عهد غير بعيد منّا، يتعيّن توضيح الإطار المعرفي العامّ الذي ساهم في بروز وتطوّر هذا النّوع من النّشاط اللّغويّ الهامّ والمفيد والمختلف شكلاً ومضموناً عن البحث اللّسانيّ الحديث بمعناه الدقيق.

لقد تميّز الوضع اللّغويّ اليونانيّ القديم بتعدد لهجاته المحلّيّة نتيجة اتّصال

---

(27) المرجع السابق، ص62.

(28) L. Bloomfield: *Le langage*, p. 11.

(29) سنعود إلى الحديث عن العلاقة بين اللّسانيّات والفيلولوجيا في الفصل الثامن اللّسانيّات: تحديد المصطلح والمجال.

اليونان بالشّعوب المستعمَرة في كلّ من آسيا ومصر واحتكاك المجتمع اليونانيّ بها سياسيّاً وتجاريّاً. وتحتوي اللّغة اليونانيّة نفسها على العديد من المفردات ذات الأصول الأجنبيّة. وعرف المجتمع اليونانيّ أفراداً يتكلّمون لغات أخرى إضافة إلى لغتهم الأصليّة. ولا تقدّم لنا الأدبيّات اليونانيّة القديمة ما يساعدنا على فهم مدى اهتمام الإغريق باللّغات الأجنبيّة، سوى كلمة *Barbare* التي احتفظت بها اللّغة اليونانيّة نفسها، وهي الكلمة التي تدلّ في اللّغة اليونانيّة على كل الشّعوب التي كانت تتكلم لغة غير مفهومة؛ أي كلّ لغة أخرى غير اللّغة اليونانيّة.

هذا التّعدّد اللّهجيّ اليونانيّ وَحِدَّةُ الحروبِ التي خاضها اليونان ضد الشّعوب الأجنبيّة، سواء دفاعاً عن بلادهم أو رغبة في التّوسّع. ورغم اعتراف المجتمع والثّقافة اليونانيّين بالتّعدّد اللّهجيّ وتنوّعه، فقد أصبحت لغة أثينا اللّغة النّموذجيّة المشتركة *Koiné*، لأنها كانت وحدها لغة التّعامل في مرافق الإدارة والتّجارة والتّعليم، مقلّصة بذلك دور اللّهجات المحلّيّة التي كانت في معظمها لهجات منطوقة فقط.

وعملت الفتوحات التي قادها الإسكندر المقدونيّ (القرن 3 ق.م) على انتشار اللّغة اليونانيّة خارج محيطها الأصليّ وتوحيدها. وساهم التّوسع العسكريّ وما صاحبه من انتقال للعادات الاجتماعيّة واحتكاك اليونان بشعوب أخرى في تعرض اللّغة اليونانيّة لتغييرات هامّة من قبل المتكلّمين الأجانب. هذا الوضع جعل من اللّغة اليونانيّة موضوعاً للتّعَلُّم بحكم أنّها لغة الإدارة الحاكمة والطّبقات الرّاقية في المراكز المستعمَرة الجديدة في كلّ من آسيا ومصر. وتأسّست لهذا الغرض مراكز علميّة جديدة أهمها برجامون في آسيا والإسكندريّة في مصر فتمّ بناء المدارس وإنشاء المكتبات، واستقرّ العلماء بهذه الحواضر الفكريّة الجديدة يدّرسون اليونانيّة ويعملون على نشرها. ومدرسة الإسكندريّة التي ينسب إليها أوّل نشاط فيلولوجي منظّم «ضمّت مجموعة من العلماء» ما بين عشرين وثلاثين جيلاً من العلماء، واستمرت تسعة قرون، كلّها عطاء معرفيّ وعلميّ يشهد العصر الحديث بعبقرية المنتمين إليها. ولم تكن المدرسة مؤسّسة رسميّة ولا خزانة ولا مكتبة وطنيّة أو متحفاً، ولكنها كانت مؤسّسة حرّة ولقاء لعلماء كانوا يشتغلون في

المؤسّسات العموميّة التي أنشأها البطالمة Les Ptolémés من أجلهم[30]. وشكّل النّشاط الفكريّ (السّياسيّ في منطلقاته) المصاحب لِمَا عُرِفَ بالهيلينيّة *Héllénisme* (نشر الثقافة اليونانيّة) البداية الفعلية للبحث الفيلولوجيّ.

واتّضح لدى كثير من المتعلّمين اليونان «الوعي المبكر بأن لغة القصائد الهوميرية في الإلياذة والأوديسا (وهما الملحمتان اللتان يقال إنهما أُلّفتا حوالى القرن السّابع قبل الميلاد) لم تعد تتطابق مع أي لهجة من لهجات اليونانيّة في ذلك العصر»[31]. وكان لملحمتيْ هوميروس أهمّيّة كبرى في النّظام التّعليميّ والفكريّ اليونانيّ القديم، إذ حَظِيَتَا باحترام النّخب الفكريّة والاجتماعيّة في اليونان، وكانتا تُقدّمان كنموذجين للّغة اليونانيّة وأدبها الراقيّين، وللأخلاق النّبيلة والقيم المثلى، مِمّا جعل الاهتمام بهذه القصائد قد بدأ في أثينا في القرن السّادس قبل الميلاد[32].

وفي هذا السّياق، عملت مدرسة الإسكندريّة في القرن الثّاني قبل الميلاد على إعادة نشر نصوص الإلياذة والأوديسا لهوميروس، اللّتين أصبحتا «لغويّاً» صعبتَي المنال بالنّسبة إلى الأجيال اللّاحقة، نظراً إلى التّطور والتّغيير اللّذين عرفتهما بنيات اللّغة اليونانيّة. وأصبحت نصوص الملحمتين في حاجة إلى شروح توضح الوقائع التّاريخيّة والاجتماعيّة والحضاريّة التي تتحدث عنها الملحمتان. وأشهر فيلولوجيّي الإسكندريّة على الإطلاق هو أريسطارك Aristarque (216–144 ق.م) تلميذ تراكس. وعكست الدّراسات اللّغويّة في كل من برجامون والإسكندريّة جزءاً كبيراً من القضايا اللّغويّة التي تدارسها اليونان ولاسيّما ما يتعلّق بالنقاش الحادّ ـ لكنه قديم في الأدبيّات اليونانيّة ـ بين مناصري القياس في اللّغة والمدافعين عن الشّذوذ فيها. فقد كان لغويو الإسكندرية قياسيّين بامتياز، بينما كان اللّغويّون في برجامون من دعاة الشذوذ اللّغويّ. وترجع طبيعة الجدل بين القياسيّين والشذوذيّين إلى اختلاف وجهة النّظر الفلسفيّة حول إدراك العالم

(30) P. Matter: *Histoire de l'école d'Alexandrie*, T1, Paris, chez Hachette, 1840/1818, p. 1.

(31) روبنز: موجز تاريخ علم اللغة، مرجع سابق، ص35.

(32) المرجع السابق نفسه.

الخارجيّ. يذهب الإسكندريّون إلى أنّ الطّبيعة (وطبيعة الأشياء) تحكمها قوانين مطّردة ثابتة ومتّسقة مبنيّة على قياس الأشياء، وردّ بعضها إلى بعض، بينما يذهب الشذوذيّون إلى أنّ كل ما هو في الطّبيعة هو من قبيل المصادفة.

وتَجْمَعُ الدّراسة الفيلولوجيّة في تناولها للّغة بين الدّرسين الأدبيّ واللّغويّ. وكانت دراسة قواعد اللّغة اليونانيّة على عهد علماء الإسكندريّة تُعَدُّ مدخلاً لا محيد عنه لدراسة الأدب. «فالقواعد النّحويّة هي المعرفة العمليّة باستعمالات كُتّاب الشّعر والنّثر للألفاظ، وتشتمل على ستة أقسام:

- الأوّل عن القراءة الصّحيحة (بصوت مرتفع).
- الثّاني عن تفسير التّعابير الأدبيّة في المؤلّفات.
- الثّالث عن تقديم الملاحظات حول أسلوب ومادّة الموضوع؛
- الرّابع عن أصول الكلمات (*étymologie*)؛
- الخامس عن استنباط أنواع الاطّراد القياسيّ؛
- السّادس عن تقدير قيمة التّأليف الأدبيّ الذي هو أشرف أقسام القواعد»[33].

وبحلول عصر النّهضة الأوروبيّة الذي أُرِيدَ له أن يكون فكريّاً صورة مطابقة للعصر اليونانيّ والرّومانيّ لوحظت العودة القويّة إلى الآداب القديمة ولغاتها، ولاسيّما اليونانيّة والرّومانيّة لما تتضمّنه من قيم إنسانيّة نبيلة وإبداعات، والاهتمام كذلك بلغات الحضارات القديمة (السّنسكريتيّة) والعناية باللُّغات ذات الخصائص المختلفة عن اللُّغات اليونانيّة واللاّتينيّة مثل اللّغة العربيّة لما تتمتّع به من تراث.

ولمّا كان عصر النّهضة الأوروبيّة هو عصر الرّجوع إلى النّصوص اليونانيّة والرّومانيّة القديمة، وهي لغات الآداب الكلاسيكيّة والفلسفة الأم، فقد تمّ تقليد كبار الأدباء اليونان مثل هوميروس وسوفوكليس والرّومان شيشرون وفيرجيل. كما تمّ بعث وإحياء مفاهيم الفلسفة اليونانيّة الكبرى وتصوّراتها الأساس عند كلٍّ من أفلاطون وأرسطو والعمل على نشرها غداة ظهور الطّباعة في نهاية القرن الخامس

(33) المرجع السابق، ص67.

عشر. وبذلك انخرطت الدّراسات اللّغويّة في إحياء نهج حديث/قديم هو النّهج الفيلولوجيّ الذي ابتدأه لغويو الإسكندريّة وهم ينشرون قصائد الإلياذة والأوديسا ويقعّدون للّغة اليونانيّة في وضعها الذي كانت عليه في القرون الثلاثة قبل ميلاد المسيح.

3. سمات المرحلة التّوفيقيّة

تتصف المرحلة التّوفيقيّة في غاياتها المختلفة بجملة من السّمات نذكر منها:

- الطّابع الدّينيّ.
- سيطرة المنطق الأرسطيّ.
- اتّباع النّهج المعياريّ.
- الاهتمام باللّغة المكتوبة دون اللّغة المنطوقة.
- البحث في قضايا لغويّة عقيمة مثل أصل اللّغة ونشأتها.

1.3. سيادة الفكر الديني

إنّ النّشاط اللّغويّ في المرحلة التّوفيقيّة كان في خدمة الفكر الدّينيّ، سواء عند الهنود أو في الثقافة العربيّة الإسلاميّة أو في أوروبا خلال عصر النّهضة. وللتّمثيل على ذلك، نشير إلى الاعتبارات الدّينيّة التي ارتبطت بنشأة اللّغة وأصلها في الكتب السّماويّة، وهي المسألة التي شغلت بال اللّغويّين بمختلف مشاربهم الثّقافيّة حقبة غير قصيرة.

في الفكر اللّغويّ العربيّ، ذهب كثير من اللّغويّين المسلمين إلى القول بأنّ اللّغة إلهام من اللّه وليست اصطلاحاً، وذلك انطلاقاً من الآية القرآنية ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾. ويرفض أحمد بن فارس في كتابه **الصّاحِبِي في فقه اللّغة وسنن العربيّة**[34] كلّ تأويل أو تخريج آخر غير ما ذهب إليه من إلهام اللّغة من اللّه بدعوى وجود نصّ قرآنيّ صريح في موضوع نشأة اللّغة. وتسرّب صدى

(34) أحمد بن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية**، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، 1970.

مباحث الفكر الإسلاميّ ومواقف الفرق الإسلاميّة من أشاعرة ومعتزلة إلى المباحث اللّغويّة نفسها فامتلأت كتب النّحو واللّغة بالمصطلحات الفقهيّة والفلسفيّة على السّواء. ومعروف أن مفهوم «**أصول النّحو**» مستمدّ أصلاً من مجال الفقه الإسلاميّ. ولا نحتاج الوقوف طويلاً عند تأثير الفكر الإسلاميّ في الثّقافة اللّغويّة العربيّة القديمة لوجود أدبيّات كثيرة في الموضوع[35].

وحصل الأمر نفسه في أوروبا خلال القرون الوسطى؛ إذ سادت الآراء اللّغويّة التي امتزجت بالأفكار الدّينيّة امتزاجاً وثيقاً، ومن ذلك قولهم بأنّ اللّغة العبريّة هي لغة الجنّة، وبالتالي فهي أمّ اللّغات، وأنّ جميع اللّغات تنحدر من أصل واحد هو العبريّة. وكان الفكر الذي ساد أوروبا عموماً خلال القرون الوسطى حتى عصر النهضة والمعروف بالسّكولاستيكيّة scolastique يقوم على فلسفة لغويّة مبادئها الدّين المسيحيّ وآراء أرسطو وتصوّره لما وراء الطبيعة[36]. وتعدّ الفلسفة اللّغويّة السّكولاستيكيّة دعماً واضحاً للعقيدة المسيحيّة من خلال تبيان وشائج القرابة بين العقل والدّين، وهو ما برز بوضوح عند كبير فلاسفة السّكولاستيك توما الإكوينيّ Thomas d'Aquin الذي بحث قضايا دلاليّة هامّة تدعم العلاقة بين العقل والحقيقة، وذلك بتحليل بنية الحقيقة من خلال اللّغة اعتماداً على المعنى باعتباره أداة موضوعيّة للوقوف على حقيقة الأشياء معرفة حقيقة تتجاوز حدود المدرك والمحسوس[37].

3.2. اللّغة والنحو والمنطق

وكما ساد الفكر الدّينيّ، ساد المنطق الأرسطيّ جميع مناحي التّفكير اللّغويّ، فغلب على تحليلات النّحاة الذين ربطوا بين النّحو والمنطق الذي اعتبروه أداة لا غنى عنها في التّحليل النّحوي للّغة. فتقسيم الجملة ثنائيّاً إلى جملة فعليّة وأخرى اسميّة، وهو التّقسيم الذي ورثه الدّرس اللّغويّ عن أرسطو، يعكس

(35) تمام حسّان، **الأصول الإبستيمولوجيّة للفكر اللّغويّ العربيّ**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1980.

(36) Claude-Gilbert Dubois: *Mythe et langage au seizième siècle*, Bordeaux, Collection Ducros, 1970.

(37) Alain Rey: *Les théories du signe et du sens*, tome I.

تصوّر علماء المنطق ومعالجتهم لمكونات القضيّة بمعناها الفلسفيّ. وكان علماء اللّغة في المرحلة التّوفيقيّة يعتقدون بإمكانية اعتماد مقولات المنطق الأرسطيّ وتطبيقها على جميع اللّغات باعتبارها مقولات فكريّة عامّة مشتركة بين البشر تتطابق والبنيات اللّغويّة بصرف النظر عن اللّغات المتكلّم بها. لذا فإن النحو هو نفسه في جميع اللّغات الطّبيعيّة. ومهما كانت درجة الاختلاف بينها فهي اختلافات عَرَضِيّة وسطحيّة لا يمكن الاعتداد بها. إنّ النّحو يقوم على قوانين العقل والمنطق وهي القوانين المشتركة بين جميع البشر. ومن أمثلة التّأثير المباشر للمنطق في الدّرس اللّغويّ التّوفيقيّ وفي غيره أن اللّغويّين عدّوا الجملة قضيّة منطقيّة بالأساس والمسند والمسند إليه فيها موضوعاً ومحمولاً كما في المنطق. ويطلق على الجملة بشكل عامّ مصطلح «قضيّة»، وهو مصطلح منطقيّ في الأصل. ويتحدّد معنى الجملة في المنظور المنطقيّ بأنّه شيء يمكن أن يكون صادقاً أو كاذباً في موقف معيّن. ويقابل مفهوم القضيّة أيضاً في الدّراسات اللّغويّة القديمة والحديثة على السواء مصطلح الخبر *statement*[38].

ولا نريد أن نعرض هنا من جديد مسألة فكريّة أثارت نقاشاً مستفيضاً في الأدبيّات الفكريّة العربيّة والأجنبيّة حول علاقة النّحو العربيّ بالمنطق الأرسطيّ، سواء في الأدبيّات العربيّة، أو في غيرها. ونحن حين نثير موضوع العلاقة بين النّحو العربي والمنطق الأرسطيّ لا نثيره في إطار الصّراع الخفيّ فكريّاً وسياسيّاً بين الشّرق والغرب؛ أي بين الحضارة العربيّة الإسلاميّة وغيرها من الحضارات وهو صراع يهدف إلى حصر الجوانب المعقّدة لهذه العلاقة في جانب واحد ليس له أيّ قيمة منهجيّة يتمثل في معرفة «من أخذ؟»، «عمّن أخذ؟»، مثلما درجت بعض الدّراسات العربيّة والاستشراقيّة المتعصّبة أن تفعل.

لقد تباينت آراء الدارسين[39] إزاء موضوع العلاقة بين النّحو العربيّ والمنطق الأرسطيّ بين ثلاثة مواقف:

(38) تمام حسّان، **مناهج البحث في اللغة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975/1957، ص14.

(39) الأدبيات العربيّة في الموضوع عديدة ومتفاوتة القيمة، ومن أبرزها:
- علي أبو المكارم: **تقويم الفكر النّحويّ**، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1975. =

- الإقرار بتأثر النّحو العربي بالمنطق الأرسطيّ نشأة وتطوّراً في الشّكل والمضمون.

- رفض أيّ شكل من أشكال التّأثر جملة وتفصيلاً، وأنّ النحو العربي إبداع عربيّ محض.

- التّأرجح بين الموقفين.

لنوضح أوّلاً أنّ العلاقة بين النّحو العربيّ والمنطق الأرسطيّ من منظور الأصالة أو التّأثير ليس لها أي قيمة معرفيّة أو منهجيّة تذكر. نحن نرفض كلّ دعوة قائمة على ربط أصالة النّحو العربيّ باللّسانيّات ونظريّاتها على نحو ما يقوم به اللّسـانيون العرب المحدثون الذين يحاولون إعادة قراءة النّحو العربيّ في ضوء اللّسانيّات. إنّ أصالة النّحو العربيّ غير مرتبطة البتّة باللّسانيّات الحديثة، وإنّما بالإطار الفكريّ والتاريخي الذي ظهر فيه هذا النّحو. فالنّحو العربيّ له مرجعيّته الأصيلة الخاصّة به، التي تعطيه مكانته الإنسانيّة في خِضَمّ تاريخ الفكر اللّغويّ اعترف بذلك الدّارسون الغربيّون أم لم يعترفوا[40].

ما يهمّ الباحث في تاريخ العلاقة بين النّحو العربيّ والمنطق الأرسطيّ هو تحديداً تبيان مدى تأثير الفكر المنطقيّ باعتباره مفاهيم ونمط تفكير في الأسلوب التّحليليّ والبرهانيّ المعتمد في الدّرس النّحويّ العربيّ. هذا الجانب المنهجيّ الهامّ لعلاقة التّحليل اللّغويّ النّحويّ بالمنطق هو ما أدركه بوضوح تمام حسّان قائلاً: «أمّا النّحو العربي، فإن أثر المنطق فيه يبدو من جانبين اثنين:

- أولهما: جانب المقولات وتطبيقها في التفكير النّحوي العربيّ.

- ثانيهما: الأقيسة والتّعليلات في المسائل النّحويّة»[41].

= - فتحي عبد الفتاح الدجني: **النّزعة المنطقيّة في النّحو العربي**، مطبوعات فهد، الكويت، 1982.

- تمام حسّان: **الأصول الإبستيمولوجية للفكر اللغوي العربي**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982.

(40) انظر كتابنا، **اللّسانيّات العربيّة الحديثة دراسة في المصادر والأسس النّظريّة والمنهجيّة**، منشورات كلية الآداب، عين الشق الدار البيضاء، 1998.

(41) تمام حسّان، **مناهج البحث في اللغة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1975، ص17.

ولا يخفى على أحد أن اللّغويّين والنّحاة العرب نظروا إلى اللّغة العربيّة نظرة المناطقة والفلاسفة، فوجدوا لها أصلاً وفرعاً تطبيقاً لفكرة الجوهر والعَرَض. وإلى هذا المنطلق ترجع فكرة أصل الكلمة «صرفيّاً». ففي تحليل علماء الصّرف العرب يكون أصل «قام» هو «قَوَمَ» و«صام» هو «صَوَمَ» وأصل «يخاف» «يَخْوِفُ» وهكذا.

وعلى المنوال نفسه كان لغويّو ونحاة أوروبا في القرن السّابع عشر وما بعده يحاولون وضع نحو عامّ لجميع اللّغات، لأنّها مَهْمَا اخْتَلَفَتْ تلتقي في كونها تخضع للمقولات الأرسطيّة نفسها التي تُشَكِّلُ قاسماً مشتركاً بين جميع البشر.

أ- ديكارت

ساهمت الفلسفة العقلانيّة خلال القرن السّابع عشر في تحويل أنظار الفلاسفة والمفكّرين إلى قضايا اللّغة باعتبارها إشكالات معرفيّة أوّليّة في كلّ تفكير سواء تعلّق الأمر بماهيّة الوجود أو الإنسان. وكان أبرز هؤلاء الفلاسفة اهتماماً بقضايا اللّغة من وجهة نظر فلسفيّة الفيلسوف الفرنسيّ ديكارت (1596-1650) الذي أثّر بشكل واضح في مرحلة فكريّة برمّتها.

ينطلق ديكارت في تعامله الفلسفيّ مع اللّغة من إشكالية معرفيّة جوهريّة تتعلق بطبيعة العلاقة القائمة بين اللّغة والفكر، وهي إشكاليّة تعود في أصولها الأولى إلى الفكر اليونانيّ، على نحو ما نجد في محاورات أفلاطون (427-346 قبل الميلاد) المتعلّقة بتسمية الأشياء الموجودة في العالم الخارجيّ والعلاقة بين الأسماء والأشياء المعبّر عنها (محاورة كراتيلوس).

وقد وقف ديكارت في تناوله التأمّليّ والفلسفيّ من اللّغة موقفين مختلفين[42]:

أوّلاً: من حيث إنّها وسيلة غير دقيقة، لا تصلح للتّفلسف؛ لأنها غير قادرة على الوصول بالإنسان إلى التّعبير بكل أمانة عن جوهر مضامين العقل البشريّ في جوانبه الاستدلاليّة والمنطقيّة الصّارمة والدّقيقة، وما يتطلّبه من حساب منطقيّ

(42) Paul Michel Fillipi: *Initiation à la linguistique et aux sciences du langage*, Paris, Ellipses, 1995, p. 13 et suivantes.

مضبوط واستدلال عقلانيّ دقيق. كان ديكارت، وهو يحاول تحديد معالم الخطاب العقليّة والمنطقيّة، يحلم بلغة مثاليّة خالصة حيث الاستدلال والحساب شيء واحد. ولا يختلف ديكارت في هذا الموقف كثيراً عن الفلاسفة المثاليين بعده (أمثال باسكال 1623-1662 ولايبنز 1646-1716) الذين شكّكوا في قدرة اللّغات الطّبيعيّة على القيام بالتعبير عن الفكر، علاوة على أنّ اللّغات الطّبيعيّة تتضمّن عدداً من الظّواهر غير الواضحة مثل عدم الدقّة والالتباس الدّلالي وغيرها من الظّواهر الملازمة للّغات الطّبيعيّة التي لا تساعد على التّعبير المنطقيّ الدّقيق عن الواقع الموضوعيّ المادّيّ أو المجرّد. فبين الواقع الحقيقيّ والوعي بهذا الواقع، تعد اللّغة وسيطاً يحجب، أو على الأقل يغيّر، كُنْهَ الأشياء المدركة أكثر مما يكشفها[43].

ثانياً: تعدّ الظّاهرة اللّغويّة في ذاتها عند الإنسان موضع تقدير وإعجاب كبيرين من قبل ديكارت. وبعد تأكيده على أهمية العقل عند الإنسان باعتباره آلة عامّة يمكن استخدامها في كل أنواع الطواريء[44]. ينتهي ديكارت إلى أنه بفضل العقل (الفكر) يمكن للإنسان أن يتصرف بوعي تام حيث تعجز كائنات أخرى عن القيام بذلك. يقول ديكارت: «إن هذه الأعضاء (غير العقل) في حاجة إلى وضع خاص بكل عمل على حدة. وينتج عن ذلك، أنه من المستحيل أخلاقياً، أن يكون في آلة ما من تنوع الأعضاء ما يكفي لجعلها تعمل في كل ظروف الحياة، على نحو ما يبعثنا عقلنا للعمل»[45]. ويخلص ديكارت إلى حقيقة مَكْمَنِ الفرق الجوهريّ بين الإنسان والحيوان.

بالنسبة إلى ديكارت، إنّ «هذه الآلات لن تقدر مطلقاً على أن تستعمل الكلمات أو أي إشارات أخرى تؤلّفها كما نَفْعَلُ نَحْنُ لنصرّح للآخرين

(43) Idem, p. 23.

(44) رينيه ديكارت: مقال عن المنهج، القسم الخامس، ص259 وما بعدها، من الترجمة العربيّة للنص الفرنسي *Discours de la méthode* التي قام بها محمود محمد الخضيري وراجعها وقدّم لها محمد مصطفى حلمي. الهيئة المصرّية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة 3. هذا الكتيب المشهور ألّف أصلاً باللّغة اللاتينيّة سنة 1644 ثم ترجم إلى الفرنسية سنة 1647 (انظر مقدمة الترجمة العربيّة).

(45) المرجع السابق، ص260.

بأفكارنا»[46]. ربما تَتَمَكَّنُ بعض الكائنات غير الإنسان من نطق بعض الأصوات، لكنها لن تتمكّن إطلاقاً من القدرة على تنويع الألفاظ «لتجيب إجابةً مطابقةً لكلّ ما يقال لها في حَضْرَتِها مثلما يستطيع أن يفعل أغبى النّاس»[47].

إن اللّغة عند الإنسان بالنسبة إلى ديكارت من مميّزات الجنس البشريّ. وقد عبّر عن موقفه من طبيعة اللّغة بكل وضوح قائلاً: «ممّا يستحقّ الذّكر، أنّه ليس من النّاس الأغبياء والبلداء حتى دون استثناء البلهاء منهم، من لا يقدرون على تأليف كلمات مختلفة، وأن يركّبوا منها كلاماً به يجعلون أفكارهم مفهومة. وبالعكس ليس من حيوان آخر مهما كان كاملاً ومَهْمَا نَشَأَ نشأة سعيدةً، يستطيع أن يفعل ذلك»[48].

ويلاحظ ديكارت أنّ القُدْرَةَ على اللّغة أو على الأصحّ على اللّغو (من لغا يلغو) ليست مرتبطة بوجود الجهاز الناطق عند الإنسان. فبعض الكائنات غير الإنسان تكون قادرة هي الأخرى على إنتاج أصوات معيّنة حتى ولو كانت قليلة. إنّ العقعق (طائر) والببغاء تستطيعان أن تنطقا مثلنا أيّ نطق يُشْهَدُ أنها تَعِي ما تقول[49]. وما يُمَيِّزُ اللّغةَ عند الإنسان في نظر ديكارت هو ارتباطُها الوثيق بالعقل. «إن معرفة الكلام لا يحتاج إلا إلى شيء من العقل جدّ قليل»[50]. فالعقل في حدّ ذاته هو مصدر المعرفة وأساس كلّ إدراك؛ وبالتّالي فهو أسمى الحواسّ المادّيّة ومستقلّ كليّاً عنها. وقد كان ديكارت بهذا الموقف سبّاقاً إلى القول بفطريّة اللّغة Innéisme التي تعد من الأفكار اللّغويّة التي كان لها تأثير قوي في مسار الدّرس اللّغويّ منذ القرن السّابع عشر إلى اليوم.

ب- نحو بور رويال

ارتبط الدّرس المنطقيّ بالدّرس النّحويّ حتى أصبحا غير قابلين للانفصال، وأضحت الرّؤية الفلسفيّة العقلانيّة مع بداية القرن السّابع عشر عاملاً حاسماً في

(46) المرجع السابق، ص259.
(47) المرجع السابق، ص260.
(48) المرجع السابق، ص261-262.
(49) المرجع السابق، ص261.
(50) المرجع السابق، ص261.

تصوّر العمل النّحويّ وصياغة القواعد. وقد وجدت أفكار ديكارت في موضوع تميّز الإنسان باللّغة وارتباطها بالعقل مجالاً رحباً في بعض الأوساط الفكريّة والتعليميّة على نحو ما نجد عند رهبان بور رويال مع صدور كتابهم الذّائع الصّيت النّحو العامّ والعقلي Grammaire générale et raisonnée سنة 1660. الذي كتبه أرنولد Arnauld ولانسلو Lancelot[51].

ونحو بور رويال نموذج واضح لتأثير الفلسفة العقلانيّة ـ ديكارت والمنطق الأرسطيّ ـ في الدّراسة اللّغويّة خلال القرن السّابع عشر. ويندرج هذا التصوّر النّحويّ في إطار المقاربة الفلسفيّة المنطقيّة للنّحو عند مدرّسي دير بور رويال الهادفة إلى البحث في اكتشاف جوانب المطابقة بين البنيات المنطقيّة والبنيات اللّغويّة وبالتالي العلاقة الوثيقة بين النّحو والمنطق.

إنّ اللّغة ليست أكثر من تعبير منطقيّ عن الفكر يجب أن يكشف النّحو عن مختلف تجلّياته. لذلك فإن «فهم ما يدور في ذهننا ضروريّ لفهم أسس النّحو»[52]. فاللّغات رغم اختلافها على مستوى القواعد الصّرفيّة والتّركيبيّة، تشترك في كونها تحتوي على بنيات منطقيّة عامّة مشتركة. من هذا المنطلق الفلسفيّ سعى نحاة بور رويال إلى وضع نحو عام Grammaire générale لجميع اللّغات، لأنها مهما اختلفت، تلتقي في كونها تَخْضَعُ للمقولات الفكريّة العامّة نفسها المستمدّة من منطق أرسطو. وتُعدّ المقولات التي يقوم عليها النّحو في كلّ اللّغات قواسم فكريّة مشتركة بين جميع البشر تعبّر عنها اللّغات بصيغ مختلفة شكليّاً فقط. هذا الطابع العامّ للبحث اللّغويّ عند بور رويال يفسر لنا استعمالهم العنوان الفرعيّ لكتابهم النّحو العامّ والعقلي: «يحتوي على أسس فنّ الكلام والأشياء المشتركة بين اللّغات». كما تتجلّى هذه المقاربة النّحويّة في بُعدها العامّ والكونيّ من خلال الإشارة المتعدّدة في نحو بور رويال إلى اللّغات باعتبارها معطيات عامّة تتجاوز حدود القواعد التركيبيّة الخاصّة بهذه اللّغة أو تلك، وبالإحالة المتكررة على قواعد العقل والفكر الإنسانيّ عموماً باعتبارها تحيل على

(51) Arnauld et Lancelot: *Grammaire générale et raisonnée*, Paris, Republications Paulet, 1969, Introduction de M. Foucault.

(52) Arnauld et Lancelot: *Grammaire Générale et raisonnée*, p. 22.

مبادئ فكريّة عامّة عقليّة معرفيّة عند الكائن، بصرف النّظر عن خصوصيّة كلّ لغة على حدة. فاللّغات نتاج عقليّ خالص، وهي في تمظهراتها السّطحيّة المتعدّدة، إنّما تعكس أنماطاً مختلفة لبنية عقليّة ومنطقيّة واحدة.

ويبدو تأثير ديكارت في نحاة بور رويال واضحاً في تأكيدهم على تفرّد الإنسان بالقدرة على اللّغة، رغم ما يبدو من تشابه بين اللّغة البشريّة ولغة الحيوانات (فكرة ديكارت). إنّ الجانب المادّيّ للكلام، وهو الأصوات، مشترك بين الإنسان وبعض الحيوانات. «ففي الكلام ما هو مادّيّ وهو مشترك على الأقل في جانبه الصّوتيّ بين الإنسان والببغاء»[53]. ما يميز فعل اللّغة عند الإنسان، هو «الجانب الرّوحيّ *Spirituel* للكلام، لأن أكبر مزايا الإنسان، بالقياس إلى باقي الحيوانات الأخرى، وهو من أكبر البراهين على وجود العقل هو الاستعمال الذي نقوم به للدلالة على أفكارنا»[54]. ولا يخرج موقف بور رويال عن الموقف الفلسفيّ العقلانيّ عند ديكارت المتمثّل في الارتباط الوثيق بين العناصر الثّلاثة التي هي: الإنسان والعقل واللّغة. وتتشكل هذه العناصر من مبدأين اثنين:

ـ أولاً: العقل يولد مع الإنسان.

ـ ثانياً: اللّغة تولد مع الإنسان[55].

وتتميز اللّغة في نظر بور رويال بالتوليد والاقتصاد. فهي من النّاحية المادّيّة اختراع مذهل يتكوّن من أصوات قليلة تمكّن من التّعبير عن تنوّع لامتناهٍ من الكلمات[56]. واللّغة عندهم، كما هو الشأن عند ديكارت صورة تُعَبِّرُ عن العقل، وبالتالي يُشَكِّلُ النّحو من عدة أوجه البناء المنطقيّ العامّ الذي يمكن أن تُرَدَّ إليه اللّغةُ في جميع مظاهرها. والنّحو العامّ أو الفلسفيّ لا يهتمّ ببنيات اللّغات بل ينظر إلى ماهيّة اللّغة في الذّهن البشريّ باعتبارها حركة للفكر والعقل، ويبحث في المبادئ المنطقيّة الكبرى التي تقوم عليها اللّغات البشريّة. إنّ النّحو حسب بور رويال معرفة بما يجري في الذّهن، ذلك أنّه لا يمكن فهم مختلف الدّلالات التي

(53) *Grammaire générale et raisonnée*, p. 23.

(54) Idem, p. 23.

(55) صالح الكشو، مدخل في اللّسانيّات، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1985، ص40.

(56) *Grammaire générale et raisonnée*, p. 23.

تتضمّنها الكلمات إذا لم نفهم جيّداً قبل ذلك ما يدور في ذهننا، لأن الكلمات لم تبتكر إلا لتُعَرِّف بالفكر وبأفكارنا[57]. ولمّا كان الأفراد في حاجة إلى العلامات (الكلمات) ليسجّلوا كل ما يدور في أذهانهم من أفكار، ويودّون التعبير عنه، وأهم ما يمكن أن تتميز به هذه الكلمات هو أن تطابق ما يجري في الذّهن من عمليات فكريّة. ومن هنا، فإنّ دلالة اللّغة دلالة عن الفكر[58]. وللقيام بهذه المهمّة، نحتاج إلى ثلاث عمليّات عقليّة هي: التّصوّر والحكم والاستدلال.

إنّ تصوّر الأشياء *Concevoir* هو تسليط النّظر أو الفكر على الأشياء الموجودة، سواء أكان هذا التّصوّر ماديّاً، أم معنويّاً خالصاً. فالتصوّر المادّيّ ما تعلّق بمعرفة الوجود الخارجيّ الواقعي، والتّصوّر المعنويّ مثل التعرف إلى الماهيّة أو الزّمان أو المكان، أو اللّه أو المدّة. ومن التّصوّر ما يتعلق بالصّور المجسّدة مثل الأشكال الهندسيّة (مربع/دائرة) أو عندما أتصوّر حصاناً أو إنساناً أو كلباً.

أمّا الحُكْم *Jugement* فهو التّأكيد أنّ ما تَمّ تَصَوُّره من أشياء هو كذلك أو ليس كذلك. فعندما أتصوّر «الأرض» وأتصوّر مفهوم ما هو «كرويّ الشّكل» يُمْكِنُنِي أن أؤكّد أن «الأرض كُرَوِيَّةُ الشّكلِ». ومن قِيَم الحُكْم: (الإثبات/النّفي/ الاحتمال).

والاستدلال *Raisonnement* هو الاستفادة من حكمين سابقين للوصول إلى حكم جديد. فعندما أَحْكُمُ أنّ: الفضيلة محمودة من جهة، وأن الصّبرَ فضيلةٌ من جهة ثانية، يُمْكِنُ أن أَحْصُلَ على الاستنتاج: الصبرُ محمودٌ[59].

وفي ضوء هذه العمليّات الأساس في كل تفكير عقليّ سليم، فإنّ أبرز تمييز لما يدور في الذّهن هو التّمييز بين موضوع الفكر Objet de la pensée وشكل الفكر أو كيفيته Forme /manière de la pensée. وتبعاً لهذا تقسّم نحاة بور رويال العلامات اللّغويّة إلى صنفين أساسيّين:

---

(57) Idem, p. 24.

(58) Idem, p. 23.

(59) Idem, p. 23.

- العلامات الدّالّة على الأشياء والموضوعات التي يتصوّرها الذّهن.

- العلامات الدّالّة على شكل أفكارنا وكيفيتها.

فالعلامات التي تدل على الأشياء هي: الأسماء ـ أدوات التعريف ـ الضّمائر ـ المصادر ـ الحروف والظّروف.

بينما يندرج ضمن العلامات التي نعبر بواسطتها عن الشّكل أو الكيفيّة الأنواع التالية : الأفعال Verbes ـ الرّوابط Conjonctions ـ الخوالف Interjections.

إنّ هذين الصّنفين معاً ينتميان إلى العمليّة الذّهنيّة الأولى التي يقوم بها الفكر والمتمثّلة في التّصوّر، لأن الأمر يتعلّق بما نتصوّره وندركه من أشياء ومفاهيم.

وبعبارة أخرى فإنّ موضوعات أفكارنا إمّا أشياء مثل :الأرض، السّماء، وتسمى عادة الجواهر Substantifs وإمّا كيفيّات أشياء مثل الصفات: أبيض، عالم والتي تسمى عادة العوارض Accidents. والفرق بين هذين النّوعين من الكلمات أنّ الأولى تكون قائمة بذاتها في الخطاب، بينما العوارض ترتبط دائماً بغيرها وتتعلّق بها[60].

وبذلك يصبح التّحليل النّحويّ عند بور رويال دراسة للمقولات النّحويّة في علاقاتها بالمقولات المنطقيّة.

ج- كوندياك (1714-1780): اللّغة أداة للتحليل

بالرغم مما ينسب عادة إلى نحو بور رويال من اهتمام بالغ بعلاقة اللّغة بالفكر ـ و لا أحد يشك في هذا ـ فإنّ السّادة les messieurs (وهو لقب كان يعطى لمفكّري دير بور رويال) لم يخرجوا عن حدود العمليّات التّصوّرية الأساس المتعلّقة المعروفة في المنطق بالقضيّة ـ الحُكْم jugement. فعند بور رويال تقدّم القواعد المشتركة بين البشر لتكوين الحكم السليم على الأشياء المادّيّة الملموسة أو التّصوّرية. لقد أُرِيدَ أن يكون النّحو تابعاً للمنطق في كبريات عمليّاته الذّهنيّة

(60) Idem, p. 24.

التي تتيح للفكر ولوج التفكير السّليم وهي: التّصوّر والحكم والاستدلال. ومن ثمّ فإنّ العلاقة بين النّحو كصناعة للكلام والنّحو كمجال يتضمّن البحث في أسس هذه الصّناعة من أجل تفسير عقلانيّ تهدف إلى إرجاع القواعد النّحويّة إلى مبدأين: أحدهما لغويّ محض يكون كفيلاً بأن يفسر لنا كيف أنّ هذه القواعد النّحويّة تسمح لنا بأن نقول ما نقوله، ومن جهة ثانية يجب أن نعرف لماذا تخضع اللّغة لهذه القواعد على وجه التّحديد وليس لتلك، وهذا يقتضي أن نُرجع هذه القواعد إلى المبادئ التي تؤسّس لها، أي التي تجعلها ممكنة الوجود وقابلة للتحقق.

إنّ ارتباط اللّغة بالمنطق ينحصر بالنسبة إليهم في ربط أو حلّ أفكارنا في هذا الحيّز من الجُمَل ـ الحُكْم التي تسمح لنا بتجنّب الخطإ الذي يمكن أن يقع فيه فكرنا، ومن هنا، فإنّ التّحليل العقلانيّ للّغة في علاقتها بالمنطق عند بور رويال، لا يتجاوز عتبة ما يجب أن تتضمّنه القضايا Propositions في إطار ما تسمح به قواعد المنطق حتى نتمكّن من التفكير الصّادق والحقيقيّ. وبذلك لم يرقَ التّحليل اللّغويّ عند بور رويال إلى إقامة علاقة حقيقيّة وشاملة بين اللّغة والمعرفة.

وقد حاول الفيلسوف الفرنسيّ كوندياك Etienne Bonnot de Condillac(61) تجاوز هذا النّقص البيّن في تصوّر بور رويال، فتناول مسائل تهمّ الميتافيزيقا في علاقتها باللّغة بصفة عامّة «لأنّ العلاقة بين النّحو والمنطق ليست سوى حالة خاصّة من علاقة أوسع بين اللّغة والفكر». لم يكن كوندياك وهو من أتباع

(61) اعتمدنا في هذه الفقرة على مؤلفات كوندياك المتعلقة باللّغة وهي:
E.-B. de Condillac: *La logique ou les premiers développements de l'art de penser*, Paris, L'esprit Libraire du Palais Royal, 1780, p. 4-5.
ونرمز له «بالمنطق».
E.-B. Condillac: Oeuvres complètes, Tome 1 *Essai sur l'origine des connaissances humaines*, Paris, 1798/1746.
ولاسيّما القسم الثاني منه والمتعلق باللّغة والمنهج ابتداء من الصّفحة 257، ونرمز له في المتن «بأصل الأحاسيس».
E.-B. Condillac: *Principes généraux de Grammaire pour toutes les langues*, Paris, 1798/1769 ونرمز له «بالنّحو».

فيلسوف إنكلترا الكبير جون لوك يعطي الفكر ومن خلاله العقل وجوداً أوّليّاً كما يقول بذلك بور رويال وهم أتباع الفلسفة العقلانيّة. فمن المعلوم أنّ تصوّر كوندياك يقوم على مبدأ الحسّ Principe de sensation الذي هو أساس معارف الإنسان (أصل الأحاسيس، ص19). والحسّ في ذاته ليس معرفة. فالتّعرف مثلاً إلى منظر طبيعيّ أو إلى لوحة زيتيّة نحتاج فيه أوّلاً إلى حسّ الرّؤية التي يتعيّن تعلّمها، لأن رؤية الأشياء تتطلب مشاهدة هذه الأشياء في تتابع مرتّب وممنهج. فالحسّ بهذا المعنى هو التّحليل، وهو ليس شيئاً آخر غير ملاحظة صفات موضوع من الموضوعات في ترتيب معيّن لنعطيها في الذّهن ذلك الترتيب المتتابع الذي توجد فيه (المنطق ص 19). فالحسّ هو مبدأ المعرفة ولكنّ التحليل هو الأساس الحقيقيّ للفكر ورافعة له، وهو الذي يسمح للبشريّة بابتكار العلوم (**أصل الأحاسيس**، فقرة 67، ص111 و **المنطق**، ص107). لكن ما هو دور اللّغة في كل هذه القضايا الفلسفيّة المجرّدة؟ بالنسبة إلى كوندياك أصبحت اللّغة شرط إمكان الفكر، فلا فكر بدون لغة، فهي التي تسمح بتتابع الأفكار وترتيبها في الزّمان. وعلى عكس ما تقول به العقلانيّة من وجود قبليّ أوّليّ لفكر منظّم يذهب كوندياك إلى أنّ اللّغة ليست تقطيعاً بسيطاً لفكر منظّم له وجود مسبق، بل إنّ وجود الفكر خاضع لوجود اللّغة، إذ لا يمكن للأفكار التي نودّ التّعبير عنها في شكل أحكام أن يكون لها أي وجود محدد ما لم يجد المرء الكلام المناسب لما يريد التعبير عنه. وبهذا يصبح للّغة دور آخر غير دور التّواصل أو تدبير مسائل التّذكّر ومساعدة الذاكرة ـ (موقف لوك) (**النحو**، ص 61-62 وما بعدهما)، بل إنّ للّغة دور التقطيع والتّحليل بالمعنى الذي سبق الحديث عنه. إنّها أداة تحليل ومعرفة تقوم بوظيفة تحليليّة، لأنها تتيح لنا الانتقال من فكرة إلى أخرى ومن حكم إلى آخر، ومن معرفة إلى معرفة. إنّ اللّغة تمكّننا من التّجريد والتّعميم بواسطة التّسمية Dénomination، وبدون تسمية لا يمكن أن نحصل على أفكار تجريديّة، وبدون تجريد لا يمكننا أن نملك لا النوع ولا الجنس أو غيرهما من المقولات (**المنطق**، ص 29- 34، وص 107). وإذا كنا غير قادرين على إدراك هذه المقولات، فلن يكون بمقدورنا أن نستدلّ على شيء. وفي هذا المنحى ربط كوندياك بين النّحو العامّ والنّحو الخاصّ. «فالنّحو هو العلم الذي يدرس مبادئ

منهج التحليل وقواعده وعندما يدرس النّحو القواعد؛ فإن هذا المنهج يكون موجّهاً لجميع الألسن ويطلق عليه النّحو العامّ، ونسمّي النّحو الخاصّ عندما ندرس القواعد التي يتبعها هذا المنهج في هذا اللّسان أو ذاك. إن دراسة النّحو هي دراسة للمناهج التي اتّبعها الأفراد في تحليل الفكر (النّحو ص 66) ـ علم الكلمات». ومن هذا المنطلق فإنّ كلّ ما يمسّ معرفة السّيرورة التي قطعتها المعرفة البشريّة يرتبط أشدّ الارتباط بالبحث في اللّغة عند الإنسان. فالنّحو بحسب تعبير كوندياك هو القسم الأول من صناعة التّفكير الذي يمكّننا من الكشف عن مبادئ اللّغة. لذلك يجب أن نلاحظ كيف نفكّر بحثاً عن مبادئ التّفكير في تحليل اللّغة نفسها، لأنّ تحليل الفكر جاهز في الخطاب و قائم فيه بنسب متفاوتة حسب الألسن وحسب الذين يتكلمونها، وهذا ما يجعلنا نعتبر الألسن منهج تحليل، ومن ثم يجب أن نبحث عما هي العلامات وما هي قواعد هذا المنهج (النحو، ص4).

ولقيت الرّؤية المثاليّة والعقلانيّة لقضايا اللّغة والنّحو عند ديكارت كثيراً من المؤيّدين لها قديماً وحديثاً. لقد أخذ بها الفيلسوف الفرنسي دومارسي Dumarsais 1765 في القرن الثامن عشر، وكذلك الفيلسوف الإنكليزي جيمس هاريس James Harris الذي جعلها منطلقاً لكتاب هامّ يسير في المنحى نفسه[62] مؤسساً بذلك ما عرف بالنّحو الفلسفيّ. «والنّحو الفلسفيّ ليس بحثاً في فلسفة النّحو، بل هو علم يحاول اعتماد أصول عامّة مستمدّة من تحليل معيّن للفكر البشريّ قد تأخذ شكل بحث بالنّظر إلى نحوٍ ما للّغة، فيكون بذلك هذا النّحو نحواً فلسفياً»[63].

وتميّزت، المصطلحات اللّغويّة في الحقبة التي تلت ظهور نحو بور رويال والمعروفة بالسّكولاستيكيّة Scolastique بهيمنة مطلقة للمنطق الأرسطيّ. وانتقل

(62) James Harris: *Hermès: Recherches philosophiques sur la grammaire universelle*, Paris, Imprimerie de la République, 1796, trad. Fr de Hermes:on Philosophical Inquiry Concerning Universal Grammar, Londres, 1751, 2ème éd., 1765. réimpr. Londres, Scolar Press, 1968.

(63) صالح الكشو، المرجع السابق، ص55.

كثير من المفاهيم الفلسفيّة المتعلّقة بنظريّة المعرفة وعلم الدّلالة المنطقيّ إلى خضمّ الدّرس النّحوي واللّغويّ. ومن المفاهيم المنقولة إلى الدّرس اللّغويّ، يمكننا أن نذكر: المعنى Sens والإحالة Référence والتّعيين dénotation والدّلالة signification والاقتضاء supposition والماصدق extention.

وفي سياق أفكار ديكارت، دعا الفيلسوف الألمانيّ لايبنز (1646-1716) إلى التّخلّي عن ـ اللّغة الطّبيعيّة في عمليّات الحساب والاستدلال العقلي محاولاً إنشاء لغة اصطناعيّة تكون بعيدة عن غموض اللّغة الطّبيعيّة والتباسها، وعدم دقّتها في التّعبير عن قضايا المنطق والفكر العلميّ المجرّد(64).

وفي العصر الحديث جعل تشومسكي صاحب نظريّة النّحو التّوليديّ من أفكار ديكارت وبور رويال وجيمس هاريس مصدراً أساسياً من مصادره للبرهنة على عقلانيّة اللّغة والتّأكيد على خصوصيتها الإنسانيّة(65).

3.3. أتباع النّهج المعياريّ

يُلاحَظُ أنّ لغويّي المرحلة التوفيقيّة لم يهتمّوا باللّغات كما كان يُتكلّم بها في واقعها اليوميّ، وإنّما كانوا ينظرون إليها انطلاقاً من نموذج لغويّ محدّد سلفاً تتوافر فيه مقاييس معيّنة «اللّغة الجيّدة». لقد اهتمّوا بما ينبغي أن يُقال تاركين ما يُقال فعلاً. لذا تمّ تجاهل ملاحظة الظواهر اللّغويّة الموضوعيّة معتبرين كلّ لغة لا تتوافر فيها المعايير النّموذجيّة الموضوعة وتتمثل عادة في لغة الكتب السّماوية أو لغة كبار الأدباء في عصر من العصور «لغة رديئة» أو «ضعيفة» لا تستحقّ الاهتمام والعناية. ويَجِدُ متتبعُ اللّغة النّحويّة القديمة كثيراً من العبارات التي تدل صراحة على الطابع المعياريّ المتّبع في الدّرس اللّغويّ التوفيقيّ، ومن ذلك ما نصادفه في لغة كتب النّحو العربيّ من عبارات من قبيل «يجوز» و«لا يجوز»، واستعمال

(64) M. Duchet et M. Jalley: *Langue et langages de Leibniz à l'encyclopédie*, Paris, UGE, 10/18, 1972.

(65) N. Chomsky: *La Linguistique Cartésienne. Un chapitre de l'histoire de la pensée rationaliste*, traduit par N. Delanoe et D. Sperber, Paris, Editions du Seuil, 1969/1966.

عبارات قيميّة مثل: لغة «ضعيفة» و«استعمال مقبول»، أو «استعمال جيّد» وما شابه هذه التعابير.

وفي علوم النّحو الغربيّة التّقليديّة، يتأكّد وجود البعد المعياريّ نفسه في تعريفهم للنّحو ذاته «إنّه صناعة الكتابة والقول الجيّدين» *Art de bien dire et écrire*. وليس اللّغة المتكلّم بها فقط. وكان تأليف المعاجم في الغرب الأوروبيّ يقوم على أساس اختيار الألفاظ الجيّدة وتجاهل الألفاظ التي تعتبر سوقيّة أو عامّيّة وعدم تلقينها للنّاشئة. وتمّت مأسسة المعياريّة قصد المحافظة على الطّابع الرّاقي للّغة تحت دوافع اجتماعيّة وسياسيّة. ففي فرنسا مثلاً أنشأ ريشيليو Richelieu سنة 1635 ما سمّي منذ ذلك الوقت الأكاديميّة الفرنسية Académie Française التي أوكل إليها المحافظة على اللّغة الفرنسيّة والسّهر على حسن استعمالها. وللغاية نفسها أُلّفت كتب عديدة تلقن مبادئ الاستعمال السّليم للّغة الفرنسيّة *Le bon usage*. وفي هذا السّياق قدم فوجيلا Claude Favre de Vaugelas (1585-1650) سنة 1637 لزملائه أعضاء الأكاديميّة ملاحظاته التي سيتمّ تعديلها والزّيادة فيها لتصدر سنة 1647 تحت اسم **ملاحظات حول اللّغة الفرنسيّة** *Remarques sur la langue française*. [دام البحث فيها ما يزيد على خمس وثلاثين سنة. بلغ عددها الإجمالي حوالى 800 ظهر منها 547 ملاحظة]. وقد تناول فيها قضايا لغويّة خاصة باللّغة الفرنسيّة تتعلق بالجانب النّطقيّ وشكل الكلمات ورتبة الكلمات في بنية الجملة والتّصريف وتكوين الفعل والإملاء ودلالات العبارات.

لم يكن هدف ملاحظات فوجيلا تحليل المعطيات اللّغويّة المعروضة وتقديم معلومات حولها أو تقديم قواعد للّغة الفرنسية، ولكن المرمى الأساس لملاحظاته هو البحث عن الاستعمال السليم/الجيّد باعتباره النموذج الأمثل للّغة الفرنسيّة. وقد حدّد فوجيلا مصدر هذا الاستعمال السّليم في اللّغة الفرنسيّة المستعملة من قبل رجالات البلاط بالدّرجة الأولى ثم النّبلاء وأفراد العائلات الرّاقية بمدينة باريس. وتأسيساً على هذا، فإنّ الاستعمال المرجع أي النّموذج هو لغة البلاط وحاشيته، باعتباره خزاناً للّغة ومحافظاً على نقائها وصفائها. وعندما لا يجد فوجيلا ما يدعم به الاستعمال السّليم في لغة أهل البلاط وحاشيته أو في نبلاء

وأعيان مدينة باريس، فإنه كان يبحث عن سند الاستعمال السّليم ومبرر له في أدبيّات كبار المؤلفين الأدباء، وفي مرتبة أخيرة العودة إلى استعمال المتنوّرين والعلماء. على أنّه في هذا العمل كان يرفض رفضاً باتاً كل إسقاط لقواعد اللّغة اللاتينيّة على قواعد اللّغة الفرنسيّة[66].

وبصفة عامّة كان النّحو هو أساس الدّراسات اللّغويّة ودعامتها في كلّ العصور والثّقافات الإنسانيّة العريقة ابتداء بالهنود وانتهاءً بالعصور الحديثة باعتباره صناعة تهتم بصحيح القول وتساهم في تربية الذّوق الفنّيّ وفهم الأدب شعره ونثره.

4.3. الاهتمام باللّغة المكتوبة

في ضوء الوجهة المعياريّة التي تمّت الإشارة إليها، اهتمّ اللّغويّون التّوفيقيّون بدراسة النّصوص الأدبيّة المكتوبة (مثل الإلياذة والأوديسا) وبلغة الكتب الدّينيّة (الفيدا والتّوراة والقرآن) غير عابئين باللّغة المنطوقة. وكانت القواعد النّحويّة تُسْتَقْرَأ انطلاقاً من نصوص أدبيّة ذات جودة عالية حُدِّدَت في الزّمان والمكان على نحو ما عرف بالشّاهد وبعصور الاحتجاج في الفكر اللّغويّ العربي.

وفي أوروبا، انْصَبَّ التَّقْعيدُ النّحوي وتعليم اللّغة على تقليد الأساليب الأدبيّة الرّاقية المأخوذة في معظمها من أعمال أدبيّة قديمة وخصوصاً أعمال شيشرون Cicéron وسوفوكليس. وظلّ هذا التّقليد أمراً مسلّماً به ومتّبعاً إلى زمن غير بعيد على الأقل في الإطار المدرسيّ التّعليميّ.

ونتج عن الاهتمام بالمستوى المكتوب في اللّغة إهمال واضح لكل ما هو مرتبط بالمستوى المنطوق الذي كان يُنظر إليه على أنه صورة غير كاملة لما هو

(66) للمزيد من الاطّلاع يمكن الرجوع ضمن مئات المصادر إلى أحدث ما كتب عن فوجيلا: André Combaz: *Claude Favre de Vaugelas, mousquetaire de la langue française*, préf. de Louis Terreaux, Paris, Klincksieck, 2000.

René Lagane: *Vaugelas: Remarques sur la langue française*, Paris, Larousse, 1975.

مكتوب[67]. وواضح أنّ هذا التوجّه هو غير الاتجاه الذي تسير فيه اللّسانيّات الحديثة والذي تَعْتَبِرُ المستوى المنطوق أكثر أهمّيّة، لأن الأصل في اللّغة هو استعمالها المنطوق.

واشتغل لغويو المرحلة التّوفيقيّة ببعض الإشكالات التي لم تكن مجدية بالنّسبة إلى الدّرس اللّغويّ لاعتمادها على الحدس والتّخمين ومن هذه القضايا المعقدة والمثيرة مشكل أصل اللّغات ونشأتها الأولى. وتزخر كتب اللّغة والفكر الإسلاميّ القديم بكثير من الآراء في هذا المجال.

هذه بعض ملامح المرحلة التوفيقيّة التي تتضمن إجمالاً نتاج الحضارات الإنسانيّة الكبرى خلال الحقبة التاريخيّة القديمة إلى حدود منتصف القرن الثّامن عشر. وقد قدّمنا مجمل هذه الآراء من دون اتخاذ أي حكم مسبق إزاء الفكر اللّغويّ القديم. وسمات المرحلة التوفيقيّة المقدّمة في هذا الفصل لا تعني البتّة التّقليل من أهمّيّة هذا الفكر اللّغويّ القديم أو الحكم عليه من منظور لسانيّ حديث. فلكلّ فكر مرجعيّته وإطاره التّاريخيّ والثّقافيّ والاجتماعيّ الذي يتحرّك داخله، يؤثر فيه ويتأثّر به، وهو ما حاولنا مراعاته واحترامه مبتعدين عن كل تأويل حديث لهذا التّراث الإنسانيّ الجليل.

(67) جون ليونز، **تشومسكي**، ترجمة حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريّة، 1985، ص41.

الفصل السادس

اللّسانيّات المقارَنة

مقدّمة

يختلف الدّارسون حول تسمية الآراء والتّصوّرات التي هيمنت خلال الحقبة الممتدّة من بداية القرن التّاسع عشر إلى نهايته. فالبعض يعدّها بمثابة مرحلة واحدة (يطلق عليها اللّسانيّات المقارَنة أو النّحو المقارَن أو الفيلولوجيا المقارَنة)، والبعض الآخر يقسمها إلى فترتين متميّزتين: مرحلة النّحو المقارَن، ومرحلة النّحو التاريخيّ، وهناك من يعدّ المرحلة بأسرها مرحلة واحدة تنشطر إلى لحظتين: واحدة مقارنة وأخرى تاريخيّة. وتستعمل عبارة «النّحو المقارَن» عادة للإشارة إلى تطوّر الدّراسات اللّغويّة خلال القرن التّاسع عشر وتحديداً في الفترة الممتدّة من 1800 إلى 1875. إنّها تشمل بالفعل لحظتين متميّزتين لمجال البحث اللّسانيّ يتعيّن عرضهما منفصلتين[1]. وقد ذهب ميّيه اللّسانيّ الفرنسي إلى القول بأنّ ما يسمّى نحواً مقارناً ما هو إلا شكل معيّن من اللّسانيّات التّاريخيّة، وأنّ من يقوم بتطبيق المقارَنة على لسان معيّن إنما يقوم ببناء تاريخ هذا اللّسان معتمداً على ما يقدمه المنهج المقارن. وكان ميّيه يستعمل عبارة «اللّسانيّات التّاريخيّة المقارنة» معتبراً أنّه خارج نطاق المقارنة ليس هناك إجراء آخر للقيام بتاريخ الألسن[2].

---

(1) M.-A. Paveau et G.-E. Sarfaty: *Les grandes théories de la linguistique*, Paris, Armand Colin, 2003, p. 8.

(2) Antoine Meillet: *La méthode comparative en linguistique historique*, Paris, Champion, 1925/1966, p. 4.

وخلاصة القول إنّ اللّسانيّات المقارنة واللّسانيّات التّاريخيّة تلتقيان في كونهما تشتركان بطريقة منسجمة ومتكاملة في تحقيق هدف واحد هو إعادة البناء الدّاخليّ للّغات وإعادة تركيب تاريخها اللّغويّ على أسس تاريخية ومقارنة. وعلى كلّ حال، فإنّ ما قام به لغويّ مثل دياز Diez هو نحو مقارن وتاريخيّ في الوقت ذاته. ومهما يكن من أمر، فإنّ ثمة ثلاثة عوامل أساسيّة ساهمت في الانتقال من المرحلة التّوفيقيّة إلى المرحلة المقارنة وهي على التّوالي:

أ- اكتشاف علاقة القرابة بين اللّغة السّنسكريتيّة واللّغتين اللاّتينيّة واليونانيّة.

ب- إعادة اعتبار اللّغات المحلّيّة والوطنيّة في علاقتها بالتّاريخ والثّقافة.

ج- سيادة النّموذج البيولوجيّ وتصنيف الأنواع في الفكر العلميّ.

لقد تميز عصر النهضة بانفتاحه على ثقافات غير أوروبيّة والاهتمام باللّغات الأجنبيّة التي اعتُبرت خارج ما هو مألوف أوروبيّاً من تقليد لغويّ ونحويّ. وجاء الاهتمام بهذه اللّغات الأجنبيّة بعد توسّع أوروبا التّجاري والسياسيّ غداة الاكتشافات الكبرى (اكتشاف طريق الحرير ثم اكتشاف أميركا وكذا الرحلات البحريّة الكبرى). غير أنّ أهم حدث لغويّ عرفه القرن الثّامن عشر بامتياز يتمثّل في اكتشاف اللّغة السّنسكريتيّة والتأكيد على أهمية علاقتها باللّغات الأوروبيّة لاسيّما اللاّتينيّة والإغريقيّة.

1. اكتشاف اللّغة السّنسكريتيّة

يُعدّ اكتشاف العلاقة بين اللّغة السّنسكريتيّة واللّغة الإغريقيّة منعطفاً جديداً في تاريخ الدّراسات اللّغويّة باعتباره حدثاً ساهم في بعث روح جديدة في البحث اللّغويّ، مشكّلاً بذلك نقطة تحوّل في الفكر اللّغويّ. وقد جاء هذا الاكتشاف الهامّ بعد تعرف الدّارسين إلى اللّغة السّنسكريتيّة وأهميتها التّاريخيّة بحكم أنها حملت تراث إحدى أقدم الحضارات الإنسانيّة وهي الحضارة الهنديّة التي سبقت نظيراتها الأوروبيّة في المجال اللّغويّ على الأقلّ. واللّغة السّنسكريتيّة[3] هي

---

(3) سبق أن أشرنا في الفصل السابق إلى ندرة المصادر العربيّة المتعلقة باللغة السّنسكريتيّة اللهم إلا ما كان من كتاب أحمد مختار عمر: **البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب**، دار الثقافة، بيروت، 1972. والمصادر الغربية عديدة في هذا الباب. =

اللّغة القديمة للهند وتنقسم إلى قسمين:

- اللّغة السّنسكريتيّة الڤيديّة Védique أو السّنسكريتيّة القديمة.

- اللّغة السّنسكريتيّة التقليديّة.

وتنقسم السّنسكريتيّة القديمة بدورها إلى قسمين:

- اللّغة الدّينيّة أو لغة الترانيم وهي لغة الشّعائر والطّقوس التي كانت تقام في المعابد الهنديّة القديمة.

- البراهمانية Brahmanique التي حُرِّر بها كتاب الفيدا Veda (وتعني المعرفة) وهي اللّغة التي كان يُتكلّم بها ما بين سنة 1800 و500 قبل الميلاد.

أما اللّغة السّنسكريتيّة غير الدّينيّة، فلا يُعْرَفُ عنها أيُّ شيء، ولم يَصِلْ إلينا منها أيّ نصّ.

وقد تَمَّ اكتشافُ العلاقة القويّة، والتشابه الواضح بين الأشكال اللّغويّة في اللّغة السّنسكريتيّة واللّغة اليونانيّة واللّاتينيّة على يد وليم جونز William Jones (1746-1794) عام 1786 وذلك في البحث الذي قدمه إلى أعضاء الجمعيّة الملكية الآسيوية في كالكوتا (الهند) في جلسة 2 شباط/فبراير من سنة 1786.

ولم يأتِ هذا الاكتشاف دفعةً واحدة، إذ بدأ الاهتمام بالمقارنة عند كثير من مفكّري عصر النّهضة وما بعدها خلال القرن السّابع عشر. وبَدَأَ «التّعرّفُ على اللّغة السّنسكريتيّة والنّحو الهنديّ في أوروبا في القرن السّادس عشر والسّابع عشر على يد المبشّرين»[4].

= فعلاوة على المصادر الإنكليزية التي ذكرها أحمد مختار عمر في كتابه تذكر مصدرين أساسيّين باللغة الفرنسية:

- J. Barthélemy Saint Hilaire: *Des Védas*, Paris, B. Dupontet A. Durant, 1984.

- Emile Burnouf: *Essai sur le Véda*, Paris, Dezobry Tandou-Libraires, Editeurs, 1863.

(4) L. Bloomfield: *Le langage*, p. 16.

ففي سنة 1767م بعث الفرنسيّ الأب بيير كوردو Pierre Coeurdoux وكان مبعوثاً للتّبشير المسيحيّ في بلاد الهند والبنغال إلى المعهد الفرنسيّ ببحث علميّ أثار فيه انتباه الباحثين إلى التّشابه القائم بين بعض كلمات اللّغة السّنسكريتيّة واللّغة اللاّتينيّة من خلال المقارنة التي قام بها بين تصريف الحاضر indicatif والأمر في السّنسكريتيّة واللّغة اللاّتينيّة. إلا أنّ هذا البَحْثَ لم يُطْبَعْ إلّا بعد أربعين سنة من هذا التاريخ، في وقت نشر فيه جونز Jones دراسته التّاريخيّة التي توصّل فيها إلى النتائج نفسها بوضوح، وبكثير من التفصيل.

وبمعزل عن حدث اكتشاف اللّغة السّنسكريتيّة في ذاته، كانت فكرة المقارنة كمبدأ قد بدأت تنتشر وتأخذ طريقها إلى الأوساط الفكريّة مع دعوة الفيلسوف لايبنز (1646-1716) إلى الاهتمام باللّغات السّلافيّة في إطار تصوّر موسوعيّ للمعرفة الإنسانيّة. كما يعدّ هذا الفيلسوف والرياضي من الدّعاة الأوائل إلى دراسة تاريخ اللّغات والوقوف على مظاهر القرابة والتشابه بينها. وقد أنجز لايبنز عدة بحوث في هذا الاتّجاه، وقد مكّنه تصنيف اللّغات من استخلاص الخصائص والسّمات التي تجمع بين لغات البشر قاطبة.

وكتب المفكّر الفرنسيّ تورغو Turgot مقالاً هامّاً بعنوان «الاشتقاق» Etymologie نُشِرَ سنة 1756 في الموسوعة Encyclopédie التي كان يديرها ويشرف عليها المفكّر الفرنسي ديدرو Diderot قدَّمَ فيه ما يُمْكِن اعتباره مادّة عِلْميّة هامّة سيعتمدها المقارِنون الأوائل لاحقاً، لاسيما اللّغويّ الدّانماركيّ راسموس راسك[5] أحد مؤسسي المنهج المقارن.

وأَخذَتِ المقارنةُ خطواتِها الأولى نحو الانتشار «مع وولف Wolf Frederic August» ابتداء من سنة 1777 في إطار ما سُمِيَّ «بالنّقد المقارِن» للنّصوص القديمة. ويشير دو سوسير نفسه في محاضراته إلى اسم وولف واصفاً إياه بأنّه منعطف جديد في تاريخ اللّسانيّات[6]. كان هدف هذه الحركة في بداية الأمر إعادة تأويل النّصوص القديمة بعد تحقيقها والتأكّد من صحة نسبتها إلى مؤلّف

(5) M.-A. Paveau et G.-E. Sarfaty: *Les grandes théories de la linguistique*, Paris, Armand Colin, 2003, p. 9.

(6) Ferdinand De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 13.

معيّن. ولم يكن وولف يدرس اللّغة في ذاتها ولذاتها، وإنما لِفَهْم النّصوص القديمة. وكان النقدُ المقارِن أو ما أصبح يُعْرَفُ بالفيلولوجيا Philologie يَدْرُسُ لغةَ مُؤَلِّفٍ ما للكشف عن أسرارها الأدبيّة ولِفَهْم أعْمَق لِتَكْوينِ Genèse أعماله. وواضح، كما هو الشأن في كلّ عمل فيلولوجيّ، أنّ الاهتمام اللّغويّ كان منصبّاً على اللّغة المكتوبة دون المنطوقة (راجع ما قلناه عن سمات المرحلة التوفيقيّة).

وقد أعطى البحث الذي قَدَّمَهُ وليم جونز سنة 1786 الدّرس اللّغويّ نفساً جديداً. فقد وَضَّحَ في هذا البحث فكرة القرابة بين السّنسكريتيّة واللّغة الإغريقيّة، وفي هذا الصدد يقول جونز: «إنّ السّنسكريتيّة مهما كان تاريخها القديم، تتوافر فيها بنية خارقة. إنّها أكثرُ كمالاً من الإغريقيّة وأكثر شموليّة من اللاّتينيّة. إنّها ذات حُسْنٍ يَفُوقُ صفاءَ هَاتَيْن اللّغتين. إنّ السّنسكريتيّة لها قرابةٌ مع الإغريقيّة واللاّتينيّة، قرابةٌ جدُّ قويّة في جذر الأفعال وفي أشكال النّحو. إنّ هذه القرابة لا يمكنها أن تكون نتاجاً عارضاً. إنّها واضحةٌ جداً، لدرجة أنّ أيّ فيلولوجي لا يمكنه دراسة هذه اللّغات الثلاث من دون أن يَعْتَقِدَ أنّها نشأت عن أصل مشترك ربما لم يَعُدْ له أيُّ وجود. ويمكننا أنْ نَفْتَرِضَ، لكن بدرجة أقلّ تأكيداً، أنّ اللغتين القُوطِيَّة Gothique والسَّلْتِيَّة Celtique يُمكنهما أيضاً أن تُضافا إلى هذه العائلة»[7].

يعكس هذا الكلام جملة من الافتراضات الجديدة في مجال البحث اللّغويّ نذكر منها:

- قرابةُ اللّغة السّنسكريتيّة واللّغتين الإغريقيّة واللاّتينيّة.

- صدورُ هذه اللّغات الثّلاث عن أصل مشترك واحد ربما لم يَعُدْ له أي وجود.

- إن اللغتين القوطيّة والجرمانيّة القديمة والسّلتيّة (وتضمّ اللّغات الإيرلنديّة واللّغة الغاليّة Galois والبْروطانيّة Breton) يمكنهما أيضاً أن تضافا إلى هذه العائلة.

وانطلاقاً من هذه الافتراضات الجديدة التي تضمّنها بحث وليم جونز

(7) Otto Jespersen: *Le langage*, Paris, Payot, 1976, (V.O 1922), p. 35.
والقولة نفسها واردة لدى روبنز: **موجز تاريخ علم اللغة**، مرجع سابق، ص224.

تكاثرت البحوث والدّراسات اللّغويّة التي حاولت أن تكشف عن مظاهر أوجه القرابة بين اللّغة السّنسكريتيّة واللّغتين الإغريقية واللّاتينيّة وغيرهما من اللّغات الأوروبيّة. وكان الباحثون قبل اكتشاف قرابة اللّغة السّنسكريتيّة باللّغتين اللّاتينيّة والإغريقيّة يدركون حَدْسياً أنّ ثمة علاقة ما تجمع بين بعض الوحدات في اللّغتين الإغريقيّة واللّاتينيّة كما في:

LATIN	GREC
GENUS	GENOS
GENERIS	GENOS
GENERA	GENEA

لكنّ تعاملهم الحَدْسي مع مظاهر القرابة بين هذه اللّغات، جعلهم لا يَتَوَصَّلُونَ إلى نتيجة واضحة تفسر طبيعة هذه العلاقة. وقد سمح اكتشاف اللّغة السّنسكريتيّة بتوضيح دقيق لطبيعة العلاقة القائمة بين اللّغات الثّلاث باستحضار الوحدات السّنسكريتيّة: Génasas, génassu Génas[8]. وهكذا نشأت المقارنةُ تدريجاً بين اللّغات، وبدأ المنهج المقارن ينمو ويتطور إلى أن اكتمل مع بوب وجاكوب غريم وشليغل وغيرهم كما نوضح ذلك في الفقرات التّالية.

2. أعلام المنهج المقارن

يُعدّ شليغل F.V.Schlegel (1772-1829) أوّل من استعمل مصطلح «النحو المقارَن» Grammaire comparée حوالى سنة 1808 في مؤلّفه عن «مقالة حول لغة الهنود وفلسفتهم»[9]. يقول شليغل «يكفيني أن أشير بنوع من الرّضا إلى المبادئ التي يجب أن يقوم عليها نحو مقارن أو شجرة تكوينيّة تاريخيّة أي تاريخ حقيقيّ لتكوين اللّغات»[10]. فالمقارنة تمكّن من معرفة دقيقة ومضبوطة للألسن

(8) انظر الأمثلة لدى دو سوسير: **المحاضرات**، (بالفرنسية) ص15.

(9) A.-F. Schlegel: *Essai sur la langue et la philosophie des indiens*, traduit de l'allemand par M.-A Mazure, Paris, Parent-Deabarbes Editeurs, 1808/1837, p. 11-12.

(10) Idem, p. 89.

المتقابلة فيما بينها. وبذلك يكون شليغل قد أشار إلى مرحلة لغويّة جديدة تقوم على أسس منهجيّة ونظريّة في معالجة اللّغات وتشكّل محطة جديدة في تاريخ الفكر اللّغويّ هي مرحلة النّحو المقارَن. وقد بيّنَ في مؤلّفه هذا التشابه القائم بين اللّغات الأوروبيّة واللّغة السّنسكريتيّة مقدّماً لائحة طويلة بمجموع الألفاظ السّنسكريتيّة ومقابلاتها في اللّغات الفارسيّة والألمانيّة والإغريقيّة واللاّتينيّة وغيرها من اللّغات المتقاربة معها. كما أكّد على وجود علاقة أصيلة بين اللّغات الهنديّة والفارسيّة والجرمانيّة واليونانيّة واللاّتينيّة باعتبارها تشكل الأسرة اللّغويّة نفسها، وأنّ الهنديّة أقدم هذه اللّغات وهي النّبع الذي صدرت عنه باقي اللّغات(11). وكما هو الشأن بالنسبة إلى وليم جونز، فإنّ القرابة بين هذه اللّغات ليست عَرَضيّة يمكن تفسيرها عن طريق الاختلاط بينها ولكنّها مطابقة جوهريّة ومركزيّة(12).

وقدّم شليغل في هذا العمل جملة من الأفكار اللّغويّة الهامّة والجديدة حول العلاقة بين اللّغات من حيث بنيتها الصّوتيّة النّحويّة والإعرابيّة والصّرفيّة. كما كان بين الفينة والأخرى يُقدّم ما يراه مبادئ عامّة أو ما أسماه «المبدأ النّحويّ» (Principe Grammatical)(13) الذي يحكم التنوّع اللّغويّ الذي يعرفه العالم. ويتمثّل هذا المبدأ النّحويّ بالنسبة إليه في كون كلّ لغات الكون لا تخرج عن كونها تلجأ إلى إحدى الطّريقتين التّاليتين. «إنّ الأفكار المساعدة التي تستعمل لتحديد دلالة كلمة ما يمكن التعبير عنها بكيفيّتين (...):

- بواسطة التّصريفات الإعرابية inflexions أي التّغييرات الدّاخلية لجذر الكلمة radical.
- عن طريق زيادة كلمة خاصّة أكانت تعبّر سابقاً عن الزمن الماضي أو عن ضرورة مستقبلية أو عن علاقات أخرى»(14).

والتّمييز بين هاتين الطّريقتين البسيطتين أساسيّ، لأنّ كل ما يلاحظ من

(11) Idem, p. 11.
(12) Idem, p. 11.
(13) Idem, p. 50.
(14) Idem, p. 51.

اختلافات أخرى متنوّعة وعديدة في تحديد دلالة الكلمات في اللّغات يمكن ردّه في النّهاية إلى الوسيلتين البسيطتين السّالفتين اللّتين تسمحان لنا في نظر شليغل أن نقسم جميع اللّغات إلى مجموعتين رئيسيتين:

- لغات إعرابيّة وهي اللّغات التي يتغير شكل (جذر) الكلمات فيها بحسب علاقاتها النّحويّة بغيرها من الكلمات. وجُلّ اللّغات الهندو ـ أوروبيّة لغات إعرابيّة. ويشكّل الجذر في اللّغات الإعرابيّة أثراً في علاقة القرابة التي تربط بين هذه اللّغات (ص56).

- لغات بدون إعراب، وهي لغات أحادية المقطع. فالعلاقات التّركيبية والدّلالية بين الكلمات يعبّر عنها بواسطة الحروف والأدوات. فكل دلالة جديدة يعبّر عنها بواسطة إضافات خارجة عن الجذر وليس عن طريق الإعراب. وتعدّ اللّغة الصّينيّة نموذجاً ملحوظاً للّغات التي لا يتوافر فيها مطلقاً الإعراب. كما يندرج ضمن هذا الصّنف اللّغة الماليزية Malaisie واللّغات الأميركية (ص53).

وسيأخذ هذا التّصنيف بُعداً آخر حين سينظر شليغل إلى اللّغات الإعرابيّة على أنّها كاملة أو كما سيسميها هو ألسن نبيلة (ص86) ويُحدّد شليغل نبل الألسن الهندو ـ أوروبيّة (ومنها الألمانيّة) في الألسن المكوّنة طبيعيّاً بكيفيّة عضويّة (ص57) وذات إعراب، أي التّامة التكوين، وذات التّاريخ الضّارب في القدم، وهي «ألسن في الدرجة العليا ضمن تاريخ تكوين الألسن، على عكس الألسن الأخرى التي توجد في أدنى درجات سُلّم تكوّن اللّغات» (ص55) وتنقصها بذرة الحياة وعدم التّطوّر. فهذه اللّغات الأخيرة غالباً ما تكون اعتباطية وطريقة التفريع فيها تظل ناقصة، وتكوين الكلمات فيها يكون على جانب كبير من التّعقيد (ص57). ويُدرج شليغل اللّغة العربيّة ضمن اللّغات غير الإعرابيّة معترفاً بأنّ العربيّة والعبريّة بالرّغم من جلالة قوتهما وفنّيّتهما في التّعبير وكونهما في المراتب الأولى للّغات، فهما لا ترقيان لدرجة اللّغات الهندو ـ أوروبيّة لاسيما اليونانيّة والسّنسكريتيّة (ص61).

ويأخذ الجذر أهمّيّته في اللّغات الهندو ـ أوروبيّة باعتبار هذه الألسن قد تكونت بكيفيّة عضويّة وأنّها نتيجة نسيج أوّلي، لدرجة أنّنا بعد قرون، وفي ألسنة متفرقة الواحد عن الآخر في بلدان شاسعة، سنجد من جديد ومن دون عناء كبير

الخيط الرّابط الذي يجري في المجال الشّاسع لأسرة من الكلمات التي يمكنها أن تقودنا إلى الميلاد البسيط للجذر الأوّل[15].

لكنّ غياب صياغة شاملة ودقيقة للقواعد العامّة المتحكّمة في هذه التقابلات correspondances التي تجمع بين الأصوات والصّيغ النّحويّة في هذه اللّغات المتقاربة حال دون اعتبار شليغل مؤسّساً للمنهج المقارن[16]، وهو ما سيقوم به غريم J. Grimm وفرانز بوب بعده.

وتجدر الإشارة إلى أنّ قيام المقارنة كمنهج علميّ مستقلّ وواضح المعالم تمّ في نظر جُلّ مؤرّخي اللّسانيّات، مع فرانز بوب (1791-1869) سنة 1816 في كتابه الشهير **نظام تصريف السّنسكريتيّة ومقارنته بالأنظمة الصّرفيّة في اللّغات اليونانيّة واللّاتينيّة والفارسيّة والجرمانيّة** الذي حَلّلَ فيه بوب لأوّل مرة في تاريخ الفكر اللّغويّ عدّة لغات من حيث الأصوات والصّيغ على أساس المقارنة بينها، وفي سنة 1833 نشر بوب كتابه الضّخم المعروف **النّحو المقارَن للّغات الهندو - أوروبيّة**[17].

وكان بوب يتتبّع الظّواهر اللّغويّة باعتبارها أحداثاً طبيعيّة مقارناً بين عدة أصناف من اللّغات، مثلما كان يفعل علماء الطبيعيات وعلماء التّشريح والأحياء في زمانه. «فالنّحو المقارن بطرائقه المنسّقة تجعله يُشبه نوعاً من تشريح اللّغة»[18].

وبهذا العمل اعتُبر بوب رائد المنهج المقارن. وكان هدفه الوقوف على أصل الصّيغ النّحويّة في العديد من اللّغات الأوروبيّة من خلال مقارنتها بنظيراتها في اللّغة السّنسكريتيّة رغم أنّه لم يكن يعدّها صيغاً أوّليّة. ولم يكُنْ فرانز بوب يَعدّ اللّغتين الإغريقيّة واللّاتينيّة وباقي اللّغات الأوروبيّة متفرعةً من اللّغة السّنسكريتيّة التي تُجَسّدُها النّصوص الهنديّة، بل اعتبرها جميعاً تنوعاتٍ صادرةً عن لغة أصليّة

---

(15) Idem, p. 57.

(16) Otto Jespersen: *Le langage*, p. 47.

(17) Franz Bopp: *Grammaire comparée des langues indo-européennes comprenant le sanscrit, le zend, l'arménien, le grec, le latin, le lithuanien, l'ancien slave, le gothique et l'allemand*, Paris, Impr. impériale et impr. nationale, 1866-1874 nouv éd. 1885-1889, 5 vol. trad. fr. par Michel Bréal.

(18) Idem, p. 4.

واحدة تَمَكَّنَتِ اللّغة السّنسكريتيّةُ أكثر من غيرها، من المحافظة على العديد من خصائصها وسماتها. «إنّ الدّلالة الأوّليّة، وبالتّالي أصل الصّيغ تظهر في غالب الأحيان من تلقاء نفسها كلّما وسّعنا دائرة هذه الأبحاث، وقرّبنا هذه الألسن، الصّادرة عن الأسرة نفسها بعضها من بعض والتي رغم انفصال يعود إلى عدة آلاف من السّنين، ما تزال تحمل العلامة التي لا يمكن إنكارها على تواليها المشترك»[19].

وتَكْمُنُ أهمّيّة ما قام به بوب، أنّه أثبت، منهجيّاً ونظريّاً، الملاحظات الحدسية الواردة عند وليم جونز، وأنّ المقارنة يُمكنُها أن تكون موضوعَ درسٍ لغويّ مستقلّ عن الدّراسات الأخرى المتعلّقة باللّغة مثل، النّحو المعياريّ والفيلولوجيا. يقول بوب «إنّ استعمال الطريقة العلميّة (في المقارنة) تجعلنا نتعرّف ونتبيّن أنّ أنحاء متنوعة لا تشكّل من حيث المبدأ إلا نحواً واحداً»[20]، ويقول كذلك في مقدمة كتابه المذكور: «سأعطي في هذا المؤلّف وصفاً لتنظيم (على شكل عضويّ) organisme مختلف الألسن المذكورة في عنوانه، وأن أقارن بين الوقائع اللّغويّة التي لها الطّبيعة نفسها، وأن أدرس القوانين الفيزيقيّة والآليّة التي تحمي هذه الألسن، وأن نبحث عن أصل الصّيغ التي تعبّر عن العلاقات النّحويّة»[21]. ومع بوب أصبح بالإمكان تفسير كثير من الظّواهر الصّوتيّة والصّرفيّة في لغة معيّنة، استناداً إلى الظّواهر نفسها في لغات أخرى؛ أي توضيح لغة بلغة.

تقوم اللّسانيّات المقارَنة على فكرة أساسية مفادها، أنّه من الممكن بواسطة مقارنة العناصر النّحويّة للّغات (من هنا جاءت تسمية النّحو المقارَن) وضع مجموع قواعد التّقابلات بين أصوات الألسن وصيغها، ثم إعادة بنائها للوصول إلى تفاصيل تطوّرها، أو على الأقل تطوّرها في صورته العامّة: لغة أم/لغات كبرى/أسر لغويّة[22]. يقوم المنهج المقارن على اختيار معطيات لغويّة في لسان

(19) F. Bopp: *Grammaire comparée*, p. 2 voir aussi Otto-Jespersen: *Le langage*, p. 49.

(20) Ibid, p. 3.

(21) Ibid, p. 1.

(22) M. Anne Paveau et Georges Elia Serfati: *Les grandes théories de la linguistique*, p. 10.

محدّد تكون عبارة عن وحدات لغويّة قديمة نسبيّاً تتمّ مقارنتها بما يماثلها في لغات أخرى للوقوف على درجة قرابتها ونسبة الصّلة بينها في مستوى من المستويات اللّغويّة المعروفة (صوت-صرف-اشتقاق). أمّا الغاية من المقارنة فتكمن في التّوصل إلى الصّيغة، أو الصّيَغ اللّغويّة التي يفترض أنّها الصّيغ الأقدم، أو أنّها تشكّل الأصل المشترك الذي تفرّعت منه الصّيغ المقارَن بينها في هذه اللّغات. وقد ينتهي الباحث المقارِن إلى نتائج نهائيّة على شكل افتراض عامّ مفاده أنّ هذه الصّيغ المقارَن بينها قد تكون منحدرة من أصل واحد.

وينطلق المنهج المقارِن من معطيات قد تكون واقعيّة؛ أي وحدات لغويّة محقّقة فعلاً تنتمي إلى لغة معيّنة في حالة معيّنة راهنة أو قديمة، وقد تكون افتراضية؛ أي يتصوّر على أنّها الأصل الذي انحدرت منه ولا علاقة لها بالواقع اللّغويّ. وتعرف هذه الصيغ الافتراضيّة في أدبيّات المنهج المقارِن بالنسبة إلى عائلة لغويّة معيّنة بالطّراز الأوّليّ **Prototype**.

وسارت المقارنة بين اللّغات في اتّجاهين مختلفين ومتكاملين في الوقت ذاته:

- اتجاه يهدف إلى المقارنة بين اللّغات الأوروبيّة واللّغة السّنسكريتيّة وهي مقارنة خارجيّة.

- اتجاه يَرومُ المقارنةَ بين اللّغات الأوروبيّة فيما بينها دون غيرها، وهي مقارنة داخليّة.

ومن النّتائج المباشرة للّسانيّات المقارنة أنّ الدرس اللّغويّ انتقل في هذه المرحلة من التّساؤل عن الأساليب الجيّدة والسّليمة في لغة معيّنة إلى التّساؤل عن حقيقة الوضع اللّغويّ، وهو ما يعني بداية الاهتمام بحقيقة اللّغة كما تجسّدها النّصوص والوقائع لا كما يجب أن تكون؛ أي أنّ المرحلة المقارَنة شكّلت بداية التّخلّي عن النّظرة المعياريّة في التّعامل مع قضايا اللّغة.

3. غريم وقانونه الصوتي

ظهر في الدّانمارك سنة 1818 كتاب في مجال المقارنة اللّغويّة يضارع في جوانب عديدة الآراء والتّحاليل والنّتائج التي سطّرها اللّغويّ الألمانيّ فرانز

بوب، يتعلق الأمر بكتاب راسموس راسك Rasmus Kristian Rask (1782-1832) وعنـوانـه *Investigation sur L'origine du vieux Norrois ou Islandais* **مباحث حول أصل اللّغة النرويجية القديمة أو الأيسلندية** دَرَسَ فيه صاحبه مختلفَ مَظاهِرِ القرابة بين عدد من اللّغات الأوروبيّة، دون أن يَعرضَ بالدّراسة للّغتين السّنسكريتيّة والفارسيّة، لأنهما كانتا في اعتقاده من فصيلة واحدة. ويمتاز مؤلف راسموس راسك بالنّهج العلميّ الدّقيق الذي سار عليه، ويتمثل ذلك في ربطه بين اللّغة الأيسلندية واللّغات الإسكندنافيّة والجرمانيّة واليونانيّة واللاّتينيّة والليتوانيّة والسلوفينيّة والآراميّة، مُبْتَعِداً في مقارنته بين هذه اللّغات عن بعض القضايا اللّغويّة الزّائفة مثل البحث في اللّغة الأمّ أو البحث في أصل اللّغات. واكتفى راسك بالبحث عن الصورة الأولى الأكثر احتمالاً للّغة التي تكون اللّغة الإسكندنافية قد صدرت عنها. واعْتَبَرَ بَعْضُ مؤرخي اللّسانيّات مُؤَلفَ راسك «أفْضَلَ عَرْضٍ لِلْمنهج الحقيقيّ في مادة البحث اللّساني كُتِبَ في النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر»[23].

وجدير بالإشارة إلى أن راسموس راسك اعتمد في كتابه السّالف الذّكر مادّة لغويّة أكثر اتّساعاً من تلك التي اعتمدها بوب في مؤلّفه **نظام التّصريف**. فقد رجع راسك إلى موادّ لغويّة مستمدّة من أبحاث لغويّة سابقة لإثبات علاقة اللّغة الأيسلندية Islandais باللّغات السّلافية Slaviques والبلطيقيّة Baltique واليونانيّة واللاّتينيّة على نحو ما نجد في مقال تورغو Turgot في الموسوعة كما ذكرنا ذلك سابقاً.

إلى جانب بوب وراسك، نجد جاكوب غريم Jacob Grimm (1785-1863) الذي نشر سنة 1818 كتاباً بعنوان **نحو الجرمانيّة** *Die Deutsche Grammatik*[24].

---

(23) Otto Jespersen: Le langage, p. 39.

(24) في الأدبيّات اللّغويّة التاريخيّة والمقارنة خلال القرنين الثّامن والتّاسع عشر، لا تشير عبارة Deutche Grammatik الواردة في عنوان مؤلف غريم، إلى اللّغة الألمانية كما هي اليوم فقط، ولكن إلى اللّغات الجرمانيّة التي تضمّ اللّغات القوطيّة والإسكندنافيّة والإنكليزيّة والهولنديّة والألمانيّة (انظر يسبرسن: اللّغة، هامش ص40 وكذلك بلومفيلد: اللغة، ص19 النّصّ الفرنسي).

عالج فيه أهم المسائل المتعلّقة بنحو اللّغة الجرمانيّة في تنوّعاتها القديمة والحديثة مضيفاً إليها دراسة مقارنة للخصائص المميّزة للّغة الإسكندنافيّة. وفي الطّبعة الثّانية للكتاب التي صدرت سنة 1822 أضاف غريم فصلاً جديداً بَحَثَ فيه مختلفَ أوجه العلاقة بين الصّوامت Consonnes في اللّغة الألمانيّة وما يقابلها في اللّغات الهندو-أوروبيّة، مُنتهياً إلى وجود علاقة ثابتة تَتَحَكّمُ في تقابل أصوات اللّغات الهندو-أوروبيّة. ولتوضيح خلاصة التّقابلات الصّوتية التي توصّل إليها غريم نُشير إلى أنّ نطق الصّوامت في اللّغات الآريّة يعتمد ثلاثة مخارج أساسيّة هي[25]:

- مخرج حَنْجَريّ
- مخرج أسنانيّ
- مخرج شفويّ

وتنتج هذه المخارج تباعاً الأصوات /K/ /T/ /P/. ولكل مخرج طريقتان لنطق هذه الأصوات الثلاثة:

- نطق شديد Dure.
- نطق رخو.

وفي بعض اللّغات الآريّة وليس في جميعها، يكون هذان النُّطقان مصحوبين بنوع من الهائيّة Aspiré. ففي السّنسكريتيّة مثلاً، يتحقّق نطق الأصوات السّابقة كالتالي:

- **الصوامت الشّديدة:** /P//K//T/
- **الصوامت الرّخوة أو الوسطى:** /G//D//B/
- **الهائيّات** Aspirées **الشّديدة:** /Ph//Kh//Th/
- **الهائيّات الرّخوة:** /Gh//Dh//Bh/ وهو النّوع الأكثر تواتراً وأهمّيّة.

(25) Max Muller: *Nouvelles leçons: sciences du langage*, T1, Paris, A Durand et Pedone Lauriel Libraires Editeurs, 1867 v.o 1863, p. 251 et suivantes.

ويوجد في اللّغات اليونانيّة واللّاتينيّة والقوطيّة والسلافيّة ما يُشْبه هذا النّسق مع اختلافات مُتفاوِتَةِ الأهمّيّة.

وبمقارنة الأصوات السّالفة الذِّكر، تَبيّنَ لغريم أنّه انطلاقاً من الجذور المشتركة بين اللّغات المذكورة، يُلاحَظُ أنّه حيثما يَنْطِقُ الهنود واليونان أصواتاً هائيّة، فإن القوطيّين والأنكلوساكسونيّين يَنْطِقونَ صوامت رخوة. كما يتضح في الجدول التالي:

Kh	Th	Ph	السّنسكريتية
G	D	B	القوطية
K	T	P	الألمانية القديمة

حيث تَنْطِقُ اللّغات اللّاتينيّة والسّنسكريتيّة والإغريقيّة واللّيتوانيّة والسّلافيّة والسلتيّة الصّوامت المتوسّطة، أي بين الرّخوة والشّديدة، بينما تنطق القوطيّة الأصوات نفسها صوامت شديدة/P//T//K[26].

ويمكن تلخيص هذه التقابلات في جدول عامّ على النحو الآتي[27]:

	1	2	3	4	5	6	7	8	9
Sansk	gh (h)	Dh (h)	Bh	(h)	g	d	b	k	Tp
Latin	hf (gv)	f (db)	f (bg)	d	b	c	qu	t	p
Irlandais	g	d	B	g	B	b	c (ch)	t	p
Slave	gz	d	b	gz	d	b	K	P	
Lithuanien	gz	d	b	gz	D	b	k	T	P
Gothique	g	d	B	k	T	P	h g	f th	D.fb
Anci haut allemand	k	t	p	ch	zz	f gh	H g	k d	fh

وعُرِفَتْ هَذِهِ القواعدُ بِدقّتِها وضبطها وبطابعها التّعميميّ فنالت شهرة واسعة

(26) Idem, p. 254.
(27) Idem, p. 282.

وسُمِّيَتْ بقانون غريم Lois de Grimm. ويُعدّ قانون غريم من أهمّ المنجزات اللّغويّة في المرحلة المقارنة.

وتَمَكَّنَ العالم اللّغويّ الدّانمركي كارل فيرنر Karl Verner سنة 1875 من تطوير قانون غريم حين عمل على صوغ قواعد جديدة تُقدّم تفسيراً لما لاحظه غريم في قانونه من شذوذ يعْتَرِي بَعْضَ التّقابلات الصّوتيّة. لقد لاحظ فيرنر أن التّقابلات التي تبدو شاذّة مثل d في القوطية والتي تعطي t في الألمانية هي في واقع الأمر تقابلات مطّردة، إذا أخذنا بعين الاعتبار موقع النبر في الكلمات المقابلة لها في اللّغة السّنسكريتيّة كما يتّضح في المثال التالي:

السّنسكريتيّة: pitar القوطية: fader الألمانيّة: fater[28].

4. سمات المرحلة المقارنة

1.4. التّأثّر بالعلوم الطّبيعيّة

سبقت الإشارة إلى اطّلاع بعض اللّغويّين المقارنين على المناهج المتّبعة في العلوم الطّبيعيّة وعلوم الأحياء والحفريّات. وَتَنَبَّه علماء اللّغة في القرن التّاسع عشر إلى النّتائج العلمية التي توصّل إليها المختصّون في هذه العلوم بفضل الأسس المنهجيّة الجديدة المعتمدة في التّصنيف الجديد لكل أنواع الكائنات من حيوانات ونبات التي وضعها كل من كوفييه Cuvier (1769-1832) ولين Linne (1687-1772).

واتّسَعَ نطاق الاطّلاع على المناهج المتبعة في العلوم الطّبيعيّة التي مَيَّزَت القرن التّاسع عشر حتى بلغ درجة التّأثير المباشر لهذه العلوم في الأبحاث اللّغويّة. وفي هذا السياق سعى كثير من اللّغويّين إلى إقامة نوع من التّماثل بين اللّغات والكائنات الحيّة.

وعلى هذا المنوال بدأ اللّغويّون في المرحلة المقارنة يَنْظُرونَ إلى اللّغة مُزَوَّدِينَ بمُعْطَيَاتِ العلوم التّجريبيّة الجديدة، لاسيما العلوم الطّبيعيّة منها، فعَرَّفُوا

(28) Bertil Malmberg: *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Paris, PUF, 1966, p. 18.

اللّغةَ بأنّها جهازٌ عضويّ Organisme مثل باقي الكائنات الحيّة، لأنّها تتكوّن من عناصر لها وظائف محدّدة، إضافة إلى كَوْنِهَا مثل باقي الكائنات في الحياة، تنشأ وتترعرع، ثُمَّ تَكْبُرُ فتموت. وكان اللّغويّ شليغل أكثر المتحمّسين للمنهج الجديد في العلوم الطّبيعيّة، فكان أن دعا إلى تشريح اللّغات كما تُشَرَّحُ باقي الكائنات في علوم الأحياء.

إلا أنّ التّأثير الحقيقيّ للعلوم الطّبيعيّة وعلم الأحياء في الدّرس اللّغويّ لم يظهر جليّاً إلّا بعد ظهور كتاب تشارلز داروين Charles Darwin (1809-1882) الشهير أصل الأنواع سنة 1859. وكان شلايشر August Schleicher (1823-1868) أكثر اللّغويّين حماسةً وتأثّراً بالمنهج الدّاروينيّ[29]. وقد دفعه تَشَبُّعُهُ بالدّاروينية إلى رفضه اعتبار علم اللّغة من العلوم الاجتماعيّة، بل عَدَّهُ من العلوم الطّبيعيّة. إنّ اللّغة، في نظر شلايشر، جهاز عضويّ وليستْ ظاهرةً اجتماعيةً. إنّها ليست حدثاً Fait إنسانيّاً، وإنّما حدثٌ من حوادث الطّبيعة، أي إنّها جهاز عضويّ طبيعيّ يوجد في استقلال تامّ عن إرادة الأفراد المتكلّمين بها. وبناءً عليه، فاللّغةُ خاضعةٌ في بنيتها وتطورها لقوانين النّشوء والارتقاء، وهي القوانين ذاتها التي تتحكّم في تطوّر الظّواهر الطبيعيّة.

ويعدّ اللّغويّ شلايشر مجدّداً في المنهج المقارِن من خلال إدماجه الرّؤية التّاريخيّة في صلب المقاربة المقارنة. وتشكّل كتاباته العديدة والمتنوّعة[30] تركيباً عاماً وتجاوزاً منهجيّاً للمقارنات التي قام بها كل من راسك وبوب وشليغل وغيرهم من المقارنين. ويمكن رسم معالم التّجديد اللّغويّ في فكر شلايشر في مسألتين لهما قيمة منهجيّة كبرى. تتمثل الأولى في إدخال خطاطة شجرة النّسب إلى البحث اللّغويّ، أي ما أسماه شلايشر بالشّجرة السّلاليّة (الوراثة) Strambaum للّغات الأوروبيّة، مقترحاً تسلسلاً تكوينيّاً génétique دقيقاً جدّاً

(29) A. Schleicher: *La théorie de Darwin et la science du langage*, Weimar, 1863, Repris in Pierre Tort. *Evolutionnisme et linguistique*, Paris, Vrin, 1980.

(30) نذكر منها، أبحاث حول لغات أوروبا (1850)، النّحو التّاريخيّ للألمانيّة (1860)، مختصر النّحو المقارن للّغات الهندو ـ أوروبيّة (1861)، النّظريّة الداروينيّة وعلم اللغة (1863).

(اللّغة الأمّ/اللّغة الجذع)، أما إسهامه الثّاني فيكمن في قوله بإعادة بناء اللّغة الهندو-أوروبيّة الأولى المفترضة. وهو الافتِراضُ الذي يَعْتَقِدُ صاحبُه أنه يُمَكِّنُ، من الوقوف على اللّغة الهندو-أوروبية الأولى.

ونجح شلايشر في نقل مقوّمات منهج التّاريخ الطّبيعيّ Histoire naturelle المعتمد في العلوم الطّبيعيّة والأحياء ومصطلحاته إلى مجال الدّرس اللّغويّ المقارن. وللتّذكير تخضع هذه العلوم لمبدإ تصنيف الكائنات الحيّة بحسب الجنس والنّوع وفق منطق التّسلسل الوراثي والتّكوينيّ. إنّ الكائنات الحيّة من أقلّها تعقيداً إلى أكثرها تخضع في جوهرها إلى مبدإ التّوالد؛ أي أنّ الكائنات يتوالد بعضها من بعض عن طريق التّحوّل الطّبيعيّ، وأنّ كل تغيير في العالم العضويّ Organique والعالم غير العضويّ يكون ناتجاً عن قانون الطّبيعة وليس صدفة أو معجزة. فالتّوالد اللّغويّ مثل التّوالد البيولوجيّ للكائنات الحيّة. وهكذا أصبح يقال بأنّ الفرنسيّة والإسبانيّة والإيطاليّة انحدرت من اللّغة اللاّتينيّة، ومن اللّغة الجرمانيّة الأولى انحدرت الإنكليزيّة والألمانيّة والنرويجيّة، كما انحدرت اللاّتينيّة والجرمانيّة الأولى بدورهما من لغات قديمة لم يعد لها وجود.

وسعياً وراء تطبيق آرائه بشأن اللّغة الهندو-أوروبية الأمّ، قدّم شلايشر حكايات أسطوريّة كتب نصوصها بلغة غير الجرمانيّة والسّنسكريتيّة المعروفتين معتبراً أنّ ما كتبه يُعدّ بمثابة اللّغة الهندو-أوروبيّة الأولى المشتركة. ومن الواضح أنّ مثلَ هذه المواقف لا يَصْمُدُ طويلاً أمام الواقع الفعليّ للّغات، بالنّظر إلى أنّ الطّابع الاجتماعيّ والإنسانيّ للّغات البشريّة غير قابل للاختصار بهذه السّهولة والبساطة اللّتين يعكسهما تصوّر شلايشر القائم على ملاحظة مظاهر التّشابه السّطحي بين اللّغات والظّواهر الطّبيعيّة الأخرى.

4 . 2. التّصنيفات اللّغوية

أدّى هذا النّشاط اللّغويّ الممزوج بالمعارف العلميّة الجديدة إلى ظهور بحث لغويّ مُتَمَيِّزٍ نسبيّاً عمّا سبق الحديث عنه في المرحلة التوفيقيّة، ونَقْصِدُ بذلك تصنيفَ اللّغات Classification des langues في فصائل (أسر وعائلات) تجمع بينها علاقة قرابة مباشرة أو غير مباشرة.

وللتّذكير، فقد ظهر أوّلُ التّصنيفات اللّغويّة مع ما وضعه كريستوف أدلونغ Adelung (1732–1806) قبل قيام المنهج المقارن، وهو تصنيف قائم على معايير جغرافيّة، وأخرى لغويّة. فهناك لغات آسيويّة وأخرى أوروبيّة، وأخرى أميركيّة ورابعة إفريقيّة، كما أن هناك لغات أحاديّة المقطع وأخرى ثنائيّة المقطع. وهناك لغات إعرابيّة، وأخرى غير إعرابيّة. وتَمَكَّنَ أدلونج في مؤلّفه هذا من جَمْع معطيات لغويّة هامّة تتعلق بحوالي خمسمائة لغة ولهجة أَوْضَحَ بِنْيَتَها العامّةَ وأَصْلَها الجغرافيّ والسّلاليّ[31]. ويُعَدُّ معجم أدلونغ من أهمّ الأدبيّات اللّغويّة التي ساهمت في ظهور المنهج المقارن مع بوب ومن جاء بعده وتثبيت الحقائق التي جاء بها.

وإذا كان تصنيف أدلونغ يقوم على الحدس والملاحظة الاختباريّة للّغات، فإننا نَجِدُ تصنيفاتٍ لغويّة أخرى لم تكن موضوعيّةً، وإنما قامت على اعتبارات عِرْقِية واضحة تَنِمُّ عن حُكْمٍ مسبق وأحكام قَبْلِيّة جاهزة واحتقار سافِر للحضارات غير الأوروبيّة، على نحو ما مرّ بنا في التّصنيف الذي وضعه شليغل وقابل فيه بين قسمين من اللّغات:

- لغات نبيلة وهي التي نشأت وتَكَوَّنَتْ عُضْوِيّاً وتشمل ما تَفَرَّعَ من السّنسكريتيّة من لغات قديمة ومنها الجرمانيّة وهذا هو بيت القصيد طبعاً.

- لغات ناقصة، وهي اللّغات التي ليس لها إعراب كاللّغة الصّينيّة واللّغات الهنديّة في أميركا التي وضعها في أدنى المراتب.

كان شليغل يقول بأنّ كلمة السّنسكريتيّة تعني لغويّاً «المؤدّبة/ الرّاقية/ الكاملة»[32]، مما يدل في نظره، على أنّ اللّغة الجرمانيّة أقرب من أيّ لغة أخرى إلى الكمال[33]. ويقومُ تصوّره كما أشرنا آنفاً على نوع من العصبيّة والحماسة للقومية الألمانيّة الصّاعدة، لأنه مثل غيره من اللّغويّين الألمان «يرى في أوروبا الجرمانيّة مركز الكون»[34].

---

(31) يسمّى الكتاب الذي وضعه أدلونج بمساعدة فاتر Vater وغيره من لغويي هذه الفترة: Mithridates طبع في برلين ما بين 1774-1786 ويحيل اسم المعجم ميتريدات على الملك اليوناني المشهور بإتقانه للهجات مملكته البالغة اثنين وعشرين لهجة.

(32) F. Schlegel: *Essai*, p. 11.

(33) Idem, p. 79.

(34) جورج مونان: **تاريخ اللّسانيّات**، ص168 الترجمة العربيّة، دمشق، 1972.

كما ورث الدّرس اللّغويّ من شليغل تصنيفه اللّغات إلى لغات متصرّفة ولغات اندماجيّة ولغات عازلة. وفي هذا التّصنيف اعتبار لتطوّر اللّغات التّاريخي. وقد تبنّاه اللّغويّ همبولدت وما يزال الباحثون في تاريخ اللّغات يعتمدون هذا التّصنيف حتى يومنا هذا.

وكان للفكر الرّومانسيّ الذي عبّر عنه أبرز أدباء ومفكري ألمانيا أمثال غوته Goethe (1749-1832) وهيغل Hegel (1770-1831) وهيردر Herder (1744-1803) دور كبير في تنشيط الأبحاث المقارنة والدّفع بها إلى آفاق أوسع وأرحب بحثاً عن مُثُلٍ فكريّة ومعرفيّة تذكّي روح الوطنيّة الجرمانيّة المتأجّجة والمتعطّشة إلى القيام بأدوار سياسيّة جديدة في أوروبا. لذا لم يكن التّحليل اللّغويّ بصفة عامّة معزولاً عن التّطلعات الإيديولوجيّة الوطنيّة للألمان[35]. ومعروف أن الرّومانسية الألمانيّة حركة فنّيّة قامت ضد الكلاسيكية وكانت ترفض القيم والمعايير الفنّيّة في مجالات الفكر والأدب والفن بدعوى أنّ هذه القيم التي تنادي بها الكلاسيكية ليست مطلقة، وأنّ الإبداع غير قابل لأن يقاس بالمعايير التي وضعتها الكلاسيكيّة، بل إنّ من حقّ كل إنسان أن يحدّد جودة العمل الفنّيّ كما يراه هو وفق منظور قِيَمه ومعاييره لا معايير غيره.

وهكذا تدعّمت المباحث اللّغويّة المقارنة بالأفكار الرّومانسيّة التي سادت الأدب والفكر، وبالاستغلال السّياسيّ للنتائج المتوصّل إليها في المباحث اللّغويّة المقارنة في ألمانيا على وجه الخصوص. فتقسيم اللّغات إلى متصرّفة (اللّغات الأوروبيّة) وعازلة (اللّغة الصّينيّة) واندماجيّة (اللّغة التّركيّة) ينظر إليه من خلال اعتبار اللّغات المتصرّفة وتمثّلها اللّغات الأوروبيّة، دليلاً في نظر أصحاب المقارنة والتصنيفات اللّغويّة على تفوّق الحضارة الأوروبيّة عموماً والجرمانيّة خصوصاً، والتي تشكل البناء اللّغويّ التّامّ النّضج الذي يمكن أن تصل إليه لغة ما، للتعبير بكلّ دقّة عن القدرات الذّهنيّة والأدبيّة الخاصّة بمتكلّميها من دون سواهم.

(35) M.-A. Paveau et G Elia Serfati: *Les grandes théories de la linguistique*, p. 11.

3.4. اللّغة الأولى

كان هدف المقارنين من خلال مقارناتهم المتعدّدة الوصول إلى اللّغة الأمّ Langue mère قصد إعادة بناء الصّورة العامّة التي كانت عليها اللّغة الأمّ للّغات الهندو-أوروبيّة. لكن رغبتهم في الوصول إلى هذا الهدف دفعهم إلى ارتكاب العديد من الأخطاء المنهجيّة بسبب آرائهم المتّسمة بالغُلُوّ والتعسُّف في التّأويل والتّعصّب العرقيّ.

وذهب اللّغويّ شلايشر أبعد من غيره حين دعا إلى البحث فيما أسماه باللّغة الأولى Ursprach وهي اللّغة التي تمتلك خصائص مشتركة للّغات الهندو-أوروبيّة الأولى. وكان افتراض اللّغة الأولى بمثابة عهد جديد للبحث المقارن الذي بات من غير الممكن إجراؤه، إلّا في إطار رؤية تاريخيّة تطوّريّة تكون قادرة على إعادة بناء اللّغة الأولى عن طريق مقارنة الصّيغ الموجودة في الأسر اللّغويّة الفرعيّة وتفسير مظاهر التّسلسل التّكوينيّ بين اللّغات المتقاربة وعلاقات التفرّع والتّوالد بينها، انطلاقاً من مصدر لغويّ واحد هو اللّغة الهندو-أوروبيّة الأولى.

5. مآخذ على النّحو المقارَن

بالرغم مما حظي به النّحو المقارَن من شهرة عمّت أوروبا بأسرها وذيوع أعمال بوب، فقد وُجّهت للنّحو المقارن جملة من العيوب والأخطاء المعرفيّة، وهي أخطاء نظريّة ومنهجيّة تمسّ بحسب أصحابها جوهر المقاربة المقارِنة ذاتها، وتجعل أهمّيّتها نسبيّة في الزّمان والمكان، إذ إنّها لا تستحقّ من المنظور العلميّ كلّ هذا التمجيد والتّرحاب الذي لقيته. وتوجّه بعضهم[36] بالنقد مباشرة لمؤسس النحو المقارن نفسه الذي أقام صرح النّحو المقارَن في نظرهم على جملة من الأخطاء النّظريّة أو التّصوّريّة والمنهجيّة. فمن الأخطاء النّظريّة يمكن أن نورد:

أولاً: غياب تصوّر نظريّ محدّد لمعالجة التطوّر اللّغويّ من وجهة مقارنة، «لا يملك بوب ولم يكن بإمكانه أن يملك رأياً علميّاً ونهائيّاً حول شروط التّطوّر

(36) Paul Regnaud: *L'état actuel de la linguistique indo-européenne*, Paris, Armand Colin et Cie, Editeurs, 1895.

اللّغويّ من وِجهة النّظر الصّوتيّة والدّلاليّة، أكثر من هذا وذاك لم يكن بوب يملك إلا حسّاً ضئيلاً عن النّحو التّاريخيّ. وأنّ إسهاماته وإبداعه الأساس يتمثّل في تطبيقه للمنهج المقارِن في دراسة الألسن الهندو-أوروبيّة، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عما كان ينطلق منه العديد من المقارِنين في هذه الفترة من إحساس وحدس بتشابه البنيات اللّغويّة. فما يوجد في عمل بوب في مجمله ليس أكثر من فكرة عامّة تتمثّل في أنّ للّغة تاريخاً أو سيرة مشروطة بقوانين»[37].

أما المقارَنة بين الوقائع اللّغويّة من الناحيّة العلميّة الدقيقة، فيجب أن تخضع لمقاييس علميّة دقيقة وصارمة، تهيّئ لبروز نسق معيّن، وهو ما لم يكن متوفّراً عند بوب. فالمقارَنة عند بوب، كانت مسبوقة بنظرات عامّة موجّهة لتقديم العناصر اللازمة للمقارنة ذاتها[38].. و قد أدّى هذا الغياب النّظريّ المحدّد إلى المقارنة بين الألسن، «إنّ النظريّات اللّسانيّة عند بوب ومن جاء بعده لا تشكّل جسماً من التّصوّرات التي تتناسق فيما بينها مختلف أجزائها حول مبدإ واحد ووحيد»[39].

ثانياً: اعتماد فرضيّات خاطئة بشأن نظام اللّغة السّنسكريتيّة. «فالقبول بالحركية الصّائتية vocalisme المزدوجة في الألسن الهندو-أوروبيّة كان له نتائج متناقضة. فهذا القول يزيد الأصوات ويقوّيها أحياناً و ينقصها أو يقلّصها أحياناً أخرى، وبهذا تمّ إبعاد ردّ التّطوّر الصّوتيّ في هذه الأسرة من الألسن إلى مبدإ قارّ»[40].

ثالثاً: افتراض جذور أوّليّة في السّنسكريتيّة كأساس المقارنة بين اللّغات الهندو-أوروبيّة، فالنّحو المقارَن يحاول ردّ الصّيغ في مختلف الألسن المتقاربة أسريّاً إلى ما هو أبعد من هذه الجذور السّنسكريتيّة المفترضة، والحال أنّ عيوب هذا الافتراض تظهر بشكل أبرز عندما نفحصه من وجهة نظر تجريبيّة خالصة. أين هي تلك الجذور الشّهيرة التي ضاعت في ليل الأزمان، وذات الأطر الثّابتة،

(37) Idem, p. 8.
(38) Idem, p. 5.
(39) Idem, p. 4.
(40) Idem, p. 6.

والتفرّد الملحّ، إن لم تكن في أذهان مؤلّفيها؟ فصيغ الجذور سواء بقيت منعزلة، أو أحاديّة المقطع تظهر لنا متطوّرة بسبب الاشتقاق، وتُظهر في الوقت نفسه تنوّعاً يكشف اختلافاتها الزمنية وعدم دقّة الحدود التي تميّزها فيما بينها[41].

رابعاً: اعتبار البدائل الصوتية les variantes phonétiques

أمّا من الناحية المنهجيّة الصّرف، فيمكن حصر بعض عيوب المنهج المقارن فيما يلي:

أوّلاً: غياب الواقعيّة اللّغويّة مقابل العناية الفائقة بالتّفاصيل والجزئيّات.

ثانياً: عدم القيام بالفحص الكافي لمعطيات النّحاة الهنود القدماء سواء فيما يتعلق بمسألة التّقوية الصائتيّة renforcement vocalique أو فيما يتعلق بتحليل الصّيغ والاشتقاق. ولا يمكن أن يوضح هذا أكثر من اللّيونة التي تبنّاها بوب من دون فحص كافٍ لمعطيات النّحاة الهنود القدماء، سواء فيما يتعلق بالتّقوية الصّوتيّة، أو بتحليل الصّيغ أو الاشتقاق[42]. فالاهتمام بكرونولوجيا الصّيغ لم يكن ضمن مجالات اهتمامهم ولم يطرح لهم أي مشكل أو على الأصح لم تخطر هذه الفكرة على بالهم. مثلاً الطّريقة المتبعة فيما قام به بوب تتمثّل في تقطيع الصّيغة الواحدة bharati (يحمل) المصرفة للغائب المفرد الحاضر (indicatif) فالجذر bhar ثم اللاصقة a والعلامة الدّالّة على الشخص ti التي يتم إلصاقها فيما بينها بعد مرحلة أوّليّة غير معروفة كانت كل وحدة منفصلة أو مستقلّة إحداها عن الأخرى. ويبدو أنّ هذا التّصوّر الأوروبيّ لطريقة التّحليل اللّغويّ القديم عند الهنود ليس سوى مجرد تخمين ربما لم يكن موجوداً في أذهان النّحاة الهنود أنفسهم[43].

وفي جميع الحالات، فإنّ تاريخ الصّيغ لم يكن وارداً وإنّ التّحليل الذي قِيمَ به في هذا الاتّجاه لم يكن يحمل أيّ معلومات عن الحالات السّابقة للّغة السّنسكريتيّة، وربّما لم يشعر النّحاة الهنود أنفسهم بأنّ اللّغة التي يستعملونها تختلف عن لغتهم في مرحلة سابقة[44].

---

(41) Idem, p. 7.
(42) Idem, p. 5.
(43) Idem, p. 6.
(44) Idem, p. 6.

وإذا كانت المقارنة بين اللّغات تقوم من حيث المبدأ على كثير من الوضوح والدقّة في الوقوف على علاقة القرابة، فإنّها في مستوى بعض الظّواهر اللّغويّة، لا تسمح دائماً بالوصول إلى إثبات القرابة بين هذه اللّغات بكيفيّة يقبلها العقل والمنطق اللّغويّ وتؤكّدها الوقائع اللّغويّة.

ومن الظواهر المضلّلة في البحث المقارن:

- الأصوات المحاكية للطبيعة (الأونوماتوبيات (Onomatopée)

- الاقتراض بين اللّغات (Emprunt) الذي كان مصدر العديد من الأخطاء والمغالطات في مجال المقارنة.

- التّشابه الحاصل مصادفةً أو اعتباطاً بين بعض الصّيغ اللّغويّة التي تنتمي إلى لغات متباعدة. إنّ كلمة Bad في اللّغتين الفارسيّة والإنكليزيّة تعني القبيح méchant، لكنّ اشتقاق هذه الكلمة في كل منهما يبين خطأ مثل هذه الاستنتاجات[45].

في هذا السياق، نفهم موقف دو سوسير في **المحاضرات** من المنهج المقارن حين يقول: «إنّه يؤدّي إلى مجموعة من التّصوّرات الخاطئة التي لا تتطابق والحقائق اللّغويّة، وهي تصوّرات غريبة عن الشّروط الحقيقيّة للّغة»[46]. ومع ذلك يمكن القول إنّ الدّراسة اللّغويّة المقارنة مكّنت من الانكباب الصّرف على القضايا اللّغويّة، وإبعاد تدخّل الفكر الفلسفيّ والمنطقيّ في معالجاتها مقارنة مع ما اتسم به الفكر اللّغويّ إبّان المرحلة التوفيقيّة، ممهّدة الطريق نحو استقلال الدّرس اللّسانيّ ونشأته العلميّة لاسيّما مع طبقة جديدة من اللّغويّين الألمان الذين نادوا بمنهج جديد في البحث اللّغويّ هو المنهج التاريخيّ.

(45) J.-M. Fillipi: *Initiation à la linguistique et aux sciences du langage*, p. 27.
وفي هذا الإطار نذكر كذلك الأوهام التي سقط فيها كثير من اللغويين العرب وهم يقارنون بين اللّغات الأوروبيّة واللّغة العربيّة (الكرملي/ جرجي زيدان/ عبد الحقّ فاضل وغيرهم) انظر كتابنا: **اللّسانيّات في الثقافة العربيّة الحديثة**، مكتبة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2006.

(46) ج. هيليش، **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص28؛ دو سوسير، **المحاضرات**، ص17.

الفصل السابع

اللّسانيّات التّاريخيّة

الإطار العامّ

يرى بعض المؤرّخين أنّ ظهور المنهج التّاريخيّ ابتداءً من 1875 يمثّل في جوهره انتقال البحث اللّغويّ في أوروبا من مرحلة فلسفيّة، يُعدّ المفكّر الألمانيّ همبولدت رائدها بدون منازع إلى مرحلة جديدة لم يعد ينظر فيها إلى اللّغة في سياق الحياة الرّوحية الكلّيّة للمجتمع والثّقافة، بل أصبح ينظر إليها مثل أي جهاز عضويّ طبيعيّ، وبذلك دخل محل بدهيّة مسبقة قديمة خاصّة بتاريخ الفكر، بدهيّة مسبقة حديثة خاصّة بالعلوم الطّبيعيّة[1].

وتتجلّى ملامح الانتقال من فكر لغويّ تأمّليّ فلسفيّ إلى فكر تاريخيّ من خلال التحوّل النّوعيّ في طبيعة الموضوعات اللّغويّة المدروسة، وذلك بالابتعاد عن البحث في المضامين العامّة مثلما هو الأمر بالنّسبة إلى مفهوم البنيّة الدّاخليّة للّغة، وعلاقة اللّغة بالتّصوّرات وإدراك العالم الخارجيّ (همبولدت ومدرسته بالأساس) للبحث في البنيات الظّاهرة للّغة (البنية الصّوتيّة والبنية الصّرفيّة) التي أصبح ينظر إليها على أنّها موضوع مُعْطى قابل للمعالجة باستقلال عن عوامل أخرى. وبعبارة أخرى، تَوَقّف البحث اللّغويّ عن الانشغال بمشكلات فلسفيّة عامّة (النّحو العامّ والفلسفيّ) ليتجه بَدَلَ ذلك إلى معالجة بعض الظّواهر اللّغويّة الخاصّة والمحدّدة[2].

---

(1) ج. هيلبيش، تاريخ علم اللغة الحديث، ص28.

(2) المرجع السابق، ص28.

ولم يكن همبولدت عالماً لسانياً يبحث عن وضع قواعد البنية الدّاخليّة للّغة التي طالما تحدّث عنها[3]، بل كان هدفه الكشف عن مختلف العلاقات بين هذه البنية الدّاخليّة ومستعمل اللّغة في إطار التّفاعل بينهما تصوّريّاً وحضاريّاً وفق ما يتميّز به كلّ شعب من عقليّة مختلفة. ما يَهمُّ همبولدت في اللّغة ليس هو الشّكل اللّغويّ أو البنية اللّغويّة في حدّ ذاتها، وإنّما البنية الدّاخليّة للّغة باعتبارها تشكيلاً داخليّاً للعالم الواقعيّ. إنّ اللّغة ليست عملاً فقط، بل طاقة ونشاط إبداعيّ متجدّد، وبالتّالي فهي إنتاج توليديّ[4]. فالحركيّة والتجدّد أهمّ ما يميّز السّلوك اللّغويّ عند الإنسان. أمّا السّلوك الحيوانيّ فيتسم بالآليّة والتّكراريّة ولا يتجاوز تلبية الوظائف الغريزيّة والتلقائيّة.

لقد اهتمّ همبولدت أساساً بتفسير مختلف الجوانب المتعلّقة بعقليّة الأمّة وبالصورة المشكّلة لإدراك العالم الخارجيّ من خلال البنية اللّغويّة. فكلّ لغة هي في العمق بحسب همبولدت، رؤية خاصّة للعالم الخارجيّ بكلّ أبعاده ومكوّناته. ومن ثمّ، فإنّ تَعَلُّمَ لُغَةٍ ليس في الواقع إلا تَعَلُّمَ تَجَارِبَ إنسانيّة جديدة. لقد كان همبولدت فيلسوف لغة بامتياز جَعَلَ من البحث اللّغويّ محوراً مركزيّاً من محاور البحث في تاريخ الفكر والثّقافة بصفة خاصّة. وقد حاول همبولدت تقديم نظريّة عامّة وشاملة عن اللّغة البشريّة لذلك لم يُعرف عنه أنه قام بدراسة لظاهرة لغويّة معيّنة. لقد كان هدف همبولدت «طرح الأسئلة الفلسفيّة التي تثيرها الاكتشافات اللّغويّة المتأخرة التي تخصّ العلاقة والتّنوّع في الأنماط البنيويّة التي تعتمدها لغات البشر ومحاولة الإجابة عنها»[5]. إنّها أسئلة بسيطة أجوبتها أعسر وأشق على كل مهتم ومن هذه الأسئلة كما مر بنا في فصل سابق عن همبولدت:

- لماذا تختلف الأنظمة التركيبية بالنسبة إلى اللّغات؟

- على أي أساس تتطوّر اللّغات وفق مسار معيّن؟

---

(3) W. Von Humboldt: *Introduction à l'œuvre du Kawi*, Paris, Seuil, 1974/1835.
وانظر الفصل الثاني المتعلق بالطابع الاجتماعي للغة.

(4) Humboldt: *Introduction à l'œuvre du Kawi*, p. 183.

(5) **أعلام الفكر اللغوي**، ج1، الفصل الثاني عشر، حول همبولدت والتنوع اللغوي، ص227. ترجمة أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004.

- لماذا تتكلّم الشّعوب لغات لها بنيات مختلفة؟

- ما أثر الأنظمة التّركيبيّة في أفكار الشّعوب التي تتكلّم بهذه اللّغات؟

إنّ عَمَلَ همبولدت ومن سار على هديه أمثال فوسلر Karl Vossler (1872-1949) لاحقاً يندرج في إطار الأعمال الفكريّة (لغة/ أدب/ فلسفة) الأوروبيّة عموماً والألمانيّة بصفة خاصّة التي تُوصَفُ عادةً بالرّومانسيّة التي هَيْمَنَتْ مدّة غير قصيرة على الأوساط الفكريّة الألمانيّة. ففي هذا الجوّ الفكريّ العامّ ظهرت إذن، بوادر مرحلة جديدة ترفض العديد من الأفكار التي سادت المرحلة المقارنة.

1. أوهام المقارَنة

يرفض النّحاة الجدد ادّعاءات أسلافهم ومعاصريهم من المقارِنين الذين قالوا إنّ اللّغات القديمة أنبل وأشرف من اللّغات الحديثة التي لا تتوافر فيها الصّيغ الصّرفيّة، ولا الحالات الإعرابيّة المتوافرة في العديد من اللّغات العريقة مثل اللاّتينيّة والإغريقيّة والجرمانيّة. ويَرْفُضُ روّاد المنهج التّاريخي النّتائج المتوصّل إليها بشأن أصل اللّغات ورفض اعتبار اللّغة السّنسكريتيّة اللّغة الأمّ لجميع اللّغات الهندو-أوروبية، لأنها تقوم على تصوّرات خياليّة لا يمكن إثباتها علميّاً وليس لها في الواقع اللّغويّ ما يدعمها.

إن بوب وشلايشر على الرّغم من أهميتهما ودورهما في تطوير البحث المقارن، يمثّلان من المنظور التّاريخيّ أفكار رجالات القرن الثّامن عشر الذي يتميّز بسيادة النّزعة الرّومانسيّة التي لا تعتمد في تحليلاتها وتصوّراتها وقائع لغويّة ملموسة ومضبوطة يمكن ملاحظتها موضوعيّاً، وهو ما أسقط المقارنين في نظر التّاريخيّين في كثير من المواقف والآراء الاعتباطيّة، مثلما فعلوا حين افترضوا وجود لغة هندو-أوروبيّة أوّليّة خالصة يتعين الوصول إليها.

بصفة عامّة، كانت المقاربة المقارنة ناقصة منهجيّاً من عدة أوجه أهمها:

1- اقتصار المقارَنة على اللّغات المتقاربة جغرافيّاً.

2- إقحام عدّة اعتبارات لا علاقة لها بالمقارنة اللّغويّة في ذاتها، وهي

اعتبارات إمّا دينيّة، كالقول إنّ العبريّة هي أمّ اللّغات الإنسانيّة، أو فلسفيّة (الخلط بين الإشكالات المتعلّقة بتكوين اللّغات والإشكالات الفلسفيّة المتعلّقة بأصل اللّغات)، أو ثقافيّة (التعسّف في ردّ اللّغة اللاّتينيّة إلى اللّغة الإغريقيّة).

3- غياب المعايير المنهجيّة للرّبط بين اللّغات في مجال المقارنة والتّاريخ والاقتصار على مفهوم المشابهة من دون تحديد مضمون هذا التشابه ومعايير تحديده.

4- استحالة تحويل نتائج المقارنة إلى تنميط نسقي له أسسه ومناهجه المضبوطة تسمح في النهاية بتمحيص المقارنة ذاتها.

ولم يكن البعد التّاريخيّ عند المقارنين واضحاً بما فيه الكفاية ولا ممنهجاً. فالإطار التّاريخيّ الذي كان يحتوي المقارنة بين اللّغات كان إطاراً عامّاً. ولم يضع أصحاب المنهج المقارن معياراً زمنيّاً لتحديد الفترة التّاريخيّة التي يفترض أن تدور فيها المقارنة بين اللّغات. كان أتباع المنهج المقارن يقارنون «بين سنسكريتيّة الألف سنة الأولى ويونانيّة القرن الثّامن ولاتينيّة القرن الخامس قبل الميلاد وقوطية القرن الثّامن وسلافيّة القرن التاسع وفارسيّة القرن السّادس عشر أو الثّامن عشر بعد الميلاد»[6].

وفي جميع الحالات، لم يتمكّن الرّوّاد من اللّغويّين المقارنين من تحقيق استقلاليّة البحث اللّغويّ عن غيره من مجالات الفكر السّائد وقتئذٍ، بل ظلّ جزءاً من تفكير عامّ حول اللّغة وقضاياها الفلسفيّة والمنطقيّة والتّعليميّة والتّربويّة والحضاريّة وحتى الأدبيّة. إن غريم رغم نزعته التّجديديّة واهتمامه بصوغ المقابلات الصّوتيّة المعروفة باسم قانون غريم رغب في النّظر إلى اللّغة كما لو أنها عمل متكامل حسب تعبير هيلبيش[7].

وبالمقابل، وفّرت اللّسانيّات المقارنة معطيات لغويّة على جانب كبير من الأهمّيّة تمثّل في إعداد مجموعة هائلة من النّصوص اللّغويّة المتعلّقة باللّغات الجرمانيّة الممتدّة تاريخيّاً بين القرن الرابع والقرن التّاسع عشر. أمّا بالنسبة إلى

(6) مونان، تاريخ اللّسانيّات، مرجع سابق، ص24.
(7) جيرهارد هيلبيش، تاريخ علم اللغة الحديث، ص25-26.

اللّغات الرّومانيّة فتمّ الحصول على معطيات تمتدّ في فترة تقدر بألفين ونيّف من السّنوات بفضل أبحاث دياز Diez (1794-1876)[8]. واهتم بوت F.Pott (1802-1887) بالمستوى الاشتقاقيّ[9] مقارناً بين عدّة لغات أوروبيّة، مبيّناً «أنّ البحث في الأصل الاشتقاقي ينبغي أن يهتم بتقصّي أقدم مظاهر الحقائق اللّغويّة وليس بالبحث في الشّكل الأصليّ والمعنى الحقيقيّ للكلمات (وهو ما كان موضوع الدّراسات الاشتقاقية في العهود القديمة)»[10].

2. دراسة اللّغة من المقارنة إلى التّاريخ

بدأت المرحلة اللّغويّة الجديدة في مدينة ليبزغ Leipzig سنة 1875 مع النّحاة الجدد أو النّحاة الشباب Jung Grammatiker الذين التقوا حول أستاذهم كورتيس G. Curtius (1820-1885). وكان أكبرهم لا يتجاوز الثلاثين من عمره. و«استعمل الجيل القديم من اللّغويّين الألمان مصطلح «مُحْدَثِين» (النحاة المحدثون) تقليلاً من شأن القيمة المعرفية لوجهة النّظر المضادّة التي ظهرت حديثاً في اللّسانيّات»[11]. ومن رُوّاد هذه المدرسة:

- هرمان بول Hermann Paul[12] (1846-1921).
- أوغست ليسكيان A. Leskien (1840-1916).
- بروغمان K. Brugmann (1849-1919).

---

(8) انظر: مونان، **تاريخ اللّسانيّات**، مرجع سابق، ص24. نشر دياز Diez كتابه المعنون: **نحو اللّغات الرومانية** سنة 1836.
Grammaire des langues romanes, Paris, Vieweg, 1874-1876, 3 vol. trad. fr., de *Grammatik der romanischen sprachen*, Bonn, Weber, 1836-1844, 3 vol.

(9) تعني كلمة étymologie في الأدبيّات المقارنة والتّاريخيّة الأصل التّاريخي الذي يمكّن من الحصول على الشّكل القديم لصيغة ما في لغة معيّنة وفي اللّغات التي ترتبط بها من النّاحية السّلالية. (انظر: اللغة لبلومفيلد، ص20).

(10) ميلكا إيفيتش، **اتجاهات البحث اللساني**، ص51.

(11) المرجع السابق، ص83.

(12) له كتاب هام بعنوان **أسس تاريخ اللغة** *Principes d'histoire du langage* الصّادر سنة 1880 باللّغة الألمانيّة.

- أوستوف H. Osthoff (1840-1909).
- أسكولي Ascoli (1829-1909).

وسُمِّيَتْ هذه المرحلة بالتّاريخيّة؛ لأنّها اعتمدت المنهج التّاريخيّ الذي يجعل قوامه التّحليل التّاريخيّ والتّتبّع الدّقيق لتطوّر عناصر اللّغة ومكوّناتها الصّوتيّة والصّرفيّة والاشتقاقيّة. وعلى عكس المنهج المقارن، لم يُجرِ المنهجُ التّاريخيّ اهتماماً كبيراً للجوانب النّظريّة، وإنّما دعا إلى استنباط القوانين الكّليّة والجزئيّة من المشاهدة الفعليّة والمعاينة المباشرة للوقائع اللّغويّة المعروضة على البحث. ولا شكّ أنّ الفكر الوضعي النّاشئ في منتصف القرن التاسع عشر له تأثير كبير في موقف روّاد المنهج التّاريخيّ.

وليس معنى ما سبق ذكره أنّ النظرة التّاريخيّة لم تكن معروفة من قبل، بل إنّ رواد المنهج المقارن أمثال بوب وراسك وشليغل وشلايشر وغيرهم، أكّدوا دور البعد التّاريخيّ وأهمّيّته في التحليل المقارن. وواضح أنه يَصْعُبُ علينا أن نُمَيِّزَ تمييزاً دقيقاً بين البحث المقارن والبحث التّاريخيّ كما كانا يطبّقان في الفترة التي نتحدّث عنها. فلم تكن الأبحاث الدّائرة في إطار اللّسانيّات المقارنة تخلو من بعد تاريخيّ. فليس هناك مقارنة خارج التاريخ. فكل مقارنة تَتِمُّ ضمنياً في إطار تاريخي ولا يمكن تصوّرها خارجه. إنّ المقارنة بحسب تعبير دو سوسير «شرط ضروريّ لكل دراسة تكوينيّة تاريخيّة»، وهي كذلك شكل من أشكال علم اللّغة التّاريخيّ حسب تعبير جورج مونان[13].

وكان راسموس راسك في بحثه السّالف الذّكر (الصادر سنة 1818) قد دعا صراحة إلى تطبيق المعايير التّاريخيّة في البحث اللّغويّ المقارن بعيداً عن التّأويلات الخاطئة المتعلّقة ببداية اللّغات وأصلها. ويُعد شلايشر أبرز المقارنين الذين أكّدوا صراحةً ضرورة تبنّي المنهجيّة التّاريخيّة للبحث في اللّغات الهندو-أوروبيّة مشكّلاً بذلك منعطفاً جديداً في جنوح النّحو المقارن نحو الدّراسات التّاريخيّة ابتداء من 1875.

لقد ساهمت المعطيات اللّغويّة التي وفّرتها اللّسانيّات المقارنة بشكل كبير

(13) ج. مونان، **تاريخ اللّسانيّات**، مرجع سابق، ص185.

في تغيير منهجية البحث والأهداف المتوخّاة من الدّرس اللّغويّ نفسه. وبدأ التحول تدريجاً عن المقاربة المقارنة نحو مقاربة جديدة تعتمد المنهج التّاريخيّ. ولبناء التّطوّر اللّغويّ والتّغيّرات التي عرفتها اللّغات البشريّة عبر تاريخها الطّويل، اعتمدت اللّسانيّات التّاريخيّة ثلاثة مناهج أساسيّة بعضها كان معروفاً في المرحلة المقارنة كما هو الشأن بالنسبة إلى المنهج المقارن، وبعضها الآخر تمّ تدقيقه وتعميق وسائل البحث فيه مثل المنهج الفيلولوجي. وهذه المناهج هي:

- المنهج المقارن.
- المنهج الفيلولوجيّ.
- منهج إعادة التّركيب الدّاخليّ.

وقد تمّ استثمار هذه المناهج بشكل دقيق ومضبوط ساعد اللّسانيّات التّاريخيّة على الحصول على العديد من النّتائج اللّغويّة الباهرة. وقد اعتمد التّاريخيّون المنهج المعروف بإعادة التّركيب الدّاخليّ للّغات وهو منهج لا يسعى إلى إعادة بناء الطراز الأولي كما كان يفعل المقارنون للوقوف على درجة التّماثل بين الصّيغ المقارَن بينها، بل يعتمد على الصّيغ المنتمية إلى اللّغة الواحدة قصد تحديد درجة قِدَم هذه العناصر واستخراج أقدمها وذلك عندما يتمّ ضبط عدم اطّرادية بعض الصّيغ وخروجها عن النّسق العامّ القائم الذي يسير عليه باقي الصّيغ مما يسمح بعدها من بقايا نظام سابق أقدم من النّاحية التّاريخيّة.

والعلاقة بين اللّغة والتّاريخ علاقة ليست وليدة المرحلة التّاريخيّة، ولكنّها حاضرة بقوّة في كلّ الثّقافات القديمة التي عالجت مسألة تأثير الزّمن وأثره الإيجابيّ أو السّلبيّ في اللّغات البشريّة، انطلاقاً من الملاحظة العاديّة المتمثّلة في التّطور الذي يلحق اللّغة في أصواتها ومفرداتها وتراكيبها. لذلك فإنّ العلاقة بين اللّغة والتّاريخ التي تبدو في كثير من الحالات عادية وواضحة وأحياناً لا تثير أيّ انتباه حقيقيّ هي علاقة معقدة في واقع الأمر، ويكتنفها الكثير من الغموض، نظراً إلى الخلط الحاصل في الأذهان بين التّاريخ الدّاخليّ والتّاريخ الخارجيّ للّغة، في الوقت الذي يتعين التمييز بينهما[14] بكلّ دقّة من دون إغفال ما يمكن

(14) Olivier Sautet: *La linguistique*, Paris, PUF, 2001/1995, p. 17.

أن يحصل بينهما من تأثير متبادل. ويختلف التّاريخ الخارجيّ عن التّاريخ الدّاخليّ موضوعاً ومنهجاً. فمن حيث الموضوع يتناول التّاريخ الخارجي الأحداث اللّغويّة في شموليّتها، باعتبارها مكوّناً من مكوّنات التّاريخ العامّ داخل ثقافة مجموعة بشريّة معيّنة. وينظر إلى اللّغة من منظور التّاريخ الخارجيّ على أنها تراث حضاريّ يحمل ذاكرة المجموعة التي تتكلّم هذه اللّغة بحيث تتحول اللّغة إلى تتابع من الأحداث التّاريخيّة التي ليس لها مصدر لغويّ صرف، بل ترتبط بما هو سياسيّ وعسكريّ وقانونيّ وفكريّ وفي كلمة واحدة، كلّ ما يتعلق بحياة المجموعة التي تتكلّم لغة معيّنة. إنّ التاريخ الخارجيّ يندرج في إطار التّاريخ بمعناه العامّ؛ تاريخ الأمّة والشّعب والدّولة بكل جوانب الحياة والمؤسسات التّابعة.

أمّا التّاريخ الدّاخليّ، فيدرس اللّغة باعتبارها نسقاً داخليّاً ساعياً إلى تبيان سمات الحالات التي تنتقل منها اللّغة، والتي تشكل مسارها التّاريخيّ على امتداد الزّمن. التاريخ الدّاخليّ، هو تاريخ اللّغة من حيث بنياتها الدّاخليّة، أي اللّغة في ذاتها. ومما لا شكّ فيه أنّ تأثير التّاريخ الخارجيّ في التّاريخ الدّاخليّ أبرز وأوضح[15]. ويُعَدّ اللّسانيّ أنطوان ميّيه أبرز الذين حاولوا الجمع منهجيّاً بين التّصوّرين قصد تقديم تاريخ كلّيّ للّغات من منظور شموليّ وإنسانيّ.

3. خصائص المرحلة التّاريخيّة

كان النّحاة الجدد يرون أنّ اللّسانيّات المقارنة التي نشأ العديد منهم في أحضانها، اهتمّت بتطوّر الفترات البعيدة والمغرقة في التّاريخ - تاريخ اللّغات الهنديّة-الأوروبيّة - مُهْمِلة الاهتمام بالحالات اللّغويّة القريبة زمنيّاً، أي الفترات الحديثة لهذا التّطوّر. وفي هذا اعتراف ضمنيّ بممارسة التّحليل التّاريخيّ عند اللّغويّين المقارنين. وقد تميّزت أعمال النّحاة الجدد بتمسكهم الشّديد باطّراد القوانين[16]. أمّا وجود الأصوات والصّيغ الشّاذّة فلا بد له من علّة. إنّ عدم تعليل

(15) Ibidem, p. 17 et suivantes.

(16) يرى بعض المؤرخين أنّ مبدأ اطّراد الظّواهر اللّغويّة تاريخيّاً وعدم شذوذ القوانين لم يكن موضوعاً مسلّماً به أو مقبولاً من لدن كلّ النّحاة الجدد. هلبيش: **تاريخ علم اللغة الحديث**، ص36.

هذا الشّذوذ سببه الجهل بحقائق اللّغة المدروسة وعدم معرفتنا الدّقيقة ظروف التّطوّر وملابساته، نظراً إلى ما يتطلّبه ذلك من معطيات نفسيّة واجتماعيّة وفيزيولوجيّة معقّدة. فكل التغيّرات الصّوتيّة تغيّرات آليّة تجري داخل اللّغة وفق قوانين لا تقبل الاستثناء. ورفض النّحاة الجدد التفسيرات والشّروح الفلسفيّة والنّظريّة المحضة، مردّدين بأنّ البحث اللّغويّ الذي لا يعتمد التّطوّر التّاريخيّ يُعدّ بحثاً غير علميّ، وبالتّالي غير مقبول. إنّ ما يطرأ على اللّغات من تغيّرات ـ في نظرهم ـ ليس إلا نتيجة المسار التّاريخيّ الذي تتبعه اللّغات خلال تعاقب الأجيال المتكلّمة بها. ومن ثم فإنّ المعرفة العلمية بالطّوارئ التي تعيشها هذه اللّغات والمراحل التي مرّت بها، تتطلّب استحضار كلّ هذه العوامل الفاعلة في التّطوّر بملابساتها العامّة والخاصّة علماً بأنّ الطّوارئ العامّة والخاصّة والأحداث التي تعرفها اللّغات ليست عوامل متجانسة أو يمكن إدراكها بشكل ملموس ومنتظم، وإنّما هي أمور معقدة جدّاً، تتطلّب إلماماً واسعاً ومعرفة دقيقة وشاملة بحياة اللّغات. والتّغيير الذي تعرفه اللّغات ليس حدثاً اعتباطيّاً، بل يمكن تقنينه وصوغه في قوانين. إنّه يسير وفق قوانين إجباريّة عمياء باستقلال عن الأفراد المتكلّمين باللّغة بحسب تعبير أوستوف.

واستفاد النّحاة الجدد من النّتائج التي حقّقتها المناهج العلميّة الصّاعدة في إطار الفلسفة الوضعيّة السّائدة، فاعتمدوا المنهج الاستقرائيّ.

ويمكن حصر الأهداف العامّة للمنهج التّاريخيّ في هدفين أساسيّين:

– معالجة التحوّلات الصّوتيّة بدلاً من الاكتفاء بإقامة المقارنة بين التّقابلات الصّوتيّة.

– وضع إجراءات التّحليل التّاريخيّ بالتّأكيد على أولويّتين:

أولاً: يجب أن لا يقتصر التّحليل التّاريخيّ على وصف أو ملاحظة التغيّرات الحاصلة بين حالتين أو أكثر للغتين متقاربتين، وإنّما يجب تقديم تفسير وضعيّ للأسباب التي قادت إلى التغيّرات التي تمّت ملاحظتها.

ثانياً: يجب أن يَترك التّحليلُ العضوانيّ والطّبيعيّ المجالَ لمنهجيّة

الملاحظة الاستقرائيّة والاستنباطيّة التي تُعَدّ الغاية التّفسيريّة للعلوم الطّبيعيّة مثل الفيزياء على الخصوص[17].

أما مفهوم التّاريخ عندهم فهو مفهوم حدسيّ يقوم على التّسلسل الطّبيعيّ المحض للزّمن، مما جعل نظرتهم إلى اللّغة نظرة آليّة. لقد اعتبروها جهازاً يتطوّر باستقلال عن إرادة الإنسان، داعين إلى دراستها مثل أيّ جهاز خاضع للتحوّلات والتغيّرات التّاريخيّة. وقادهم هذا الموقف إلى رفض تصوّرات النّحاة المقارنين خصوصاً أطروحة شلايشر التي تُعدّ اللّغة حدثاً طبيعيّاً، وتجعل البحث فيها علماً طبيعيّاً. وقد أكّد التّاريخيّون «أن اللّغة ليست كياناً إحيائيّاً، وإنّما هي مؤسسة إنسانيّة مما يترتّب على ذلك أنّ اللّسانيّات ليست جزءاً من العلوم الطّبيعيّة، ولكنها مثل باقي نتاج الحضارة الإنسانيّة علم تاريخيّ»[18].

ومجمل القول إنّ أعمال النّحاة الجدد تميّزت باعتماد مبالغ فيه على «التّاريخ» الذي جعلوه المحور الأساس ومحرّك كلّ تحليلاتهم اللّغويّة، فسقطوا بذلك في تاريخانيّة مفرطة، غدت معها نظرتهم إلى اللّغة آليّة في نهاية الأمر، فتمّ تجزيء اللّغة إلى وحدات وقضايا بسيطة مستقلة بعضها عن بعض، وتمّت دراستها بمعزل عن المحيط بكل ملابساته (تأثير الفكر الوضعيّ). ومن الإنجازات الهامّة للنّحاة الشّباب أنهم رسّخوا جملة من المبادئ المنهجيّة في التّحليل اللّغويّ خلال نهاية القرن التّاسع عشر نذكر منها ما يلي:

- الاهتمام باللّغات المحلّيّة واللّهجات الحيّة؛ ذلك أنّ تطوّر الظّواهر بشكل متّسق يمكن أن يُلحظ بصورة أفضل في إطار كيان لغويّ حيّ متكامل[19].

- إعطاء الأهمّيّة البالغة للعوامل المفسّرة للتّطوّر، لاسيّما العامل النفسيّ (هرمان بول)، وذلك بالكشف عن مظاهر العلاقة المباشرة بين تطوّر الثّقافة وتطوّر العالم الدّاخليّ للإنسان.

(17) M.-A. Paveau et Serfati: *Les grandes théories*, p. 26.

(18) ج. مونان، **تاريخ اللّسانيّات**، مرجع سابق، ص265.

(19) ميلكا إيفيتش، **اتّجاهات البحث اللساني**، مرجع سابق، ص89.

- اعتبار الجانب الفيزيولوجي في التّطوّر بالنظر إلى ميل المتكلم الطّبيعيّ لبذل أقل مجهود وبطريقة لاشعوريّة.

- التّأكيد على أهمّيّة العمليّات الكلاميّة باعتبار اللّغة الجماعيّة كياناً نفسيّاً لا وجود له واقعيّاً، والحقيقة اللّغويّة الوحيدة الممكن الإمساك بها هي لغة الفرد.

- اعتماد مبدإ القياس أساساً للتّطوّر. والقياس حالة سيكولوجيّة تُمكّن من حمل مجموعة من الصّيغ الممكنة على صيغ أخرى موجودة ومحقّقة فعلاً.

واهتمّ هرمان بول بدراسة العوامل النّفسيّة والاجتماعيّة الفاعلة في تطوّر البنيات اللّغويّة معتبراً إيّاها مؤثّرات حاسمة في تطوّر الظواهر اللّغويّة. ومن مظاهر اهتمامه بهذه العوامل غير اللّغويّة أنّه أفرد لها مؤلّفاً خاصّاً بها أَطْلَقَ عليه اسم المبادئ أو «علم المناهج» وهَدَفُهُ البحث في ما يشبه القضايا التي كانت تعالَج في فلسفة اللّغة عند كل من هيردر وهمبولدت سابقاً، وعند كارل فوسلر في إطار التّاريخيّة العقلانيّة أو المثاليّة التي واجهت التّيّار الوضعيّ الذي يجسّده النّحاة الجدد.

الملاحظات السابقة المتعلقة التي قدمها رينيو Paul Regnaud (1830-1910) بشأن نواقص المنهج المقارن تصدق في نظره على المنهج التّاريخيّ الذي يشترك في بعض منها، حيث يذهب الكاتب إلى النحاة الجدد الذين أقاموا استقراءاتهم على ثلاثة أخطاء منهجيّة كبيرة هي:

أولاً: خطأ الجذور الأوّليّة الخاصّة المقترضة من بوب من دون مراقبة تذكر، علماً، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، أنّ بوب بدوره اعتمدها نقلاً عن النّحاة الهنود دونما تمحيص منهجيّ لطبيعتها.

ثانياً: إنكار أيّ تحول أو نقل يمكن أن يحصل تلقائيّاً للأصوات في اللّغة السّنسكريتيّة الأولى، واستنتاج ما يترتب على ذلك من تأثيرات في الطّراز الأوّليّ للّغات الهندو-أوروبيّة.

ثالثاً: افتراض ثبات Constance القوانين الصّوتيّة داخل اللّسان نفسه، وهذا المبدأ يتعارض مع تصوّر التّطوّر التّاريخيّ للجزء المادّيّ في اللّغة[20].

---

(20) Paul Regnaud: *L'état actuel de la linguistique indo-européenne*, p. 13.

ومن جهة أخرى، فإنّ مبدأ القياس analogie الذي اعتمده النّحاة الشّباب غير كافٍ وليس له نتائج نظريّة أو منهجيّة ذات أهميّة بالغة، فتفسير الطّفرات الصّوتيّة mutations phonétiques عن طريق القياس لا يعني سوى إرجاء الصّعوبات وليس حلّها[21]، علاوة على غياب النّسق الذي يمكن أن يؤسّس لعمليّة القياس نفسها ويدخلها في نسق موحّد، «فكلّ محاكاة قياسيّة تفترض نموذجاً معيّناً، وعليه فإذا كان عدد معيّن من الطرز الأوّليّة الصّوتيّة والصّرفيّة قادرة على أن تأخذ في عين الاعتبار حقيقة الظّواهر اللّغويّة المقابلة لها، فإنّه «يجب» من أجل بناء العلم على أسس صلبة، أن نفسّر سبب وجود هذه الطّرز الأوليّة نفسها والعلاقات المتبادلة بينها»[22].

4. من التّاريخيّة المطلقة إلى التّاريخيّة المثاليّة

سبق القول بأنّ ظهور النّحو المقارَن عموماً وتيّار النّحاة الجدد جاء نتيجة انتقال الدّرس اللّغويّ من مرحلة فلسفيّة فكريّة تزعّمها اللّغويّ الألماني همبولدت وأثّر فيها بأفكاره المعروفة برؤية العالم الخارجيّ من خلال اللّغة. غير أنّ سيادة المنهج التّاريخيّ مع النّحاة الجدد لم يمنع الاتّجاه الفلسفيّ من الانبعاث من جديد في صورة أخرى مستلهماً أفكار همبولدت ومكيّفاً إيّاها مع ثقافة العصر لمواجهة الفكر التّاريخيّ الذي دعا إليه النحاة الجدد.

وقد تزعّم الردّ على النّحاة الجدد اللّغويّ كارل فوسلر (1872-1949) الذي دعا إلى تاريخيّة مثاليّة معتبراً الرؤية الوضعيّة التي اتّبعها التّاريخانيّون والمتّسمة

---

(21) Idem, p. 12.

(22) Idem, p. 12.

ولهذا الباحث في السّنسكريتيّة دراسات أخرى هاجم فيها مواقف المقارنين والتاريخيين بشأن فهمهم للبنيات الصوتية والصّرفيّة والاشتقاقيّة في اللّغة السّنسكريتيّة في مقارنتها باللّغات الهندو-أوروبيّة لاسيّما الإغريقيّة واللاّتينيّة، نذكر منها ما يتصل برفض طروحات المقارنين والتّاريخيّين:

- Paul Regnaud: *Les facteurs des formes du langage dans les langues indo-européennes*, Paris, Imprimerie Pitrat Aine, 1884.

Les grandes lignes du vocalisme et de la dérivation dans les langues indo-européennes, Paris, Ernest Leroux Editeur, 1890.

بالالتزام الدّقيق بالموضوعيّة والاهتمام المبالغ فيه بالتّفاصيل والجزئيّات وما يترتب على كلّ ذلك من تقعيد صارم، اغتيالاً صريحاً للفكر الإنسانيّ. ومقابل ذلك، دعا فوسلر إلى ربط التّحليل اللّغويّ بالمضامين العقليّة وبالحياة الفكريّة العامّة في تفسير الظّواهر اللّغويّة. ويستمدّ فوسلر أفكاره اللّغويّة في مواجهة النّحاة الجدد من مصدرين أساسيّين:

أ- أفكار همبولدت حول اللّغة باعتبارها مكوّناً من مكوّنات تاريخ الثّقافة[23].

ب - أفكار الفيلسوف الإيطالي بنيديتو كروتشه B. Croche (1866-1952) في مجال علم الجمال التي تَعدّ اللّغة عنصراً من عناصر تاريخ الفنّ.

ويرى كروتشه أنّنا حين نهتمّ بالتّعبير اللّغويّ كلّيّاً أو جزئيّاً، نجد أنفسنا أمام ظاهرة فنّيّة عموماً وجماليّة على وجه التّحديد. وبما أنّ اللّغة تعبير فنّيّ خالص فهي من علم الجمال.

واللّغة في نظر فوسلر ظاهرة تاريخيّة عقليّة وليست ظاهرة لغويّة لها بحث خاصّ بها. إنّ تاريخ اللّغة هو تاريخ للفكر في بُعده الجماليّ. إنّها في كلمة واحدة انعكاس للتّاريخ الثّقافيّ للفرد والجماعة. وكان فوسلر يدعو إلى دراسة اللّغة لا باعتبارها مظاهر مادّيّة موضوعيّة كما يفعل النّحاة الجدد، أي باعتبارها ظاهرة سمعيّة، بل ينبغي دراستها بوصفها شاهداً على العقل وإبداعاً من إبداعاته. فالعقل هو الشيء الواقعيّ الوحيد الذي يجب أن ننطلق منه وإليه نعود. ومن هذه المنطلقات الفكريّة العامّة، لم يكن فوسلر يدرس اللّغة باعتبارها مستويات محدّدة المعالم يتعيّن الوقوف على قوانينها ومبادئها الدّاخليّة، بل استخدم اللّغة بوصفها تصويراً للثقافة فقط. إنّها توثيق لظواهر غير لغوّية وتسجيل لها.

ويلاحظ أنّه مع فوسلر لم يصبح للبحث اللّغويّ أيّ موضوع خاصّ به. فتاريخ اللّغة من منظور التّاريخيّة المثاليّة ليس له مجال خاصّ به، بل هو جزء من تاريخ الفكر. فما يتعلّق بفهم اللّغة يندرج في تاريخ الثّقافة باعتبار البنية الدّاخليّة (الشكل الدّاخليّ عند همبولدت) تعبيراً عن رؤية خاصة وتصوّراً للعالم الخارجيّ. أمّا الجانب التّعبيريّ في اللّغة، فإنّ كارل فوسلر ينظر إليه كجزء من

(23) هيليش: **تاريخ علم اللغة الحديث**، مرجع سابق، ص38.

تاريخ الفنّ عموماً وتاريخ الأدب خصوصاً (كروتشه). وقد رفع فوسلر وأتباعه من التّاريخيّين المثاليّين جملة من الشّعارات التي تؤكّد في مجملها اعتبار اللّغة جزءاً من التّاريخ الفكري والثقافيّ. والتّطوّر التّاريخيّ للّغة ليس عملية طبيعيّة أو صيرورة عاديّة كما يقول بذلك النّحاة الجدد ولكنه انعكاس لغويّ لتيّار ثقافيّ يجسّد إبداع الفرد والجماعة بكيفيّة واعية وليس بطريقة عمياء. إنّ خاصيّة اللّغة البشريّة أنّها حدس جمالي وتعبير ذاتيّ وشخصيّ عن مشاعر فرديّة وجماعيّة.

وفي سياق آخر انتقد هيغو شوشاردت Hugo Schuchardt (1842–1928) آراء النّحاة الجدد المتعلّقة بطبيعة تطوّر الأصوات والقوانين المتحكّمة فيها، مؤكّداً أهمّيّة العامل الجغرافيّ في حصول التّطورّ ومساهمة الفرد في تطوير لغته وتنميتها عن طريق العلاقات الاجتماعيّة التي تجعل الفرد الواحد محطّ تقليد جماعيّ.

وقد أُخِذَ على النّحاة الجدد أنّهم لم يأتوا بنظريّة جديدة وأنّ جُلّ آرائهم هي في الواقع عبارة عن صياغة نقديّة لآراء أسلافهم المقارنين وفق ما تقدمه المناهج العلميّة الجديدة سواء في العلوم الصرفة أو في العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة التي عرفت تطوّراً مذهلاً مع بروز الفكر الوضعيّ. كما أخذ على النّحاة الجدد أيضاً اهتمامهم بالتّفاصيل والجزئيّات المتعلّقة باللّغات خلال جميع مراحل تطوّرها. وهو ما جعل تحليلهم اللّغويّ تحليلاً ذرّيّاً Atomique حوّلوا من خلاله ظواهر اللّغة إلى «ذرّات» لا يمكن الوقوف على الصّورة الكاملة للبنية اللّغويّة، «حيث لا وجود لشيء قائم بذاته، وإنّما يوجد متّحداً مع الأجزاء الأخرى المكوّنة للكلّ»[24].

وجاءت أهمّ الاعتراضات المتعلّقة بالتّطوّر اللّغويّ من علماء اللّهجات الذين أكّدوا أنّ التّطوّر اللّغويّ أكثر تعقيداً مما يتصوّره النّحاة الجدد. إنّه أيضاً الإرادة الواعية للأفراد المتكلّمين بعملية التّطوّر ووعيهم الإيجابي بالمشاركة فيها.

ويمكن الحديث في هذا السياق عن ثلاث طروحات أساسيّة في موضوع التّطوّر في علاقته بالمجتمع، وهي:

(24) ميلكا إيفتش: اتّجاهات البحث اللساني، مرجع سابق، ص85.

- نظرية تارد G.Tarde الاجتماعيّة حول دور التّقليد وأهمّيّته في نشأة الظّواهر الاجتماعيّة وفي انتشارها وتطوّرها، ومنها اللّغة.

- فلسفة التّاريخ عند هيغل ودور الشّخصيّة في الدفع بالتّاريخ إلى التّطور.

- نظريّة همبولدت اللّغويّة المتعلّقة بالجانب الإبداعيّ التّجدّديّ في استعمال اللّغة[25].

ومع ذلك، فإنّ النّحاة الجدد تركوا بصماتهم في البحث اللّغويّ الحديث بحسب تعبير روبنز Robins[26]، كما ساهموا في تهيىء الجوّ العامّ للسانيّات أكثر علميّة ودقّة. فقد انتقل النّحاة الجدد بالدّرس اللّغويّ من تفكير تأمّليّ إلى فكر علميّ يقوم على أسس المقاربة الوضعيّة وقد شَهِدَ لهم دو سوسير بذلك حينما اعتبرهم خطوة حاسمة في تاريخ الفكر اللّغويّ. ومعلوم أنّ سوسير تتلمذ خلال مراحل تكوّنه الأكاديميّ على هؤلاء التّاريخيّين، إلا أنّه لم يكن دائماً مقتنعاً بأفكارهم ومبادئهم المنهجيّة.

وفي هذا الإطار المتخم بالفكر التّاريخيّ وبشتى أنواع التيّارات الفكريّة والنزعات العلميّة، بدأت تظهر في الأفق ملامح لسانيّات جديدة من خلال بحث دو سوسير لنيل الدكتوراه الذي أعدّه في ليبزغ سنة 1879 حول **النّسق الأوّليّ للصوائت في اللّغات الهندو-أوروبيّة**[27]. في هذا البحث الرّائد استعمل دو سوسير مفهوم النّسق مفترضاً وجود صوت لم يكن معروفاً في أي لغة من اللّغات الهندو-أوروبيّة. وتمكّن اللّغويّ بنفينيست (1902-1976) خمسين سنة بعد ذلك من إثبات افتراض دو سوسير بشأن هذا الصّوت وذلك بعد اكتشاف لغة الحثيين Hittite وهي لغة منقرضة كانت مستعملة في بلاد الأناضول الوسطى.

في هذا البحث يعرض دو سوسير لمسألة الصائتية vocalisme في الطّراز الهندو-أوروبيّ _ أي اللّغة الهندو-أوروبيّة الأولى التي طرحت جملة من

(25) M.-A. Paveau et G.-E. Sergati: *Les grandes théories de la linguistique*, p. 16.

(26) روبنز، تاريخ علم اللغة الموجز، مرجع سابق، ص301.

(27) F. de Saussure: *Système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes*, Leipzig, chez B.-G. Teubner, 1879.

الصّعوبات النّظريّة والمنهجيّة في النّحو المقارَن. ومعلوم أنّ بوب صاغ انطلاقاً من التّقابلات الصّوتيّة لائحة من الصّرفيّات علامات وجذوراً على الشّكل التّالي CV, CVC, CCV etc التي وضعها بالنّظر إلى عدد محدود من أنواع الصّوتيّة timbre. وبعده حاول شلايشر إعادة بناء هذا الطراز الأوروبيّ الأول انطلاقاً من معطيات اللّغة السّنسكريتيّة وحدها مقلّصاً النّظام الصائتيّ في الصائت /a/.

وأعاد النّحاة الشّباب صوغ كلّ المسائل المتوصّل بها في إطار المقارنة مميّزين بين أنواع الصّوت التي أضيف إليها صوائت مركّبة diphtongues وبعض الأصوات الجَهوريّة sonnantes.

أمّا سوسير فلم يكن هدفه في البحث التي كتبه سنة1878 حول **النّسق الأوّليّ للصّوائت في الألسن الهندو-أوروبيّة** إعادة بناء النّظام الصائتيّ الأوّليّ primitif للّغات الهندو- أوروبيّة كما دأب على ذلك النّحاة الشّباب، وقبلهم أتباع النّحو المقارن، بقدر ما كان هدفه بناء صورة الحالة القديمة Etat archaïque لهذا النّظام. والجديد في هذا البحث الذي سيكشف عن تفوق بارز في مجال المقارنة بين اللّغات الهندو-أوروبيّة لأنّه أدخل في الاعتبار، ومنذ هذا التاريخ الرّؤية النّسقية في معالجة الظّواهر الصّوتيّة، أنّ التفسير الذي قدّمه دو سوسير لم يكن قائماً على سلسلة من التّقابلات المباشرة بين الطّراز الأوّلي وما يقابله في الألسن الهندو-أوروبيّة الأخرى. ويقوم تصوّر دو سوسير في هذا البحث المقارن على أساس أنّ الصائتيّة الهندو-أوروبيّة هي نسق (لاحظ الكلمة في العنوان)، بحيث أنّ التعديلات التي تجري على هذه الصّوائت في اللّغات المتفرّعة من الطّراز الأوّليّ تمسّ النّسق الصّائتيّ برمّته في كلّ اللّغات وليس أسرة واحدة أو لغة واحدة.

وكانت الدروس التي ألقاها دو سوسير في جامعة جنيف، مابين سنة 1906 و1911 والتي ستصدر سنة 1916 تحت عنوان **«دروس في اللّسانيّات العامّة»** خلاصة عامّة للأفكار اللّسانيّة الجديدة التي قامت على أنقاض الفكر اللّغويّ المقارن والتّاريخيّ وإن لم تنجُ من تأثيراته التّصوّرية والمنهجيّة العامّة.

الباب الثالث

اللّسانيّات:
المجال والموضوع والمفاهيم

الفصل الثامن

اللّسانيّات: تحديد المصطلح والمجال

1. صعوبات التّحديد

حاولنا في صفحات الفصول الأولى (1-3) من هذا الكتاب أن نُقدّم صورة تقريبيّة عن مختلف التّعريفات المقدّمة للّغة البشريّة في بُعدها الشّمولي. وسنحاول الآن أن نتناول تحديد العلم الذي يدرس هذه اللّغة وهو اللّسانيّات Linguistics/Linguistique. وكما واجهتنا بعض الصعوبات ونحن نحاول أن نعرّف «اللّغة» تواجهنا من جديد صعوبات تحديد «اللّسانيّات»[1]. وترجع هذه الصعوبة في رأينا إلى أمرين:

- أولاً: وجود اختلافات منهجيّة ومعرفيّة في الأهداف المتوخّاة من وراء دراسة اللّسان البشريّ كما هو الشأن بالنسبة إلى تحديد اللّغة.

- ثانياً: الخلط الحاصل بين اللّسانيّات وممارسات أخرى تتناول هي أيضاً

(1) يجدر بنا أن نشير هنا إلى ما يواجه القارئ العربي من مشرقه إلى مغربه من مشاكل اصطلاحية وأولها هنا مصطلح اللّسانيّات الذي لا يحظى بإجماع المهتمّين بقضايا اللّسانيّات في الثقافة العربيّة الحديثة. وبالرّغم من انتشار مصطلح اللّسانيّات «فما زلنا نجد من يفضّل -عن جهل أو تجاهل- استعمال مصطلحات أخرى مثل: 'اللّغويّات'، 'علم اللغة'، 'فقه اللغة'، 'النّحو الحديث'، 'اللّسانية'، 'الألسنيّة'، 'علم اللّسان'... كمقابل لما يسميه الغربيّون Linguistique أو Linguistics». انظر كتابنا: **اللّسانيّات في الثّقافة العربيّة الحديثة، حفريات النشأة والتكوين**، مكتبة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 2006.

دراسة اللّغة، مثل: فقه اللّغة والنّحو والفيلولوجيا، لذلك فإنّ حديثنا عن اللّسانيّات يتطلّب منّا توضيح هذا الخلط لتسهل مهمّة التّعريف باعتبار أنّ هذا التّوضيح نفسه مساهمة هامّة في تعريف اللّسانيّات.

بصفة عامّة يمكن تحديد بعض مظاهر الاختلاف بين الفكر اللّغويّ القديم واللّسانيّات فيما يلي:

- الفكر اللّسانيّ المعاصر فكر أكثر شموليّة من نظيره القديم. إنّه لا ينفصل عنه ولكنه يحتويه ما دام يعمل على تطويره وتدقيقه.

- الفكر اللّساني الحديث والمعاصر مراجعة دائمة ومستمرة للمفاهيم الأساس التي يقوم عليها. إنّ المفاهيم اللّسانيّة وسائر الأدوات الإجرائيّة التي عُولجت بها اللّغة من قبل مختلف التّصوّرات اللّسانيّة روجعت أكثر من مرة.

- الفكر اللّسانيّ المعاصر أكثر تفتّحاً على معارف أخرى من منطق ورياضيّات وعلم نفس وعلم اجتماع وفلسفة وإحصاء وإعلاميّات. ولهذا السبب استطاعت اللّسانيّات أن تفرض نفسها في إطار العلوم الإنسانيّة كنظريّة ومنهج لا يستهان بهما.

وهكذا تمّ بصفة عامة؛ التخلّي عن كثير من الأفكار الفلسفيّة العقيمة المتعلّقة بأصل اللّغات ونشأتها وما شابه ذلك، إضافة إلى ما جاءت به اللّسانيّات من روح نظريّة ومنهجيّة جديدة قائمة على الوضوح والدّقّة في أدوات التّحليل وتقنيّاته.

إنّ القطيعة تتجلّى إذن، في هذه المتطلّبات التي طرحتها اللّسانيّات في ما يتعلّق بتحديد الموضوع وضبط المفاهيم والأدوات الإجرائيّة الأساسية علاوة على الرّغبة المنهجيّة في استقلاليّة اللّسانيّات ذاتها والاستفادة من العلوم الأخرى إنسانيّة كانت أم علوماً بحتة.

2. اللّسانيّات ليست هي الفيلولوجيا

تتكوّن كلمة الفيلولوجيا Philologie في أصلها الإغريقيّ من شقّين هما Philos وLogos. ويعني الشّقّ الأول Philos محبة. أما الشّقّ الثاني Logos، فيعني النّطق/الكلام/الجملة/اللغو. وبذلك فإنّ الكلمة في مجملها تعني عند اليونان

محبة الكلام أو المحب للنطق؛ أي المهتم بقضايا الكلام. وقد عرف المفهوم تطوّراً هامّاً عبر التاريخ. لقد ظهرت أوّل مدرسة فيلولوجيّة في الإسكندريّة خلال القرن الثاني قبل الميلاد وكان هدف علمائها وضع الشّروح المساعدة على قراءة وفهم نصوص الإلياذة والأوديسة اللتين ألّفهما هوميروس سنة 800 قبل الميلاد. ومن المعروف أنّ اللّغة الإغريقيّة التي كُتبت بها هذه النّصوص أصبحت صعبة المنال بتطوّرها عبر الزمن، كما أصبحت الوقائع والمعطيات الجغرافيّة والتّاريخيّة والأسطوريّة التي تحكيها الملحمتان تتطلّب شروحاً وتفسيرات لغويّة تسهّل عمليّة القراءة والفهم باعتبارها ذاكرة جماعية للشّعب الذي يتكلّمها[2].

وعندما دخلت أوروبا فترة النّهضة أطلق لفظ «فيلولوجيا» على كلّ البحوث التي أحاطت بالاهتمام اللّغتين الإغريقيّة واللّاتينيّة باعتبارهما أداة للاطّلاع على الفكر الإغريقيّ-الرّومانيّ القديم. وقد أصبح مصطلح الفيلولوجيا منذ القرن الثّامن عشر الميلادي مرادفاً للدّراسة النّقديّة للنّصوص والمقارنة بينها للوقوف على خصائص النّصّ عند أديب معيّن. هذا هو المعنى الذي أراده اللّغويّ فريدريك وولف F. Wolf، ثم أصبح المصطلح يعني في فترة لاحقة دراسة لغة النّصوص من أجل الوصول إلى غايات وأهداف أخرى.

وتوسّع الغربيّون في استعمال مفهوم الفيلولوجيا، فأصبح يعني عموماً الاهتمام بالإنتاج الفكريّ لأمّة من الأمم والكشف عن معالم حضارتها القديمة في شتّى المظاهر الفكريّة من أدب وفنّ ودين وعلاقات اجتماعيّة وعادات أخلاقيّة وشعائر من خلال «اللّغة». ومع بداية القرن التاسع عشر، اتّسع العمل الفيلولوجيّ منتقلاً من العناية بالنّصوص وتحقيقها وشرحها ليشمل مجالات الأدب والتّاريخ ودراسة العادات والتّقاليد والأعراف القوميّة[3]، لتصبح بذلك الفيلولوجيا جزءاً أساسيّاً في التّكوين العلميّ للباحثين في الحضارات والأديان والثّقافات القديمة والدّارسين اللّغويّين وغيرهم في أشهر المراكز العلميّة والجامعات الأوروبيّة الحديثة ولاسيما الألمانيّة منها.

(2) انظر ما قلنا عن المرحلة التوفيقيّة في الباب الثاني من هذا الكتاب، وتحديداً الغاية الفيلولوجية والمصادر المذكورة هناك.

(3) ميلكا إيفتش، **اتجاهات البحث اللساني**، مرجع سابق، ص38.

بهذا المعنى يمكننا أن نقول بأنّ الفيلولوجيا تهتمّ أساساً بالبحث في التّاريخ الماضي للنّصوص لتعالجها من حيث إنّها وسيلة لمعرفة المعطيات والحقائق الاجتماعيّة والجغرافية والتّاريخيّة والأدبيّة التي تصاحبها. وتنظر الفيلولوجيا إلى النّصوص القديمة وذلك لتوثيقها توثيقاً علميّاً بحثاً عن ضبط مصادرها ومكوناتها اللّغويّة وتحليل المعلومات التي تتضمنها وربطها بالمحيط الفكري الذي ظهرت فيه. إنّ الفيلولوجيا لا تهتمّ باللّسان من حيث إنّه منظومة من المستويات اللّغويّة القائمة في ذاتها، ولكنّها تهتمّ بلغة النّصوص لمعرفة المضامين التّاريخيّة والأدبيّة وما تحتويه من المعطيات الحضاريّة المتّصلة بالنّصوص التي تتمّ معالجتها (العادات والتّقاليد والثّقافة/ الدّين). والنّشاط الفيلولوجيّ يتناول كذلك قراءة النّقوش والحفريّات والكتابات القديمة. كما أنّ تحقيق المخطوطات ونشرها نشراً جديداً يُعَدّ من صميم العمل الفيلولوجيّ.

ويقسم بعض الدارسين[4] الفيلولوجيا الحديثة إلى أربع مراحل هي:

الأولى: المرحلة الإيطاليّة وتزعمها بترارك[5] تُوفّي (1374)، وتتميّز بأنّها مرحلة تقليد تامّ للحياة الإغريقيّة والرومانيّة القديمة، ومحاولة السّير على نهجها في التّفكير واللّغة والفنون، وهو ما يفسّر تقليدهم المطلق لشيشرون Cicéron، والتخلّي عن أدبيّات وفنون القرون الوسطى والتعلق بالآداب الرّومانيّة على وجه الخصوص. وقد تميّزت هذه المرحلة بنشر العديد من الأعمال اليونانيّة والرّومانيّة باللّغة اللاّتينيّة، فتم التّعرّف إلى هيرودوت وفيرجيل وأفلاطون وأرسطو.

الثانية: المرحلة الفرنسية وتتّصف بالتوسع المعرفيّ أو الموسوعيّة Encyclopédique وتأثّرها بالمدرسة التّاريخيّة الألمانيّة. وقد بلغت المرحلة قمّتها مع سكاليغر Joseph Scaliger (توفي سنة 1609) ومن روّادها هنري إيتيان H. Estienne (توفي سنة 1598).

(4) Salomon Reinach: *Manuel de philologie classique*, Paris, Hachette, 1880, p. 7-22.
وفي هذا الكتاب متابعة دقيقة وشاملة للنّشاط الفيلولوجيّ منذ نشأته على يد علماء الإسكندريّة في القرن الثالث قبل الميلاد إلى العصر الحديث.

(5) نشر أعمال شيشرون.

الثالثة: المرحلة الإنكليزيّة-الهولنديّة وتمتدّ ما بين 1691-1790 ويعدّ النّقد من مميّزاتها الخاصّة. واستوت هذه المرحلة مع ريتشارد بنفلي R.Bentley (1662-1742) وتمتدّ حتى بدايات الفيلولوجي الكبير وولف، وقد غلب على هذه المدرسة الطّابع الإنسيّ أكثر من أي شيء آخر.

الرابعة: المرحلة الألمانيّة، وتعرف بالمدرسة التّاريخيّة وابتدأت مع دروس وولف في علم العهد القديم sciences de l'antiquité سنة 1783 لتبلغ ذروتها العلمية العليا مع August Boeckh (1785-1867) و K. Otfried Müller (1797-1840) وغيرهما من كبار الفيلولوجيّين الألمان. ومع ذلك فإنّ الجانب السّلبي في الفيلولوجيا الألمانيّة هو انغماسها الدّائم في التّنقيب عن التّفاصيل والجزئيّات.

وكان اللّغويّ الألمانيّ شلايشر واحداً من أبرز الذين أكّدوا ضرورة التمييز بين البحث في اللّغة من أجل ذاتها وأسماه علم الحنجرة La glottique والبحث في اللّغة من أجل غايات أخرى وهو مجال الفيلولوجيا. فالفيلولوجيا بالنسبة إليه «مجال تاريخيّ، مهمتها تحديد الحياة الرّوحيّة للشعوب أو المجموعات الإثنيّة التي لعبت دوراً هامّاً وترجمتها إلينا»[6].

وعموماً، فإنّ الفيلولوجيا تدرس اللّغة باعتبارها وسيلة إلى غايات أخرى من أدب، وفنّ، وتاريخ، وحضارة. يقول دو سوسير (1857-1913) معرّفاً منهجيّة الفيلولوجيا وحدودها: «إنّ اللّسان ليس الموضوع الوحيد للفيلولوجيا التي تريد قبل كل شيء أن تحدّد النّصّ وتؤوّله وتعلّق عليه. إنّ هذه الدّراسة تدفع بالفيلولوجيا إلى أن تهتمّ أيضاً بالتّاريخ الأدبيّ وبالأخلاق والعادات والمؤسّسات الاجتماعيّة إلخ، وحيثما تكون هناك الفيلولوجيا فإنّها تستعمل منهجها الخاصّ بها وهو النّقد، وإذا ما عالجت قضايا لسانيّة، فلكي تقارن بين نصوص تنتمي إلى عصور مختلفة، ولتحدّد اللّغة الخاصّة بكل كاتب أو لمعرفة وشرح الكتابات والهوامش والحواشي المكتوبة في لغة قديمة أو غامضة»[7].

---

(6) Schleicher: *Die Deutsche sprache*, 1860.

ونجد ترجمة فرنسية لبعض نصوص هذا الكتاب في:

André Jacob: *Genèse de la pensée linguistique*, p. 120 et suivantes.

(7) F. de Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 13/14.

ويمكن تلخيص خصائص المنهج الفيلولوجي بالقياس إلى اللّسانيّات فيما يلي:

- إنّ موضوع الفيلولوجيا هو النّصّ اللّغويّ المكتوب، من حيث هو معطيات تتطلّب توضيحاً وتفسيرات تاريخيّة واجتماعيّة وحضاريّة ولغويّة وغيرها، وذلك «لبيان تكوين فكرة النّصّ ومصادره وكيفيّة العرض»[8].
- موضوع الفيلولوجيا هو اللّغة باعتبارها وسيلة إلى غايات أخرى ليست بالضّرورة غاية لغويّة محضة، فليست البنيات اللّسانيّة في ذاتها هي المقصودة بالتّحليل، وإنّما المضامين التّاريخيّة التي تحملها. أمّا اللّسانيّات فتدرس اللّسان في ذاته ومن أجل ذاته[9].
- تهتمّ الفيلولوجيا باللّسان المكتوب الذي غالباً ما يكون لساناً ميتاً، بينما تهتمّ اللّسانيّات بالألسنة الحيّة (أي التي تستعمل في الحياة اليوميّة).
- تفتقر الفيلولوجيا إلى طابع التّقنين والصياغة الشكلية Formalisation للقوانين، على عكس اللّسانيّات التي تسعى إلى التّقنين والتّقعيد الصّوريّ.
- المقاربة الفيلولوجيّة لا تتعدّى في الغالب إطار الكلمة الواحدة من حيث اشتقاقها وتطورها أو معرفة أصلها أو علاقتها بكلمات تنتمي إلى ألسنة أخرى سابقة عليها أو لاحقة أو موجودة معها في الحقبة التّاريخيّة نفسها من فصيلتها اللّغويّة أو من دون قرابة بها. أمّا اللّسانيّات فتنظر الى اللّسان باعتباره بنية مترابطة فيما بينها.

3. بين اللّسانيّات وفقه اللّغة

إنّ اللّسانيّات ليست هي الدّراسات المسمّاة «بفقه اللّغة» الذي هو مصطلح عربيّ صرف. وقد استعمل مصطلح فقه اللّغة لأول مرة عند أبي الحسين أحمد بن فارس 395هـ وذلك في كتابه[10] الصاحبي في فقه اللّغة وسنن العرب في كلامها.

(8) محمود فهمي حجازي: علم اللّغة بين التّراث والمناهج، الهيئة المصرية العامّة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970، (المكتبة الثّقافيّة عدد 249)، ص6-7.

(9) F. De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 317.

(10) أحمد بن فارس، **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية**، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، 1970.

في هذا الكتاب درس ابن فارس مسائل لغويّة كثيرة منها ما يتعلّق بالنّحو والصّرف ومنها ما يتعلّق بالبلاغة والشّعر والعروض والنّقد الأدبي وهي أمور كانت معروفة في مجملها لدى كثير من العلماء العرب بشهادة ابن فارس نفسه، الذي يقول في مقدمة كتابه: «والذي جمعناه في مؤلّفنا مفرق في أصناف العلماء المتقدمين رضي الله عنهم وإنّما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرق»(11).

واستعمل المصطلح نفسه بعد ابن فارس أبو منصور الثعاليّ تـ 420هـ في كتابه **فقه اللّغة وسر العربيّة**. وهو أخذ واضح عن ابن فارس. وكتاب الثعالبيّ شبيه بمعجم جمع فيه صاحبه الألفاظ التي تدل على أشياء تنتمي إلى الحقل الدّلاليّ نفسه (الألفاظ الدّالّة عَلى اللباس/أصوات الخيل/أعمار الإنسان... إلخ).

ويبدو لنا أن لا علاقة على الأقل من النّاحية المفهوميّة والاصطلاحيّة بين «فقه اللّغة» والـ«فيلولوجيا»، وأنّ ما جرت به العادة في بعض الجامعات العربيّة وعند بعض المستشرقين من مقابلة «فقه اللّغة» بالفيلولوجيا شيء خاطئ، أو على الأقل يحتاج إلى نظر. وقد أدّى هذا الخلط والالتباس إلى استعمال غير دقيق لهذه العبارات (اللّسانيّات، فقه اللّغة، الفيلولوجيا) فوجدنا من يستعمل «فقه اللّغة» وهو يريد بها «اللّسانيّات»، ووجدنا من يستعمل الفيلولوجيا؛ وهو يعني بها فقه اللّغة العربي؛ ووجدنا من يستعمل «علم اللّغة» وهو يريد «فقه اللّغة» و«اللّسانيّات»، و«الفيلولوجيا». كل هذا التعدّد الاصطلاحيّ والمفهوميّ لا يُسهّلُ مهمّة القارئ العربي على نحو ما سنبيّنه بإيجاز في الفقرة التّالية.

يؤلّف علي عبد الواحد وافي كتابين حديثين في اللّغة يطلق على أحدهما «علم اللّغة» وكان يودّ لو يستعمل عبارة «فقه اللّغة»، من دون أن يقيم أيّ تمييز منهجيّ أو نظريّ بينهما. كلّ ما في الأمر من اختلاف بالنسبة إليه هو أن «علم اللّغة» عامّ وفقه اللّغة خاص بالبّحث اللّغويّ العربيّ. يقول وافي: «وقد كنا نودّ أن نسمي كتابنا هذا باسم «فقه اللّغة» لولا أنّ هذا الاسم قد خصّص مدلوله في

(11) المرجع السابق، ص5.

الاستعمال المألوف، فأصبح لا يفهم منه إلا البحوث المتعلّقة بفقه اللّغة العربيّة وحدها». إنّ التسميتين تصلحان معاً وليس هناك ما يفرق بينهما في عرف علي عبد الواحد وافي إلا ما هو مألوف في استعمال هذا المصطلح أو ذاك. لكن على أيّ أساس منهجيّ يقوم هذا المألوف؟ وبالنسبة إلى من؟ هل يكفي أن نعود إلى المعنى المعجمي لكلمتَيْ علم وفقه لنقول نقلاً عن ابن فارس كما فعل وافي «إن كل علم هو فقه» ثم نختار المصطلح؟

على النهج نفسه سار صاحب **دراسات في فقه اللّغة**، حيث درس أموراً تتعلق في مجملها باللّغة العربيّة من دون تمييز بين علم اللّغة وفقه اللّغة، لأن من العسير في نظره تحديد الفروق الدقيقة بينهما لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً وقد سمح هذا التداخل بإطلاق التسميتين. هل تتداخل فعلاً بحوث علم اللّغة وفقه اللّغة لدرجة عدم التمييز بينهما؟ من هم العلماء في الشرق والغرب الذين يمكن اعتبارهم نموذجاً علميّاً في عدم التمييز بين هذين العلمين؟ إنّ كتابات بعض اللّغويّين على الأقل، في الغرب تدحض هذا الزّعم.

علّل صبحي الصالح اختياره لعبارة فقه اللّغة قائلاً: «إذا نحن التمسنا الفرق بين هذين الضربين من الدراسة اللّغويّة من خلال التّسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليها وجدناها تافهة لا وزن لها». هل يكون الفرق بين دراسة اللّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها وهو هدف علم اللّغة، وبين دراسة اللّغة باعتبارها وسيلة لغايات أخرى وهو هدف فقه اللّغة، فرقاً تافهاً لا وزن له؟ ذلك ما نعلم عكسه في أمّهات الدّراسات اللّسانيّة الحديثة. ولأسباب دلاليّة كما عند وافي يفضّل صبحي الصالح التّسمية القديمة، لأن كلّ علم للشيء هو فقه مقترحاً الاقتداء باختياره. يقول: «إنه ليحلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين أن لا يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئاً وأن يعمّموها على جميع البحوث اللّغويّة لأنّ كل علم لشيء فهو فقه. فما أجدر هذه الدّراسات جميعها أن تسمى فقهاً». فهل تكون مسألة وضع المصطلح مسألة تذوّق ذاتي فحسب؟[12]. ونحن لا ننكر ما يقوله الدارسون العرب المحدثون بأنّ عبارة «فقه اللّغة» هي عبارة ظهرت ونشأت في

(12) انظر كتابنا: **اللّسانيّات في الثقافة العربيّة حفريات النشأة والتكوين؛** مكتبة المدارس، الدار البيضاء، 2006.

أحضان الدّرس اللّغويّ العربي، سواء استُعملت التّسمية بكثرة أو بقلّة عند اللّغويّين العرب القدماء. ولسنا كذلك ضد استعمال عبارة «فقه اللّغة» للحديث عن القضايا اللّغويّة التي عالجها اللّغويّون العرب القدماء في بعض مباحثهم المتعلّقة بجوانب محدّدة من اللّغة العربيّة، لكنّ الذي لا يمكن قبوله البتّة وهذا من أجل الدّقّة الاصطلاحيّة والمفهوميّة اللّازمة في كلّ معرفة موضوعيّة، هو أن يقابل مصطلح فقه اللّغة العربيّ النشأة بمصطلحَيْ فيلولوجيا أو علم اللّغة كما تمّ تداولهما في الأدبيّات اللّغويّة الغربيّة الحديثة.

4. بين اللّسانيّات والنّحو

النّحو من أقدم الممارسات التي تتناول اللّغة بالدّراسة والتّحليل. وهو في تعريف بسيط وضع القواعد التي يستعملها المتكلم في لغة معيّنة. ومن هنا فإن النّحو كاللّسانيّات يدرس بنية اللّسان واضعاً القواعد التي يسير عليها، مع تباينهما في الأهداف والوسائل المتبّعة في تحليل اللسان. ونودّ الوقوف عند هذا الاختلاف نظراً إلى ما يثيره التداخل بين النّحو واللّسانيّات من التباس وغموض حتى لدى الفئة المتنورّة من القرّاء العرب الذين درسوا النّحو وفقه اللّغة في برامجنا الجامعيّة، ولم يدرس عدد كبير منهم ما أصبح شائعاً تحت تسمية اللّسانيّات أو الألسنيّة أو علم اللّغة. **فما هو النّحو؟ وما أوجه الائتلاف والاختلاف بينه وبين اللّسانيّات وما درجة التّداخل بينهما؟**

يتكفّل النّحو في كلّ الثقافات ومند أقدم العهود بدراسة البنيات اللّغويّة لوضع القواعد القادرة على تمييز الأقوال (التّراكيب) السّليمة من الأقوال (التّراكيب) «الخاطئة» أو «الفاسدة». على عكس اللّسانيّات يتميّز النّحو بأنّه مقاربة معياريّة أو ممارسة معياريّة من حيث إنّه لا يهتمّ بما هو كائن في لسان ما، وإنّما يهتمّ بما ينبغي أن يكون عليه هذا اللّسان من حسن التركيب وضبط القواعد كتابة واستعمالاً. بعبارة أوضح النحوي لا يهتم باللسان كواقع، وإنما باللسان النموذج/المثال أو المعيار La norme الذي يراد له أن يسود ويستمرّ، إذ يسعى النّحوي بالدّرجة الأولى إلى وضع القواعد الصّحيحة التي يسير عليها اللّسان غير عابئ بكل ما يراه أو يعتقد من وجهة نظر غيره أنّه غير صحيح أو غير مطابق للقواعد.

أما اللّسانيّات فهي بالأساس رؤية وصفيّة أو/ وتفسيرية للظّواهر اللّغويّة المدروسة من دون إصدار الأحكام القيميّة. إنّ اللّسانيّات **تتناول ما يقال فعلاً، ولا تهتمّ بما يجب أن يقال** كما يفعل النّحو. من هنا نفهم ما يرد في الدّراسات النّحويّة القديمة في الشّرق كما في الغرب، من عبارات تعكس نوعاً من الرّقابة اللّغويّة على المستعمل أو المتعلّم، مثل: لا يجوز/ لا ينبغي/ يستحسن/ يجب/ قول ضعيف/ قول مهمل/ قول متروك). لكن من يقرّر القاعدة العامّة؟ وكيف يمكن ضبطها في غياب تغطية شاملة للواقع اللّغويّ؟ تلك إحدى معضلات الأنحاء قديماً وحديثاً.

هذه الغاية المعياريّة ملازمة للنّحو بالمعنى التّقليديّ. في الثّقافة العربيّة كما في الغرب، كان النّحو يعرف على أنه **فن أو صناعة الكتابة والكلام الجيّدين**. «l'art de bien écrire et bien parler». فالنّحو في هذا المنظور التّقليديّ ليس «بنية متأصّلة في اللّغة أو أنه مجموعة من القواعد التي بحد ذاتها تكوّن اللّغة. النّحو يدرس فنّ التّواصل النّاجح وفنّ الكلام بطريقة نعبّر فيها عن الفكر بشكل كامل وواضح عن طريق صيغ التّعبير التي نختارها. لذلك فإنّ النّحو دراسة فعاليّة معيّنة، وليس دراسة نسق معيّن من القواعد أو المفردات أو (الجمل) ويكمن في توضيح وتسويغ مبادئ الأداء النّاجح أو الفهم الصّحيح لتلك الفعاليّة»[13].

أمّا اللّسانيّات فتقف عند حدود الوصف والتفسير، تعاين وتلاحظ ثمّ تصف ما هو كائن من بنيات لغويّة، محاولة إيجاد التفسير العامّ للتّراكيب النّحويّة وغير النّحويّة Grammaticale/agrammaticale على السّواء.

5. تعريف اللّسانيّات

1.5. غموض عبارة «علم اللّغة»

نعتقد أنّ عبارة «علم اللّغة» Science du langage ملتبسة وغير دقيقة. ذلك أنّها تسمية تشمل ليس اللّسانيّات فقط، وإنما كلّ العلوم التي تتناول اللّغة

(13) روي هاريس وتولبت جي تيلر: **أعلام الفكر اللغوي (التقليد الغربي من سقراط إلى سوسير)**، ترجمة أحمد شاكر الكلابي، ج1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص153-154.

le langage من بعيد أو قريب. لقد قلنا سابقاً بأنّ اللّغة بمعناها العامّ ليست من اختصاص اللّسانيّات وحدها، وإنّما هي مجال مباحث أخرى. ألا تستحقّ هذه المجالات لقب «علم اللّغة»؟ ألا تدرس الفيزياء أصوات اللّغة دراسة علميّة؟ والأمر يصدق على علم النّفس والمنطق والرّياضيّات. فهذه المجالات المعرفيّة تدرس اللّغة أيضاً دراسة علميّة وبالتّالي، فإنّ تسمية «علم اللّغة» تنطبق عليها بصرف النّظر عن موضوعها. صحيح أنّ هذه العلوم تختلف عن اللّسانيّات من حيث منظورها للّغة، ومن حيث الوسائل المستعملة، ومن حيث الغاية والأهداف التي تسعى إليها هذه الاختصاصات. وفي رأينا أنّ أساس الخلط والغموض هو التّعريف العامّ الذي يُعطى للّسانيّات: «**اللّسانيّات هي الدّراسة العلميّة للّغة**».

لكي نقترب أكثر من هذه اللّسانيّات نطرح السؤال التالي: **ما اللّسانيّات؟** ومن الطّبيعيّ أنّ أيّ إجابة تقتضي أرضيّة نظريّة وفكريّة ينطلق منها ويفسّر في ضوئها العمل اللّسانيّ سواء في صورته العربيّة أم في صورته العامّة. وقد أشرنا في الفقرات السّابقة من هذا الفصل إلى الخلط المفهوميّ الذي تكشف عنه كثير من الكتابات اللّسانيّة العربيّة الحديثة[14] فيما يتعلق بتحديد بعض أبسط المفاهيم الأوّليّة والجوهريّة مثل: «علم اللّغة» و«فقه اللّغة» و«النّحو» و«الفيلولوجيا». لنباشر موضوع اللّسانيّات من خلال تحديد مجالها.

يمكن القول بأنّ ما يميّز اللّسانيّات هو علميّتها وموضوعيّتها. فأين تتجلّى هذه العلميّة وهذه الموضوعيّة؟ تتطلّب العلميّة بصفة عامّة وجود قواعد وأصول محدّدة للتّعامل مع الظّواهر المتمثّلة هنا في اللّغة. مثل هذه الأصول موجودة فعلاً في مجال اللّسانيّات، وهي في مجملها ما قدمته مختلف المدارس اللّسانيّة الحديثة والمعاصرة من بنيويّة وتوليديّة ووظيفيّة، بعضها تمّ تجاوزه؛ وبعضها ما يزال قائماً حوله إجماع؛ وبعضها فيه نقاش بحسب الوجهة التي يتبنّاها الدّارسون.

اللّسانيّات دراسة علميّة للّغة، ما في ذلك شك، وهذا هو المنطلق. على أنّ اللّغة المقصودة هنا ليس لها أي علاقة بالمفهوم الحسّيّ أو الواقعيّ للّغة؛ أي اللّغة كأصوات نسمعها ونتعرف إليها. اللّسانيّات منذ دو سوسير تقسم ما يعرف

(14) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: **اللّسانيّات في الثقافة العربيّة الحديثة**، الدار البيضاء، 2006.

بالظّاهرة اللّغويّة إلى ثلاثة مستويات: اللّغة واللّسان والكلام[15] أو ما يسمّيه تشومسكي القدرة والإنجاز. موضوع اللّسانيّات ليس هو اللّغة بمعناها العامّ؛ أي المَلَكة اللّغويّة أو القدرة على اللغو بغض النّظر عن العرق والجنس والمجتمع وهو ما يسمّيه الفرنسيون بعد دو سوسير Le langage وإنّما اللسان la langue ذلك النّسق من القواعد المجرّدة، العامّة المشتركة بين المتكلّمين داخل مجتمع لغويّ محدّد. والتّعامل مع اللّسان من منظور اللّسانيّات الحديثة محكوم بغاية محدّدة هي «دراسة اللّسان في ذاته ومن أجل ذاته» وهي القولة الشّهيرة لدو سوسير[16]، التي كانت وراء استقلالية اللّسانيّات كعلم قائم في ذاته له إطاره وموضوعه وأدواته الإجرائيّة والمنهجيّة المتميّزة من غيرها من المجالات التي كانت مندمجة معها أو القريبة منها كالنّحو والبلاغة وتحليل النّصوص والفيلولوجيا وغيرها من الممارسات اللّغويّة أو العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة التي تتناول بدورها قضايا اللّغة من زاوية خاصّة بها.

2.5. السِمَات المميّزة للممارسة العلميّة[17]

الإجابة عن الأسئلة السّالفة وغيرها تقودنا إلى الدّخول في مجال العلم وخصائص النّشاط العلميّ الصّحيح كما يمارس اليوم في كلّ العلوم. لكنّ أولى العقبات تكمن في أنّه من الصّعب على أيّ كان أن يقدّم تعريفاً عامّاً وشاملاً للعلم، ومن الغريب أنّه في الوقت الذي يتحدث فيه الجميع عن الإنجازات العلميّة النّظريّة منها والتّطبيقيّة، وعن مناهج البحث العلميّ ومعايير التّفكير العلميّ وعن أسس العلم وما إلى ذلك من العبارات، لا نعثر على تحديد واضح للعلم «هذا الأمر جعل بعضهم يقول إنّ العلم مفهوم مبهم»[18].

وقد يستغنى عن التّعريف المباشر للعلم لتقديم جوانبه الإبستيمولوجيّة أو أسلوبه أو منهجه أو خطواته أو منهجيّة البحث العلميّ وهي كلّها عبارات تُحيل

---

(15) انظر الفصل المتعلّق بالحديث عن هذه المستويات الثلاثة من الظّاهرة اللغويّة.

(16) F. de Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 317.

(17) انظر مقالتنا: في طبيعة اللّسانيّات العامة أوليات منهجية، مجلة **فكر ونقد**، عدد 96، آذار/مارس، 2008.

(18) فلاديمير كوركانوف، **البحث العلمي**، ص41، دار الحداثة، بيروت، د.ت.

في مجملها على المعنى نفسه. وقد يعرف العلم بغاياته وأهدافه. يقول كارل بوبر (1902-1994): «ليس في ذهني صورة للعلم باعتباره ظاهرة بيولوجيّة أو كأداة للملاءمة أو كمنهج غير مباشر للإنتاج ولكنّي أفكّر في جوانبه الإبستيمولوجيّة»[19]. ويقول آخر: «إنّه (العلم) في آن واحد موقف تجاه الطّبيعة وجملة من المعارف وأسلوب تفسير وعمل»[20]. وقد يحدد أسلوب العلم في كونه «ملاحظة صبورة ومراجعات متكرّرة ومناقشة مفتوحة»[21] ويذهب بعض الابستيمولوجيّين إلى أنّه من العبث اختصار العلم في منهج واحد أو في قواعد معيّنة بسيطة نظراً إلى التّاريخ المعقّد للعلم نفسه. إنّ مقاربة في هذا الاتّجاه تبسّط العلم وتختصره ليس غير[22]. وسواء توصّلنا إلى تعريف أوّليّ للعلم أم لم نستطع ذلك، فإنّ هذه التحديدات والمواقف المتنوعة تؤكّد فعلاً وجود شيء اسمه العلم، وأنّ هناك اتفاقاً يكاد يكون عامّاً حول ما يمكن وصفه بأنّه علميّ وما ليس كذلك. «إنّ بإمكاننا تحديد السمات المميزة التي يمكن بموجبها أن نصنّف تصوّراً ما أو أفكاراً معيّنة بأنها علميّة وقابلة لأن توضع في صنف العلم»[23].

فما المقصود بالعلميّة عندما يتعلّق الأمر بوصف ممارسة أو نشاط ما؟

للعلميّة دلالتان: العلميّة بمعناها العامّ وتتمثّل هنا في مجال اللّسانيّات في كون اللّغة (الظّاهرة العامّة) ودراسة الألسن بصفة خاصّة تستحقّ أن تكون موضوع اهتمام العلماء وأنّ مجموعة متّسقة من الأحداث والنّظريّات أقيمت حولها. أمّا المعنى الضّيّق والخاصّ للعلميّة، فيشير إلى الموقف الذي يتبناه اللّسانيّون حاليّاً إزاء موضوعاتهم، وهو ما يمكن أن يكون إحدى أهمّ سمات اللّسانيّات في القرن العشرين. ومعنى القول بأنّ اللّسانيّات علم بالمعنى الضّيّق، أنّها تعالج موضوعاً

(19) K. Popper: *Logique de la découverte scientifique*, Paris, Payot, 1973, p. 284.
انظر ترجمة هذا الكتاب في سلسلة عالم المعرفة ـ وهناك ترجمة أخرى **منطق الكشف العلمي**، ترجمة ماهر عبد القادر محمد ندار، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1976.

(20) كوركانوف، **البحث العلمي**، مرجع سابق، ص41.

(21) المرجع السابق، ص80-81.

(22) F. Feyerabend: *Contre la méthode*, Paris, Seuil, 1981, p. 15.

(23) S. Toulmin: *L'explication scientifique*, p. 15.

نوعيّاً (اللّغة المكتوبة واللّغة المنطوقة)، وأنّها تستعمل إجراءات يمكن توصيلها ووصفها بكيفيّة نسقيّة وقابلة للتبرير بالنّسبة إلى المبادئ التي تعلنها. إنّ هدف اللّسانيّات في الأساس هو تحليل المواد والوقوف عليها وربطها إذا أمكن بالقواعد والاطّراد المتنوع واللامتناهي للظّواهر.

وتقوم العلمية على ثلاث قواعد هي:

- الشّموليّة exhaustivité، أي المعالجة المناسبة لكل المواد الملائمة.
- التّماسك cohérence، أي غياب التّناقض بين مختلف مكوّنات التّحليل في مجموعه.
- الاقتصاد Economie إنّ الصّياغة المختصرة أو التّحليل الذي يتضمّن حدّاً أقصى من المفردات يكون أفضل من نظيره المطوّل أو المركّب[24].

عموماً نقول عن ممارسة فكريّة بأنّها علميّة إذا كانت وصفاً منسّقاً يعتمد على ملاحظات يمكن التّحقّق منها موضوعيّاً في إطار نظريّة عامّة ملائمة للمعطيات المبسوطة على البحث.

بالرّغم من أن الإطار التّاريخيّ الذي ظهرت فيه اللّسانيّات منذ بداية القرن العشرين، ثم نمت وتطوّرت إلى أن وصلت إلى ما هي عليه اليوم من تقدّم نظريّ ومنهجيّ، مرتبط أساساً ببنية ثقافيّة غربيّة معرفيّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً، بإمكاننا أن ننظر إلى اللّسانيّات من زاويتين مختلفتين مبدئيّاً ولكنهما في العمق متكاملان:

أولاً: الزّاوية العامّة باعتبار اللّسانيّات نظريّة ذات طابع علميّ عامّ كما هو الشّأن في العلوم الأخرى، وبالتّالي لها من المبادئ العامّة التي يمكن تطبيقها على الألسن الطّبيعيّة بصرف النظر عن طبيعة الاختلافات الحاصلة في بنياتها أو المظاهر المتعلّقة بكلّ لسان على حدة. وقد درج على تسمية هذه الزّاوية باللّسانيّات العامّة أو ما يصطلح عليه التّوليديّون بالنّظريّة اللّسانيّة العامّة أو النّحو الكلّيّ[25].

(24) R.-H. Robins: *Linguistique générale, une introduction*, Paris, Armand Colin, 1973/1964, p. 20-21.

(25) انظر أعمال تشومسكي الأخيرة، حيث يرد الحديث بإسهاب عن مفهوم النّحو الكلّيّ.

ثانياً: الزّاوية الخاصّة، وهي الجانب المتعلّق بلسانيّات خاصّة في تناولها للسان محدّد كالعربيّة أو الفرنسيّة أو الإنكليزيّة أو غيرها. «إنّ الزّاوية الخاصّة مجال لاختبار المبادئ العامّة وميدان لتقدير مدى فعالية ما تقترحه الزّاوية العامّة من قواعد ومبادئ كلّيّة في إطار التّطبيق على بنيات لسان محدّد أي ما يُسمّى بالنّحو الخاصّ»[26].

والواقع أنّه لا يمكن دائماً الفصل بين البُعْدَيْن العامّ والخاصّ، إنّهما في حقيقة الأمر وجهان لعملة واحدة، وبينهما من العلاقة المتبادلة ما لا يمكن إنكاره أو تجاهله. غير أنّه يتعيّن من جهة ثانية عدم الخلط بينهما لما لفصلهما مبدئيّاً من أبعاد نظريّة هامّة في تطوّر كلا البُعدين. وتفكيك اللّسانيّات إلى زاويتين أو بعدين ليس إلا توضيحاً للجوانب الموضوعيّة التي يمكن أن يتّسم بها العمل اللّسانيّ في تحليله للّغة، سواء باعتبارها ظاهرة إنسانيّة عامّة أو على مستوى وصف تفسير ظواهر محدّدة في لسان معيّن كالعربيّة أو الفرنسيّة أو الإنكليزيّة.

لقد أكّد تشومسكي العلاقة الجدليّة بين الزّاويتين مبيّناً كيف أنّ التّصوّرات والمبادئ العامّة والأدوات المفهوميّة يجب أن تُوضع باستقلال تامّ وكلّيّ عن اللّسان الخاصّ الذي تقعّد له، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّ النّظريّة العامّة لا علاقة لها بالنّحو الخاصّ. إنّها تحدّد طبيعة وصورة وهدف الجهاز النّحويّ الذي سيتكفّل بدراسة صوتيّات وصرفيّات وتركيب ودلالة الألسن الطّبيعيّة في إطار نحو معيّن. وكما أنّ النّظريّة العامّة ليست قارّة، فإنّ النّحو الخاصّ المقترح لدراسة لسان معيّن أو ظواهر جزئيّة منه ليس ثابتاً. إنّهما خاضعان للتعديل المستمر عن طريق التّحليل الدائم للظّواهر اللّسانيّة الخاصّة بلسان معيّن، وعن طريق التجاوز الذّاتيّ للنّظريّة العامّة نفسها. وهكذا كلما ظهرت وقائع جديدة سواء في مستوى النّظريّة أو في مستوى النّحو الخاصّ وجب أخذ ذلك بعين الاعتبار، مما يستدعي في النّهاية ضرورة إعادة النّظر والمراجعة بغية التّحيين والتّعميق واستخلاص النّتائج النّظريّة والمنهجيّة.

وتمكّن العلاقة بين العامّ والخاصّ بالشّكل المتلازم والمترابط من الوصول

(26) Chomsky: *Structures syntaxiques*, p. 56.

إلى وضع نظريّة أكثر فعاليّة وجدوى من حيث إنّها ستكون أكثر شموليّة في معالجة بنيات لغويّة تأخذ في الاعتبار معطيات الألسن الطّبيعيّة كمّاً وكيفاً.

هذا التّصوّر للعمل اللّسانيّ ولطبيعة اللّسانيّات نجده عند أكثر من باحث لساني حديث. لقد عرّف مثلاً بنفينيست اللّسانيّات بأنّها دراسة اللّغة والألسن. يقول: «إنّ للّسانيّات موضوعاً مزدوجاً. إنّها علم باللّغة Langage وعلم بالألسن Langues»[27].

وفي الاتجاه نفسه بيّن مانفريد بيبرفيتش Manfred Bierwiech أنّ للّسانيّات وجهين، دراسة ألسن خاصّة ومحدّدة وهي ما يسمّيه اللّسانيّات الخاصّة ودراسة الاطّرادات العامّة وهي ما يسميه اللّسانيّات العامّة. كما يؤكد بيبرفيتش علاقة التّكامل بين اللّسانيّات العامّة واللّسانيّات الخاصة. يقول «إنّ هذه الاطّرادات العامّة لا يمكن اكتشافها إلا بدراسة الألسن الخاصّة كما أنّه لا يمكن تحليل الألسن الخاصّة إلا إذا كان منطلقنا على الأقل في شكل فروض بعض الاطّرادات العامّة»[28].

إنّ تحديد طبيعة البحث كما يتجلّى من خلال ما سبق على سبيل التّمثيل لا الحصر، يوضح أنّ هذا التحديد يعدّ من الأوّليّات المنهجيّة في تناول القضايا اللّغويّة علميّاً. وعلى أساس هذه التعريفات يمكن القول بأنّ هناك تصوّرين في تحديد مجال البحث اللساني:

أولاً: اللّسانيّات الواقعيّة التي ترى أنّ مجال البحث اللّساني يجب أن لا يتعدى إطار وصف الألسن الخاصّة، وبالتّالي فإنّ اللّسانيّات هي دراسة اللّسان الواحد على مستوى البنيات الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة. نجد هذا التّصوّر لمجال اللّسانيّات عند جلّ اللّسانيّين البنيويّين (الوظيفيّة-التّوزيعيّة...) وهو تصوّر واقعيّ-تجريبيّ- تصنيفيّ لا يتعدى إطار اللّسان الواحد.

ثانياً: اللّسانيّات الكلّيّة (أو الفرضيّة) وهي التي تنطلق من دراسة خصائص

---

(27) E. Benveniste: *Problèmes de linguistique générale*, tome I, Paris, Gallimard, 1966, p. 19.

تعمل دار الكتاب الجديد المتحدة، على ترجمة هذا العمل ونقله إلى اللغة العربية.

(28) M. Bierwiech: *Modern Linguistics*, Paris, Mouton, Lahague, 1954.

اللّغة البشريّة كمَلَكة عامّة لتصل إلى الألسن الخاصّة. ويعتمد هذا النوع من اللّسانيّات على مجموعة من الفرضيّات Hypothèses العامّة التي يسعى إلى تمحيصها. إنّ اللّسان في هذا التّصوّر لمجال اللّسانيّ نسق من القواعد والمبادئ العامّة، وليس نسقاً من العلاقات. ومن هنا فإنّ دور اللّسانيّات هو وضع قواعد نحويّة مماثلة ومطابقة لتلك التي يملك الفرد المتكلّم مع إيجاد نظريّة شاملة لما يعرف في إطار العقلانيّة عموماً ونظريّة النّحو التّوليديّ بصفة خاصّة بالكلّيّات اللّغويّة، أي الخصائص المادّيّة والصّوريّة المشتركة بين جميع الألسن مهما اختلفت). نجد هذا التصوّر الفرضيّ عند اللّسانيّ الدانماركي لويس هيلمسليف Louis Hjelmslev 1899–1965 وبنفينيست 1907–1976 وتشومسكي (1928، وهو التّصوّر السّائد الآن في معظم الدّراسات اللّسانيّة العالميّة[29]...

والواقع أنّ هذه التّعريفات تظلّ عموماً خاصّة بالنّسبة إلى المبتدئ، لذلك فإنّ أهمّ شيء يمكن أن يعرّف لنا اللّسانيّات ويحدّد موضوعها ومنهجها هو ممارسة اللّسانيّات نفسها وقراءة الأعمال التي تنجز في إطارها. صحيح أنّ هناك بعض القواعد العامّة والمبادئ الأساسية التي يجب أن تتوافر في كلّ بحث يريد لنفسه صِفَة «اللّسانيّة» أو طابع العلميّة، غير أنّ هذه المبادئ ليست قواعد منهجيّة بقدر ما هي «إزالة» لبعض «الأوهام» أو «المعرفة الخاطئة» حول أمور تتعلق باللّغة وطبيعتها وعلاقة المتعلّم بقواعد لغته. ومن هذه المبادئ:

– إنّ عالم اللّسانيّات ليس هو الذي يتكلّم أكبر عدد من الألسن الأجنبيّة، وبالتالي ينبغي التمييز بين الباحث اللّساني ومتعدّد الألسن Polyglottes.

– ليس هناك تمييز أو مفاضلة بين «لسان» و«لسان»؛ فجميع الألسن متساوية أمام البحث العلميّ. أما أفضليّة لسان على لسان، وأهمّيّته ومساهمته في الحضارة الإنسانيّة العالميّة، أو الخاصّة بحضارة محدّدة، فهذا ليس من شأن اللّسانيّات. فالأبعاد الحضارية للسان ما (تراث/ثقافة) لها قيمتها المرجعية؛ لكن ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى اللّسانيّ linguiste الذي ينظر إلى الألْسُن باعتبارها بنيات صوريّة. إنّ اللّسانيّات تعالج كل الألسن باعتبارها أنساقاً للتّواصل، ومن

(29) لمزيد من التّفاصيل حول علميّة اللّسانيّات يمكن الرّجوع إلى دراستنا في طبيعة اللّسانيّات العامّة: أوليات منهجية، مجلة فكر ونقد عدد 96، آذار/مارس، 2008، الرباط.

هنا فإن «الدّوارج» أو اللّهجات هي فعلاً ألسنة بالمعنى العلميّ، وتستحقّ من العناية والدرس ما يستحقّه اللّسان الوطنيّ أو الرّسميّ.

- يُشترط في الباحث أن يكون موضوعياً (وإن لم تكن هناك موضوعيّة مطلقة) كما هو الشأن في سائر المجالات العلميّة الأخرى. فالذّاتيّة أو التّعصب لهذا اللّسان أو ذاك لا يخدم البحث العلميّ. ومن هنا يرفض القول بتمايز الألسن من حيث إنّها بنيات مجرّدة وتميز الواحد عن الآخر؛ من حيث السّهولة أو الصّعوبة. فجميع الألسن سهلة وجميع الألسن صعبة في الوقت نفسه.

- اللّسانيّات ليست ممارسة لغويّة معياريّة. ليس اللّسانيّ مجمعاً لغويّاً أو نحويّاً يقوم بدور «الدّركي»، يأمر بهذا الاستعمال اللّغويّ أو ينهى عنه. فليس للّساني سُلطة على اللّسان أيّاً كانت طبيعة هذه السّلطة. إنّ دور اللّسانيّ هو الوصف أو/والتّفسير من دون إبداء الرّأي من النّاحية المعياريّة.

3.5. أيّ دور للّسانيّات في تدريس النّحو واللّغة؟

ما من شكّ في أنّ معرفتنا بالنّشاط اللّغويّ عند الفرد وقدرتنا على دراسة اللّغة وكيفية تعليمها للكبار والصّغار هي اليوم بفضل مختلف فروع اللّسانيّات ومناهجها في مستوى عالٍ جداً من الدّقّة والتّحكّم؛ تتجاوز بالتّالي ما كنا نعرفه عن النّحو واللّغة في القديم شرقاً وغرباً. فمعلوماتنا عن النّحو واللّغة أوفر وأعمّ وأدقّ، وقدرة الدّارسين اليوم على التّفسير العلميّ بالمعنى الدّقيق والمقاربة الموضوعيّة لهما، جعلت من اللّسانيّات علماً طلائعيّاً، لا فقط بالنّسبة إلى العلوم الإنسانيّة التي تبنّت النّموذج اللّسانيّ كطريقة تفكير وتحليل- في تعاملها مع الظّواهر الإنسانيّة والاجتماعيّة-، بل لقد اقتحمت اللّسانيّات بنجاح كثيراً من المجالات العلميّة الأكثر دقّة مثل الرّياضيّات والإعلاميّات والتّرجمة الفوريّة والترجمة الآليّة. فماذا يمكن للّسانيّات أن تقدّمه للنّحو واللّغة[30]؟

أوّلاً: الرّؤية الموضوعيّة التي نضيف إليها هنا ضرورة الابتعاد عن تناول

---

(30) لمزيد من التفاصيل انظر دراستنا: النحو اللّسانيّات بين الانفصال والاتصال، **مجلة فكر ونقد**، العدد 72، آذار/مارس، 2005، الرباط.

القضايا الفلسفيّة العقيمة مثل إشكاليّة أصل اللّغات أو أفضليّة لسان على لسان إلخ.

ثانياً: الأدوات النّظريّة المنهجيّة المضبوطة والخطوات المحدّدة لمعالجة القضايا النّحويّة واللّغويّة وفق تصوّرات هيكليّة واضحة.

ثالثاً: جملة من المبادئ التي تقوم عليها البنيات الذّهنيّة للّغات البشريّة؛ أي الآليّات المعرفيّة والإدراكية للّغة، وهو ما يعني أنّ استيعابها وكيفيّة اشتغالها من شأنهما أن يُعيدا النّظر في القواعد النّحويّة التي يتعيّن وضعها.

رابعاً: الأرضيّة النّظريّة والمنهجيّة لبناء الأنحاء وتبرير اختيارها من حيث صياغتها وأشكالها؛ وعلاقاتها باللّغات والكفايات Adéquations، أي الأهداف المزمع تحقيقها؛ وكذلك الشروط الدّاخليّة والخارجيّة اللّازمة لبناء النّحو مثل: التّعميم والبساطة والوضوح. وفي الأدبيّات التّوليديّة التي وضع أسسها اللّسانيّ تشومسكي ما يكفي من هذه الضوابط المنهجيّة التي من شأنها أن تجعل النّحو ميسّراً وأكثر علميّة، وبالتّالي فعّالاً في تحقيق الأهداف المتوخّاة والغايات المنوطة به.

خامساً: اللّسانيّات تساعد على الكشف عن البنيات اللّغويّة تركيبيّاً ودلاليّاً بشكل أعمّ وأوضح وأدقّ. وقد بات، بالتّالي، من الممكن إعادة صوغ القواعد المعياريّة صوغاً تتحقّق فيه درجات عالية من التّعميم والشّمول والبساطة والدّقّة والوضوح.

سادساً: فهم أعمق لطبيعة اللّغة البشريّة ذاتها وواقعها ومنها اللّغة العربيّة؛ مما يمكّن من إعادة النّظر في كثير من الأفكار الموروثة. فرضيّة المستويات مثلاً (أي تحليل اللّغة على أساس أنّها تراتب من المستويات الصّوتيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة) تمكّن من تحليل جديد للعلاقات الممكنة بين الوحدات اللّغويّة صوتيّاً وتركيبيّاً ودلاليّاً بكيفيّة مماثلة بين هذه المستويات. أمّا في مستوى فهم الواقع اللّغويّ، فاللّسانيّات وفروعها مثل السوسيولسانيّات تقدّم لنا معلومات هامّة عن وضعية الازدواجيّة التي يعيشها كثير من المجتمعات، ومنها المجتمعات العربيّة. تكشف اللّسانيّات وفروعها عن حقيقة الوضع اللّغويّ الذي غالباً ما يتمّ تجاهله لأسباب سياسيّة واجتماعيّة، واعتباره وضعاً متجانساً وبالتالي لا يطرح مشاكل

معيّنة. نستحضر هنا علاقة اللّغة العربيّة «بالدوارج» العربيّة وغير العربيّة في المستوى التّربوي. (ميثاق التربية والتكوين في المغرب مثلاً يدعو إلى الانفتاح المزدوج داخلياً على اللّهجات المحليّة وخارجيّاً على اللّغات الأجنبيّة). والواقع أنّ هذا الاهتمام ليس استجابة سياسيّة لواقع اجتماعيّ فكريّ معقّد، ولكنه أضحى معطى حقيقيّاً يعرقل تعلّم اللّغة العربيّة وتعليمها. وفي هذا الاتّجاه هناك بعض الاقتراحات النّظريّة الفعّالة لرصد هذا الواقع نذكر منها على وجه التّحديد مفهوم تحويل القدرة code switching أي الانتقال من القدرة اللّغويّة Compétence الخاصّة باللّغة العربيّة إلى القدرة الخاصة بالدّارجة-شعورياً أو لاشعورياً-[31]. وبالفعل لم يعد خافياً على أحد أنّه لا يمكن تعليم اللّغة العربيّة من دون أن نأخذ في الاعتبار علاقة التّداخل بينها وبين مختلف «الدّوارج». مفهوم القدرة المقصود كما تحدّده الأدبيّات التّوليديّة؛ أي المعرفة الضّمنيّة باللسان التي تمكّن من توليد ما لا حصر له من الجمل النّحويّة والقدرة على إزالة الالتباس أو الحكم على درجة النّحويّة وما شابه ذلك من تعامل المتكلّم السّامع مع نسق لسانه.

سابعاً: تفادي التّعريفات المفهوميّة القائمة على الدّلالة واعتبار الروائز tests الشّكليّة مثل التّوزيع والوظيفة والعلاقة والمواقع في تحديد طبيعة المقولات (الوحدات والعلاقات بينها) مما استدعى إعادة النظر في التّقسيم الثّلاثيّ لأجزاء الخطاب. وجهد الأستاذ تمام حسّان واقتراحه للتّقسيم السّباعي معروف في هذا الباب[32]، وهو دليل واضح على هذا التّوجّه نحو إعادة النظر في كثير من الأفكار القديمة التي يصعب اليوم الاستمرار في الأخذ بها تربوياً.

ثامناً: التّخلّي عن النّظرة التّجزيئيّة للّغة ووحداتها، وبالتّالي تدعو اللّسانيّات إلى الاهتمام بالوحدات الدّالّة والبحث عن نظام عامّ للعلاقات بينها سواء في مستوى محور التّوزيع أو في محور الاختيار. مثلاً من المعلوم أنّ قضايا الجملة

---

(31) الافتراض في الأصل لعبد القادر الفاسي الفهري. وقد قدم عبد اللطيف شوطا وعبد المجيد جحفة عملاً تطبيقياً مهماً ورائداً في هذا الإطار بعنوان: تحويل القدرة من المغربية إلى العربيّة في كتاب **قضايا في اللّسانيّات العربيّة**، منشورات كلية ابن مسيك، 1992.

(32) تمام حسّان، **اللغة العربيّة معناها ومبناها**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973.

العربيّة وردت متفرقة بين أبواب متعدّدة من المنظومة النّحويّة العربيّة مثل باب الفعل وباب الفاعل وباب الابتداء وباب الاشتغال والتّقديم والتّأخير. التّناول اللّساني لبنيات الجملة كما نجده في أعمال الفاسي الفهري وداود عبده وخليل عمايره والأعمال الجامعية لكثير من الشّباب المغاربة يتمّ بشكل هيكليّ بنائيّ يربط بين الخصائص التّوزيعيّة والمقوليّة للباب المدروس والأبواب الأخرى التي تؤلّف معه البنية العامّة للجملة. وهكذا تمّت البرهنة النّظريّة على أهمّيّة الرّبط بين الجملة الفعليّة والجملة الاسميّة، والتّوحيد بين البنيات التي اعتبرت اسميّة في النحو العربي؛ كالجملة الموصولة والجمل الاستفهاميّة[33].

تاسعاً: اقتراح مفاهيم صورية جديدة أكثر وضوحاً ودقة مثل (التبئير/ التفكيك/ الخفق/ الإصعاد لدراسة الظواهر اللغوية التي تغطيها بعض/ المفاهيم القديمة مثل التقديم والابتداء وكثير مما جاء في باب الاشتغال).

وأخيراً لا بد أن نُزيل من الأذهان ما قد يُفهم من هذا الكلام وغيره مما قيل في سياق مغاير وما ردده البعض من كون اللّسانيّات جاءت لتعوض النحو. إن اللّسانيّات ليست بديلاً للنحو. النحو ضرورة تعليمية واللّسانيّات ضرورة علمية.

6. اللّسانيّات من تعدّد المذاهب إلى وحدة المبادئ

إنّ الحديث عن «اللّسانيّات» لا يعني البتّة أنّ التّصوّرات المقترحة في إطارها تشكل موضوع إجماع، أو اتّفاقاً تامّاً بين الباحثين اللّسانيّين. لقد عرف البحث العلميّ في مجال اللّغة منذ بداية القرن العشرين تطوّراً مذهلاً، يتعذّر معه الوقوف عند جميع جزئيّات هذا التّطوّر وتفاصيله. إنّ تعدّد التّصوّرات وتنوع الاهتمامات، وتكاملها، واختلاف المواقف، تجاه القضايا اللّغويّة المطروحة،

(33) نحيل هنا على أعمال الأستاذ الفاسي الفهري في إطار النّحو التّوليدي وبالخصوص: **اللّسانيّات واللغة العربيّة**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1984. لمزيد من التّفاصيل حول مساهمة اللّسانيّات العربيّة في دراسة اللّغة العربيّة انظر كتابنا: **اللّسانيّات العربيّة: دراسة في المصادر والأسس النّظريّة والمنهجيّة**، منشورات كلية الآداب، الدار البيضاء 1998، وكذلك: حافظ إسماعيلي علوي: **اللّسانيّات في الثقافة العربيّة المعاصرة: دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقّي وإشكالاته**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009.

يجعل من المسير في كثير من الحالات، الحديث عن اللّسانيّات وكأن الأمر يتعلّق بعلم واحد أو بتصوّر واحد متكامل ومتجانس.

1.6. اللّسانيات العامّة: دلالة المفهوم

تبيّن من خلال التّتبع الفاحص للقضايا والموضوعات التي دُرست تحت ما سُمّي باللّسانيّات، أنّها شملت البحث في المسائل اللّغويّة التّالية منفردة أو مجتمعة:

- البحث في قضايا تعريف اللّغة البشريّة وتحديد طبيعتها النّفسيّة والاجتماعيّة والسّيميولوجيّة والنّتائج النّظريّة المترتّبة على تحليلها من هذا المنظور أو ذاك.

- وصف البنيات اللّغويّة في مستويات التّحليل اللّغويّ، مثل الأصوات والصّرف والتّركيب والدّلالة والمعجم وما أضيف إليها حديثاً مثل التّداوليّات.

- البحث في المبادئ والمفاهيم العامّة المتحكّمة في مستويات التّحليل السّابقة؛ ووحداتها (وحدة صوتيّة/صرفة/مركّب/مكوّن/إلخ)، سواء من حيث تحديد طبيعتها، أو دورها، أو القيود عليها، أو من حيث علاقتها بوحدات المستويات الأخرى.

- الاتّجاهات العامّة للبحث اللّسانيّ الحديث أو المدارس اللّسانيّة.

- البحث في النّماذج اللّسانيّة[34]، سواء من حيث طبيعتها، وكيفيّة وضعها، أو من حيث القضايا النّظريّة و المنهجيّة المتعلقة ببنائها، وعلاقة كل ذلك بالألسن الطّبيعيّة المدروسة.

- البحث في المناهج التي ينبغي اتّباعها في دراسة اللّغة وطرائق اختبارها عمليّاً.

وقد تُقدّم اللّسانيّات في صورة أعمّ وأوسع وأشمل، فتعرض بعض الكتابات اللّسانيّة العامّة تصنيف اللّغات وتوزّعها جغرافيّاً، ومن حيث عدد المتكلّمين بها، ولمستويات اللّغة من أدبيّ ودارج.

(34) L. I. Revsin: *Les modèles linguistiques*, Paris, Dunod, 1968 (trad. du russe) V.O, 1967.

والمُلاحَظُ أن بعض القضايا التي كانت تدرس في بداية القرن العشرين في إطار اللّسانيّات، أصبحت اليوم، تتمتع باستقلال منهجيّ ونظريّ، مُحَدِّدَةً لنفسها ما يناسبها من مبادئ نظريّة عامّة وخصائص منهجيّة، مستقلة جزئيّاً أو كلّيّاً عن اللّسانيّات، كما هو الشأن بالنسبة إلى علم الاجتماع اللّغويّ، وعلم النّفس اللّغويّ. وأصبحت الجغرافية اللّسانيّة وصناعة الأطالس اللّغويّة جزءاً من دراسة مستقلّة كلّيّاً هي علم اللّهجات Dialectologie.

انطلاقاً مما تقدّم، يمكن التّمييز بين نوعين من المبادئ في اللّسانيّات العامّة:

أ- مبادئ مرتبطة بالإطار المنهجيّ العامّ للّسانيّات وتتعلق:

- بطبيعة البحث اللّسانيّ، ومجاله، وضبط موضوعه وهدف دراسته.

- علاقة النّظريّة العامّة المقترحة باللّغات الطّبيعيّة الخاصّة.

- التمييز بين البُعدين الآنيّ والتّطوّريّ في التّحليل اللّسانيّ.

- اعتبار اللّسان مستويات يتعيّن عدم الخلط بينها.

- نسقيّة اللّسان وما يترتّب عليها من مبادئ منهجيّة ومفاهيم إجرائية عامّة مثل: البنية، والعلاقات والقيمة وما شابه ذلك من مفاهيم استُعملت في إطار اللّسانيّات البنيويّة وغيرها.

ب- مبادئ مرتبطة بالإطار النّظريّ أو المنهجيّ لتصوّر لسانيّ معيّن، وهي في أصلها مفاهيم تصوّريّة، أو أدوات إجرائيّة أبانت عن فعاليتها في التّحليل اللّسانيّ، فأضحت مبادئ ثابتة تحدّد هذا الإطار النّظريّ أو ذاك. ومن هذه المبادئ، نذكر على سبيل التّمثيل لا الحصر:

- الثّنائيات اللّسانيّة: لسان/كلام، ودالّ/مدلول، ودلالة/قيمة، وغيرها من الثّنائيات.

- مفاهيم عامّة مثل: الوحدات الصّوتيّة (الفونيمات) والتّقابل والسمات الصّوتيّة المميّزة، وما شابه ذلك في التّحليل الصّوتيّ الحديث عند مدرسة براغ، ومستوى العبارة والمضمون في التّحليل الكلوسيماتي على سبيل التّمثيل لا الحصر.

- إجراءات التقسيم، والتوزيع، والاستبدال، والتعاقب، ومحوري التوزيع والاختيار في اللسانيات الوصفية، عموماً والمدرسة التوزيعية خصوصاً.

- مفاهيم تصورية ومنهجية عامة مثل: التمييز بين البنية السطحية والبنية العميقة، والتمييز بين القدرة والإنجاز والتحويلات واستقلالية التركيب وأولويته ومثل ذلك من المفاهيم الأساس في اللسانيات التوليدية.

- المبادئ الأساس في اللسانيات الوظيفية مثل:

- وظيفة اللغات الطبيعية الأساسية هي التواصل.
- موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم والمخاطب.
- النحو الوظيفي نظرية للتركيب والدلالة منظوراً إليهما من وجهة تداولية.
- يسعى الوصف اللغوي الطامح إلى الكفاية إلى تحقيق أنواع ثلاثة من الكفاية: الكفاية النفسية والكفاية التداولية والكفاية النمطية[35].

وبالإمكان الاستمرار في تقديم المبادئ الأساسية المتعلقة بهذا التصور أو ذاك، إلا أن ما يهمنا، هي المبادئ التي تشكل القاسم المشترك بين مختلف التصورات اللسانية الحديثة؛ أي تلك المبادئ التي يمكن عدُّها منطلقات مؤسسة لعلمية اللسانيات ذاتها، ومؤطرة لاستقلاليتها المنهجية. ولم يكن بإمكان البحث اللساني، بدون هذه المنطلقات أن يصل إلى ما هو عليه اليوم، من ضبط ودقة، سواء في أوروبا، على يد دو سوسير وأتباعه، أو في أميركا على يد بلومفيلد وهاريس Harris Zellig (1909-1992) وتشومسكي وغيرهم. وتبدو أهمية المبادئ الأساس في اللسانيات في كون وضعها لم يتم اعتباطياً. إنها ليست معطاة بشكل قَبْليّ وجاهز، وإنما تمّ بناؤها نظرياً واختبرت تطبيقياً.

(35) أحمد المتوكل: **الوظائف التداولية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985، ص10.

الفصل التاسع

اللّسانيّات العامّة : المادّة والموضوع

1. دو سوسير وتأسيس اللّسانيّات

لا يكتمل الحديث عن اللّسانيّات الحديثة ومناهجها، وتطوّر تصوّراتها وتفرّعها إلى مدارس واتّجاهات، من دون استحضار دور اللّساني السّويسري فردينان دو سوسير (1857-1913) في المسار الذي قطعته اللّسانيّات؛ حتى غدت نموذجاً له قيمته النّظريّة والمنهجيّة المتميّزة في حقل العلوم الإنسانيّة. فما عرفته اللّسانيّات وغيرها من المجالات اللّغويّة القريبة منها أو المتداخلة معها من تطورات، لم يكن ممكناً من دون المساهمة الإيجابيّة للمفاهيم والتّصوّرات الواردة في «محاضرات» دو سوسير، وهي المفاهيم والتّصوّرات التي غالباً ما أُعيد صوغها في مجالات معرفيّة أخرى، مثل علم النّفس، وعلم الاجتماع، والسيميائيّات، وفلسفة اللّغة، مما يجعل دو سوسير مَرْجِعاً لا مَحِيدَ عنه في التّساؤلات التي طُرِحَتْ في جلّ المجالات المرتبطة باللّغة وقضاياها. ويُمْكِنُ القول بأنّ «محاضرات» دو سوسير عرفت منذ ظهورها سنة 1916 مساراً متميّزاً ومكانة مرموقة قَلَّمَا حَظِيَ بِهَا عمل علميّ آخر طوال القرن العشرين.

لقد كان مؤلّف دو سوسير دروس في اللّسانيّات العامّة الذي نشر سنة 1916، بعد وفاته موضوع العديد من الدّراسات (لسانيّة وسيميائية وفلسفيّة وإبستيمولوجيّة)، أفضت كلّها إلى قراءات متنوعة ومختلفة لفكر دو سوسير وتصوّراته. وتُجْمِعُ كلّ هذه القراءات على خصب أفكار سوسير اللّسانيّة؛ وعلى

عبقرية الرّجل وحسّه العلميّ المتميّز، وريادة تصوّراته، ودورها الحاسم في تأسيس لسانيّات جديدة بكلّ المواصفات والمقاييس.

لقد فتحت «محاضرات» دو سوسير الباب أمام تطوّر نظري مذهل للّسانيّات أوّلاً وللعلوم الإنسانيّة ثانياً، بفضل المفاهيم الجديدة التي جاء بها. فجلّ التّصوّرات التي ظهرت في اللّسانيّات بعد دو سوسير، ترجع في مجمل أصولها الأولى إلى هذا الرّجل. وتتميّز التّصوّرات الواردة في المحاضرات بقوّتها على الثّبات والصّمود أمام تطوّر اللّسانيّات نفسها. ورغم التّحولات النّظريّة والمنهجيّة التي عرفها الدّرس اللّسانيّ الحديث، فإنّ لسانيّات دو سوسير ظلّت حاضرة. إنّها لا ترفض التّطوّر النّظريّ الجديد للّسانيّات، بل تسايره باعتبارها ما تزال قابلة لأن تدمج في إطار هذه التّصوّرات الجديدة. فماذا قدّم دو سوسير للّسانيّات الحديثة؟

بيَّنَ دو سوسير أنّ كثيراً من الممارسات اللّغويّة القديمة لم تَعُدْ مقبولة بالنّظر إلى مظاهر النقص المنهجيّ فيها من عدة جوانب، وبالتّالي يَتَعَيَّنُ البدء في البحث اللّسانيّ عن نهج جديد يمكّن من تأسيس علم لغويّ جديد على أسس نظريّة ومنهجيّة جديدة.

بدأ دو سوسير علميّة اللّسانيّات من حيث ينبغي أن يَبدأ التّأسيسُ النّظريّ لأيّ علم. فكلّ ممارسة فكريّة تُرِيدُ أن تَرْقَى للمستوى العلميّ الجادّ والمقبول المتمثّل في وَضْعِ نظريّة عامّة حول طرائقِ تناول القضايا اللّغويّة، يجب أن تسعى إلى تحقيق جملة من الشّروط المنهجيّة العامّة منها:

- التسليم بصحة بعض المفاهيم الأوّليّة والمُسَلَّمات الأساسيّة.
- تحديد طبيعة مجال البحث الاستقصائيّ وحدوده.
- دراسة هذا المجال من وجهة نظر معيّنة وبواسطة منهجيّة خاصّة(1).

ومعلوم لدى دارسي المناهج العلميّة، أنّ العلم لا يقوم إلّا إذا حُدِّد موضوعه أوّلاً، ثم المنهج ثانياً. يقال عادة إنّ «الموضوع هو الذي يخلق

(1) J. P. Corneille: *La linguistique structurale: Sa portée, ses limites*, Paris, Larousse, 1976, p. 21.

المنهج». أما في مجال اللّسانيّات فليس الأمر كذلك، نحتاج إلى تحديد المنهج أوّلاً، ثم الموضوع ثانياً. «إنّ وجهة النّظر هي التي تخلق الموضوع» بحسب تعبير دو سوسير : C'est le point de vue qui crée l'objet[2].

تحتاج اللّسانيّات عكس العلوم الأخرى إلى تعريف مُسْبَقٍ للموضوع الذي سَتَبْحَثُ فيه. ومن هذا المنطلق المنهجيّ، بدأ دو سوسير تحديد موضوع اللّسانيّات، مميّزاً بين مفهومين أساسيّين غالباً ما يختلطان في أذهان كثير من الدّارسين هما مفهوما : المادّة matière والموضوع objet[3]. وقد بيّن دو سوسير بوضوح أنّ مادة اللّسانيّات ليست ما تَعَارَفَ عليه القدماء حين حصروها في لغة النّصوص القديمة، ولغة الأدب الرّاقي المكتوب مع ما ترتّب على ذلك من إهمال واضح للهجات الحديث اليوميّ، وإقصاء متعمّد لها، ولباقي أشكال التّعبير البشريّ.

إنّ المادّة matière التي ينبغي أن ينصبّ عليها البحث اللّغويّ بحسب دو سوسير، يجب «أن تشمل جميع مظاهر الكلام البشريّ، سواء أتعلّق الأمر بكلام الشّعوب المتوحّشة، أم بكلام الأمم المتحضّرة، وسواء أتعلق الأمر بلغة العصور الكلاسيكيّة، أم بلغة عصور الانحطاط، مع الاهتمام ليس باللّغة الصّحيحة فقط، أو باللّغة الجميلة، وإنّما بكل أشكال التّعبير الإنسانيّ»[4]. وبهذا التّمييز يكون دو سوسير قد جعل اللّسانيّات تعانق الواقع اللّغويّ؛ من خلال العناية بلغة الحياة اليوميّة؛ مَهْمَا كانت قيمتها الحضاريّة والتّعبيريّة، ودرجة أدبيّتها ومستوى انتشارها.

يَتّضِحُ مِمّا تَقَدَّمَ، تأكيد دو سوسير على أهمّيّة اللّهجات وقيمتها في الدرس اللّسانيّ الحديث، وهو ما يُفَسِّرُ اهتمام اللّسانيّين المحدثين باللّهجات، واللّغات المحلّيّة إلى جانب اللّغات الرّسميّة، أو اللّغات الأدبيّة العتيقة. والاهتمام باللّهجات والحديث اليومي العاديّ، يعني اعتماد المستوى المنطوق

(2) De Saussure: *Cours de linguistique générale,* Edition critique préparée par Tullio De Mauro, Paris, Payot, 1974.

(3) Idem, p. 23.

(4) Idem, p. 20.

قبل المستوى المكتوب. كما حدّد دو سوسير دور اللّسانيّ الجديد في تناول هذه «المادّة». فليس للباحث اللساني أن يتناول المادّة اللّغويّة كما يحلو له، ولكنّ مهمته في نظر دو سوسير تتحدد فيما يلي:

- وصف كلّ الألسن التي يمكن الوصول إليها؛ ووضع تاريخ لها. وهذا يقتضي وضع تاريخ للأسر اللّغويّة؛ ومحاولة بناء اللّسان الأمّ la langue mère لكل أسرة أو فصيلة لغويّة.

- البحث عن القوى الموجودة forces en jeux بصفة دائمة وشاملة في كل لسان؛ مع استنتاج القوانين التي يمكن أن نردّ إليها بعض المظاهر الخاصّة في تاريخ لسان معيّن.

- تحديد اللّسانيّات وتعريفها بنفسها.

يَتَبَدَّى مما سَبَقَ، أنّ دور اللّسانيّ جديدٌ بالقياس على ما كان عليه الأمر قبل دو سوسير. كان اللّغويّ سابقاً يَدْرُسُ اللّغة لأسباب غير محدّدة سلفاً. ولم يكن وصف اللّسان وصفاً موضوعيّاً هدفاً في ذاته إلاّ في حالات نادرة، بل كان لأجل غايات أخرى؛ منها الدّينيّ، والأدبيّ، والفلسفيّ، والتّربويّ إلى غير ذلك من الغايات والأهداف التي حاول اللّغويّون القدماء الوصول إليها من خلال دراستهم للغة.

وساد الاعتقاد قبل دو سوسير؛ ومع التّاريخانيّين على وجه التّحديد، أنّ القوانين اللّغويّة عمياء؛ لا يُمْكِنَ التخلص منها، لأنّها قوانين طبيعية خارجة عن إرادة المتكلّمين بلسان معين. أما دو سوسير؛ فيرى أنّه بالإمكان الوصول إلى هذه القوانين التي يصفها بأنها **«قوى متضاربة»**، وذلك لوصفها والتقعيد لها. ومُهِمَّةُ البحث عن القواعد العامّة الرّاهنة المتحكّمة في اللّغة من المهامّ الجديدة للّسانيّ، لما سيكون لها من أثر إيجابي في تطوّر الدّرس اللّسانيّ الحديث، بالنّظر إلى الأبعاد المنهجيّة التي سيتخذها هذا المنحى في البحث اللّسانيّ بعد دو سوسير.

2. المأزق المنهجيّ

وبديهيّ أنّ اللّسانيّات لا تتناول الظّواهر اللّغويّة من كل جوانبها التّاريخيّة، والاجتماعيّة والنّفسيّة والحضاريّة. إنها تدرس اللّغة -باعتبارها وسيلة للتّواصل-

على أساس أنّها منظومة من المستويات الصّوتيّة والصّرفيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة. وبذلك يبتعد دو سوسير عن التّعريفات التي تجعل من الوظيفة الأساس للّغة تمثيلاً لبنية الفكر على نحو ما نجد في النّحو الفلسفيّ وأعمال اللّغويّين المقارنين.

إنّ تحديد اللّغة باعتبارها تمثيلاً لبنية الفكر يُعيد إلى الواجهة عدداً من الإشكالات التي ما فتئ الفكر الإنسانيّ مشغولاً بها منذ القديم. ويتعلّق الأمر بتحليل الأبعاد؛ والجوانب المتعدّدة للّغة في علاقتها بالفكر، وهي الإشكالات التي تستحضر القضايا المتداولة منذ قرون في إطار ما عرف بنظريّة المعرفة. ولم يكن ابتعاد دو سوسير عن هذا التصوّر وليد الصّدفة، وإنّما إمْعاناً منه وتأكيداً قويّاً على كون اللّسانيّات يجب أن تظلّ مستقلّة عن غيرها من العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة التي تهتمّ بدورها باللّغة، وتتناول بعض خصائصها الفرديّة أو النّفسيّة أو الاجتماعيّة أو الفكريّة.

من المعروف أنّ للّسانيّات بوصفها علماً يدرس اللّغة واللّغات، علاقات وثيقة بمجالات معرفيّة وعلميّة أخرى تتناول اللّغة موضوعاً للدّراسة. وبَيْنَ هذه العلوم واللّسانيّات نوع من التّقاطع والالتقاء في تبادل المعلومات والمعطيات والاستفادة منها. فاللّسانيّات ليست هي الإثنوغرافيا Ethnographie أو ما قبل التّاريخ Préhistoire، وهما معاً مجالان يهتمّان أيضاً باللّسان البشريّ. إنّ اللّسان في هذين العِلْمين ليس أكثر من وثيقة. واللّسانيّات غير الأنثروبولوجيا التي تهتمّ بدراسة الجنس البشريّ. وإذا كان اللّسان حدثاً اجتماعياً، فهذا لا يَعْني بالضّرورة إدْمَاجَ اللّسانيّات في علم الاجتماع. أمّا علاقة اللّسانيّات بعلم النّفس فهي أشدّ تداخلاً. فاللّسان في جوهره ذو طبيعة نفسيّة وكلّ ما في اللّغة مرتبط بشكل أو بآخر بالنّفس. فهل تكون اللّسانيّات هي علم النفس الاجتماعيّ؟ بالتأكيد لا. كما أنّ اللّسانيّات ليست هي الفيلولوجيا رغم العلاقة الوثيقة بينهما وما يمكن أن يقدّمه كل مجال للآخر من معلومات هامة. إنّ ما يهمّ اللّسانيّات يهمّ كل مهتم بمعالجة النّصوص من مؤرّخين وفيلولوجيّين وغيرهم[5].

إنّ تصوّرات دو سوسير الواردة في المحاضرات هي محاولةٌ جادّة وغير

(5) بنوع من التصرف: De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 21

مسبوقة لتأسيس لسانيّات علميّة مستقلّة عن المعارف والعلوم التي كانت تتجاذب البحث اللّغويّ في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. كان البحث اللّغويّ في الفترة المذكورة منقسماً بين رؤيتين:

- رؤية اجتماعيّة تعتبر اللّسان ظاهرة اجتماعيّة يجب تحديده على هذا الأساس، ممّا يجعل من البحث اللّساني بحثاً اجتماعيّاً بالدّرجة الأولى. هذه الرؤية يقودها كل من أنطوان مِيّيه وجوزيف فندريس Joseph Vendreyes[6].

- رؤية نفسية تعتبر أن لا مجال لتحقيق علميّة الدّرس اللّغويّ إلاّ من خلال اعتبار اللّسان ظاهرة نفسيّة، وبالتالي فالمباحث اللّسانيّة مباحث نفسيّة يؤطّرها علم النّفس. ويدافع عن هذه الرؤية فان جينيكن Van Ginneken[7] وسيشاي Sechehaye.

يرفض دو سوسير النّظرتين معاً بالنّظر إلى طبيعة المجال اللّسانيّ؛ لأنّهما لا تسمحان بتحديد الموضوع الخاصّ باللّسانيّات. فكلا الموقفين يُدْرِجُ اللّسانيّات إمّا ضمن العلوم الاجتماعيّة، وإمّا ضمن علم النّفس، بينما يؤكّد دو سوسير مبدأ استقلالية اللّسانيّات. ولهذه الغاية أعاد دو سوسير صياغة التّصوّرين الاجتماعيّ والنّفسي بتحديد موضوع الدّرس اللّغويّ للّسان نفسه، فإدماج هذين التّصوّرين في إطار رؤية اجتماعيّة نفسيّة أو على الأصحّ في إطار علم النّفس العامّ أو علم النّفس الاجتماعيّ Psychologie sociale. وفي ضوء هذين التّصوّرين ينتهي دو سوسير إلى أنّ اللّسانيّات تشكّل جزءاً من العلوم الاجتماعيّة، وتحديداً وعلم الاجتماع باعتباره علم قوانين الحياة للكائنات الواعية في المجتمع. غير أنّ علم الاجتماع هذا يجب أن يُفْهَمَ من وجهة علم النّفس، وبالتالي فإنّ علم النّفس هو الذي يحدّد المكانة المضبوطة للّسانيّات من دون أن تنصهر فيه.

هذا الموقف الموفّق بين علم الاجتماع وعلم النّفس يشكّل خلفيّة نظر دو سوسير للوقائع اللّغويّة على النّحو الذي سنفصّل فيه القول في الفقرات التّالية، لاسيّما فيما يتعلّق بعلاقة اللّسان بالكلام، أي الجمع التّصوّريّ بين ما هو ظاهرة اجتماعيّة (اللّسان) وما هو ظاهرة فرديّة (الكلام).

(6) Joseph Vendreyes: *Le langage*. Paris, Albin Michel, 1964/1923.

(7) Van Ginneken: *Principes de linguistique psychologique essai de synthèse*, Paris, Marcel Rivôre, 1906.

غير أنّ جديد دو سوسير في موضوع الدّرس اللّسانيّ لا يكمن في الجمع بين التّصوّرين السالفين فحسب، بل في تأكيده أنّ اللّسان موضوع اللّسانيّات هو شيء آخر غير الجانب الاجتماعيّ أو النّفسيّ فيه. إنّ اللّسان كما يقول «ماهيّة مجرّدة». والمجازفة التي قام بها دو سوسير بحثاً عن استقلالية اللّسانيّات، تتمثّل في كونه راهن على اعتبار اللّسانيّات جزءاً من علم لم يوضع بعد. فلم تكن السّيميولوجيا في محاضرات دو سوسير سوى مشروع فكريّ أو برنامج عمل. إنّ اقتراح السّيميولوجيا كمجال أوسع تنتمي إليه اللّسانيّات، محاولة فريدة ومتميّزة تنمّ عن عبقريّة منهجيّة كبرى للخروج باللّسانيّات من مأزق التأسيس، والابتعاد بها عن التّصوّرين الاجتماعيّ والنّفسيّ.

إنّ القراءات والتّخريجات الاصطلاحيّة الجديدة التي قام بها دو سوسير، سواء في تصوّره لعلاقة اللّسانيّات بالعلوم الاجتماعيّة، أو بالسّيميولوجيا، أو بالعلوم الأخرى التي تتقاطع واللّسانيّات، أو في تحديده الجديد لطبيعة اللّسان، أو غير ذلك من الاهتمامات النّظريّة التي تقدّمها محاضراته، إنّما تبيّن بوضوح حرص الرّجل على تأسيس إطار نظريّ متكامل وتامّ يتعلق باللّسانيّات وحدها؛ يضمن استقلاليّتها، ويساهم في وضعها العلميّ بشكل طبيعيّ يماثل ما حصل في علوم أخرى. وتُجَسِّد المحاضرات في الأخير وعي دو سوسير الكامل بالأسس الإبستيمولوجيّة التي أراد أن يبني عليها صرح هذه اللّسانيّات العلميّة الجديدة.

واستقلال اللّسانيّات لا يتأتّى منهجيّاً إلا بخلق إطار نظريّ عامّ يبدأ بتحديد الموضوع تحديداً منهجيّاً، يُمَكِّنُ من رسم الملامح الخاصّة باللّسانيّات، باعتبارها دراسة علميّة لموضوع اشتغلتْ به علوم أخرى ادّعَتْ عبر التّاريخ المعرفيّ أحقّيّتها به وصدارتها في الانكباب عليه؛ مثلما هي حال الدّراسات اللّغويّة القديمة، من نحو وبلاغة، وفقه لغة، وفيلولوجيا، وتحليل النّصوص.

واعتبار اللّغة موضوعاً مشتركاً تتجاذبه معارف أخرى، يستلزم البدء بتحديد موضوع اللّسانيّات، تحديداً يُبيِّنُ الملامحَ الخاصّةَ بهذا الموضوع. غير أنّ الموضوع في اللّسانيّات؛ لا يُقدّم نفسه بشكل تلقائيّ، إنّه نتيجة عمل تصوّريّ ومنهجيّ. **إنّ وجهة النّظر هي التي تخلق الموضوع وليس العكس** كما يقول دو

سوسير[8]. إنّ اللّغة تبدو لأول وهلة **«كتلة غامضة ومتراكمة لا رابط بينها»**[9]، وبالتّالي فإنّ أيّ تعامل معها بهذه الكيفية المبسّطة، يقود إلى عدم التّمييز بين اللّسانيّات، وغيرها من المعارف التي تتّخذ هي الأخرى من اللّغة موضوعاً لها.

للخروج من هذا المأزق المنهجيّ؛ يتعيّن الانطلاق من أرضيّة محدّدة، تكشف الطّبيعة التّصوّرية لموضوع اللّسانيّات، وتضمن استقلاليتها. يتعلّق الأمر **باللّسان** باعتباره معياراً ومقياساً تؤخذ في ضوئه باقي التّظاهرات أو الوقائع اللّغويّة[10]. ويبدو اللّسان من دون غيره ضمن هذه الوقائع غير المتجانسة، قابلاً لتحديد مستقلّ يسمح للفكر أن ينطلق من أرضيّة تصوّرية مقبولة[11].

لكن ما موضوع اللّسانيّات بالتّحديد؟ ما الذي يميّزه من اللّغة الموضوع في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الأخرى؟

يدلّ مفهوم الموضوع (objet) على عدّة معانٍ منها:

- غاية كلّ نشاط فكريّ.
- المعطيات التي يمكن عادة ملاحظتها أو تصوّرها. إنّ الأشياء لا توجد بالنسبة إلى إدراكنا كما هي في الواقع، وإنّما هي نتائج نشاط معيّن يحدّد بطريقة علميّة[12].

والمعنى المقصود في عبارة «موضوع اللّسانيّات» هو الغاية المتوخّاة من كلّ نشاط فكريّ. وفي هذا السّياق، فإنّ **اللّسانيّات تدرس اللّسان في ذاته ومن أجل ذاته**[13]. كما أنّ تحديد الموضوع يتعلّق كذلك بضبط المعطيات التي سيجري عليها التّحليل.

---

(8) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 23.

(9) Idem, p. 23.

(10) Idem, p. 23.

(11) Idem, p. 25.

(12) جون ديوي، **المنطق: نظرية البحث**، ترجمة زكي نجيب محمود، دار المعارف، القاهرة، 1960.

(13) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 317.

يميّز دو سوسير إذن، بين مادّة اللّسانيّات وموضوعها. تتشكّل المادّة كما رأينا من مجموع الأحداث اللّغويّة. أما الموضوع؛ فهو اللّسان في ذاته ومن أجل ذاته، وهي الفكرة التي ردّدها كلّ اللّسانيّين بعد دو سوسير، والتي نجدها في صيغ أخرى وعبارات مشابهة في مدارس لسانيّة مختلفة، لا تتبنى بالضرورة مواقف دو سوسير؛ على نحو ما فعل تشومسكي حين جعل من القدرة اللّسانيّة Compétence linguistique موضوعاً للّسانيّات[14].

بهذه الكيفيّة، ولهذه الاعتبارات المنهجيّة والتصوّريّة أصبح تحديد دو سوسير لموضوع اللّسانيّات قاعدة أساسيّة في التّفكير اللّساني الحديث. يقول مارتينيه: «إنّهم لا يدركون أنّه لا يمكن أبداً إدراك غير جانب واحد (من اللّسان)، يتغيّر بحسب الكيفيّة التي يتناولون بها هذا الموضوع. إنّهم لا يدركون أنّ الخطوة الأولى للفكر العلميّ الذي يستحقّ هذه الصّفة، هي بالضبط تحديد وجهة النّظر التي يتناول من خلالها الأحداث القابلة للملاحظة. ولكي نمارس اللّسانيّات، لا يتعلق الأمر بفحص أحداث اللّسان من دون منهج محدّد أو بحسب منهج مستخلص مصادفةً، مختلف من باحث إلى آخر، وإنما بتحديد مبدإ قائم في ذاته أوّلاً وقبل كل شيء، وزاوية تحديد رؤية لسانيّة خالصة، تسمح وحدها بضمان الوحدة الدّاخليّة للّسانيّات من جهة، وتضمن من جهة ثانية، الاستقلال النّهائيّ لهذا العلم ضمن علوم الإنسان الأخرى»[15].

3. تقسيم الظّاهرة اللّغويّة: لغة/لسان/كلام

يقوم مفهوم دو سوسير الجديد لموضوع اللّسانيّات على تصوّر جديد للظّاهرة اللّسانيّة من خلال تقسيمها إلى ثلاثة مكوّنات:

- اللّغة Langage
- اللّسان Langue
- الكلام Parole

(14) N. Chomsky: *Aspects de la théorie syntaxique*, Paris, Seuil, 1971/1965, p. 14.

(15) A. Martinet: *Au sujet des fondements d'une théorie linguistique*, Paris, Republications Paulet, 1968, p. 20.

ما خصائص كل مستوى؟ وكيف يشتغل؟ وما علاقته بالمكوّنات الأخرى التي تشكّل معه ما يدرج عادة في التّعبير العاديّ تحت اسم اللّغة؟

1.3. اللّغة(16)

اللّغة بمعناها العامّ مَلَكة تميّز الإنسان من غيره من الكائنات، وهي مَلَكة طبيعيّة في الإنسان تجعله قادراً على التعامل مع بني جنسه في المجتمع عن طريق نظام من الإشارات الصّوتيّة. وهي أيضاً مَلَكة شموليّة؛ بمعنى أنّ جميع الأفراد يملكونها من النّاحية البيولوجيّة في كل زمان ومكان، بصرف النّظر عن كلّ اختلاف عرفيّ أو أيّ اعتبار حضاريّ أو ثقافيّ خاصّ.

وتخرج اللّغة بهذا المعنى عن نطاق التّقعيد أو الضّبط أو التّحديد أيّاً كانت طبيعته على الأقلّ في الوقت الرّاهن. وقد يتمكّن العِلْمُ غداً من كشف أسرار هذه القدرة. وهناك شبه اتّفاق بين الدّارسين على أنّ هذه المَلَكة تشكّل في جوهرها نوعاً من الاستعداد الفطريّ عند الإنسان لاستعمال نظام صوتيّ من طبيعة أخرى داخل المجتمع. وتظهر آثار اللّغة بهذا المعنى وتَتَبَلْوَر se cristalliser في نطاق المستوى الثّاني من الظّاهرة اللّغويّة.

2.3. اللّسان

ما اللّسان؟ وما علاقته باللّغة؟ يجيب دو سوسير قائلاً: «بالنّسبة إلينا، يختلف اللّسان عن اللّغة. إنّ اللّسان ليس سوى جزء محدّد من اللّغة كظاهرة عامّة. إنّه نتاج جماعيّ للّغة ومجموعة من الاصطلاحات اللّازمة التي يُكَيِّفُها المجتمع ليسمح للأفراد المتكلّمين بممارسة هذه المَلَكة»(17). من هذا المنطلق، يُعْتَبَر اللّسان صورة عن اللّغة وجزءاً أساسيّاً منها. وتختلف اللّغة عن اللّسان في كونها ماهيّة لا يمكن التقعيد لها. إنّ نظرة إلى اللّغة في كلّيّتها تبيّن أنّها متعدّدة الأشكال multiformes وغير متجانسة Hétérogène تندرج ضمن عدة مجالات فيزيائيّة وفيزيولوجيّة ونفسيّة. إنّها تنتمي إلى المجال الفرديّ كما إلى الجانب الجماعي، وهي غير قابلة لأن تصنّف في أيّ نوع من الوقائع البشريّة، لأنّنا لا

---

(16) Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 25 et suivantes.

(17) Idem, p. 25.

نستطيع الكشف عن وحدتها[18]. «وحيثما يَتِمُّ النّظر إلى الظّاهرة اللّسانيّة، فإنّها تقدّم هويّة مزدوجة، فهي:

- فيزيولوجيّة ونفسيّة في الوقت ذاته.
- باعتبارها ظاهرة نفسيّة. فهي ظاهرة إدراكيّة وتصوّريّة في الوقت ذاته.
- إنّها تقتضي في الوقت نفسه مؤسسة اجتماعيّة راهناً وتطوّراً ثابتاً»[19].

أما اللّسان فشيء منتظم يُمْكِنُ التّقعيد له وضبطه في مختلف المستويات (صوت/ صرف/ تركيب). إنّ اللّسان وحده قابل لأن يكون موضوعاً Objectivable. ويقوم اللّسان على أرضيّة اللّغة مع وجود طرف آخر هو المجتمع. فالمجتمع يلعب دوراً أساسيّاً في تكييف المَلَكة اللّغويّة مع اللّسان في المحيط الاجتماعيّ الذي يوجد فيه الإنسان. وإذا كانت اللّغة قدرة، أو موهبة، أو استعداداً بيولوجيّاً، أو تكوينيّاً، فإنّ اللّسان شيء مُكْتَسَب وليس ظاهرة غريزيّة مثل المشي. إنّ المجتمع يسمح للفرد المتكلّم ببلورة الاستعداد اللّغويّ في إطار جماعيّ مشترك.

إنّ وظيفة اللّغة عند الإنسان ليست طبيعيّة كما يظهر من خلال عمليّة الكلام عند الفرد. إنّ جهازنا الصّوتيّ لم يوضع أصلاً للكلام مثلما وُضعت الأرجل للمشي[20]. ما يبدو طبيعيّاً عند الإنسان في مسألة اللّغة بمعناها العامّ، هو قدرته بفضل الاستعداد الأوّلي على تكوين لسان خاصّ بالمحيط الاجتماعيّ الذي يعيش فيه؛ أي القدرة على تحويل المَلَكة إلى نظام من العلامات المعبّرة عن أفكار متميزة[21] داخل المجتمع، الذي يحتاج فيه هذا الإنسان، لأسباب اجتماعية وغيرها، إلى تبادل خبراته وتجاربه، ونقل أفكاره إلى غيره، أو لنقل

---

(18) سوسير، المرجع السابق، ص25.

(19) Sémir Badir: *Saussure: langue et représentation*, Paris, L'Harmattan, 2001, p. 16.

(20) يُشير دو سوسير إلى موقف اللّسانيّ الأميركيّ ويتني Whitney من هذه المسألة. يرى ويتني أنّ استعمالنا للجهاز الصوتي تمّ بمحض الصدفة ولتسهيل الأمور على الإنسان ليس غير (دو سوسير: CLG، ص26).

(21) Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 26.

بكلّ بساطة إنّ اللّسان أداة التّواصل بين أفراد المجتمع. إنّ وجود الإنسان ككائن لغويّ بهذه الكيفيّة هو الأمر الطبيعيّ.

3.3. لسان-كلام

إضافة إلى التّمييز بين اللّغة واللّسان، ميّز دو سوسير بين اللّسان والكلام وهو التّمييز الذي يكتسي أهمّيّة منهجيّة كبيرة جدّاً، لأنه سمح بتحديد موضوع اللّسانيّات تحديداً دقيقاً. ويعدّ التّمييز بين اللّسان والكلام؛ وما تفرّع منه من نتائج منهجيّة ونظريّة هامّة، بمثابة مصادرة axiome أوّلية غير مسبوقة في الفكر اللّساني، وغير متفرّعة عن غيرها من المفاهيم الأوّليّة الواردة في المحاضرات. إنّ اللّسان نسق لغويّ قائم في ذاته، وخاصّ بكل مجتمع على حدة، نقول «اللّسان العربيّ» و«اللّسان الفرنسيّ» و«اللّسان الألمانيّ» وهكذا.

واللّسان في نظر دو سوسير مجموعة من العلامات العُرْفِيّة والاصطلاحيّة التي يتمّ التّوافق حولها ليستعملها أفراد المجتمع للتّعبير عن حاجاتهم اليوميّة العامّة والخاصّة. إنّ اللّسان مؤسّسة اجتماعيّة، وهو نتاج ما هو جمعيّ Collectif بالمعنى الذي يعطيه عالم الاجتماع الفرنسيّ دوركهايم Emile Durkheim (1857-1917) لمفهوم الجمعيّ، ولا دخل للفرد المتكلّم فيه. إنه لا يَخْلُقُهُ ولا يُغَيِّرُهُ، وإنّما يأخذه قَسْراً عن الجماعة التي يعيش فيها. يقول دو سوسير: «ليس **اللّسان من وظائف الفرد المتكلّم، بل هو أثر يسجّله بكيفيّة سلبيّة**»[22]. يتكلّم الفرد لسان مجتمعه من دون أن يكون له دخل في اختياره، كما يتعلّمه بطريقة سلبية. إنه يُفْرَضُ عليه اجتماعيّاً. إنه يتلقاه من دون تدخّل كبير أو جهد. يصف دو سوسير وضع اللّسان داخل العشيرة اللّغويّة كما يلي:

- إنه كنز مستودع داخل عقول الأفراد الذين يتكلّمون لساناً واحداً. ويظهر هذا الكنز باستعمال الأفراد له.

- يوجد اللّسان عند أفراد الجماعة اللّغويّة الواحدة على شكل مجموعة بصمات empreintes موضوعة في كلّ عقل.

(22) Idem, p. 30-31, 38.

- اللّسان «موجود على شكل مجموعة من الصّور الكلامية المختزنة عند جميع الأفراد»[23].

إنّ هذا «الكنز» وهذه «البصمات» و«الصُّوّر الكلاميّة» لا يملكها فرد دون غيره، وإنّما هي ملك لجميع مستعملي هذا اللّسان قاطبة. إنّ اللّسان شبيه بقاموس يتقاسم الأفراد نُسَخاً متطابقة منه مع بقاء المضمون شيئاً مشتركاً بين جميع الذين يملكون نسخة من هذا القاموس. لكن هذا القاموس في الوقت ذاته يكون خارج إرادتهم، حين لا يستعملونه. ويرسم دو سوسير هذه الأفكار المعبّر عنها بشأن اللسان كما يلي:

1+1+1+1+. . 1.= 1 (نموذج جمعي)[24].

يشير الرقم النّهائيّ إلى النموذج المشترك بين جميع المتكلّمين.

وخلافاً للّسان، فإنّ الكلام نشاط لغويّ فرديّ، يتعلّق بتنفيذ قواعد نظام لسان معيّن. وبعبارة أخرى، فإنّ أداء المتكلّم لنظام اللّسان العامّ والمشترك وإنجازه له، هو الذي يسمّيه دو سوسير كلاماً. إنّ الكلام قائم على إرادة الفرد ومتعلّق بذكائه؛ لأنه يقوم بتركيبات يستخدمها وفق ما يوفّره اللّسان من إمكانات التّعبير عن الأفكار والأغراض الشّخصيّة. والكلام لا يوجد بالطّريقة نفسها عند المتكلّمين بلسان معين، وإنّما يختلف من شخص لآخر. فلكلّ واحد طريقته الخاصّة في أداء قواعد اللّسان المشترك. يشعر المرء وهو يتكلّم بنوع من الحرّية في القيام بعمليّة الكلام. نحن نتكلّم متى شئنا، لأن الأمر يتعلق بنا دون سوانا. ولا يتحكّم المجتمع في عمليّة الكلام الفرديّة، لأنه يَمْلِكُ فقط سلطة مراقبة مَا هو عامّ ومشترك من قواعد النّظام اللّغويّ بين الأفراد. إنّ اللّسان ظاهرة اجتماعيّة قسريّة وملزمة للجميع، وكلّ خروج على النّظام اللّغويّ العامّ يُعَرِّضُ المتكلّم لجملة من الصّعوبات الاجتماعيّة المتعلّقة باندماجه داخل البنية الاجتماعيّة العامّة ذاتها. فالجنون والاختلال العقليّ بالنسبة إلى المجتمع مظاهر نفسيّة تُدْرَكُ آثارها اللّغويّة في المرحلة الأولى بالأهمّيّة نفسها التي تُدْرَكُ بها مظاهرها المرضيّة

(23) Idem, p. 30.
(24) Idem, p. 38.

الأخرى. وفي كل الثقافات يكون الإحساس بالانزياح والخروج عن النّمط اللّغويّ المشترك (المألوف) بداية للتّمييز بين العاديّ والمرضيّ Pathologique بين أفراد المجتمع. ويُمْكِنُنَا أن نَنْظُرَ إلى الشّعر والإبداع الفنّيّ الأدبيّ عموماً، باعتبارهما قُدراتٍ لغويّةً خارقةً للمألوف والمُشْتَرَكِ بين عامّة النّاس.

وعلى عكس التّرقيم السّابق يبيّن ترقيم عمليّة الكلام تعدّداً لامحدوداً:

(1+ '1+ ''1+ '''1 . . . .)

دون أن ينتهي التسلسل إلى شيء مشترك، إذ لا حصر ولا حدّ لطريقة المتكلّمين في تأدية نظام قواعد لسانهم.

والتّمييز بين اللّسان والكلام، بحسب دو سوسير يُفْضِي إلى التّمييز بين ما هو جماعيّ وما هو فرديّ. فاللّسان شيء جماعيّ والكلام شيء فرديّ، وبين ما هو جوهريّ وما هو ثانويّ وعَرَضيّ. فاللّسان جوهريّ والكلام ثانويّ وعَرَضيّ. إنّ دراسة اللّغة كظاهرة عامّة تشمل جانبين متميزين ومتكاملين في الوقت ذاته:

- أحدهما أساسي موضوعه اللّسان la langue الذي هو اجتماعيّ في جوهره ومستقلّ عن الفرد.

- وثانيهما ثانويّ موضوعه الجانب الفرديّ للّسان وهو الكلام la parole[25].

لكن كيف يمكن البرهنة واقعيّاً على وجود هذا التّمييز النّظريّ بين اللّسان والكلام؟ يقدم لنا دو سوسير بعض الأمثلة التي تُبَيِّنُ بوضوح صحّة ما ذهب إليه من تمييز بين اللّسان والكلام كما سبق تعريفهما أعلاه.

يتعلّق المثال الأوّل بحالة المريض بالأفازيا Aphasie وهي الاضطرابات الحاصلة في عملية اللّغو أو فقدان القدرة على الكلام كلّيّاً أو جزئيّاً. وفي الحالة القصوى والمتقدمة للأفازيا أي «فقدان القدرة على الكلام كلّيّاً»، يظلّ المريض متمكّناً من شفرة code اللّسان، أي نظام القواعد العامّة التي يسير عليها اللّسان. فالمريض لا يستطيع الكلام، ولكنه مع ذلك يظل قادراً على فهم ما يَسْمعه من

---

(25) Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 14.

كلام الآخرين، وما يُوَجّهُ إليه من خطابات. وبإمكان المرضى بالأفازيا إجابة مخاطبيهم بإشارات اليد أو الرأس أو بباقي وسائل التعبير الممكنة مما يعني أنّهم يدركون ويفهمون ما يوجّه إليهم من خطابات.

هذا الوضع يعني بكل بساطة، أنّ المريض بالأفازيا يفقد الكلام [بالمعنى الدو سوسيري] أو القدرة عليه، ولكنه يظلّ محتفظاً باللّسان باعتباره مجموعة من القواعد المجردة المشتركة الموجودة في دماغه[26]. والمثال المشار إليه يُوَضِّحُ عمليّاً، أنّ ثمّة فرقاً بين اللّسان والكلام، اللّسان كنظام موجود في أدمغة النّاطقين به، والكلام باعتباره استعمالاً فرديّاً وتنفيذاً خاصّاً للنّظام اللّغويّ العامّ المشترك.

أما المثال الثّاني الذي قدّمه دو سوسير للبرهنة على الفرق القائم نظريّاً بين اللّسان والكلام، فيتعلّق بما يسمّى بالألسن الميتة[27] Les langues mortes. فمن المعروف، أنه باستطاعتنا أن ندرس نظام قواعد الألسن الطّبيعيّة القديمة[28]، مثل المصريّة القديمة والآشوريّة والسريانيّة والكلدانيّة وغيرها من الألسن التي غالباً ما تُوصَفُ بأنّها ألسن ميتة، لأنها لا تَمْلِكُ الجماعةَ البشريّةَ الفِعْلِيّة التي تَتَكَلَّم بها وتستعملها بطريقة عاديّة. فلو كان اللّسان والكلام شيئاً واحداً لما استطعنا تعلّم قواعد هذه الألسن، ولَوَجَبَ أن تنقرض هذه الألسن من الوجود بزوال من كان يتكلّمها.

3.4. بين اللّسان والكلام

رغم ما يبدو في ثنائيّة دو سوسير من استقلال شكليّ بين اللّسان والكلام، فإنّ العلاقة بينهما علاقة تلازم. إنّ «**اللّسان ضروريّ ليكون الكلام، لكنّ الكلام بدوره لازم ليكون اللّسان. وكما أنّ اللّسان ضروريّ لكي يُحدث الكلام آثاره ويكون ملموساً، فإنّ الكلام ضروري لانتظام اللّسان**»[29].

ولم يكتفِ دو سوسير بالإشارة إلى التّرابط المتبادل بين اللّسان والكلام، بل

---

(26) Idem, p. 15.

(27) Idem, p. 31.

(28) طبعا يمكن دراسة الألسن الميتة متى توافرت المواد اللازمة أو المخطوطات لذلك مثل النّقوش أو الكتب أو أي وسائل أخرى يمكنها أن تحتفظ بنظام هذه القواعد.

(29) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 37.

أضاف إلى ذلك شيئاً بالغ الأهمّيّة، هو أنّ الكلام أسبق تاريخيّاً من اللّسان وأساسيّ لتفسير كلّ ما يطرأ عليه من تغيّرات وتطوّرات. فكلّ ما هو تطوّريّ وحركيّ في اللّسان لا يكون كذلك إلا بفضل الكلام. وفي كل الألسنة نجد أن كثيراً من التّعبيرات اللّغويّة، إنّما يكون مصدرها النّشاط اللّغويّ الفرديّ، ثم تتبنى الجماعة اللّغويّة هذه التّعبيرات الجديدة والاصطلاحات الفرديّة[30]. كلّ هذا يعني في تصوّر دو سوسير «أنّ أيّ تجديد لغويّ هو قبل كلّ شيء تجديد فرديّ». وينتهي دو سوسير إلى نتيجة حاسمة، تتمثل في أنّ «الكلام هو الذي يطوّر اللسان وينمّيه»[31].

ونظراً إلى طبيعة الفروق والخصائص المميّزة لكلّ من اللّسان والكلام، فإنّه من الممكن في تصوّر دو سوسير أن نضع لكلّ من اللّسان والكلام علماً خاصّاً به. ومن المحتمل وجود علمين متميّزين: علم خاصّ باللّسان وعلم خاصّ بالكلام يطلق عليهما دو سوسير:

«لسانيّات اللّسان linguistique de la langue

ولسانيّات الكلام[32] linguistique de la parole»

إنّ اللّسانيّات الجديدة التي أقام دو سوسير صرحها، تتخذ من اللّسان موضوعاً وحيداً لها، كما يتجلّى من قولته الشهيرة التي خُتِمَت بها المحاضرات: **«إنّ الموضوع الوحيد والحقيقيّ للّسانيّات هو اللّسان في ذاته، ومن أجل ذاته»**[33]. ولهذا القول كما سبقت الإشارة إلى ذلك قيمة إبستيمولوجيّة على قدر كبير من الأهمّيّة في تاريخ الفكر اللّغويّ الجديد، لأنّه حدّد بالضبط الإطار النّظريّ والمنهجيّ الخاصّ باللّسانيّات؛ ومكّنها من الاستقلال بنفسها عن غيرها من العلوم والدّراسات اللّغويّة.

5.3. حدود الموضوع في اللّسانيّات

رغم تميز دو سوسير المنهجيّ بين «لسانيّات اللّسان» و«لسانيّات الكلام»،

(30) Idem, p. 37.
(31) Idem, p. 37.
(32) Idem, p. 36.
(33) Idem, p. 317.

لم يعرف عنه أنّه تحدّث عن لسانيّات الكلام. وإذا كان دو سوسير يؤكّد فعلاً إمكانيّة قيام علم لسانيّ خاصّ بالكلام، فلماذا لم يهتمّ به، بالرغم من العلاقة القائمة بينه وبين اللّسان، على الأقلّ من الناحية النّظريّة؟ لماذا تمّ إقصاء الكلام رغم الأهمّيّة التي يكتسبها في النشاط اللّغويّ عند الإنسان؟ ربما يكون رفض دو سوسير للكلام كموضوع للدّرس اللّسانيّ الذي كان بصدد التأسيس له باعتباره (الكلام) عمليات إنجازيّة فرديّة ذات طبيعة غير متجانسة وغير قابلة للتّصنيف، وغير خاضعة لأي تقعيد.

وقد أدرك اللّسانيّ الفرنسيّ أندريه مارتينيه (1908–1999) الإشكال الذي تُثيره العلاقة بين اللّسان والكلام، وما يترتب عليها من التباس وغموض في فهم أفكار دو سوسير وتوظيف مغلوط لها. يقول مارتينيه في هذا الصّدد: «إنّ التمييز الضّروريّ جدّاً بين اللّسان والكلام يمكن أن يفهم منه أنّ الكلام يملك تنظيماً Organisation مستقلاً عن نظام اللّسان، مما يجعلنا نتصوّر وجود علم خاصّ بالكلام مقابل علم خاصّ باللّسان. غير أنه يجب الاقتناع بأنّ الكلام لا يعمل سوى على تحقيق نظام اللّسان؛ إذ لا يمكن الوصول إلى معرفة اللّسان إلّا بالكلام والسّلوك الذي يحدّده عند المتكلّمين»[34].

ومن الواضح جدّاً؛ أن لا أحد يشكّ في القيمة النّظريّة للبحث في أهمّيّة الكلام؛ ودوره الأساس في العمليّة اللّغويّة. ودراسة الكلام هي أوّلاً دراسة تساعدنا على الفهم العميق للّسان وكيفية اشتغاله وتحقّقه في العشائر اللّغويّة بشكل عاديّ وطبيعيّ، كما نبّه إلى ذلك مارتينيه. إلّا أنّ دور الكلام وقيمته؛ ينبغي أن لا يظلّ محصوراً في تبعيّته، وخضوعه المطلق للّسان، كما يفهم من قول مارتينيه السّابق، بالرّغم من الرّوابط المتينة نظريّاً وعمليّاً بين هذين الجانبين الأساسيّين في النّشاط اللّغويّ البشريّ. إنّ إهمال الكلام وإقصاءه من حيّز الدّراسة اللّسانيّة هو في الواقع إهمال لجوانب هامّة وضروريّة في كلّ عمليّة تواصل عند الإنسان.

ويرى شارل بالي Charles Bally (1865-1947) أنّ دو سوسير بالغ في

(34) André Martinet: *Eléments de linguistique générale*, Paris, Armand Colin, 1974/1960, p. 25.

إعطاء كل هذه الصّيغة الذّهنيّة للّسان بجعله نتيجة الحكمة الجمعيّة. ويضغط هو على فكرة اللّغة العاطفيّة langage affectif كما يسميها وفي رأيه أنّ هناك صراعاً دائماً بين كلام الأفراد والنّظام اللّغويّ الذي لا يمكن أن يُرضي الجميع. فاللّغة المنظّمة العاديّة الثّقافة تكفي الرّغبة في نقل الأفكار وفهمها، لكنّ الكلام من ناحية أخرى، يقف في خدمة الحياة العمليّة، فأمّا ما يعبّر الكلام عنه فهو الإحساس والرّغبة والعمل. وإنتاج الكلام عاطفيّ ذاتيّ في الغالب. وفي هذه الحرب الحصاريّة بين الكلام واللّغة ينجح الكلام دائماً في إدخال بعض جنوده إلى القلعة المحاصرة، هذه الجنود هي الكلمات أو الصّيغ المتحدّثة بالعاطفة[35]. فاللّسان يكفي إلى حد معيّن لنقل الأفكار والتّجارب المعيشة من قبل المتكلّمين، لكن الكلام من ناحية ثانية، يستعمل في الحالات الخاصّة لدى كل فرد على حدة للتعبير عن مواقف ليست بالضرورة جمعيّة أو مشتركة داخل الثّقافة الاجتماعيّة الواحدة، بسبب ما يمكن أن يشعر به من أحاسيس وما يعبّر عنه من رغبات في لحظات العمل أو الانفعال. إنّ إنتاج الكلام عمليّة عاطفيّة تعبيريّة بامتياز.

لقد قطع البحث في مجال فهم آليّات الكلام عند الأفراد أشواطاً هامّة تمكّن فيها من ضبط كثير من قواعد الكلام التي كانت تبدو في نظر العديد من اللّسانيّين المحدثين أمثال دو سوسير ومارتينيه وغيرهما غير قابلة للملاحظة الموضوعيّة، بَلْهَ التّفسير العامّ والتقعيد الكلّيّ لها.

ومع تقدّم البحث اللّسانيّ في القرن العشرين تغيّرت نظرة اللّسانيّين إلى مفهوم الكلام ولم يعد ينظر إليه على أنّه مجال غير متجانس وخاصّ بما هو فرديّ وبما لا يمكن التّحكّم فيه أو التّنبؤ به[36]. لم يعد الكلام «ذلك العنصر المرتبط بالفاعل النفسيّ المتحرّك على الدّوام، الخاصّ بكل فرد وغير القابل للإدراك»[37]. إنّ آليّات الكلام أصبحت خاضعة للتّقعيد -ولو بدرجة أقلّ من

---

(35) عن تمام حسّان: **مناهج البحث في اللغة**، ص37، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1974/ 1957. وكذلك كتاب شارل بالي، **اللغة والحياة**، بالفرنسية، ص23-24.

(36) سنعرض لهذه المسائل في كتابنا المقبل **اتجاهات البحث اللساني الحديث**، لا سيما ما يتعلق بالبحث التداولي القولي.

(37) *Langue Française*: Paris, Didier-Larousse, N° 9-Fév, 1972, p. 12.

اللّسان- لا سيّما ما يتعلّق ببعض القواعد النّوعيّة المندرجة في ما أصبح يعرف بعمليّة القول Enonciation[38].

ومعلوم أنّ بعض روّاد نظريّة القول/التلفّظ حاولوا الكشف عن مظاهر تدخّل الفرد المتكلّم الدّائم والمستمرّ في إنتاج الكلام؛ أو الخطاب على نحو ما تجد في أعمال شارل بالي وياكبسون وبنفينيست وفاينرايخ Weinreich (1926-1967) وكوليولي Culioli (1924-) وبوتييه Pottier (1924-) وغيرهم. ويسعى تحليل آليّات الكلام عند المتكلّم إلى الكشف المزدوج عن المتكلّم والآخر (السّامع) على نحو ما تكشف عنه دراسات ياكبسون عن الواصلات Shifters وبنفينيست حول الضمائر[39]. وتمثّل أعمال هؤلاء اللّسانيين مرحلة لسانيّة جديدة تجاوزت حدود البحث في آليّات اللّسان إلى البحث في آليّات الكلام وما يصاحبه من إنجازات لغويّة. ويعكس هذا الانتقال تحوّلاً هامّاً في الدّرس اللّسانيّ الحديث نحو المزيد من توسيع حدوده.

وتبعاً لذلك كلّه، أضحت مسألة اعتبار الكلام شيئاً ثانويّاً في الدّرس اللّسانيّ المعاصر قضية متجاوزة. فالكلام قابل لأن يُقعّد له هو الآخر على مستوى الاستعمال الجماعيّ، وهو موضوع الأبحاث اللّغويّة التي تندرج اليوم في إطار ما يعرف بالتّداوليات la pragmatique وفي بعض فروع ما يسمّى بتحليل الخطاب.

ومهما قيل بشأن ثنائيّة لسان-كلام، فقد كان لها تأثير كبير في مسار الفكر اللّسانيّ الحديث وتقدّمه. كانت ثنائيّة دو سوسير مثلاً أساس التّقسيم والتّمييز الذي وضعه تروبتسكوي (1890-1938) بين الفونيتيك والفونولوجيا. وطوّر اللّسانيّ الدانماركي لويس هيلمسليف (1899-1965) تصوّراً مماثلاً أكثر تجريداً

---

(38) انظر مزيداً من التوضيحات المتعلقة بهذا التصور في كتابنا المقبل **اتجاهات البحث اللساني الحديث.**

(39) E. Benveniste: «Nature des pronoms», *in Problèmes de Linguistique générale*, 1966.
يتعلق مفهوم Shifters الذي وضعه ياكبسون بكلّ العناصر اللّغويّة التي لا تملك في ذاتها دلالة محددة مثل الضمائر أنا/أنت/نحن/إلخ التي تحيل على كلّ متكلم ومخاطَب. انظر:
Jakobson: *Essais de linguistique générale*, t.1, Paris, Minuit, 1963.

ودقّة انطلاقاً من تصوّر دو سوسير، سنعرض لبعض ملامحه خلال حديثنا عن موقع هيلمسليف في الدّرس اللساني البنيوي الحديث[40]. ومعلوم أن تشومسكي وضع في إطار النّحو التّوليديّ ثنائيّة قدرة-إنجاز وهي قريبة جداً من ثنائية دو سوسير من عدة جوانب.

وبصفة عامّة، يتّفق كل اللّسانيين البنيويّين على القول إنّ موضوع اللّسانيّات الوحيد هو اللّسان وليس شيئاً آخر. والاختلافات الحاصلة تتعلّق، إما بطبيعة هذا اللّسان، وإما بتغيير المصطلحية المتعلّقة بتسمية اللّسان مثل شفرة/ فنّ Code: خطاطة Schéma أو المعيار norme مثلما هو الشأن عند هيلمسليف وتسمية كلام بخطاب discours عند العديد من اللّسانيّين أمثال غيّوم Gustave Guillaume (1883-1960) وبنفينيست.

(40) حول آراء وتصورات هيلمسليف اللّسانيّة، يمكن الرجوع إلى: مصطفى غلفان، **اتجاهات البحث اللساني الحديث**، (قيد الإعداد).

الفصل العاشر

نظريّة العلامة اللّسانيّة

1. النّظريّة الاسمويّة

ساد الدّراسات اللّغويّة القديمة حول العلامة اللّسانيّة، تصوّر منطقي فلسفيّ، يعدّ أرسطو رائده. وتمّ تبنّيه من قبل كثير من فلاسفة القرون الوسطى وما بعدها. ومؤدّى هذا التصوّر، أنّ اللّسان لا يتعدّى كونه حشداً من الأسماء التي تقابل عدداً مماثلاً من الأشياء في العالم الخارجيّ. ويعرف هذا التّصوّر بالاسموي Nominalisme. أي أنّ اللّسان لا يزيد على كونه يربط أسماء بأشياء. ومن دون الدخول في تفاصيل نظريّة أرسطو حول الإشارة، نشير إلى أنّ هذه الأخيرة ليست سوى حالة خاصّة من الرّمز، وتتكوّن من ثلاثة أبعاد هي:

- الصّوت.
- الشيء الموجود في العالم الخارجي.
- الحالة النّفسيّة عند الإنسان التي يتم من خلالها الربط بين الصّوت والشّيء. وهي حالة عامّة مشتركة بين جميع البشر.

ويتمّ الرّبط بين الإشارة والشيء الخارجيّ عبر ثلاث علاقات تختلف في طبيعتها وغاياتها وهي:

- العلاقة بين الصّوت والمعنى وهي علاقة لغويّة بامتياز.
- العلاقة بين الاسم والشّيء وهي علاقة ذات طبيعة أنطولوجيّة.

- علاقة الاسم بالمسمّى تجمع بين الشّيء وما يقال عنه، وهي علاقة منطقيّة (بين المسند والمسند إليه)[1]. فالمعنى من وجهة نظر أرسطو مطابق للعقل بمعناه العام (إدراك/ تصوّر/ فكر).

إنّ اللّغة في هذا التّصوّر لا تعدو كونها قائمة أو حشداً Nomenclature من الألفاظ التي ترتبط بأشياء العالم الخارجيّ. ويرسم دو سوسير تصوّر الاسميّة للّسان كما يلي[2]:

أسماء { أ ← * ، ب ← * ، ج ← * } أشياء

يرفض دو سوسير التّصوّر الاسميّ للّسان لعدّة أسباب منها:

- تفترض النّظريّة الاسميّة وجود أفكار قَبْليّة جاهزة سابقة في الوجود على الكلمات، أي أنّ الفكر يوجد باستقلال عن اللّسان. غير أنّنا إذا تفحّصنا الألسن البشريّة وجدنا الأمر غير ذلك. لو كان الأمر كما تقول الاسميّة، لما وجب أن تختلف الألسن في استعمال الألوان والأزمنة والصّفات وتحديد المجالات المتعلّقة برؤية العالم الخارجي وإدراكه لغويّاً.

- إنّ اللّسان لا يتكوّن من الأسماء فقط، ففي كلّ لسان، ثمّة مقولات تركيبيّة أخرى لا تقلّ أهمّيّة عن الأسماء ولها الدّور والوظيفة نفسهما، مثل: الفعل والحرف وباقي الأدوات.

- يختلف إدراك الأشياء الموجودة وتصوّرها لغويّاً من لسان إلى لسان، بحسب ما يتيحه كلّ لسان لمستعمليه من إمكانات لغويّة، تسمح بإدراك العالم

---

(1) Aristote: *Organon2: de l'interprétation* paragraphe, 16a, Paris, Vrin, 1977, trad. J. Tricot, p. 77 et suivantes.

(2) عن دو مورو De Mauro في تعليقه على محاضرات سوسير، ص440 وروليي Roulet E محاضرات دو سوسير، Hatier 1975، ص39.

الخارجيّ والوعي به، ولا يمكن تصوّر الأشياء تصوّراً كلّيّاً؛ أي باعتبارها مفاهيم عامّة وكلّيّة تصدق بالنسبة إلى كلّ الألسن، وإنّما من خلال كلّ لسان على حدة[3].

- يفهم من النّظريّة الاسمية، أنّ تعلّم الألسن الأجنبيّة (أو ترجمتها)، يختصر في مقابلة ما لدينا من الأسماء في اللّسان الأصل، بأسماء من اللّسان الهدف الذي نريد تعلّمه (أو ترجمته). ومعلوم أنّ تعلّم الألسن الأجنبيّة ليس بهذه الصورة المبسّطة.

ينتهي دو سوسير إلى أنّ اللّسان ليس على هذه الشّاكلة المبسّطة التي تتصوّره بها النّظريّة الاسميّة. إنّ اللّسان نسق (بنية) مركّب ومعقّد صوتيّاً وصرفيّاً ودلاليّاً وتركيبيّاً. إنّ اللّسان ليس مجرد ألفاظ تقابل أشياء موجودة في العالم الخارجيّ، ولكنّه مجموعة من القيم، حيث إنّ العنصر الواحد لا قيمة له إلا في إطار العلاقة التي تربطه بغيره من العناصر الموجودة معه في النّسق نفسه. فكيف يعرّف دو سوسير علامات اللّسان؟ وما الجديد في تعريفه؟

2. تعريف العلامة اللّسانيّة[4]

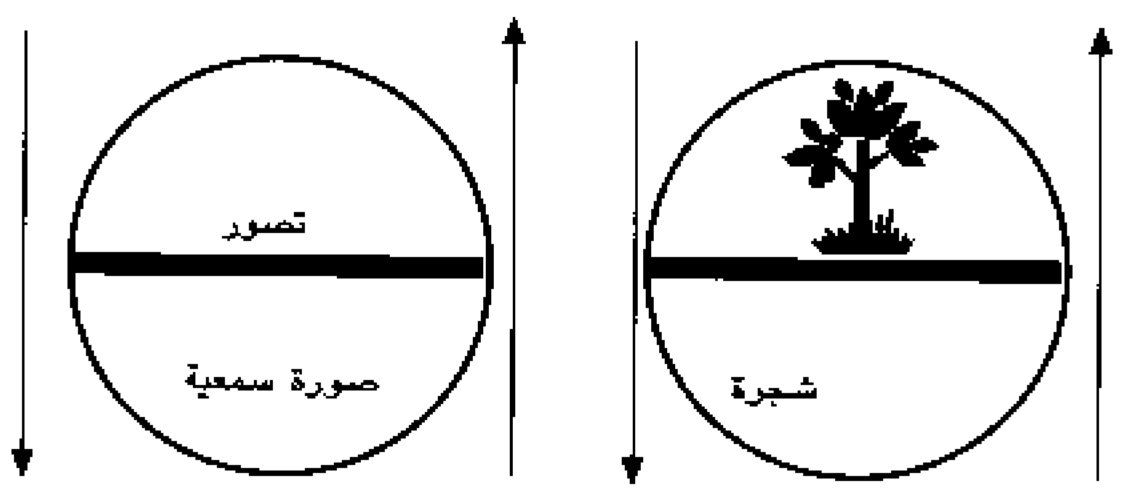
يرى دو سوسير أنّ العلامة اللّسانيّة signe linguistique لا تربط بين شيء ولفظ كما يذهب إلى ذلك الاسميّون، ولكنّها تربط بين مفهوم concept وصورة سمعيّة image acoustique. بهذا المعنى، فإنّ العلامة اللّسانيّة لا تربط اللّفظ بالشّيء الموجود في العالم الخارجيّ ربطاً مباشراً، أي أنّها لا تربط الشّيء المسمّى بالاسم، بل تُسند للشّيء الموجود في العالم الخارجيّ صورة مفهوميّة image conceptuelle تقابلها صورة سمعيّة. ليست الصّورة السمعيّة هي الصّورة الصّوتيّة المادّيّة الفيزيائيّة فحسب، ولكنها الانطباع الذي تُثيره الصّورة في أنفسنا[5]. إن العلامة اللّسانيّة كيان نفسيّ ذو وجهين. إنّ تصوّر الشّيء ذهنيّاً

(3) ومعلوم أنّ علاقة اللّسان بالواقع والتصورات الثّقافيّة الخاصّة ستكشف عنها بكل وضوح ودقّة أبحاث أنثروبو-لسانيّة في النّصف الأول من القرن العشرين على يد كل من سابير Sapir وورف Whorf. (انظر ص48 وما بعدها من هذا الكتاب).

(4) انظر تحليل دو سوسير في محاضراته، ص34 وص97 وما بعدها.

(5) المرجع السابق، ص99.

يستدعي بالضّرورة الصّورة السّمعيّة، والعكس صحيح، كما يوضح ذلك الرّسم التالي:



ومجمل القول، إنّ العلامة اللّسانيّة في نظر دو سوسير ليست ماهيّة بسيطة، مثلما يوحي بذلك التّصوّر الاسموي، ولكنّها مركّبة من مفهوم Concept وصورة سمعيّة Image acoustique أو صورة ذهنيّة وصورة سمعيّة تحمل هذا المفهوم. ونظراً إلى الالتباس الذي يصاحب بعض التّسميات الواردة في التّحليل اللّغويّ القديم للعلامة، يقترح دو سوسير استبدال المصطلحات القديمة بأخرى أكثر وضوحاً ودقة للتعبير عن مكونات العلامة. وعليه، يستبدل مصطلحي الصّورة السّمعيّة والمفهوم تباعاً، بالدّالّ signifiant والمدلول signifié. فالدّالّ هو المجموعة الصّوتيّة المنطوقة /kitabun/، وأما المدلول فهو مجموع الخصائص المعنويّة التي يثيرها فينا الدّال/كتابن/ ومدلوله هو: مؤلّف + له عنوان + عدد من الصفحات + صفحات مطبوعة + محتوى فكري...

ويلاحظ بشأن تصوّر دو سوسير للعلامة اللّسانيّة أنّه أَبْعَدَ المدلول عليه (المرجع) Référent وهو الشّيء الموجود فعلاً في العالم الخارجيّ. ولا شكّ أنّ دو سوسير أراح بهذا الإقصاء البحث اللّسانيّ من الخوض في قضايا فلسفيّة شائكة لا يعرف صعوبتها إلا الفلاسفة والمناطقة، التي تندرج في إطار إشكاليّة الإحالة Référence[6].

(6) يعتبر فريجه G. Frege (1845-1952) أحد الفلاسفة القليلين الذين وضّحوا بكيفيّة لا تقبل الجدل الفرق بين المرجع Référence والمعنى Sens في إطار فلسفيّ منطقيّ =

وفي التّعريف السّابق للعلامة اللّسانيّة، نلاحظ أنّ دو سوسير حافظ على كثير من الاعتبارات النّفسيّة والاجتماعيّة في فهمه للظّواهر اللّسانيّة، لا شكّ أنّها من مخلّفات النّزعة النّفسيّة والاجتماعيّة التي سادت ثقافة القرن التّاسع عشر. والطّابع النّفسيّ البارز في تصوّر إشكاليّة العلامة اللّسانيّة، جعل العديد من اللّسانيّين المحدثين في أميركا ينعتون دو سوسير بالذّهنيّ mentaliste في طرحه لقضايا اللّغة عموماً، ولنظريّة العلامة بصفة خاصّة. وتطلق صفة الذّهنيّة على كلّ تصوّر لقضايا اللّغة منظوراً إليها من وجهة نفسيّة تقوم على تحديد الوحدات اللّسانيّة انطلاقاً من دلالاتها، وهو ما يفترض نوعاً من التّوازي بين تنظيم اللّسان وتنظيم الفكر[7].

وقد حاول اللّسانيّ الدّانماركيّ لويس هيلمسليف في صوغه الجديد لنظريّة دو سوسير حول العلامة اللّسانيّة تفادي الاعتبارات النّفسيّة التي اعترت مفاهيم دو سوسير، وقد اقترح هيلمسليف تعويض مصطلحات دو سوسير «دالّ» و«مدلول» بمصطلحات أقلّ شحنة نفسيّة هي ثنائيّة تعبير expression محتوى contenu[8].

في اللّسانيّات الأميركيّة الوصفيّة لا نجد أثراً واضحاً لأفكار دو سوسير وتصوّراته حول ثنائية لسان ـ كلام ولمكوّنات العلامة اللّسانيّة من دالّ ومدلول. وتعتبر التوزيعية أنّ موضوع الوصف اللّسانيّ الأساس بالنسبة إلى الدّرس اللّسانيّ هو القول énoncé المنجز فعلاً وليس شيئاً آخر.

3. اعتباطيّة العلامة

ليست العلامة اللّسانيّة كياناً بسيطاً كما يعتقد من خلال النّظريّة الاسمويّة، ولكنّها بحسب تصوّر دو سوسير شيء مركّب من مكوّنين: دالّ ومدلول. أمّا

= محض يبحث في الصورة المنطقية لمفهوم الحقيقة. وقد بيّن فريجه أنّ عبارتين مثل: L'étoile du matin/l'étoile du soir لهما معنيان مختلفان ولكنهما تحيلان على المرجع نفسه وهو كوكب الزهرة Vénus. انظر مقالة فريجه المشار إليها سابقاً في مؤلّفه: *Ecrits logiques et philosophiques*, Paris, Seuil, 1971/1896.

(7) M. Fillipi: *Introduction à la linguistique et aux sciences des langages*, Paris, Ellipses, 1995, p. 91.

(8) Louis Hjemslev: *Prolégomènes à une théorie du langage*, Paris, Minuit, p. 79.

العلاقة القائمة بينهما فهي اعتباطيّة Arbitraire، ولذلك يتحدث عن اعتباطيّة العلامة Arbitraire du signe[9]. والمقصود بالاعتباطيّة، أنّ المدلول ليس مرتبطاً بالدال بأيّة علاقة مهما كان نوعها، أي لا علاقة بين المجموعة الصّوتيّة والتّصوّر (المفهوم). وبعبارة أدقّ، ليس في الطّبيعة ما يجبرنا على مقابلة هذا الدّالّ بهذا المدلول.

وتتجلّى الاعتباطيّة في عدّة مستويات وليس في مستوى العلاقة بين الدّالّ والمدلول فقط. نجد الاعتباطيّة في المستويات التّالية:

- بين الدّالّ والمدلول، وهي العلاقة التي تهمّ الباحث اللّسانيّ بامتياز.
- بين الدّالّ والمدلول عليه.
- بين المدلول والمدلول عليه.

بالنسبة إلى المستوى الأول، لا يوجد أيّ رابط مهما كانت طبيعته بين الدّالّ والمدلول. فالدّالّ الذي هو المجموعة الصّوتيّة المشكّلة للعلامة، إمّا منطوق مثل/kitaabun، وإما مكتوب (حرفيّ). أمّا المدلول فمجموع الخصائص المدلوليّة التي يُثيرها فينا الدّالّ/كتابن/منطوقاً أو مكتوباً، كأن نقول إنّ مدلوله هو: مؤلّف + عنوان + عدد من الصفحات + صفحات مطبوعة + محتوى فكريّ + . . .

فلا علاقة بين الوحدات الصوتيّة/ك/ +/ت/ +/ا/ +/ب+ن/ (بالإضافة للحركات) والوحدات المدلوليّة. فالكاف في العلامة «كتاب» لا تقابل الوحدة المعنويّة «مؤلّف»، و«التّاء» لا تقابل «له عنوان» و«الباء» لم توضع للدّلالة على الوحدة المدلولية/التّصوّرية «عدد من الصّفحات» وهكذا.

أمّا الاعتباطيّة بين الدّالّ والمدلول عليه، فتتجلّى في غياب أيّ رابط بين ما هو صوتيّ اصطلاحيّ وما هو مجسّد ماديّ فعليّ. وليس بين مكوّنات الدّالّ والمدلول عليه في العالم الخارجي أيّ علاقة محاكاة تجعلنا نسمّي هذا الشّيء بهذا الاسم. ولا ينبغي أن نهتمّ كثيراً ببعض الدّوالّ التي قد توحي بنوع من

(9) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 100.

المحاكاة الطّبيعيّة للأشياء التي ترمز إليها[10] (الأونوماتوبيا أو الأصوات المحاكية للطّبيعة).

يصدق الأمر نفسه على العلاقة بين المدلول والمدلول عليه. إنّ تسمية الأشياء، وهي عمليّة ذهنيّة محضة تقوم على تصوّر الأشياء الموجودة في العالم الخارجيّ. ولا يحصل هذا التّصوّر بالطّريقة نفسها عند جميع البشر، وإنّما يتغيّر من لسان إلى آخر. إنّ تعدّد التّصوّرات راجع إلى اختلاف التّصوّرات الثّقافيّة للأشياء الموجودة في العالم الخارجيّ. نحن لا ندرك أشياء العالم الخارجيّ إلا من خلال اللّغة التي نتكلّم بها. وبعبارة أخرى، ليست الخصائص المدلوليّة خصائص كلّيّة مشتركة بين جميع البشر، وإنّما هي سمات خاصّة تنفرد بها كل عشيرة لغويّة على حدة. إنّ التّصوّرات الإدراكيّة للواقع تمرّ حتماً عبر اللّغة ولها صفات نسبيّة، لأنّها ليست قائمة في المدلولات كمعطى موضوعيّ عن الأشياء التي نتصوّرها.

ومجمل القول إنّ الاعتباطيّة القائمة بين المكوّنات الثّلاثة للعلامة اللّسانيّة تجعل تسمية الأشياء نتيجة العرف الاصطلاحيّ بين المتكلّمين باللّسان الواحد وليس شيئاً آخر. ومن الواضح أنّ ما يُسمّى في اللّغة العربيّة «كرسيّ»، يمكن أن يسمّى شيئاً آخر في اللّغة العربيّة، أو في باقي اللّغات، بل يمكن تغيير الأسماء متى توافر الاصطلاح وتحقّق العُرْف.

1.3. ملاحظات حول اعتباطيّة العلامة

ليس القول باعتباطيّة العلامة اللّسانيّة بقول جديد في تاريخ الفكر اللّغويّ عموماً. لقد عرف الفكر اليونانيّ على سبيل التّمثيل لا الحصر نقاشاً واسعاً وجدلاً قويّاً بين عدد من الفلاسفة حول هذه الإشكاليّة حيث انقسموا، كما يمكن فهم ذلك من خلال محاورة أفلاطون كراتيلوس Cratyle (بين الطّبيعيّ كراتيلوس والاصطلاحي هيرموغينس)، إلى تيّارين بارزين:

- تيّار يقول بطبيعة العلاقة بين الكلمات والأشياء، وهو ما يعني أنّ دلالات الكلمات مستمدّة من طبيعة الأشياء ذاتها، أي أنّ ثمّة تطابقاً تامّاً بين الشّكل والمعنى. وهذا هو مذهب الفيلسوف هيراقليطس Héraclite.

(10) Idem, p. 101-102.

- تيّار يقول إنّ العلاقة بين الكلمات والأشياء علاقة اعتباطيّة، بحيث لا يوجد في طبيعة الأشياء ما يجبرنا على تسميتها بهذه الأسماء أو تلك، وبالتالي ليس هناك ما يدعو لمقابلة هذا الشّكل اللّغويّ بهذا المعنى أو ذاك. إنّ العلاقة بين الكلمات والأشياء ليست سوى نتيجة اصطلاح بين الأفراد المستعملين لهذه الكلمات داخل العشيرة اللّغويّة الواحدة. ويمثل هذا الاتجاه الفيلسوف ديموقريطس Démocrite[11].

وقد اتّخذ أفلاطون من هذه المسألة موقفاً وسطاً. فقد قال في البداية إنّ الصّلة الطّبيعيّة بين اللفظ ومدلوله كانت في بدء نشأتها واضحة سهلة التّفسير، ثمّ تطوّرت الألفاظ ولم يعد من اليسير تبيان تلك الصّلة أو إعطاء تفسير لها. كما اعتبر أفلاطون أنّ الأسماء أدوات تمكّن من تقسيم الواقع، وأنّ استعمال مفردات اللّغة ليس استعمالاً اعتباطيّاً، بل يخضع لقيود اللّغة التي تتكلّمها. إلا أنّ هذا لا يعني في نظر أفلاطون أنّ المفردات اللّغويّة هي انعكاس للأشياء، وبالتالي ليس صحيحاً أنّ معرفة الأسماء تمكّن من الوقوف على دلالتها وخصائصها اللّغويّة، إذ ليس هناك تطابق بين اللّغة والواقع. إنّ اللّغة عند أفلاطون ليست واقعاً محدّداً. إنّها ليست أكثر من مرآة تعكس الصّورة والتّمثيلات التي يملكها الإنسان عن عالمه الواقعيّ (فكرة المُثُل عند أفلاطون)[12].

وخصّص الرّواقيّون للبحث اللّغويّ المتعلّق بالعلامة اللّسانيّة والعلاقة القائمة بين مكوّناتها حيّزاً خاصّاً يشبه ما ذهب إليه دو سوسير. يقسم الرّواقيّون الفلسفة إلى ثلاثة أقسام: المنطق والأخلاق والفيزياء. وينقسم المنطق إلى فرعين:

---

(11) لمزيد من التفاصيل انظر: بسّام بركة: الجذور الفلسفيّة والنّظريّة اللّسانيّة، في مجلة **الفكر العربي المعاصر**، عدد 30-31 مركز الإنماء القومي، بيروت، 1983.

(12) أفلاطون: محاورة كراتيلوس، أو فلسفة اللغة، ترجمها وقدم لها بدراسة تحليلية الدكتور عزمي طه السيد أحمد، منشورات وزارة الثقافة، عمان 1995. بالنسبة إلى النص الفرنسي يمكن الرجوع إلى:

Platon: *Cratyle et autres dialogues*, Paris, Editions Garnier-Flammarion, 1967 (Trad. et noté par E. Chambry), p. 430 et suivantes.

– البلاغة Rhétorique وهي معرفة القول الجيّد انطلاقاً من خطابات صحيحة التّأليف والتّركيب.

– الجدل Dialectique هو معرفة القول الصّادق داخل الخطابات. ويعرّف كذلك بأنّه العلم بالصّدق أو الكذب. وينقسم الجدل بدوره إلى مستويين: مستوى الدّالّ ومستوى المدلول. وينقسم الدّالّ بدوره إلى:

• دالّ صوتيّ signifiant vocal وهو كلّ صوت صادر عن الإنسان أو الحيوان وليس له دلالة.

• دالّ ملفوظ signifiant prononcé وهو صوت الإنسان وليس له أية دلالة.

• دالّ منطوق signifiant énoncé وهو دالّ ملفوظ له دلالة معيّنة.

كما وضع الرّواقيّون نظريّة متكاملة «للعلامة اللّسانيّة» وقسموها إلى ثلاثة عناصر مرتبطة فيما بينها وهي: –ما هو مدلول –ما هو دالّ– الشّيء(13).

وتجدر الإشارة إلى أنّ القول باعتباطيّة العلامة اللّسانيّة لا يعني الفوضى والحرّيّة المطلقة في اختيار الألفاظ. وليس معنى الاعتباطيّة بين الدّالّ والمدلول أيضاً أنّ المتكلّم له الحرّيّة الكاملة في اختيار الدّلالات التي يريد أن يعطيها لهذه العلامة أو تلك. إنّ المتكلّم في حالة سكونيّة Etat synchronique معيّنة للّسان لا يختار أبداً دلالة العلامات التي يستعملها، ولا يمكنه أن يغيّر منها أو يحيد عنها. إنّ اللّسان ظاهرة اجتماعيّة بامتياز، وهذا يعني أنّ اللّسان بعلاماته ودلالات هذه العلامات يوجد خارج الأفراد. ولا يعترف المجتمع اللّغويّ بهذه المخالفات اللّغويّة إلا في حالات خاصّة جدّاً (السّلطة الأدبيّة التي تمكّن بعض الأدباء من التأثير في الواقع اللّغويّ).

2.3. اعتباطيّة أم ضرورة

كان لفكرة الاعتباطيّة ردود أفعال كثيرة ومختلفة بين القبول والرّفض. إنّ تصوّر دو سوسير لاعتباطيّة العلامة كما هو وارد على الأقلّ في **المحاضرات** سنة

(13) A. Rey: *Les théories du signe et du sens*, Paris, Klincksiek, 1973, p. 31-44.

1916[14] ليس واضحاً تماماً. وقد نتج عن غموض النّصّ الأصليّ ردود فعل مختلفة حول الاعتباطيّة. فهل يتعلّق الأمر بغموض في فكر دو سوسير نفسه أم بغموض في صياغة النّصّ الذي قدمه ناشرو المحاضرات وعجزه عن نقل تصوّر دو سوسير بكلّ أمانة؟

لقد أشار أكثر من باحث إلى الغموض المحيط باعتباطيّة العلامة اللّسانيّة، لكن أهمّ نقد للاعتباطية هو الدّراسة التي قدمها اللّسانيّ الفرنسي إميل بنفينيست حول طبيعة العلامة اللّسانيّة عند دو سوسير[15]. لاحظ بنفينيست أنّ فكرة الاعتباطيّة التي جاء بها دو سوسير حقيقة بديهيّة، لكنّها مع ذلك تبدو عنده غير واضحة الصّياغة تماماً. ويشير بنفينيست إلى الغموض والتّناقض اللذين يطبعان برهنة دو سوسير واستدلاله على اعتباطيّة العلامة. ويرى بنفينيست أنّ دو سوسير حينما أراد أن يبرهن على أنّ الرّابط بين الدّالّ والمدلول رابط اعتباطيّ، أقحم من جديد المدلول عليه وهو الشيء الموجود في العالم الخارجيّ وجعله طرفاً رئيساً في العلامة اللّسانيّة، بعد أن كان دو سوسير قد أبعد هذا المدلول عليه كما نعرف في تحديده للعلامة اللّسانيّة ذاتها، فهي دالّ ومدلول.

إنّ دو سوسير، بحسب بنفينيست، حين يقارن بين الكلمة الفرنسيّة/bof/ ونظيرتها الألمانيّة /oks (ثور)، يقرر أنهما مختلفتان على مستوى الدّالّ، رغم أنّهما تحيلان على الشيء نفسه في العالم الخارجيّ. واعتبر بنفينيست أنّ المقارنة

(14) من المعروف أن محاضرات سوسير نشرت عدّة مرّات في شكل نصوص مختلفة نسبيّاً في الشّكل والمضمون، نقلاً عن كرّاسات طلبته. وقد نشرت المحاضرات لأوّل مرة على يد شارل بالي سنة 1916 ثم قام Robert Godel بنشرها مجدداً تحت عنوان: *Les sources manuscrites du cours de linguistique générale* سنة 1957 وأعاد إنغلير Engler نشر المحاضرات من جديد معتمداً نصوصاً جديدة لم تكن معروفة، ما بين 1968 و1974. وقد تمّ مؤخراً العثور على نصوص جديدة كتبها سوسير ضمّنها العديد من أفكاره الجديدة حول قضايا اللّغة واللّسانيّات. نُشرت هذه النصوص الجديدة مع تعليقات في كتاب جديد. انظر:

F. de Saussure: *Ecrits de linguistique générale*. Commentaires de Bouquet et R. Engler, Paris, Gallimard, 2002.

(15) Emile Benveniste: «Nature du signe linguistique» (1939). in *Problèmes de linguistique générale*, t.1, Paris, Gallimard, 1965, p. 49-55 .

بين علامتين من لسانين مختلفين ليس لها ما يبرّرها، لأن المدلول عليه المستحضر في هذه المقارنة، هو الواقع في العالم الخارجيّ (الشّيء) كمكوّن للعلامة اللّسانيّة لا دخل له هنا.

وينتهي بنفينيست إلى أنّ الاعتباطيّ في المسألة، هو أنّ هذه العلامة وليست الأخرى هي التي تنطبق على هذا الشّيء من الواقع، وليس على غيره[16]. ومن ثمّة، فإنّ الرّابط بين الصّورة السّمعيّة (الدّالّ) والتّصوّر (المدلول) ليس اعتباطيّاً كما يقول بذلك دو سوسير، بل هو رابط ضروريّ lien nécessaire[17]. إنّ التصوّر «ثور» سيكون في شعوري مطابقاً للمجموعة الصوتيّة (الدّالّ) /ثور/ ومماثلاً لها بالضّرورة.

وبالرغم من صواب ملاحظة بنفينيست فإنّ ذلك لا ينفي العلاقة الاعتباطيّة بين الدّالّ والمدلول، لأن ما هو ضروريّ أو ما أصبح ضروريّاً بين مكوّنَي العلامة، ليس طبيعيّاً في الشّيء وليس ضروريّاً من تلقاء نفسه نتيجة تشابه أو تطابق من أي نوع كان، ولكنّه يكون اعتباطيّاً في البداية، ليصبح ضروريّاً نتيجة العُرف والاصطلاح ثانياً وأخيراً.

وفي إطار آخر يرى جورج مونان «أنّ دو سوسير لم يكن واضحاً حول المدلول، فهو أحياناً يكون في نظره مرادفاً للتّصوّر، وهو أحياناً أخرى، يكون مرادفاً للشّيء، أي مفهوم الموجود الذي يمكنه أن يكون مادّيّاً أو نفسيّاً أو منطقيّاً»[18].

4. امتداد نظريّة العلامة في الدرس اللّسانيّ الحديث

انطلاقاً من الدور الهام الذي تلعبه العلامة في منطوقها العامّ (لغويّة كانت أم غير لغويّة) كركن أساسيّ لا محيد عنه في التّواصل الإنسانيّ، سواء بين الإنسان والإنسان داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات المختلفة، أو بين الإنسان والطّبيعة، أو بين الإنسان والعوالم الأخرى، فقد عرفت دراسة العلامة تطوّرات ملحوظة أفرزت

(16) Idem, p. 52.

(17) Idem, p. 49.

(18) Mounin: *Clefs pour la linguistique*, Paris, Seghers, 1968, p. 135.

جملة من التّصوّرات الجديدة التي ابتعدت كما قلنا عن التّصوّرات القديمة المشبعة بالفلسفة الأرسطيّة لعملية إدراك الأشياء من خلال اللّغة. واحتلّت نظريّة العلامة اللّسانيّة حيّزاً كبيراً في اهتمام الدّارسين بمختلف مشاربهم الفكريّة وتخصّصاتهم من لسانيّات، وعلم دلالة، وفلسفة، ومنطق وعلم نفس.. وليست نظريّة العلامة في شقّها الاعتباطيّ عند دو سوسير اكتشافاً جديداً، بقدر ما هي تحوّل نوعيّ وانتقاء للتّصوّرات والتّحاليل التي تناسب طبيعة البحث اللسانيّ وتُقْصِي باقي الإشكالات المرتبطة بالعلامة وتصوّرها في المجالات المعرفيّة الأخرى.

ورغم ما قيل بشأن نظريّة العلامة عند دو سوسير، فإنّ الأخذ بمفاهيم الدّالّ والمدلول كوجهين للعلامة اللّسانيّة شكّل في ذاته فرقاً واضحاً بين المقاربة اللّسانيّة الجديدة والتقاليد اللّغويّة القديمة القائمة أساساً على الفلسفة والمنطق وهو ما جعل مفاهيم مثل «الصّورة السّمعيّة» و«التّصوّر» تفقد وزنها الفلسفي الميتافيزيقيّ[19] الذي تميّزت به عبر تاريخها الطويل. وهكذا تحوّلت مفاهيم العلامة والدّالّ والمدلول إلى مفاهيم إجرائيّة لا لُبْسَ فيها على الأقل من النّاحية اللّسانيّة الصّرف. بذلك يكون دو سوسير، وبعده اللّسانيّون المهتمّون بالعلامة عموماً؛ وبعلم الدلالة خاصّة قد وضعوا حداً للتساؤلات والمناقشات الفلسفيّة التي سادت مرحلة النّهضة الأوروبيّة وما بعدها بين النّمطيّين les modistes والاسمويّين les nominalistes حول ما إذا كان المعنى هو الفكرة أو شيئاً آخر غيرها.

وللوقوف على طبيعة هذا التّحوّل النّوعيّ، نشير إلى أنّ الدّراسة اللّغويّة عموماً والدّراسات الدّلاليّة خصوصاً، كانت قبل نظريّة العلامة عند دو سوسير، تحدّد جوهر العلامة في النّسق اللّسانيّ الذي توجد فيه وتؤدّي فيه وظيفة تسمح لمستعملها الرّبط بينها وبين العالم الخارجيّ. وفي هذا السّياق تندرج كما أشرنا إلى ذلك مجمل المفاهيم الفلسفيّة المتعلقة بالتّعيين dénotation عند جون ستيوارت مِل (1806-1873) والماصدق Extention عند المناطقة الوضعيّين أمثال كارناب (1891-1970) أو Bedeuteung عند الفيلسوف المنطقيّ والرّياضيّ فريجه (1848-1925) أو مفهوم المحتوى كشيء عند الفيلسوف هوسرل

(19) A. Rey: *Les théories du signe et du sens*, t.2, Paris, Klincksiek, 1973, p. 53.

(1859-1938)، وهي كلّها مفاهيم موغلة في التّجريد المنطقيّ أو الأنطولوجيّ (الوجوديّ) تمّ إبعادها بكيفيّة صارمة من قبل اللّسانيّين والسّيمائيّين مقابل الاحتفاظ بنظريّة دو سوسير حول العلامة[20].

5. معنى المعنى

حاول كثير من الدّارسين في اللّسانيّات والسّيميائيّات اقتراح جملة من التّصوّرات الموضحة في مجملها لنظريّة العلامة عند دو سوسير، أو الهادفة إلى إزالة الغموض المحيط بها قصد التّأسيس لنظريّة علميّة (واضحة ومستقلة عن التّفكير الفلسفيّ) حول المعنى. ومن أشهر التّصوّرات التي قُدّمت في هذا الإطار التّقسيم الثّلاثيّ الذي وضعه أوغدن وريتشاردز Ogden and Richards اللذان درسا قضايا الدّلالة اللّغويّة من وجهة نظر سلوكيّة في كتابهما الشّهير معنى المعنى The semantic of semantics 1923. وهو العمل الذي يعدّ تحوّلاً هامّاً في التّعامل مع قضايا الدّلالة اللّغويّة في نظر المهتمّين بالعلامة والدّلالة «لأنّهما سارا في خطّ لا يتطابق تماماً مع الخط الفلسفيّ السّابق وإن لم ينفصلا عنه كاملاً»[21].

يقترح أوغدن وريتشاردز مصطلح الرّمزيّة Symbolisme (لا علاقة لها بالرّمزيّة في مجال الأدب) للدّلالة على المجال العامّ الذي «يدرس الدور الذي تلعبه اللّغة والرّموز بمختلف أنواعها في حياة الإنسان وخاصة تأثيرها على الفكر»[22]. إنّ الرّمزيّة تبحث في الطّرق أو الأساليب التي تتوافر في الرّموز (الكلمات/ العلامات اللّغويّة) لمساعدتنا على تصوّر الأشياء في العالم الخارجيّ، أو إعاقتنا عن القيام بذلك. إنّ الرموز تنقل الأفكار وتوجّهها وتنظّمها وتسمح بسماعها. وبوضعنا لما توجّهه هذه الرّموز، وما تنظّمه من أشياء حولنا، وما تسجله وتنقله من أحداث، ينبغي لنا أن نميّز في كلّ عمليّة كلام بين شيئين أساسيّين: التّصوّر (أو الفكر) والأشياء.

---

(20) Idem, p. 111.

(21) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص25، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1988.

(22) اعتمدنا النّصّ الذي ترجمه راي Rey في المصدر السابق، ص112؛ وقد تصرّفنا قليلاً في تقديم وجهة نظر أوغدن.

إنّ الفكر، أو الإحالة كما يقال عادة، هو الموَجّه أو المنظّم أو المسموع أو المنقول. إلا أنّه، وكما نقول عادة، بأنّ البستانيّ يقطع عشب الحديقة، بينما نحن نعرف أنّ الآلة هي التي تقوم فعلاً بذلك، نقول كذلك، إنّ الرّموز تسجّل الوقائع وتنقلها، رغم أننا نعرف أنّ العلاقة بين الرموز والفكر علاقة مباشرة. إنّ الكلمات لا تعني شيئاً في ذاتها، رغم الاعتقاد السّائد بعكس ذلك. إنّ الكلمات لا تمثّل شيئاً ما له معنى Meaning، إلا عندما تستعمل كأدوات بالنسبة إلى كل من يتصوّر الأشياء.

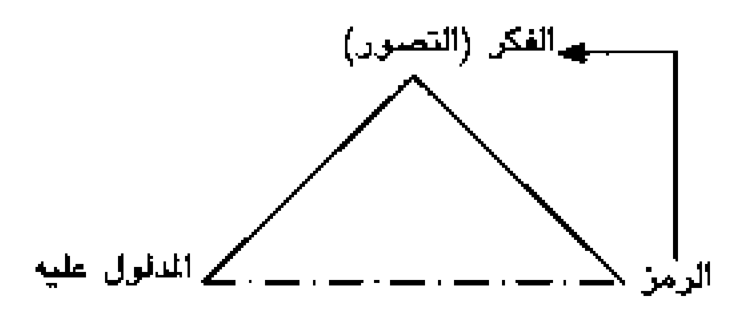
وتتطلّب كلّ عمليّة رمزيّة ثلاثة عوامل أساسيّة:

- الرّمز The symbol وهو في مجال اللّغة الكلمة المنطوقة أو المكتوبة والمكوّنة من تتابع معيّن من الأصوات.

- الفكرة: (أو التّصوّر) Thought وهو المحتوى العقليّ الذي يحضر في ذهن المتكلّم لحظة تلقّيه الرّمز. وقد تكون الفكرة حدثاً واقعيّاً أو تصوّريّاً أو حالة نفسيّة تخيليّة أو فكرة مرتبطة بمعتقد ثقافيّ أو اجتماعيّ محدّد.

- المدلول عليه أو المرجع Referent وهو الشّيء الموجود فعليّاً في العالم الخارجيّ.

وفي كلّ عملية كلام تقوم بين الرّمز أو الكلمات (الدّالّ عند دو سوسير) والفكر (التّصوّر أو عمليّة الإحالة) (المدلول عند دو سوسير) والمدلول عليه (الشّيء الموجود في العالم الخارجيّ) جملة من العلائق. ولتوضيح مختلف جوانب علاقة تصوّر الأشياء بواسطة الكلمات، يقدم أوغدن وريتشاردز الرّسم الذي اشتهر بالمثلّث الدّلاليّ Triangle sémantique موضحين به مختلف العلاقات القائمة بين العناصر الفاعلة في عمليّة المعنى:



فبين الفكر والرّمز علاقة سببيّة. فعندما نتكلّم، فإنّ الرّمز الذي نلجأ إليه يكون جزئيّاً سبباً في ما نقوم به من فعل الإحالة على الأشياء الذي نقوم به، بينما تشكّل العوامل الاجتماعيّة والنّفسيّة الجزء الآخر من هذا الفعل. إنّ الرموز هي العلّة الأساس التي نقوم من أجلها بفعل الإحالة والتأثير المنشود لكلماتنا (رموزنا) في الآخرين وتكوين موقفنا الشّخصيّ. وعندما نتلقّى (نسمع) ما يقال لنا، فإنّ الكلمات (الرموز) تدفعنا إلى أن نقوم في الوقت نفسه بفعل الإحالة، وأن نتبنى موقفاً ما.

وتكون العلاقة بين الفكر (التصور) والمدلول عليه (وهو المرجع) إمّا علاقة مباشرة، أو غير مباشرة. فهي مباشرة، عندما يتعلّق الأمر مثلاً، برؤية مستوى ملوّن (على الورق أو غيره)، وغير مباشرة، عندما نتصوّر أو نحيل مثلاً، على نابليون، حيث تكون هناك سلسلة طويلة من المقامات الدّالّة التي توجد بين فعل الإحالة والمرجع. (الكلمة-المؤرّخ-النّصّ المعاصر-شاهد عيان- المرجع/ نابليون).

وليس بين الرّمز والمدلول عليه (المرجع) سوى علاقة غير مباشرة، تكمن في أنّ فرداً ما يستعمل الرّمز لتمثيل «مرجع ما»، بمعنى أنّ الرّمز والمرجع ليسا مرتبطين مباشرة، وإنّما بطريقة غير مباشرة مروراً بالمكوّن الآخر للمثلّث الذي هو الفكر. إنّ العلاقة بين الكلمات والأشياء ليست علاقة مباشرة، وإنّما هي علاقة افتراضية كما يشير إلى ذلك في الرسم السابق الخط المتقطّع في قاعدة المثلث الرّابط بين الرّمز والمدلول عليه.

ودراسة أوغدن وريتشاردز تندرج ضمن التّجاذب الفكريّ بين نظريّتين بارزتين في إدراك المعنى:

- النّظريّة التّصوّريّة Théorie conceptuelle.

- النّظريّة الإشاريّة Théorie de référence.

تقوم النّظريّة التّصوّريّة على ربط المعنى بالأفكار الموجودة في عقول المتكلّمين والسّامعين بصرف النّظر عن طبيعة هذه الأفكار من حيث نشأتها ومكوّناتها. وتعود هذه النّظريّة في جذورها الأولى إلى رأي أرسطو القائل بمطابقة المعنى للفكر أو للعقل. وقد عمل الفيلسوفان الإنكليزيان دايفيد هيوم

(1711-1776) وجون لوك (1632-1704) على دعم هذا الموقف من خلال فلسفتهما التّجريبيّة. بينما تقوم النّظريّة الإشارية على ربط المعنى بالموجودات الخارجيّة ربطاً مباشراً، وهو موقف كثير من الاسمويّين (انظر ما قلناه عن نظريّة العلامة عند الاسمويّين) في القرون الوسطى. فلكي أعطي تعريفاً دقيقاً للمعنى أحتاج إلى معرفة موضوعيّة لعالم المتكلّم[23].

بالنّسبة إلى صاحبَي كتاب معنى المعنى يجب أن تسير دراسة المعنى في اتجاهين متكاملين وإن كانا مختلفين من حيث الأصول والأهداف فتهتمّ بجانبين:

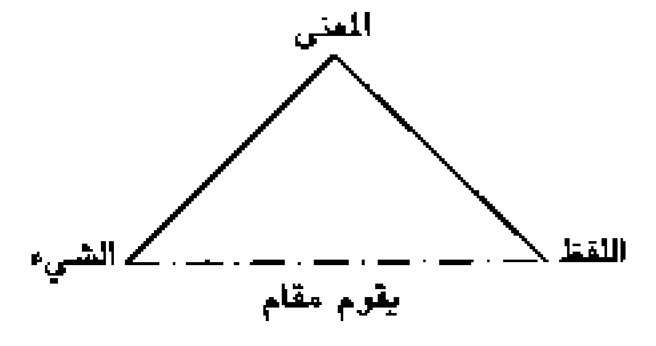
- جانب العلاقة بين الكلمات والأفكار (الموقف التّصوّري).

- وجانب يتناول العلاقة بين الأفكار والأشياء؛ أي الرّبط بين الكلمات والأشياء التي ترمز إليها الكلمات بوساطة الأفكار (الموقف الإشاريّ).

وللإشارة؛ فإنّ الدّراسات اللّسانيّة في مجال دراسة المعنى اللّغويّ تتبنّى الموقف التّصوّريّ مبعدة بذلك الإشكالات الفلسفيّة التي تثيرها إشكاليّة الإحالة.

6. العلامة والمعنى

انطلاقاً من آراء دو سوسير السّابقة حول العلامة اللّسانيّة وتصوّر أوغدن وريتشاردز يصوغ أولمان Stephan Ullman (1914-1976) نظريّة العلامة كما يلي:



فالعلاقة بين هذه الأطراف الثلاثة ليست متساوية. فبين الكلمة (الاسم) والمعنى رابط مباشر. فالمعنى (نلاحظ هنا أنّ المعنى عند أولمان يحلّ محلّ

---

(23) أحمد مختار عمر، **علم الدلالة**، مرجع سابق، ص54-58.

الإحالة في مثلّث أوغدن وريتشاردز) يتعلّق بالشيء، لنلاحظ مرة أخرى، أنّ أولمان استبدل مصطلح المدلول عليه référent بمصطلح آخر هو الشيء la chose) أي أنّه يعكسه على مستوى الذّاكرة، بيد أنه لا يوجد أيّ رابط مباشر بين الاسم والشيء. إنّ الاسم لا يوحي بالمدلول، وإنما بالفكرة حول الشّيء، وبالتّالي يكون المعنى وسيطاً بين عالم الكلمات وعالم الأشياء. إنّ الرّمز يقوم مقام الشّيء، بينما تكون الفكرة إشارة إليه. إنّ الاسم يوحي بالمعنى والعكس صحيح. بالنسبة إلى أولمان وعلى غرار موقف دو سوسير، يجب إبعاد الشّيء المادّيّ الفعليّ، لأن الارتباط بين الواقع أو الشيء وصورته المنعكسة في أذهاننا، إنما هي مشكلة تَخُصُّ علم النفس، بينما ينبغي أن يكتفي اللّسانيّ بما يهمه من هذه العلاقة؛ أي العلاقة القائمة بين الرمز والفكرة أو ما يربط بين الرّمز والفكرة.

هذه النّظرة لمكوّنات العلاقة الرّمزيّة في بُعدها اللّغويّ الصّرف، جعلت أولمان يقترح مصطلحات لغويّة نوعيّة تكون أقرب إلى الإدراك العاديّ. ولتحقيق هذه الغاية اقترح «أن نستعمل مصطلحين بالذّات من جملة المصطلحات المتعدّدة التي يمكن أن تتناوب في هذا المقام وتناسبه. هذان المصطلحان، هما اللّفظ بدلاً من الرّمز، والمدلول بدلاً من «فكرة» أو «ارتباط ذهنيّ». وسوف نعرّف اللّفظ حينئذٍ بأنّه الصيغة الخارجيّة للكلمة. وأما المدلول، فهو الفكرة التي يستدعيها اللّفظ»[24] ويطلق أولمان على علاقة الإيحاء المتبادلة Relation d'évocation réciproque بين اللّفظ والمدلول مصطلح المعنى sens، وهي العلاقة التي تشكّل في نظره الحدث الأساس وموضوع علم الدّلالة[25].

ومكّنت كلّ هذه التّوضيحات وغيرها من حل جملة من الإشكالات والقضايا التي عاقت في القديم تطوّر الدّرس الدّلاليّ وأبقته حكراً على الفلاسفة والمناطقة ثم علماء النّفس فيما بعد.. ومفاد هذه التوضيحات أنّ المعنى ليس هو الفكر (عند الفلاسفة وعلماء النّفس) بما يحمله هذا اللّفظ من شحنات معرفيّة

---

(24) أولمان: دور الكلمة في اللغة، ترجمة وتعليق كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، 1962.

(25) S. Ullman: *Précis de sémantique française*, Editions Francke Berne, 1975, 1ère édition, 1952, p. 21-23.

معقّدة، بل المعنى الذي يهمّ البحث اللّسانيّ، كما ورد في كلام أولمان يتمثّل في العلاقة بين اللّفظ والإدراك أي المدلول. وهكذا أصبح يفرّق بين المدلول في لغة معيّنة كالعربيّة أو الفرنسيّة والفكرة المعبّرة عنه الموجودة في استقلال عن هذه اللّغة أو تلك. فبينما يرتبط المدلول ببنية لغويّة محددة باعتباره جملة من الخصائص المدلوليّة أو ما أصبح يُعبَّر عنه في الدلالة البنيويّة بعد غريماس وبوتييه بالسّيمات Sèmes، تكون الأفكار مستقلّة عن المعطيات اللّغويّة المتعلقة بهذا اللّسان أو ذاك، لكنها لا تتحدّد إلا في إطار علاقات لغويّة داخليّة خاصّة بكل لسان على حدة، بينما يكون النّظام المفهوميّ أو التّصوّريّ قابلاً لأن يتحقّق ليس بشكل عامّ ومطلق بالنسبة إلى كلّ الألسن الطّبيعيّة، وإنما بحسب الأنماط اللّغويّة والعلاقة الخاصّة بكل لسان.

الفصل الحادي عشر

المفاهيم الأساسيّة في التّحليل اللّسانيّ البنيويّ

1. البنيويّة في إطارها المعرفيّ العام

يأخذ المنهج اللّسانيّ البنيويّ حيّزاً واسعاً من اهتمام الدّارسين في اللّسانيّات والعلوم الإنسانيّة على السواء. ومردّ ذلك، إلى أنّ هذا المنهج المستمدّ أصلاً من المفاهيم النّظريّة والإجرائيّة التي اقترحتها اللّسانيّات العامّة في بداية القرن العشرين، لاسيما الأفكار الواردة عند دو سوسير ومن جاء بعده، قد ساهم بشكل كبير في تطوير العلوم الإنسانيّة بصفة عامة.

ولم تعد المنهجيّة البنيويّة تقتصر على المجال اللّسانيّ وحده، بل تُبَنْيِن structurer كلّ شيء، إذا جاز لنا أن نستعمل هذا التّعبير. تُبَنْيِن المجتمع واللّاشعور والثّقافة والأدب والفكر والسّينما والمسرح والمطبخ واللّباس والإعلانات الإشهاريّة وكلّ مرافق الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة والفكريّة والاقتصاديّة. يظهر ذلك في أعمال ليفي ستروس Claude Levi-Strauss (1908-. . .) وجاك لاكان Jacques Lacan (1901-1981) وروماان ياكبسون Roman Jakobson (1896-1982) ورولان بارت Roland Barthes (1915-1980) وكريستيان ميتز Christian Metz (1931-1993) وإدغار موران Edgar Morin 1921 ولويس ألتوسير Louis Althusser (1918-1990) وميشال فوكو Michel Foucault (1926-1984) وغيرهم.

ونظراً إلى الإشعاع غير المحدود للمنهجيّة البنيويّة، من الخطأ الاعتقاد

بوجود تيّار بنيويّ متجانس أو مذهب فكريّ موحّد، بل العكس هو الصّحيح، إذ نلاحظ تعدّداً في الرّؤى، وتعدّداً في الأدوات، وتعدّداً في المفاهيم والمصطلحات، وتعدّداً في التّطبيق والتّحليل، وتعدّداً في المواقف والنّتائج...

للأسباب السّابقة، يصعب ادّعاء تحديد الخصائص العامّة للمنهجيّة البنيويّة ولو اقتصر الأمر على مجال معرفيّ واحد كاللّسانيّات أو النّقد الأدبيّ أو الفكر. فليس هناك منهجيّة بنيويّة واحدة، ولكن، هناك بنيويّون لكلّ منهم شخصيته وأصالته الخاصّة[1].

يرى عالم النّفس جان بياجيه أنّه على الرغم من الاختلاف الذي يطبع المذهب البنيويّ، من حيث تعدّد أشكاله وتوجّهاته، يمكن الاعتراف بوجود نوع من المثال المشترك Idéal commun الذي يبحث فيه وعنه كلّ البنيويّين[2]. ونظراً إلى استحالة الوقوف على مجمل الاختلافات الفرديّة أو الجماعيّة التي تميّز سائر البنيويّين في أوروبا وأميركا، لا يسعنا إلا أن نبحث في القواسم المشتركة التي تضمّ هذا الحشد الهائل من رجالات الفكر والمعرفة في القرن العشرين.

والحقيقة أنّه لا يمكن فهم التّطوّرات والتّحوّلات النّظريّة والمنهجيّة التي حصلت في مجال اللّسانيّات عموماً وظهور ما سُمّي باللّسانيّات البنيويّة بصفة خاصّة، من دون الرّجوع إلى الإطار المعرفيّ الذي يعد من النّاحية التّاريخيّة، عاملاً أساسيّاً في ظهور المنهجيّة اللّسانيّة الجديدة في صورتها البنيويّة أوّلاً، ثمّ في تطوّرها ثانياً.

لقد راكمت الثّقافة الغربيّة الحديثة خلال القرن التّاسع عشر جملة من المكتسبات العلميّة والمنهجيّة التي قادت إلى انبثاق مناهج جديدة صاحبت ظهور ما يعرف بالعلوم الإنسانيّة التي تُعَدّ في الواقع آخر مبتكرات الفكر الغربيّ الحديث. وقد شكّل الفكر الوضعيّ الأرضيّة الفلسفيّة التي قامت عليها المناهج العلميّة الحديثة، سواء في مجال العلوم الصّرف أو في مجال العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة لاحقاً.

---

(1) J.-P Corneille: *La linguistique structurale*, Paris, Larousse, 1977, p. 12.

(2) جان بياجيه: **البنيوية**، مرجع سابق، ص5.

كان هدف العلم في القرن التّاسع عشر تجميع الحقائق وإعادة تنظيمها، ثم بناءها بشكل موضوعيّ؛ إمّا مادّيّاً أو تصوّريّاً، وهو ما جعل الاعتماد على المعطيات والوقائع المادّيّة الملموسة أمراً جوهريّاً في المقاربات المختلفة التي تمّ اللّجوء إليها في العلوم. ومع تقدم العلم والمعرفة، اتّضح من جديد أنّ الظّواهر المدروسة في كلّ المجالات المعرفيّة ليست بهذه السهولة التي كان يُنظر إليها، سواء أتعلّق الأمر بالظّواهر الكونيّة أو بالظّواهر الإنسانيّة والاجتماعيّة (لغة/ثقافة/مجتمع/نفس). وعرفت العديد من العلوم الصّرف جملة من التحوّلات التّصوّريّة التي قادت إلى ما يشبه الثّورات في تصوّر القضايا وتصوّر الحلول، فجاءت المنجزات العلمية الكبرى في مجال البيولوجيا، وكانت التّعديلات المنطقيّة والرّياضية الجذرّية في إطار ما عُرف بأزمة الأسس في الرّياضيّات، وأخيراً حصلت الثّورة المعرفيّة الكبرى في العلوم الفيزيائيّة، مع ظهور النّظريّة النّسبيّة لأينشتاين (1879-1955)، وهذه الأمثلة أبرز المعالم وليس كلّها وهي ليست نهاية البحث والاستكشاف العلميّ. وكان لهذه التصوّرات الجديدة نتائج إيجابيّة على المعرفة الإنسانيّة، إذ مكّنت من تفسير جديد للكثير من الظّواهر الكونيّة والبشريّة التي كانت تعتبر قبل الآن غامضة، أو مستعصية على الإدراك.

وبالمثل، عرفت العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة ظهور تصوّرات ومقاربات جديدة للسّلوك البشريّ وللنّسيج الاجتماعيّ، لاسيّما مع ظهور الجشطلت Gestalt (نظريّة الشّكل) والنّظريّة السّلوكيّة Béhaviorisme المتأثّرة بالعلوم الفيزيولوجيّة مع بافلوف (1849-1936). كما أحدث التّحليل النّفسيّ الذي وضع أسسه فرويد (1856-1939) ثورة حقيقيّة في فهم الطّبيعة النّفسيّة الواعية واللّاواعية للكائن البشريّ.

هذه التّحوّلات العلميّة وغيرها دفعت المفكّرين والعلماء إلى إعادة النّظر في مقوّمات «العلم» وأسسه المنهجيّة. ولم يعد الهدف من العلم جمع المعطيات وتصنيفها، مثلما كان الأمر في المنهج التجريبيّ، وإنما السّعي إلى محاولة تفسير الظّواهر والتّنبؤ بها من خلال البحث الشّموليّ عن الخصائص الثّابتة وغير المتحوّلة. إنّ أساس الفكر العلميّ الحديث يقوم على اعتبار العالم بنية منظّمة ومنتظمة، وليس جملة من الظّواهر المتفرّقة والمعزولة تسير بعفويّة وصدفة.

وشكّلت علاقة المعطيات بالمنهج في العلوم الإنسانيّة بداية منعطف جديد حاولت من خلاله العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة البحث عن درجة قصوى من الموضوعيّة، محاولة بذلك الاقتراب ما أمكن من العلوم الصّرف ضبطاً ودقّة.

2. تحوّلات الدّرس اللّغويّ

في هذا الإطار العامّ، يمكننا أن ندرك التّحوّلات التي صاحبت الدّرس اللّغويّ منذ القرن الثّامن عشر، سواء في اقتراح مقاربة جديدة للّغة، أو في نظرتها إلى الوقائع اللّغويّة. وفي أفكار وتصوّرات دو سوسير الواردة في محاضراته ما يبيّن بروز مثل هذه الأفكار الجديدة في فهم حقيقة اللّغة الإنسانيّة وطبيعتها وكيفيّة التّعامل معها. ولم يكن دو سوسير سوى تطوير نوعيّ لأفكار فرانز بوب وشلايشر فيما يتعلق باستقلاليّة اللّسانيّات وعلميّتها من حيث تحديد الموضوع والمنهج والغاية من الدّراسة.

فمع اللّسانيّات التي دشّنها دو سوسير، أصبح ينظر إلى اللّغة على أنّها «موضوع» معرفة مستقلّة قابلة للدّراسة المنتظمة، باعتبارها جملة من الأحداث والوقائع المعقّدة على عكس ما تبدو عليه في واقعها المادّي الملموس. وأصبح هدف التّحليل الوقوف على العلاقات والوظائف التي تجمع بين الوحدات المكوّنة للّغة في مختلف المستويات، بعيداً عن العوامل الخارجيّة، أيّاً كانت طبيعتها، وليس بحسب الطّبيعة المادّيّة أو الخصائص التّاريخيّة الفرديّة والمتغيّرة بالصّدفة، كما تُقرّ بذلك اللّسانيّات المقارنة والتّاريخيّة في تعاملها مع الوقائع اللّغويّة، باعتبارها وقائع منعزلة ومنفصلة بعضها عن بعض، سواء في واقعها الحالي أو في سيرورتها التّاريخيّة.

وساهم الفكر العلميّ الجديد، الذي أشرنا سابقاً إلى بعض سماته الجديدة، في بلورة أسس منهجيّة جديدة قادت إلى منطلقات فكريّة لم تكن مألوفة، من قبل، نذكر منها ما يلي:

– وضع تصوّرات جديدة للتّنظيم المنهجيّ للمعرفة وللظّواهر المدروسة.

– تفسير الوقائع المدروسة بطريقة مغايرة وعلى نحو جديد (مراجعة المقاربة التّجريبيّة بأسسها المعروفة).

- تداخل الاختصاصات لإنجاز مهامّ معرفيّة واسعة النّطاق.

- نقل الإجراءات المنهجيّة من فروع علميّة دقيقة إلى مجال العلوم الإنسانيّة(3).

ومن نتائج هذا التّفكير الجديد في مجال اللّسانيّات الحديثة، اتّساع المعطيات اللّغويّة المعتمدة على عكس ما كان معمولاً به في المقاربتين المقارنة والتّاريخيّة اللتين حصرتا اهتماماتهما اللّغويّة في اللّغات الهندو-أوروبيّة، أو اللّغات ذات الحضارات الكبرى، لاسيما ما كان منها أوروبيّاً. وهكذا فتحت المعطيات الجديدة المتراكمة الباب أمام تخصّصات وفروع لسانيّة جديدة ليس هنا مجال الخوض فيها.

وفي خضمّ هذه المتغيّرات التي صاحبت تطوّر المعرفة العلميّة، أصبح للمنهج دور بالغ الأهمّيّة في كلّ نشاط فكريّ يروم الموضوعيّة والعلميّة. فالمنهج يسمح بوصف دقيق للظّواهر المبحوث فيها. وهو أيضاً يمكّن من المقارنة بين الظّواهر قصد معالجة أشمل وأعمق. وأخيراً يُعَدّ المنهج وسيلة فعّالة نحو صوغ القوانين والقواعد العامّة، سواء انطلاقاً من الملاحظات أو من الافتراضات العامّة.

في سياق الاهتمام المتزايد بالمناهج ودورها في المعرفة العلميّة، شكّلت المنهجيّة البنيويّة المستمدّة من اللّسانيّات محاولة جادّة لجعل الإنسان محلّ دراسة علميّة موضوعيّة ودقيقة على غرار ما هو معمول به في العلوم الأخرى. ويُعَدُّ دو سوسير في مجال اللّسانيّات وليفي ستروس في مجال الأنثروبولوجيا نموذجين متميّزين ورائدين في حقل العلوم الإنسانيّة.

وكان للّسانيّات الحديثة النشأة دور في انبثاق المنهج البنيويّ، وفي تحقيق القفزة النّوعيّة التي حصلت في مناهج العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بكيفيّة غير مسبوقة. وهكذا كان لسوسير أولاً ولمن جاء بعده، لاسيّما تروبتسكوي وياكبسون دور بارز في الدّفع بعجلة البحث اللّسانيّ نحو آفاق جديدة، كما كان لليفي ستروس الدور نفسه في استثمار المنهجيّة البنيويّة المستمدّة من

(3) ميلكا إيفتش: اتجاهات البحث اللساني، مرجع سابق، ص103.

اللّسانيّات، كما تشهد على ذلك أعماله العديدة، المتعلّقة بدراسة علاقة القرابة والدم والأسطورة في المجتمعات البدائيّة.

واكتسبت المنهجيّة البنيويّة قيمتها المعرفيّة انطلاقاً من دفاعها الواضح وموقفها البيّن إزاء دراسة قضايا الإنسان بكل أبعاده اللّغويّة والنّفسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، حيث تمّ التّأكيد على دور العلوم الصّرف، وأهمّيّة المنهج في المباحث الإنسانيّة والاجتماعيّة. وترفض المنهجيّة البنيويّة القول بضرورة وجود نموذج معرفيّ وعلميّ خاصّ بالإنسان، كما كان يُرَوّج لذلك في بعض الاتّجاهات الاجتماعيّة في مرحلة ما قبل البنيويّة، من خلال القول بخصوصية الإنسان وقضاياه المعقّدة. إنّ هذا الموقف المعرفيّ والمنهجيّ هو الذي جعل البعض يقول بأنّ «البنيويّة في أساسها نظريّة في العلم (إبستيمولوجيا) تؤكد على أهمّيّة النّموذج في كلّ معرفة علميّة، وتجعل للعلاقات الدّاخليّة والنّسق الباطن قيمة كبرى في اكتساب أيّ علم»[4].

لقد ظهرت البنيويّة في الثّقافة الفرنسيّة المعاصرة أولّ ما ظهرت في مجال اللّسانيّات (من خلال أطروحات مدرسة براغ ابتداءً من سنة 1926) لتنتقل بعد ذلك إلى مجالات معرفيّة أخرى تجاوزت حدود فرنسا. لاسيّما بعد السّجال التّاريخيّ المعروف بين فيلسوف الوجوديّة جان بول سارتر (1905-1980) ورائد البنيويّة الانثربولوجيّ ليفي ستروس.

والعلاقة بين البنيويّة والفلسفة تتجلّى أساساً في وجود نظرة فلسفيّة خفيّة وراء المقاربة البنيويّة. يتعلّق الأمر بتصوّر إمانويل كانط (1724-1804) للنّسق الشّامل الخفيّ اللّازمانيّ الذي ترجع إليه كل المظاهر الخارجيّة للأشياء والكينونات، بل حتّى التّصوّرات الفكريّة والمظاهر الرّمزيّة يمكن ردّها إلى نسق مثاليّ ومتعالٍ Transcendantal، ويتميّز هذا النّسق بكونه قَبْلِيّاً *a priori* تتوافر فيه أسس قالبيّة ذات طبيعة مثاليّة قابلة لأن تدمج فيها جميع الأنظمة والظّواهر، مهما تعدّدت وتنوّعت في الواقع المادّيّ الفعليّ.

---

(4) فؤاد زكريا: **الجذور الفلسفيّة للبنائية**، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت 1980، ص9.

وبالدرجة والكيفيّة نفسهما اللتين تؤكّدهما الفلسفة الكانطيّة فيما يخص أهمّيّة العلاقات الدّاخليّة في كل مقاربة موضوعيّة، تؤكّد البنيويّة ضرورة سبر أغوار النّظام الدّاخليّ للظّواهر المدروسة وليس على صورتها التّجريبيّة الحسّيّة والمدركة.

كما يُلاحظ في إطار التّصوّر البنيويّ، وجود ميل نحو رفض النّزعة التّجريبيّة في التّعامل مع الظّواهر المدروسة من خلال تأكيد البنيويّة على ضرورة تفسير الواقع بالعودة إلى المبادئ العقليّة العامّة. ففي تحليله للمجتمعات البدائيّة، لاحظ ليفي ستروس أنّ ما يجمع بين الثّقافات ليس ما هو ملاحظ على أرض الواقع كما تقول بذلك الدّراسات التّجريبيّة، وإنّما ينبغي أن يتشكّل هذا البحث على مستوى البناء العقليّ الخفيّ. نظراً إلى وجود طبيعة ذهنيّة ثابتة للذّهن البشريّ لا تتأثّر بأفراد وجماعات محدّدة. إنّ ثمة نوعاً من الآليّات الثّابتة (المنطق الدّاخليّ/ الضّمنيّ) التي يشتغل بها العقل البشريّ أينما وُجِد[5].

ومعلوم أنّ المدرسة التّجريبيّة لها تصوّر مخالف للتّصوّر البنيويّ فيما يتعلّق بمفهوم العلاقة بين الأشياء. فالأطراف المكوّنة للعلاقة وحدات ذرّيّة قائمة بذاتها ـ بحسب التّجريبيّة ـ وهي التي تعطي للعلاقة قيمتها، ويستحيل تصوّر العلاقة دون العناصر التي يتوافر كلٌّ منها على استقلاليته، وله دوره الخاصّ، ويمكن تصوّره باستقلال عن العلاقة التي يندرج فيها. أمّا البنيويّة، فترى أنّ العلاقة هي الأساس، وهي التي تعطي للعناصر قيمتها ودورها في كلّ عمليّة. ما يهمّ عند البنيويّين ليس فقط الكلّ، كما تقول بذلك (الجشطلت)، بل البحث في العلاقات القائمة بين الكُلّ.

ونظراً إلى الصّورة التي ارتبطت بالبنيويّة باعتبارها اتّجاهاً قائماً على نقد الممارسات القديمة في تعاملها مع مختلف الظواهر، ينبّهنا بياجيه إلى ضرورة التّمييز بين هذه الوجهة النّقديّة والوجهة المنهجيّة التي تدافع عنها البنيويّة، فما ترفضه البنيويّة في الرّياضيّات أو الفيزياء أو علم النّفس أو علم الاجتماع، ليس هو ما ترفضه في اللّسانيّات أو في النّقد الأدبي. وما تدافع عنه البنيويّة وسائر

---

(5) C. Levi Strauss: *L'anthropologie structurale*, Paris, Plon, 1968.

البنيويّين أساساً يعدّ بمثابة نموذج مشترك عن طريق البنية القائمة بذاتها في غياب الاستعانة بأي عنصر خارجي عنها[6].

3. صعوبة الموضوع

في ضوء التّقديم السّابق للإطار المعرفيّ الذي ظهرت فيه البنيويّة، وعلاقاتها بمجموعة من التيّارات الفكريّة الأخرى خصوصاً الفلسفيّة منها، وما يطرحه تاريخ البنيويّة من تساؤلات وإشكالات وقضايا فكريّة تتجاوز أحياناً مجال المعرفة اللّسانيّة الخاصّة، يطرح الحديث عن المنهجيّة البنيويّة في اللّسانيّات جملة من الصعوبات التي تتناسل كلّما حاولنا تقديم فكرة موجزة عن الموضوع البنيويّ.

- من أين نبدأ الحديث عن المنهج اللّسانيّ البنيويّ؟

- هل نتحدث عن نشأة اللّسانيّات مع دو سوسير أم عن الآثار التي خلّفها دو سوسير؟

- هل نكتفي بتقديم المنهجيّة المتّبعة في اللّسانيّات ليكون حديثنا حديثاً ملائماً لحقيقة المنهج البنيويّ؟

- ما العلاقة بين المنهجيّة البنيويّة واللّسانيّات؟

- هل نتحدث عن الأسس اللّسانيّة للبنيويّة أم عن الأسس الفكريّة والفلسفيّة للبنيويّة؟

إن طرح الأسئلة على النّحو السّابق يوحي بأنّ اللّسانيّات والبنيويّة شيء واحد، أو بأنّنا أمام بنيويّة واحدة. لقد أشرنا من قبل إلى أنّه لا توجد بنيويّة واحدة، وإنّما هناك بنيويّات تختلف وتتعدّد بعدد رجال الفكر البنيويّ أنفسهم.

إنّ مجال البنيويّة رحب يتعدى نطاق الأربعة العظام بحسب تعبير أوزياس وهم: لاكان وألتوسير وفوكو وليفي ستروس[7]. وبالفعل، إنّنا أمام بنيويّات رجال

(6) J. Piaget: *Le structuralisme*, Paris, PUF, 1968.

(7) جان ماري أوزياس، البنيوية، ترجمة ميخائيل مخول، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1972، ص10.

أمثال: بيير ماشري وجاك دولوز (1925-1995) ورولان بارت وغريماس (1917-1992) وكلود بريمون (1929-) وتودوروف (1939-) وجيرار جينيت (1930-) وبول ريكور Paul Ricoeur (1913-2005) واللائحة طويلة. ومن الأفضل في مثل هذه الحالات أن نتحدث عن «بنيويّين» أكثر مما ينبغي الحديث عن البنيويّة كمنهج أو مذهب متجانس علماً بأنّ العديد ممن ذكرناهم يرفضون هذه التّسمية أو على الأقل تصنيفهم داخل خانة البنيويّة والبنيويّين. ومن الممكن أن نربط البنيويّة التي نودّ الحديث عنها باسم صاحبها، كأن نقول مثلاً: بنيويّة دو سوسير، بنيويّة ياكبسون، بنيويّة ليفي ستروس، بنيويّة هيلمسليف، بنيويّة فوكو. ويقاس على ذلك باقي الأسماء التي نشطت في إطار المنهج البنيويّ والتي يضيق حصرها.

والبنيويّة كما يقول رولان بارت «ليست مدرسة ولا حتى حركة (على الأقل حتى الآن)، لأن معظم المؤلّفين الذين يرتبطون عادة بهذه الكلمة لا يشعرون أنّهم مرتبطون فيما بينهم برابطة التّعاليم أو المعرفة، إنّه مجرّد معجم[8]. إنّها نشاط إنسانيّ قبل أيّ شيء آخر، يتعدّى مجال التحليل الذّهنيّ ويتجاوزه. إنّ الإنسان البنيويّ هو الإنسان الذي لا نحكم عليه ولا نعرفه بأفكاره، وإنّما بطريقة تصوّره وإدراكه للأشياء؛ أي الطّريقة التي يتمثّل بها الأشياء والوقائع كبنية»[9].

غير أنّه لا ينبغي أن يُفهم من هذا الكلام استحالة الوقوف على مبادئ مشتركة بين البنيويّين على اختلاف مشاربهم من جهة واللسانيّين مهما تعدّدت مذاهبهم، من جهة ثانية. إنّ ما ذكرناه من صعوبات في موضوع الحديث عن البنيويّة، يعني أنّ أيّ حديث عن البنيويّة يجب أن يحدّد الإطار المعرفيّ والمنهجيّ لهذه البنيويّة أو تلك نظراً إلى تعدّد المشارب الفكريّة واختلاف المصادر الفلسفيّة والفكريّة. غير أنّ هذا التعدّد المعرفيّ والفكريّ يمكن إرجاعه إلى بنية فكريّة واحدة في إطار رؤية منهجيّة موحّدة الأسس، تنظر إلى الكون والأشياء والإنسان وفق منظور محدّد.

في ضوء هذه الملاحظات الأوّليّة، يمكن القول بأنّ ما يسمّى أسس

(8) Roland Barthes: «L'activité structuraliste», in *Les nouvelles lettres*, 1963.

(9) Ibid.

التحليل في اللّسانيّات (البنيويّة)، وهي الأسس التي انتقلت بشكل من الأشكال إلى باقي مجالات العلوم الإنسانيّة التي حذت حذو اللّسانيّات في الأخذ بالمنهج البنيويّ، يمكن ردّها إجمالاً إلى مفاهيم أوّليّة تتفرّع منها مفاهيم أخرى. وهذه المفاهيم الأساس هي:

- البنية
- العلاقات
- التّمييز بين الآنيّ والدّياكرونيّ

4. بين البنيانيّ والبنيويّ

قبل الحديث عن مفهوم «البنية» ينبغي التّنبيه إلى التّمييز الذي تقيمه اللّغة الفرنسيّة[10] بين الكلمتين Structurel وStructural وهوما نقترح مقابلته في اللّغة العربيّة بالبنيانيّ والبنيويّ. يقال عن علاقة ما بأنّها «بنيانيّة»، عندما تعتبر في دورها التّعينيّ ضمن تنظيم مُعطى، ويقال عنها في العلاقة نفسها «بنيويّة» حين نعتبرها، من حيث تقبّلها للتّحقيق في عدة تنظيمات. فبنيويّ يحيل على البنية بوصفها «نحواً» وبنيانيّ يحيل على البنية بوصفها واقعاً متحقّقاً[11]. وبعبارة أوضح، البنيانيّ structurel كل شكل له تنظيم وتركيب مجسّد، يمكن إدراكه حسّيّاً مباشرة في الواقع الخارجيّ، مثل: الحقائق الاجتماعيّة والاقتصاديّة والعمرانيّة: شكل البنايات، وهندسة شوارع المدن ودور السّكن إلخ....

أما البنيويّ structural فنصف به كل شكل أو تنظيم Organisation يقوم على أساس التآلف؛ أي التّرتيب والتّنسيق بين العناصر المكوّنة له، ينتج بالضّرورة دلالة معيّنة، مثلما هو الشأن في اللّغات الإنسانيّة وباقي الأنظمة السّيميائيّة الأخرى المستعملة في المجتمع مثل: قانون السّير والمورس morse واللّباس والعادات، وغيرها من مظاهر الحياة الاجتماعيّة والفكريّة.

في قانون السّير داخل المدار الحضريّ، يلاحظ مثلاً، أنّ الضّوء الأحمر له

(10) جان ماري أوزياس: البنيوية، مرجع سابق، ص16.
(11) المرجع السابق.

دلالة خاصة في إطار العلاقة التي تجمعه فقط بالضّوء الأخضر. وتنتج عن التّنسيق بين اللّونين (الأحمر والأخضر) بالضّرورة دلالة محددة تتمثل في الإشارة: قف/سر كما هو متداول عالميّاً. وخارج التنسيق بين هذين اللّونين في إطار قانون تنظيم السّير، تزول صلاحيتهما الإبرائيّة في تنظيم السّير داخل المدينة، وتسقط كلّ الدّلالات الممكنة التي يمكن أن تعطى لهما، كما تسقط كل الدّلالات الإجرائيّة المحتملة التي يمكن أن تعوّضهما في غياب عُرْف واصطلاح جديدين.

يعني هذا المثال المبسّط، أنّ ما هو «بنيويّ»، عكس ما هو «بنيانيّ»، يجب أن يُركّب ويُبنى، إن لم يكن نظريّاً فعلى الأقل تجريديّاً بعد إعمال مجموعة من الأساليب الإجرائيّة الاصطناعيّة التي يضعها الباحث وتمكّنه من القيام بعملية التّحليل المنهجيّ للكشف عما هو بنيويّ في مستوى آخر غير المستوى الواقعيّ البنيانيّ (الظّاهر للعيان). هذه الأساليب الإجرائيّة (وهي عادة ما يسمّى المنهج)، يتوسّل بها الباحث والمحلل البنيويّ في عمله على النّحو الذي سنقدمه لاحقاً.

1.4. مفهوم البنية

كلمة «بنية» مأخوذة من اللّغة اللّاتينيّة structura المشتقّة بدورها من الفعل struere (بنى) ومعناها في الأصل معنى معماريّ بحيث تشير الكلمة إلى الكيفيّة التي يشيّد بها بناء معيّن. وقد اكتسب لفظ «بنية» وما اشتق منه «بنيويّ»/«بنيويّة» أبعاداً معرفيّة جديدة، اكتسبت بدورها رواجاً منهجيّاً قلّ نظيره في الفكر الإنسانيّ الحديث، مما تسبّب في التباس المفهوم في الأذهان، بعد أن اقتحم كلّ المجالات المعرفيّة الحديثة، فبقدر ما يشيع استعمال مفهوم ما وينتشر، بقدر ما يتّسم هذا المفهوم بالغموض. وجدير بالذّكر أنّ مفهوم «البنية» يجسّد في الثّقافة العامّة صعوبة واضحة تتجلّى في كونه يرتبط بالإدراك الحسّيّ المباشر للكلمة ينتج عنه خلط واضح بين «البنيانيّ» و«البنيويّ» بالمعنى الذي سبق شرحه. ومردّ هذا الخلط هو أنّ كل جسم أو شيء يمكنه أن يملك بنية خاصّة، أو يشكّلها بحسب بنيانه وهيكله، شريطة أن لا يكون سديماً Amorphe. ولا يَسَعُنَا إلاّ أن نردّد مع غيرنا، **«أنّ كلمة البنية لا تضيف إلى أذهاننا شيئاً جديداً عندما نستعملها سوى**

أنّها شيء لاذع رائع»[12]. ويزداد إبهام المفهوم الذي يحيل عليه اللّفظ «بنية» حين يتداخل مع ألفاظ أخرى قريبة منه مثل:

- نسق système
- تنظيم organisation
- صورة forme
- هيكل ossature

وهي مفاهيم تأخذ دلالات مختلفة من نظريّة إلى أخرى ومن مجال معرفيّ إلى آخر.

وفكرة «البنية» في ذاتها ليست جديدة تماماً في الدّراسات اللّغويّة. إنها لا تعود إلى دو سوسير وحده؛ لقد انتبه إليها لغويّو القرنين الثّامن عشر والتّاسع عشر، لاسيما همبولدت والمتأثّرون بالعلوم الطّبيعيّة أمثال، شليغل وشلايشر وفرانز بوب[13]. فقد تحدث الأوّل مثلاً عن **البنية النّحويّة**[14] مرّات عديدة. واستعمل شلايشر عبارة «**البنية اللّسانيّة**» structure linguistique. ومع مطلع القرن العشرين استعمل اللّغويّ الفرنسيّ فندريس Vendryes (1875-1960) العبارة نفسها أي البنيّة النّحويّة، عدّة مرّات استعمالاً غير تقنيّ في كتابه اللّغة (ص361-408). وتذكر العديد من المصادر أنّ مفهوم البنية كان مألوفاً لدى تلامذة دو سوسير في باريس أمثال أنطوان ميّيه (وذلك قبل إعداد المحاضرات الشهيرة). فقد أعلن ميّيه محيلاً على دو سوسير هذا المفهوم بكيفيّة صريحة عدة مرّات، وكذلك فعل موريس غرامون M. Grammont (1866-1946)[15] وإلى الشّيء نفسه

(12) J.-Marie Auzias: *Le structuralisme*, Paris, Seghers, 1968, p. 15.

(13) Franz Bopp: *Grammaire comparée des langues indo-européennes comprenant le sanscrit, le zend, l'arménien, le grec, le latin, le lithuanien, l'ancien slave, le gothique et l'allemand*, Paris, Impr. impériale et impr. nationale, 1866-1874 nouv. éd. 1885-1889, 5 vol. trad. fr. par Michel Bréal, p. 3.

(14) A.-F. Schlegel: *Essai sur la langue et la philosophie des indiens*, traduit de l'allemand par M.-A. Mazure, Paris, Parent-Desbarbes Editeurs, 1837/1808, p. 34.

(15) E. Benveniste: «Structure en linguistique», p. 33 in *Sens et usage du terme* =

يذهب جورج مونان مؤكّداً أنّ ميّيه تحدّث عن فكرة البنية وطبّقها في كثير من أبحاثه المعاصرة لسوسير[16].

أمّا في مجال العلوم، فإنّ مفهوم البنية قديم جداً. فتصوّرا كوبرنيك (1473-1543) وغاليلي (1564-1642) للكون كانا تصوّرين بنيويين، لأنهما يقومان على فرضيّة عامة مفادها الارتباط العضويّ الوثيق بين الكواكب والأجرام. كما كان فهم ديكارت (1596-1650) وباسكال (1623-1662) ولايبنز (1646-1716) للنموذج الرّياضيّ فهماً بنيوياً أيضاً.

وفي العلوم الاجتماعيّة والاقتصاديّة، يقوم تصوّر كارل ماركس (1818-1883) في الاقتصاد على مفاهيم بنيويّة، حيث يتمّ طرح القضايا الاجتماعيّة والفكريّة والاقتصاديّة باعتبارها بنيات محدّدة المعالم ترتبط عناصرها ومقوّماتها ارتباطاً وثيقاً. ويمكن استحضار المفاهيم الكبرى في الفكر الماركسيّ مثل، «البنية التّحتيّة»/ البنيات التّحتيّة و«البنية الفوقيّة»/ البنيات الفوقيّة التي استعملها ماركس في كتاباته الفلسفيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة[17].

وقد أخذ مصطلح البنية أبعاداً جديدة مع التّصوّرات المنطقيّة والرّياضيّة الجديدة ابتداء من 1930 التي انتقلت بالمصطلح من دلالته العضويّة التي ارتبط بها، بل نشأ في أحضانها في العلوم الطّبيعيّة والإحيائيّة ليكتسي دلالة رياضيّة في إطار نظريّة النّماذج التي يدلّ فيها مفهوم «بنية» على نسق خاص من العلاقات أو القوانين التي تصف اشتغال الظّواهر التي يمثّلها هذا النّموذج[18].

إلا أنّ دو سوسير يعدّ أبرز الذين أكّدوا فكرة البنية أو النّسق Système كما

= *structure dans les sciences sociales et humaines*, édité par Roger Bastide, Mouton, la Hague, Paris, 2ième Edition, 1972/1962.

(16) G. Mounin: *La sémantique*, p. 78, Paris, Seghers, 1974.

(17) لمتابعة تاريخية لكلمة البنية في مختلف العلوم الدقيقة والاجتماعية والاقتصادية والإنسانية في العصر الحديث، يمكن الاطلاع على:

Roger Bastide (édité par): *Sens et usage du terme structure dans les sciences sociales et humaines*.

(18) Ibid, p. 13-14.

كان يسمّيها هو. وتكمن أهمّيّة دو سوسير في كونه بَحَثَ في مفهوم البنية بشكل واعٍ جاعلاً منها مفهوماً نظريّاً له أبعاد منهجيّة، فسّر على ضوئها كثيراً من القضايا اللّسانيّة.

وتعني البنية ضمن ما تعنيه من دلالات الأشياء التّالية[19]:

- المجموعة.
- أجزاء هذه المجموعة.
- العلاقة بين أجزاء هذه المجموعة.

يعرّف جون ليونز J. Lyons (1932–. . .) البنية بأنّها: «نظام من العلاقات أو مجموعة من الأنظمة يرتبط بعضها ببعض وحيث إنّ العناصر أصوات وكلمات، ليس لها أيّ قيمة باستقلال عن علاقات التّكافؤ والمقابلة التي تربطها»[20].

ويعرّف بياجيه بدوره البنية قائلاً: «إنّها منظومة من التّحولات. وتتكوّن المنظومة من قوانين باعتبارها منظومة مقابل خصائص الوحدات. وتحافظ المنظومة على نفسها، وتغتني عن طريق تحويلاتها، دون أن تخرج عن حدودها، أو تستدعي عناصر خارجة عنها»[21]. ويحدّد بياجيه خصائص البنية في:

- الشّموليّة Totalité
- التّحول Transformation
- الضّبط الذّاتي Auto-réglage

والمقصود بالشّموليّة أو الكُلّيّة، أنّ المهم في النّسق هو قانون الكلّ، وليس قانون الوحدات. فالكلّ هو نتيجة لمجموعة العلائق، والقوانين قوانين الكلّ. إنّ البنية تتكوّن من عناصر تخضع للقوانين التي تحكم المنظومة ككلّ، وليس قانون الوحدات مجتمعة. والكلّ في النّسق ليس جمعاً بسيطاً للوحدات المكوّنة

---

(19) Roger Bastide: «Introduction à l'étude du mot structure», p. 10 in *Sens et usage du terme structure dans les sciences sociales et humaines*.

(20) J. Lyons: *La linguistique générale: une introduction*, p. 41.

(21) J. Piaget: *Le structuralisme*, p. 7.

للمنظومة. يقول دو سوسير: «من الوهم اعتبار اللفظ جمعاً بين صوت ما وتصوّر معيّن، وتحديده بهذه الكيفيّة يعني عزله عن النّسق الذي يشكل جزءاً منه، والاعتقاد بأنّه بالإمكان البدء بالوحدات ثم نبني النّسق، وعلى عكس ذلك يجب أن ننطلق من الكلّ المتضامن لنحصل على تحليل العناصر التي يتضمّنها النّسق»[22]. إنّ مجموعة الأرقام الطّبيعيّة، مثلاً لم تكتشف بشكل متفرّق وفي ترتيب عشوائيّ، وبالتّالي؛ فهي لا توجد بكيفيّة يكون فيه كل رقم معزولاً عن الرّقم الآخر، رغم أن لكلّ رقم شكله الخاصّ به وطبيعته المرتبطة به.

ويعني التّحوّل، أنّ البنية ليست شيئاً جامداً أو ثابتاً، إنّها تتغيّر باستمرار، غير أنّ تحوّلها يظل ذا طبيعة داخليّة. إنّ تحوّل البنية وتغيّرها يولّدان دائماً عناصر تنتمي بالضّرورة إلى هذه البنية. ويمكن تشبيه هذه العمليّة داخل البنية بما يحدث تماماً في العمليّات الحسابيّة من جمع وطرح في إطار الأعداد الطّبيعيّة، حيث لا يخرج النّاتج دائماً عن مجموعة الأعداد الطّبيعيّة أيّاً كان عدد العمليات التي نقوم بها.

وأخيراً تتّسم البنية بالضّبط الذّاتي، وهو نوع من المحافظة على الذّات في شكل انغلاق تامّ على نفسها. إنّ البنية تحكم نفسها بنفسها، ومن ثمّ فهي ليست بحاجة إلى عناصر أجنبيّة خارجة عنها. إنّها تسيّر نفسها بحكم القانون الدّاخليّ في إطار العلاقات الدّاخليّة بين مكوّناتها التي تحكم النّسق داخلياً.

في مجال اللّسان، يُلاحظ أنّ الوحدات اللّغويّة بدءاً بالوحدات الصّوتيّة والصّرفيّة والمكوّنات التّركيبيّة، تبيّن بوضوح اشتغال البنية في إطار داخليّ ينتج دائماً ما ينتمي إلى النّسق اللّغويّ الذي تنتمي إليه الفونيمات والصّرفات التي يتمّ التآلف والتّنسيق بينها. إنّ الأصوات مضافة بعضها إلى بعض في حدود ما يسمح به النّسق الصوتي، تعطي وحدات لغويّة أكبر هي الصّرفات (المورفيمات) التي بدورها إذا أضيف بعضها إلى بعض، تعطي جملاً معيّنة. وبديهيّ أنّ عدد الأصوات والصّرفات في كل اللّغات الطّبيعيّة محدود، لكن الجمل والخطابات التي يمكن الحصول عليها، لا يمكن حصرها. إنّنا أمام ما يسمّيه مارتينيه

(22) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 157.

الاقتصاد اللّغويّ Economie linguistique[23] أو ما يعبر عنه تشومسكي بالخلق أو الإبداع اللّغويّ Créativité Linguistique.

ومجمل القول، إنّ البنية مجموعة من العناصر المترابطة فيما بينها. إنّ العنصر الواحد لا قيمة له إلا في إطار العلاقات التي تجمعه بباقي العناصر الموجودة معه في السّياق نفسه. إنّ عناصر اللّسان تظلّ محافظة على خصائصها ومميّزاتها وتظلّ هي نفسها بالنسبة إلى المتكلم. غير أنّ وجودها مع عناصر أخرى داخل السّياق هو الذي يعطيها قيمتها. إنّ ارتباط العناصر فيما بينها بهذا الشّكل، يجعل من اللّغة كما يقول دو سوسير **«صورة وليس مادة»**[24] «La langue est une forme et non une substance». إنّ الوحدات اللّغويّة (الكلمات) لا قيمة لها إن هي أُخذت بمعزل عن الوحدات الأخرى الموجودة معها. ولكي يصبح لها قيمة حقيقيّة، لا بدّ لها من سياق توجد فيه مع غيرها على أساس الاختلاف أو التّساوي، أو التّعاقب أو غيرها من أنواع التّقابلات.

إنّ المعجم العربيّ يعطي لكلمة «عين» مداخل معجميّة متعدّدة، أي معاني متنوّعة، لكن استعمالها في علاقات سياقيّة مع وحدات أخرى هو الذي يكسبها قيمتها الفعليّة في النّسق المستعملة فيه. وعلى هذا الأساس يميّز بين «العين: الجارحة» و«العين: الجاسوس» و«عين الشيء» «نفسه»، و«العين» «مصب الماء» وما إلى ذلك...

إنّ ما يهمّ المحلّل البنيويّ، ليس المادّة التي تتكوّن منها الوحدات، سواء تعلّق الأمر بالمادّة الصّوتيّة، أو المادّة الصّرفيّة أو غيرهما. ما يهمّ هو الصّورة أو الشّكل Forme. والمقصود بالصورة في أدبيّات اللّسانيّات البنيويّة هي العلاقات التي تجمع العناصر. يقول دو سوسير متحدّثاً عن لعبة الشّطرنج: «إذا غيّرت قطعاً خشبية بقطع من العاج أو الذّهب أو أي مادّة أخرى فإنّ هذا التّغيير لا يمسّ النظام في شيء ولكن عندما أخفض أو أزيد في عدد هذه القطع فإنّ هذا التّغيير يمسّ نحو اللعب»[25] Grammaire du jeu. وعلى هذا الأساس، فإنّ كلّ تغيير

(23) A. Martinet: *Eléments de linguistique générale*, Paris, Armand Colin, 1960/1978.

(24) Idem, p. 157.

(25) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 43.

يطرأ على العلاقة التي تجمع بين العناصر ينتج عنه بالضرورة تغيير عميق يصيب جميع باقي عناصر البنية.

2.4. البنية والنموذج

في الدّراسات اللّسانيّة وغيرها من العلوم الإنسانيّة، نجد أنفسنا أمام مفهوم «النّموذج» Modèle القائم على البنية. والنّموذج كما هو معروف جهاز تصوّري يضعه الباحث لفهم الظّواهر المدروسة وصفاً وتفسيراً. وقد يختلف من مجال إلى آخر؛ فالنّموذج في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة هو غير النموذج المستعمل في العلوم الرّياضيّة، أو الفيزيائيّة، أو الطّبيعيّة[26]. في هذه العلوم، يكون النموذج مجموعة من التّصوّرات والرّموز المجردة الموجودة تصوّريّاً فحسب. أمّا في العلوم الإنسانيّة، وفي مقدمتها اللّسانيّات، فإنّ النّموذج يحدّد انطلاقاً من العناصر المتآلفة المتناسقة التي يقود تناسقُها وتآلفها إلى وظيفة محدّدة.

ويمكن أن نميّز في العلوم الإنسانيّة بين اتّجاهين أساسيّين في تصوّر طبيعة النّموذج المتّبع في التحليل:

– اتّجاه يرى أنّ البنية تصوّر ذهنيّ عقليّ لا علاقة له بالواقع. إنّ التّحليل البنيويّ لا يعني الوصف المباشر للواقع المدروس. فالبنية الاجتماعيّة أو بنية المجتمع ليست هي العلاقات الاجتماعيّة، وليست هي الواقع الاجتماعيّ. ومن أكبر المدافعين عن هذا التّصوّر عالم الأنثروبولوجيا كلود ليفي ستروس. فالتّحليل البنيويّ عنده لا يعني تحويل الوقائع المدروسة إلى نظام جديد، وإنما يقتضي إعادة إنتاج هذا الواقع وبنائه وصياغته صياغة منطقيّة جديدة تكشف عن بنيته الدّاخليّة الخاصة به، إنّ البنية في هذا التّصوّر فكرة ذهنيّة مجرّدة[27].

– اتّجاه ينظر إلى البنية على أنّها مجموعة من العلاقات القائمة فعلاً بين الأشياء الموجودة في الواقع نفسه. ويدافع عن هذا التّصوّر اللّسانيّون البنيويّون الأميركيّون والعلماء الأنثروبولوجيّون الوظيفيّون.

وأيّاً كانت مظاهر الخلاف بين التّصوّرين، فالاتجاهان معاً يتجاوزان

(26) Revzin: *Les modèles en linguistique*, Paris, Dunod.

(27) Claude Levi Strauss: *L'anthropologie structurale*.

التّصوّر التّقليديّ في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة القائم على اعتبار الوقائع المدروسة ذرّات لكلّ منها كيانها الخاصّ بها.

5. القيمة والعلاقات

1.5. بين القيمة والدّلالة

يظهر مما سبق قوله أنّ البنية تقوم على ركيزتين أساسيّتين:

- القيمة Valeur.
- التّقابل Opposition.

المقصود بالقيمة أنّ العناصر اللّغويّة تشبه الوحدات الاقتصاديّة من عملة وبضاعة وما شابه ذلك. فقيمة كلّ قطعة نقديّة تحدّد بالقياس إلى ما يوجد معها من قطع نقديّة أخرى في إطار نسق ماليّ واقتصاديّ محدّد. إنّ القطعة النّقديّة الواحدة ـ أيّاً كانت فئتها ـ لا تملك في ذاتها قيمة مطلقة، ولا يمكن أن يُتصوّر لها أيّ وجود إبرائيّ ونفعيّ إلاّ إذا أمكن مقابلتها برصيدها الفعليّ ذهباً أو فضة، أو يوم عمل، أو قطعة من الخبز، أيّ كل ما يمكن أن تساويه في حياة مستعمل هذه القطع النّقديّة.

وبالكيفيّة نفسها، فإنّ قيمة العنصر الواحد داخل النّسق الذي يوجد فيه مع غيره من العناصر هو غير دلالته الخاصّة به، وهي الدّلالة التي يملكها موضوعيّاً، مما يعني ضرورة التّمييز بين الدّلالة Signification والقيمة Valeur. إنّ دلالة العنصر اللّغويّ هي مدخله المعجميّ، أي معناه المحايد المسجّل في المعجم. وهو معنى موضوعيّ يوجد باستقلال عن كل سياق لغويّ وعن كل استعمال فعليّ لهذا العنصر في علاقته مع عناصر أخرى. أمّا القيمة، فهي الدّلالة التي يكتسيها هذا العنصر أو ذاك في سياق معيّن من خلال طبيعة ونوعيّة العلاقات التي تجمعه بغيره من العناصر. إنّ قيمة عنصر معيّن تتجلّى في النّهاية من الموقع الذي يحتله في إطار علاقاته مع غيره. وبتعبير آخر، فإنّ الدّلالة قيمة مطلقة والقيمة دلالة نسبيّة.

ولأنّ ما يهمّ الباحث البنيويّ ليس هو مادّة العنصر أو جوهره، فإنّ العناصر داخل النّسق لا تملك هويّة قائمة في ذاتها وخاصّة بها، إلّا إذا أمكن للمتكلّمين

أن يسندوا إليها كلّ المعاني التي تدلّ عليها. ولا يمكن الوصول إلى هذا الغرض، إلاّ إذا اكتسبت العناصر المعنيّة القيم التي تستحقّها في إطار مجموعة الصّفات والخصائص التي تتقابل بها اختلافاً أو تكافؤاً مع صفات وخصائص باقي الوحدات المشكّلة للنّسق. إنّ مفهوم القيمة يسمح للتّحليل البنيويّ بفهم أعمق للكيفيّة التي تنتظم بها العناصر اللّغويّة لتؤدّي دورها في إنتاج المعنى، وبالتّالي في تحقيق عملية التّواصل بين المتخاطبين، أو أن تكون لها وظيفة ما بحسب مجال الدّراسة أو الاستعمال.

2.5. العلاقات

يرتبط مفهوم القيمة بمعناه السّابق بمفهوم آخر لا يقلّ عنه أهمّيّة هو مفهوم العلاقات. إنّ العلاقات بين العناصر المنتمية إلى البنية نفسها هي أساس تحديد طبيعة الارتباط القائم بين هذه العناصر، لأنّها تعطي كلّ عنصر من عناصر النّسق قيمته في إطار العلاقة، أو العلاقات التي تجمعه أو تفرّقه عن غيره مما يوجد معه أفقيّاً وعموديّاً. وتسير العلاقة بين عناصر النّسق في اتّجاهين:

- اتّجاه أفقيّ، هو اتّجاه العلاقات السّياقيّة **Relations Syntagmatiques**

- اتّجاه عموديّ، هو اتجاه العلاقات الاستبداليّة **Relations Paradigmatiques**

إنّ عناصر منظومة معيّنة تتقابل أو تتمالق (تدخل في علاقة) متساوية ومختلفة، انطلاقاً من هذين النّوعين المتميّزين من العلاقات ينتج كل منهما نسقاً خاصّاً من القيم النّسبيّة.

في الاتّجاه الأفقيّ، أو ما يسمى أيضاً بمحور التّوزيع **Axe de distribution** يعطي تعالق العناصر اللّغويّة فيما بينها داخل بناء معيّن صرفات محدّدة في مستوى الأصوات، ويعطي تراكيب جمليّة في مستوى التّركيب؛ أي العلاقة بين الصّرفات (الكلمات). إنّ الوحدات اللّغويّة: وحدات صوتيّة/صرفات/تنتظم الواحدة تلو الأخرى، من دون أن يحدث بينها أيّ التقاء أو اتّصال في نقطة معيّنة من محور التّوزيع، لأن كلّ وحدة تأخذ مكاناً خاصّاً بها في ارتباط مع الوحدة التي تجاورها موقعيّاً، أي التي تسبقها أو تلحقها.

والعلاقات السّياقيّة علاقة تقارب تجمع بين عنصرين أو أكثر، مما يعطي هذه العلاقة طابع الحضور والواقعيّة (In Parasentia). إنّ بناء الصّرفات وتكوين الجمل بكيفيّة سليمة يتم تباعاً عن طريق التّآلف الممكن بين الوحدات الصّوتيّة بالنسبة إلى الصّرفات، وبين هذه الصّرفات بالنّسبة إلى التّراكيب والجمل. إنّ الوحدات اللّغويّة في المستويات الصّوتيّة والصّرفيّة لا توجد بكيفيّة اعتباطيّة، ولكنّها تخضع لمجموعة من القواعد التي تتحكّم في تجاورها الموقعيّ Juxtaposition. إنّ قواعد التركيب في اللّغات الطّبيعيّة نوع من القواعد التي تضبط هذا النوع من العلاقات القائمة على التجاور الموقعيّ.

أما بالنّسبة إلى الاتّجاه العموديّ، فيتعلق الأمر بالعلاقات الاستبداليّة، (ويطلق عليها أيضاً العلاقات الجدوليّة أو علاقات محور الاختيار Axe du choix) إنّ العناصر اللّغويّة وهي خارج كلّ سياق واستعمال وتحديداً في مستوى ذهن المتكلّم تتوافر فيها بعض الخصائص المشتركة. إنّنا بحسب دو سوسير لا نستعمل هذا اللّفظ أو ذاك بطريقة اعتباطيّة داخل سياق معيّن، وإنّما نختاره ضمن كوكبة من العناصر التي تشترك معه في سمات معيّنة، وتختلف معه في أخرى كما هو الشّأن في المستوى الأفقيّ.

إنّ اللّفظ الواحد يستدعي في أنفسنا جملة من العلاقات مع ألفاظ أخرى تتوافر فيها كلّيّاً أو جزئيّاً خصائص صوتيّة أو صرفيّة أو تركيبيّة أو دلاليّة متشابهة، متقاربة أو متباعدة من هذه الناحية أو تلك. وقد لا تتوافر هذه الخصائص المشتركة في بعض الألفاظ أحياناً، مما يجعل المتكلّم أمام اختيار بين مجموعة من الوحدات اللّغويّة التي يستحضرها بصفة واعية أو غير واعية في الجدول نفسه Paradigme. إنّ الفعل «رأى» يثير في أذهاننا مجموعة من الأفعال الأخرى المشتملة على خصائص صرفيّة ودلاليّة مماثلة متقاربة أو متباعدة مثل: شاهد، أبصر، لمح، حدج، حدّق، نظر، ضرب، خرج...

وإذا كانت العلاقات السّياقيّة ذات طابع حضوريّ، فإن العلاقات الاستبداليّة لها طابع ضمنيّ وتقديريّ. إنها لا توجد إلا في ذهن المتكلّم In Absentia. وتجدر الإشارة إلى أنّ دو سوسير لم يحدّد بالضّبط الكيفيّة التي يتم بها تداعي العناصر اللّغويّة فيما بينها في ذهن المتكلّم. إنّ مفهوم التّداعي

Association عند دو سوسير يأخذ دلالة عامة، وهو مفهوم يكاد يكون قريباً من تصوّر علماء النفس في نهاية القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين. ويظهر هذا التّقارب بين التّصوّرين من خلال حرّيّة اشتغال عمليّة التّداعي نفسها عند دو سوسير وهو ما يتجلّى من المصطلح Rapports Associatifs الّذي استعمله دو سوسير. وقد تخلى اللّسانيون البنيويّون منذ هيلمسليف عن هذا المصطلح لما يوحي به من خلط بين المنظور النّفسيّ والمنظور اللّغويّ، مفضّلين استعمال مصطلح العلاقات الاستبدالية Rapports paradigmatiques.

3.5. العلاقات الاستبدالية: إعادة تركيب(28)

يفهم من قراءة نص **المحاضرات** لدو سوسير(29)، أن عملية الاستبدال تتم على أحد الأسس التالية:

- وحدة الجذر أو الأصل.
- التّشابه المدلوليّ.
- التّشابه الدّاليّ.
- التّشابه في الصّيغة الصّرفيّة.

بالنّسبة إلى وحدة الجذر، فإنّ الوحدات المتداعية فيما بينها، تشترك في المادّة التي تشتقّ منها. إنّ المادة [ع ل م] تستدعي في أذهاننا جملة من الوحدات اللّغويّة، مثل: عِلْم/ معلّم/ تعليم/ علامة علم/ عالَم/ عالِم وبين هذه الوحدات علاقة اشتقاقية بيّنة.

أما في مستوى التّشابه المدلولي القائم بين الوحدات المتداعية في ذهن المتكلّم، وهو تشابه يلتقي في عدة جوانب مع وحدة الجذر أو المادّة المعجميّة. فلا علاقة بين وحدات مثل: تربية، تعليم، تلقين، تثقيف، تمدرس، معرفة، فنّ، علم، ثقافة، صنعة، إلاّ ما تدل عليه هذه الوحدات، من حيث إنّها تندرج في

(28) H. Frei: «Ramification des signes dans la mémoire», In *Cahiers de F. de Saussure*, n° 2/1942, Genève, Droz.

(29) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 177-181.

حقل دلاليّ واحد هو حقل «المعرفة» بصفة عامة، لتتدخل بعد ذلك بعض الضوابط والقيود العلاقيّة التي تحدد القيمة المطلوبة التي تجعل المتكلّم يختار في النّهاية هذه الوحدة دون غيرها.

وأخيراً، هناك التّشابه الذاتيّ أو الصّوتيّ، إذ يلاحظ أنّ بين الكلمات المتداعية تجانساً صوتيّاً. فالعلاقة بين «تعليم» و«تلحيم» و«تشحيم» و«تكليم» و«تلغيم» و قس على هذا، علاقة تشابه في الصّوت أي الشّكل الخالص للوحدة (وجود أصوات التاء والياء والميم). إنّ الصورة الشّكليّة على مستوى الدّالّ Signifiant، أي البنية الصّوتيّة هي الحافز المباشر وراء عملية التّداعي بين هذه الوحدات اللّغويّة. كما يمكننا أن نلاحظ ما بين هذه الوحدات المتداعية من علاقة صرفيّة من خلال اشتراكها في الصيغة الصّرفيّة «تفعيل».

وبعبارة أوضح، فإنّ الوحدات المنتمية إلى محور دلاليّ واحد (أو حقل مفهوميّ واحد)، تخلق في ذهن المتكلّم ما يمكن أن يسمّى بأسرة المفردات، أو ما يعبّر عنه عادة بالمترادفات. ويبقى السؤال المطروح، هو كيف يمكن للمتكلّم أن ينتقل من وحدة إلى أخرى؟ لا يجيب دو سوسير عن كيفيّة حدوث هذا النقل Transposition.

حاول بعض اللّسانيّين البنيويّين ضبط هذه العمليّة على نحو ما فعل H. Frei حين ميّز بين نوعين من النقل[30]:

- النّقل الموجّه Transposition dirigée
- النّقل الحرّ Transposition libre

في النّقل الموجّه، لا بدّ من توافر وحدة لغويّة تكون هي منطلق التّداعي Transponende، ووحدة تكون هي حاصل النّقل Transposante. ويتمّ الانتقال من المنطلق إلى الحاصل بواسطة صيغة يطلق عليها النّاقل Transpositeur تحمل هذا الحاصل من صيغته الصّرفيّة الأصل، أو مقولته التّركيبيّة الأولى إلى أخرى، كالانتقال من المصدر إلى الفعل أو العكس، أو الانتقال منهما إلى باقي المشتقّات. ففي اللّغة العربيّة يكون منطلق النّقل هو المادّة «ض،ر،ب»، أمّا

(30) Idem.

حاصل النّقل فيكون إحدى الوحدات: ضرب، ضارب، مضروب، الضّرب، اضطراب، إضراب.

ومجمل القول أنّنا نشعر في هذا الضّرب من النّقل بنوع من التّوجيه، سواء اتّفقنا على الوحدة المصدر أم لم نتّفق (إشكاليّة العلاقة بين الأصل والفرع في التقليد النّحويّ واللّغويّ العربيّ). ومن أمثلة النّقل الموجّه الانتقال من الاسم إلى صفة هذا الاسم أو النّسبة إليه كما في الأمثلة التالية:

ورد ——← ورديّ

بُن ——← بنيّ

أمّا في النّقل الحرّ، فالعلاقة بين الوحدات غير محدّدة بشكل معيّن، أي أنّ هناك غياباً لكلّ عناصر التّوجيه التي سبقت الإشارة إليها، والتي من شأنها أن تجعل الانتقال من عنصر إلى آخر أمراً ممكناً.

وقد تمّ ضبط طبيعة العلاقات الاستبداليّة بين الوحدات اللّغويّة بشكل دقيق مع اللّسانيّ الدّانماركيّ لويس هيلمسليف[31] الذي حدّد شروط استبدال الوحدات كما يلي:

– أن تكون الوحدات المستبدلة متقاربة دلاليّاً، أي أن تنتمي إلى الحقل الدّلاليّ نفسه أو المحور المفهوميّ نفسه، وهو ما يعني أن تتوافر في الوحدات الخصائص الدّلاليّة نفسها، أو بتعبير غريماس[32] يكون لها النواة الدّلاليّة Noyau Sémique نفسها.

– أن تنتمي الوحدات المستبدلة إلى المقولة التّركيبيّة نفسها، فلا يستبدل الفعل إلا بفعل آخر، ولا يستبدل الاسم إلا باسم آخر صريحاً كان أو مؤوّلاً.

– أن تؤدّي الوحدات المستبدلة الوظيفة التّركيبيّة نفسها، فلا يستبدل الاسم الفاعل إلا باسم فاعل وهكذا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصّيغ الصّرفيّة وأزمنة

(31) L. Hjelmslev: *Essais de linguistique*, Paris, Minuit, 1972.

(32) J.-J. Greimas: *Sémantique strcuturale*, Paris, Larousse, 1966.

الأفعال، فلا يستبدل الماضي إلا بالماضي. إنّ علاقات الاستبدال هي علاقة تشابه بين الوحدات التي يمكنها أن توجد في الجدول نفسه.

6. التّقابلات الصّوتيّة وأنواعها

يؤكد تروبتسكوي هذه التقابلات قائلاً: «**إنّ الدور الأساس في الفونولوجيا لا يأتي من الوحدات الصّوتيّة في ذاتها، ولكن من التقابلات المميّزة**». وينبغي أن نفهم أنّ التقابل يعني أنّ هناك على الأقل سمة trait واحدة (وقد تكون أكثر من ذلك) تتميّز بها وحدة صوتيّة دون غيرها من الوحدات، وهذا لا يعني عدم وجود سمات أخرى مشتركة بين الوحدات المتقابلة. وتعد السّمات المشتركة أساس المقارنة؛ إذ إنّ كلّ وحدتين لا يتوافر فيهما هذا الأساس لا يمكنهما أن تشكّلا تقابلاً. فإذا كان هناك صوتان يظهران في المحيط الصوتيّ نفسه، ويمكن معاقبة Substitution أحدهما بالآخر، من دون أن ينتج عن ذلك اختلاف في معنى الكلمة، فإنّ هذين الصّوتين بديلان لوحدة صوتيّة واحدة[33]. وقد يحصل عكس هذا. يقول تروبتسكوي: «إذا كان هناك صوتان يظهران في الموقع الصّوتيّ نفسه، ولا يمكن معاقبة أحدهما بالآخر من دون تغيير في معنى الكلمات، فإنّ هذين الصّوتين تحقيقان لوحدتين صوتيّتين مختلفتين»[34]. ومن هنا، فإنّ لكل وحدة صوتيّة خصائص وظيفيّة خاصّة بها، بمعنى أنّها تقوم بوظيفة معيّنة داخل سياق الجملة، إذ إنّها تميّز بين معاني الكلمات، وهي الخاصّيّة التي وسمتها مدرسة براغ بالسمات المميزة (Traits distinctifs). إنّ مفهوم الملاءمة Pertinence يسمح لنا بالتّمييز بين ما هو أساسيّ وما هو ثانويّ. فالعلاقة الأولى تؤدّي إلى تغيير في وظيفة الوحدات من خلال تغيير معنى الرّسالة اللّغويّة، وبالتّالي يكون لها دور في عملية التّواصل. إنّ الغاية في كل عمليّة صوتيّة هي التّواصل.

وعلى هذا الأساس، نهتمّ بالوظيفة المميّزة التي تقوم بها الوحدات. فالخصائص المميّزة هي وحدها المقبولة من وجهة التّحليل اللّسانيّ (الصّوتيّ)

---

(33) N.-S. Troubestkoy: *Principes de phonologie*, Paris, Klienckscick, 1948, p. 47.

(34) Idem, p. 33-49.

البنيويّ، مما يجعلنا ننظر في تحليل الوحدة الصّوتيّة من زاوية واحدة هي وظيفتها المميّزة. واعتبار هذه الوظيفة ذات نتائج نظريّة ومنهجيّة مهمّة.

وتضيف مدرسة براغ إلى فكرة «الوظيفة» أو «السّمات المميّزة» أو على الأصح تترتب عليها مبدئياً فكرة ثانية هي فكرة «التّقابل» Opposition. وتنطلق مدرسة براغ في هذا الشأن من قولة دو سوسير المشهورة: **«ليس في اللّغة إلا الفروق»** [الاختلاف]. يقول تروبتسكوي: **«إنّ فكرة الفرق تستلزم فكرة التّقابل. إنّ شيئين لا يمكنهما أن يفترقا إلاّ في حدود أنّ كلاًّ منهما يقابل الآخر»**[35]. إنّ كلّ تقابل بين وحدتين مختلفتين ينتج عنه تغيير في معاني الكلمات داخل لسان معيّن نسمّيه التّقابل الصّواتيّ Opposition Phonologique أو المقابلة الصّواتيّة المميّزة opposition phonologique distinctive.

إن التقابل بين الوحدتين الصوتيتين/ ر/ و/ غ/ في الوحدتين/ راب/ و/ غاب/ تقابل صواتي مميّز، لأنّه يعطينا معنيين متميّزين ومختلفين. ويتمّ التّقابل على أساس رائز الاستبدال commutation، أي أنّنا نستبدل الرّاء بالغين فنحصل على وحدة جديدة (معنى جديد) وهكذا.

ولو نظرنا إلى الجدول الصّوتيّ لأيّ لسان لوجدنا أنّ وحداته الصّوتيّة (وغير الصّوتيّة)، لا بدّ أن تقدّم تقابلاً صواتيّاً من نوع ما بين كلّ الوحدات الصّوتيّة التي تشكّل النّسق الصّواتيّ لهذا اللّسان، ولا يمكن العثور على وحدتين صوتيتين تتّفقان في المخرج والصّفة اتّفاقاً تامّاً وكلّيّاً. نلاحظ مثلاً، أنّ اللّغة العربيّة لها صوت الباء وهو صوت مجهور، يحدد بتقابله مع الفاء لأنها صوت مهموس. بيد أنّ خاصّيّة الشّفويّة المتوافرة في الباء لا مقابل لها في الفاء، وبالتالي فهي ليست سمة مميّزة، لأن اللّغة العربيّة لا تشتمل على /P/ ولا على صوت /V/ الذي نقابل به الفاء /F/، كما هو الشأن في الفرنسيّة التي تعرف كما هو معلوم تقابلاً بين /b/-/P/ وبين /F/-/V/.

---

(35) Idem, p. 50.

ويبدو أن تروبتسكوي أخذ فكرة التقابل فيما يظهر لنا من فكرة النّسق عند دو سوسير، حيث إنّ عناصر النّسق ترتبط فيما بينها ارتباطاً عضويّاً، ولا قيمة لأيّ عنصر بمعزل عن عناصر النّسق. وبما أنّ الوحدة الصّوتيّة هي أيضاً وحدة داخل نسق من نوع ما، فينبغي أن تحدد بواسطة علاقات التّقابل مع باقي وحدات النّسق. إنّ التّقابل بصفة عامّة، إنّما يعني الفرق بين وحدتين صوتيّتين، كأن يكون أحدهما مجهوراً والآخر مهموساً (د/ت)، أو بين(د/ز) وكلاهما مجهور، ولكنهما يتقابلان في كون الأول شديداً والثاني رخواً وهكذا. وبعبارة أخرى، فإنّ التّقابل يعني «التّضادّ»، إذ لا تجتمع سمات وحدتين صوتيّتين معاً على السّلب ولا على الإيجاب، وإنّما ينبغي أن تكون سمات الوحدة الواحدة سلبيّة في حالة إيجاب سمات الوحدة الأخرى والعكس، شريطة أن تنتميا معاً إلى مخرج واحد.

وفي مجال الفونولوجيا Phonologie، حدّدت مدرسة براغ مجموعة من التّقابلات الاستبدالية التي أثبتت فعاليّتها في التّحليل الصّواتيّ البنيويّ، باعتبارها بالنسبة إلى تروبتسكوي تساعد على تحديد الوحدات الصّوتيّة (الفونيمات) وهو هدف الدّراسات الفونولوجيّة. ونذكر من هذه التّقابلات ما يلي(36):

– التّقابلات الثّنائيّة Oppositions bilatérales وتتعلق بزوجين صوتيّين، حيث تشترك بعض الأزواج الصّوتيّة في أكبر عدد ممكن من السّمات مقارنة مع غيرها من الأزواج الصّوتيّة. فالتقابل الموجود بين /ك/ و /خ/ يكشف اشتراكهما في «السّمات التّالية: + فميّ، + طبقيّ، + مهموس. وكلما ازدادت السّمات الجامعة بينهما كانت العلاقة بينهما أكثر متانة».

– التّقابلات المتعدّدة الجوانب Oppositions multilatérales وهي التي تهمّ

(36) N.-S. Troubetskoy: *Essai d'une théorie des oppositions phonologiques* publié en 1936 republié dans: *Jacob: genèse de la pensée linguistique*, p. 198-207, Paris, Armand Colin, 1973, voir aussi des exemples concernant les oppositions dans: Fages: *Comprendre le structuralisme*, Toulouse, Privat, 1968.
وبالنسبة إلى اللّغة العربيّة، اعتمدنا الأمثلة التي قدمها أحمد مومن في مؤلّفه: **اللّسانيّات، النشأة والتّطوّر**، ص144-145 ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002. وقد حافظنا على الأمثلة الصوتية وتصرفنا في الشّرح والتّقديم.

وحدتين صوتيّتين تقومان على أساس سمات مشتركة ضئيلة. فالزوجان /و/ – /ي/ أو /a/ –/i/ لا يشتركان في شيء سوى كونهما من الصوائت voyelles.

– التّقابلات النّسبيّة Oppositions proportionnelles. وذلك إذا كانت السّمة المميّزة نفسها موجودة في وحدات صوتيّة أخرى. فسمّة الجَهْوَريّة سمة مميّزة ليس فحسب بين /p/ – /b/ بل بين أزواج أخرى مثل: /t/ – /d/ و/k/ – /g/.

– التّقابلات المنعزلة Oppositions isolées وهي التي لا تخضع لنموذج مشترك.

– التّقابلات السّالبة Oppositions privatives وهي التي تقوم بتمييز وحدة من أخرى حيث تكون واحدة موسومة (مُعلَمَة) marqué وأخرى غير موسومة Non marqué. أي أنّ أحد الفونيمين يتضمن سمة صوتية غير موجودة في الطّرف الآخر ومثال ذلك: س/ز و د/ت و ث/ذ

التقابلات المتكافئة Oppositions équipolantes، حيث يكون لكلّ عنصر في التّقابل سمة مميّزة لا توجد في العنصر الآخر ولكنّ هذه السّمة لا تعطيه أيّ امتياز للوحدة المستبدلة كالتّقابل الصّوتيّ بين /p/ و/t/ و /k/ وبين /م/ و/ع/ وبين /ب/ و/خ/.

– تقابلات ثابتة Oppositions Constantes.

– تقابلات قابلة للحذف Oppositions supprimables.

أمّا التّقابلات التي لا تنتج دلالة، أي التي لا تقوم بأيّ وظيفة، فلا يُهتمّ بها بنيويّاً، بل تعتبر بدائل تآلفيّة Variantes combinatoires، كما هو الشّأن في بعض التّقابلات الصّوتيّة في اللّغة العربيّة: السّراط/الزّراط/الصّراط.

7. التّقابلات في الصّرف والتّركيب

وكما طبّق هذا المبدأ بنجاح في مجال الصّواتة، فإنّه طبّق بكثير من التّوفيق في المجال الصّرفيّ والتّركيبيّ. ومن دون الدّخول في تفصيلات هذا التّطبيق، وعلى غرار النّموذج الصّواتيّ، نقول بأنّ أصغر وحدة على المستوى الصّرفيّ

التّركيبيّ morpho-syntaxique هي المونيم monème كما يسمّيها مارتينيه أو المورفيم morphème في اصطلاح اللّسانيّين الأميركيّين.

إنّ اللسانيّين البنيويّين الأميركيّين يعتبرون الجملة سلسلة من الوحدات الصّرفية التي لا تتجاور بشكل اعتباطيّ، بل إنّ كل مكوّن فيها يحتل موقعاً ما بحسب علاقته بالمكوّنات الأخرى المجاورة له. ومن هنا التجأ أتباع بلومفيلد إلى البحث عن خصائص مكوّنات من الجملة عن طريق تحديد مواقعها الممكنة. ويتمّ تحديد موقعيّة وحدة ما، ولنسمّها ص في جملة ج، بأن نقوم بحصر وتعداد مجموعة الوحدات، ص1 ص2 ص3 التي تسبق ص في الجملة ج، ومجموع الوحدات، ص4 ص5 ص6 التي تأتي بعد ص في بنية الجملة نفسها.

إنّ الموقع هو المكان الذي تأخذه وحدة معيّنة في تركيب معيّن. ونظراً إلى كون التّحليل التّوزيعيّ لا يأخذ في الاعتبار معنى الوحدات ولا يهتمّ به في تحديد وحدات الجملة، فإنّه يعتبر أنّ الموقع الذي تحتله الوحدات هو الذي يحدّد معناها، أي أنّ مدلول الوحدات مدلول وظيفيّ فحسب، مرتبط بالموقع الذي توجد فيه. كما أنّ المواقع التي تحتلّها هذه الوحدات هي وظائف الوحدات نفسها. إنّ معنى بناء تركيب يمكن أن يقسم إلى أجزاء لكلٍّ منها موقع، ومعانٍ بحسب الوظيفة التي تشغلها في هذا الموقع. فالاسم له عدّة وظائف لأنّ له عدّة مواقع. وتستخدم فكرة الموقعية Positionnement لتحديد توزيع الكلمة. ومجموع المواقع هو ما يسمّى بتوزيع الكلمة. يقول هاريس Harris مُعرّفاً التّوزيع: «توزيع وحدة ما هو مجموع المواقع التي يمكنها أن تحتلّها هذه الوحدة، وهو ما نسمّيه علميّاً بالتّوزيع داخل نماذج من الأحاديث الصّغرى التي يجب أن تنتمي إلى الجزء نفسه من الجملة»[37]. بعبارة أبسط نقول إنّ التّوزيع هو المواقع التي نجد فيها الوحدات داخل جمل تنتمي إلى متن لغويّ معيّن Corpus.

ومع أنّ بلومفيلد رائد البنيويّة الأميركيّة لم يتحدّث كثيراً عن التّوزيع، فإنّ أتباعه وتلاميذه أمثال: Hockett، Wells و Harris وغيرهم تبنّوا هذا المبدأ وطوّروه.

(37) Z.-S. Harris: «La distribution», in *Langages* N°20, Paris, Larousse, 1970/1954.

لتحديد توزيع الوحدات المكوّنة لبعض الجمل نفترض عدداً من الجمل التي تشكّل متناً لغويّاً مصغّراً. وهذه الجمل هي:

1) ضحكت الفتاة.

2) لعب الولد بالكرة.

3) تكلم الولد مع الفتاة.

4) نظرت الفتاة إلى الولد.

5) شاهدت الفتاة الولد.

6) تكلم الولد.

7) شاهد الولد الفتاة.

8) إنّ الولد النّشيط محبوب.

9) كان الولد يلعب بالكرة.

10) سقطت كرة الولد في الحديقة العموميّة.

11) دع اللعب يا ولدي.

تعمدنا أن نكرّر وحدة (ولد) في معظم الجمل. وإذا ما حاولنا أن نبيّن توزيعها بإحصاء جميع المواقع، قلنا بأنّ الوحدة (ولد) تأخذ أداة التعريف 'أل' في جميع الجمل عدا الجملة (11). وقد تسبقها حروف أخرى كحروف الجرّ أو النداء وتتّصل بها أدوات أخرى كالضّمائر وتدخل عليها 'إنّ' وما يشابهها. وقد تسبق الوحدة 'الولد' بفعل كما في الجمل 2-3-6-7-9. ويأتي بعدها أسماء أخرى إذا كان الفعل متعدياً، ويأتي قبلها اسم فتكون 'مفعولاً به' كما في الجملة (5) أو بعد اسم فتكون مضافة كما في الجملة (10) أو بعد حرف الجرّ فتكون مجرورة كما في الجملة (4). إلخ...

والحقيقة أنّه من الصّعب تحديد جميع المواقع التي قد تحتلها كلمة «ولد» في اللّغة العربيّة، لأن هذه المواقع متعددة، ولا يمكن حصرها مطلقاً، وإنّما نلجأ إلى التّعميم والتّجريد مع محاولة وضع الأصول الثّابتة بإدخال كلّ وحدة داخل فئة من

فئات الكلام، مما يُسهّل علينا تقسيم الوحدات اللّغويّة إلى الفئات التّالية:

وهي الأشكال التي لها نفس توزيع الوحدة «ولد» ونسميها الأسماء، ونرمز إليها بـ س ـ (اسم).	الولد ــ الفتاة الكرة ــ الحديقة إلخ...
وهي الوحدات التي لها توزيع الوحدة نفسه (ضحك) ونسميها الأفعال، ونرمز إليها بـ ف ـ (فعل).	ضحك ــ لعب شاهد ـ إلخ. . .
مجموعة من الأدوات لها التوزيع نفسه كـ (ال) ونسميها المحدّدات، ونرمز إليها بـ مح (محدّد).	ال ـ . . .
أشكال لها التوزيع نفسه ونسميها الحروف، ونرمز إليها بـ ح (حرف).	إلى ـ مع في ـ إلخ. . .

ويعني المختصر الخ أن العناصر التي توجد في كل مجموعة هي عناصر غير منتهية، مما يسمح بإدخال مفردات أخرى يمكنها أن تحتلّ الموقع نفسه. ويمكن أن نتصوّر الجمل السّابقة توزيعيّاً كما يلي:

1) ف + مح + س

2) ف + مح + س + ح + مح + س (ح = حرف)

3) ف + مح + س + ح + مح + س

4) ف + مح+ س + ح + مح + س

5) ف + مح + س + مح + س

6) ف + مح + س

7) ف + مح + س + مح + س

8) ح + مح + س + مح + ص + ص (ص = صفة)

9) ف + مح + س + ف + ح + مح + س

10) ف + س + مح + س + ح + مح + س + مح + ص

11) ف + مح + س + مح + س + مح

وتجدر الإشارة أنّ تقديمنا يتّسم بالتبسيط والتّوضيح، وليس له أيّ غاية تنظيريّة، وهذا ما يفسّر إهمالنا عمداً كثيراً من الجزيئات المتعلقة بتحديد مواقع الأشكال اللّغويّة في الجمل السّابقة. كما أغفلنا مشكلة المطابقة من حيث التّذكير والتّأنيث لتسهيل الرّسم فقط. وقد احتفظنا بالبنيات المشتركة بين الجمل السّابقة. وانطلاقاً من هذه البنيات التّركيبيّة، يمكننا أن نقول إنّ الاسم يسبقه «فعل ومعرّف أو اسم»، ويمكن أن يأتي «ضميراً» و«صفة» و«اسماً»، ولكنه لا يقبل أن تدخل عليه بعض الحروف مثل، قد ولن وما شابههما. أمّا الفعل فهو الفئة من الوحدات التي تأتي في أول الكلام، ويأتي بعدها الاسم والحرف وتدخل عليها الضّمائر ولكنها لا تقبل دخول حروف الجرّ ولا أدوات التعريف.

ويظهر أنّ التّوزيعيّين كانوا يفضّلون تطبيق التّوزيع في منأى عن أي عناية أو اعتبار للمعنى، ممّا جعل دراستهم صوريّة على غرار اتّجاهات بنيويّة أخرى. ويقتضي التّحليل التّركيبيّ عند البنيويّين الأميركيّين تصنيف الأشكال اللّغويّة، أي الوحدات اللّغويّة في فئات معيّنة بناءً على توزيعها داخل الجمل. فالأشكال التي لها وظائف مماثلة تكون فئة خاصة: (الأفعال- الأسماء- الحروف- الصّفات).

قمنا فيما سبق بتقديم بسيط لما يسمّى بالتّحليل التّوزيعي على مستوى العلاقات التّركيبيّة. ويضيف البنيويّون الأميركيّون إلى فكرة التّوزيع مبدأ العلاقات الاستبداليّة الذي اعتمدته سائر المدارس اللّسانيّة البنيوية. وتعدّ العلاقات الاستبداليّة المحرّك الأساسي للنّحو التّوزيعيّ. وتقوم على استبدال الوحدات، أي على التشابه أولاً والاختيار بين الأشكال ثانياً كما رأينا. فعندما نجمع (فتاة) و(ولد) و(طفل) و(رجل) و(شيخ) في فئة واحدة، فإنّ ذلك يعني أنّه يمكن إجراء استبدال بينها. إنّ الواحدة منها يمكنها أن تحتلّ مكان الأخرى. أما تعالقها على المستوى التّركيبي، فيظهر في كون كلّ منها يجاور الفعل والاسم والحرف في

علاقات متنوّعة. فالوحدة (فتاة) ترتبط بمعرّف سابق، وقد تأتي بعد الفعل أو بعد الاسم كما تأتي بعد الحرف. ويمكن أن نصوّر هذه العلاقات كما يلي:

ف + ال	ولد	+ ال + س	صافح الولد البنت
	بنت	ح+ ال + س	ذهبت البنت إلى المدرسة

أو:

ف + ال	س + ح+	ال	بنت
			ولد

	اكل	الولد التفاحة
		فتاة
		طفل

بالنسبة إلى النّحو التّوزيعي الذي يعتمد الوصف اللّغويّ الصّوريّ، فإنّ الوحدتين (ولد) و(فتاة) متساويتان، وتنتميان إلى المصفوفة نفسها Paradigme وهي قائمة من الوحدات التي يمكن أن يقع الاستبدال بينها داخل الموقع نفسه:

يلعب	أخي الصغير	يأكل	التفاحة
	أحد أصدقائي	يلهو	
	هذا الذي تراه	ينوي	أن يسافر غداً

ولا يهتمّ اللّسانيّون التّوزيعيّون بالوحدات المجرّدة فحسب، مثل (ولد) أو (فتاة) وإنّما يوسعون بنية الوحدات المستبدلة فيهتمّون بالعلاقات التي تجمع بين

المركّبات سواء الاسميّة أو الفعليّة. فالمركّب الاسميّ هو (أل + س) [تعريف + اسم] والمركّب الفعلي هو التركيب الذي يكون على رأسه فعل ثم تليه عناصر أخرى. هذه المركّبات وغيرها (المركّب الحرفيّ والمركّب الظّرفيّ) تدخل بدورها في علاقات تركيبيّة وجدوليّة.

وكان لهذه الأساليب التّوزيعيّة فعاليّة ملحوظة في وصف العديد من اللّغات المجهولة أو التي لم يسبق وصفها. ولا ينتهي التّحليل التّوزيعيّ عند تحديد الوحدات وتصنيفها في مقولات أساسية مثل الاسم والفعل والحرف، وإنما تطبق المعايير نفسها على باقي وحدات الجملة سواء تعلّق الأمر بالأشكال الحرة [وحدات مستقلة] أو بالأشكال المرتبطة مثل الضّمائر المتّصلة.

ولعلّ في هذه التّطبيقات والنّماذج ما يبرّر تسمية البعض للمنهجيّة المعتمدة في البنيويّة بأنّها «فلسفة علائقيّة»، لأنها تجعل من العلاقات أساس كلّ شيء. إنّ التّحليل البنيويّ يجب أن لا يتجاوز إطار العلاقات الدّاخليّة بين مكوّنات النّسق، وبالتالي هناك إقصاء لكلّ العوامل الخارجة عن البنية. والتّحليل البنيويّ لا يهتمّ بالمعنى في ذاته، إذ لا يتعلق الأمر بتحديد المعنى الحقيقي أو الرمزي أو إيجاد معنى جديد للنّصّ المطروح. كما لا يتعلّق الأمر بتحديد تكوين النّصّ ونشأته Genèse ولا بتاريخه وتاريخ المتكلّم ووضعه الاجتماعيّ والنّفسيّ وأسباب القول والأهداف المتوخّاة من عمليّة الكلام أو من النّصّ. إنّ المهمّ هو الكشف عن شروط الدّلالة، أي تجلّيات المعنى وهو ما وصفه بعض البنيويّين بلعبة فكّ البناء Jeu de Dé-construction (درّيدا Derrida) أي كلّ ما يجعل من الدّلالة التي تظهر عبر الجمل والخطابات والنّصوص التي تسمع أو تقرأ شيئاً ممكناً.

إنّ المبدأ الأساس في التّحليل البنيويّ، هو البحث عن القواعد الدّاخليّة المتحكّمة في ظهور المعنى. باختصار ليس المهم البحث عن معنى الشّكل، ولكن المهمّ هو الوصول إلى الكيفيّة التي تتمّ بها الدّلالة. ليس المهم ما يقول النّصّ، ولا من يقول هذا النّصّ، ولكن المهمّ: كيف يقول النّصّ ما يقوله(38).

---

(38) Groupe d'Entreverne: *Analyse sémiotique des textes*, Lyon, Presses Universitaires de Lyon, 1979.

ولم يخرج التّحليل اللّسانيّ البنيويّ عن إطار التّحليل التّقليديّ للمقولات التّقليديّة، كالاسم والفعل والصّفة والحرف. ومنهجيّتهم في التّحليل، بناء على مفهوم التّوزيع طريقة معروفة جداً عند النّحاة الأقدمين إلّا ما كان من اعتماد المعايير الشّكليّة وإبعاد كل إحالة للمعايير الدّلاليّة أو المفهوميّة في التّحليل. ولا شكّ أنّ في النحو العربي ما يشبه هذه الطريقة، حينما قسّم النّحاة الكَلِم إلى أجزاء. كما أنّ بعض القواعد النّحويّة في العربيّة شاهدة على ذلك كقولنا "تدخل «كان» على المبتدأ والخبر"، أي أنّ هناك تحديداً لأنواع الكلمات التي تدخل عليها «كان وأخواتها» «بناء على التّوزيع». وقام النّحاة العرب بتحديد توزيع المباني الصّرفيّة التي تدخل على الأفعال. غير أن توزيع العرب القدماء لأقسام الكلام كان توزيعاً ناقصاً، جعل بعض اللّغويّين العرب المحدثين يعيد النّظر في هذا التقسيم الثّلاثيّ واقتراح تقسيم جديد لأقسام الكلمة العربيّة. فقد حصرها إبراهيم أنيس في أربعة أنواع، وجعلها تمام حسّان في سبعة وهو في رأينا تقسيم يعتمد على استقراء لمواقع الوحدات (الكلمات) داخل التركيب العربيّ والخصائص الصّرفيّة والتّركيبيّة والدّلاليّة لكل نوع من هذه الوحدات المكوّنة للجملة[39].

8. التّمييز بين الآنيّ والحركيّ

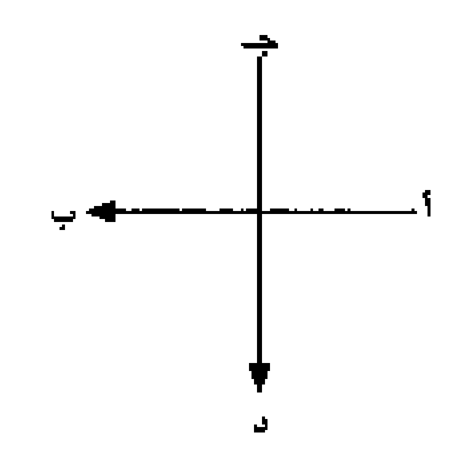
أمّا ثالث المبادئ الأساسيّة في التّحليل اللّسانيّ البنيويّ، فيتعلق بالتّمييز بين النّظرة الآنيّة Synchronique والنّظرة الحركية Diachronique. ينطلق دو سوسير في تمييزه هذا من ملاحظة بسيطة، مفادها أنّ اللّسانيّات تعرف في دراستها للّغة عنصراً جديداً لا تهتمّ به العلوم الأخرى، هو عنصر الزّمان Temps. وبالنّظر إلى وجود عنصر الزّمان في التّحليل اللّغويّ، يتعيّن التّمييز بين الدّراسة الآنيّة للّغة والدّراسة الحركيّة، إنّ دراسة اللّغة بهذا المعنى تدور حول محورين:

– محور التّزامن Simultanéité ويخصّ العلائق القائمة بين الأشياء المتزامنة؛ أي الموجودة في زمن واحد، وهي الدّراسة الآنيّة.

– محور التّتابع Successivité وفيه ينظر إلى الوقائع اللّغويّة، من حيث إنّها نقط تقع في تتابع زمنيّ وهو الدّراسة الحركيّة.

(39) تمام حسّان: اللغة العربيّة معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973.

في المحور الأوّل، يتمّ تناول اللّغة في مرحلة زمنيّة محدّدة، أو بتعبير دو سوسير في حالة Etat زمنيّة محدّدة. أمّا الدّراسة الحركيّة (التّطوريّة)، فتتاول اللّغة في مراحل تطوّرها، بدراسة ما يطرأ عليها من تغيير من جرّاء تفاعلها مع الزّمان. ومن الأفضل أن تهتمّ العلوم بوضع المحاور axes التي تقع عليها الوقائع المدروسة، بحيث يمكن التّمثيل للمحوين السابقين كما يلي(40):



المحور أ- ب محور التّزامن axe des simultanéités وهو المحور المتعلّق بالنّسب القائمة بين الأشياء المتزامنة أي الموجودة في الزّمن نفسه.

المحور جـ - د محور التتابع axe des successivités وفيه تعتبر الأشياء متتالية في تطوّرها التّاريخيّ.

ولكلّ دراسة قواعدها الخاصّة بها. فقواعد الدّراسة الآنيّة مطّردة وثابتة، وهي دراسة أيضاً عامّة وإلزاميّة للمتكلّمين بلسان معيّن. أما قواعد الدّراسة الحركيّة، فهي اصطلاحيّة تطبق على اللّغة بعد أن يتركها مستعملوها. وقد أكّد دو سوسير الأهمّيّة البالغة للدّراسة الآنيّة، لأنّ الدّراسات التّاريخيّة في عصره بالغت في دراسة اللّغة من هذه الزّاوية، وأهملت الجانب الآنيّ، الذي هو الحقيقة المباشرة الأولى للمتكلّم باللّغة(41). إنّ اللّسانيّات منذ وجودها افتتنت بالتّاريخيّة، بل إنّ هذه التّاريخيّة امتصّتها(42).

ويعلّل دو سوسير أسبقيّة الآنيّ/الحاضر على التّاريخ في دراسة اللّسان، انطلاقاً من أنّ النّسق اللّسانيّ في الحاضر، هو الحقيقة الأولى بالنّسبة إلى كلّ مجتمع لغويّ. فتعاقب اللّسان في الزّمان، وما يطرأ عليه من تغيّرات متفاوتة الأهمّيّة، لا يهم الفرد المتكلم بلسان معيّن. إنّ المتكلمين لا يبالون ولا يدركون

(40) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 115.

(41) Idem, p. 118.

(42) Idem, p. 118.

التّطوّرات التي عرفها لسانهم، وليس ضرورياً أن يفعلوا ذلك. إنّهم لا يشعرون بالتّطوّر، لأنهم لا يملكون أدنى وعي بالأحداث التّاريخيّة التي تعرّض لها لسانهم، مما يجعلهم لا يهتمّون بالحالات السّابقة، مكتفين باستعماله سلبياً في وضعه الرّاهن، أي في الحالة السانكرونيّة التي يعيشونها. فاللّسان بحسب دو سوسير نسق موضوع وتاريخ في الآن نفسه(43). ويمثّل دو سوسير للفرق بين الآنيّ والحركيّ بلعبة الشّطرنج. إنّ تطور اللّعبة والتغيّرات التي أدخلت على طريقة لعبها وانتقالها من منطقتها الأصلية التي ظهرت فيها أوّل الأمر إلى المناطق الأخرى عبر العالم، كل هذا يختلف كلّيّاً عن القواعد المتحكّمة في اللّعبة نفسها، وليس لتاريخ اللعبة، أيّ تأثير في قواعد لعبة الشّطرنج كما تمارس اليوم.

1.8. تبرير التقسيم

سعى دو سوسير إلى تبرير التّمييز الذي اقترحه بين النّظرتين بالرّجوع إلى مبادئ أعمق من أهمّها:

– وجود استقلال نسبيّ بين قانون التّكافؤ، الذي هو قانون النّسق في ذاته، أي الضّبط الذّاتي التي تتميّز به، وبين تطوّر قانون النّسق نتيجة عوامل مختلفة.

– إنّ دلالة العلامة اللّسانيّة وقيمتها شيئان متحرّكان. فقيمة الوحدات تتغيّر وتتطوّر من حالة إلى حالة، وبالتّالي لا يمكن تطبيق قوانين نسق في آنيّة حالة معيّنة على نسق حالة أخرى. إنّ القيمة دلالة نسبيّة تدرك قياساً على علاقات معيّنة موجودة في وضع معيّن (في حالة معيّنة)، الأمر الذي يمنع إدخال عناصر منظومة حالة 1 مع عناصر منظومة حالة 2. فالقواعد التي تتحكّم في عناصر الحالة الأولى، لا يمكنها أن تتحكم في قواعد حالة ثانية، بسبب التّغيير في نوعية العلاقات وتطوّرها(44).

– تقول بعض النّظريّات في مجال الاقتصاد بإمكانيّة إعادة النّظر في القِيَم

(43) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 24.

(44) O. Ducrot et T. Todorov: *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage*, p. 34, Paris, Seuil, 1972.

الاقتصاديّة للبضائع، انطلاقاً من الأزمات، وباستقلال تامّ عن تاريخ هذه الأزمات والمتعلّقة بأسبابها والعوامل الفاعلة فيها. من المعروف أنّ علم الاقتصاد يقرّ بوجود علمين متميّزين هما: علم الاقتصاد السّياسيّ وتاريخ الوقائع الاقتصاديّة الكبرى. ومن المعروف أيضاً وجود علم وصفيّ بالقانون إلى جانب علم تاريخ القانون وهما شيئان مختلفان.

- تحرير البحث اللّساني من كلّ العوامل الخارجة عن طبيعة المادة اللّغويّة الصّرف. والعامل الخارجيّ هنا هو التّاريخ بمختلف مكوّناته ومعطياته الاجتماعيّة والنّفسيّة والثّقافيّة. إنّ التّاريخ عدوّ اللّسان كما يقال. إنّ التّمييز بين الآنيّ والحركيّ يهدف في نهاية الأمر إلى خلق بحث لسانيّ مستقلّ كلّيّاً عن العوامل النّفسيّة والاجتماعيّة التي يمكن أن تؤثّر في اللّسان وصيرورته الفرديّة والجماعيّة.

2.8. البنيويّة والتّاريخ

شكّل التّمييز الصّارم بين الآنيّ والحركيّ موضوع جملة من الملاحظات والانتقادات. فإذا كان من الممكن تصوّر هذا التّمييز نظريّاً، فإنّ الفرق بين الرّؤيتين صعب التّحقيق على المستوى العمليّ. فمن جهة، ليس من السّهل القيام بتحليل آنيّ للوقائع اللّغويّة من دون اعتبار لتاريخيتها، وخصوصاً العوامل التي أثّرت بشكل أو بآخر في خلق الآنيّة synchronic المدروسة. ومن جهة ثانية، فإنّ اللّسان في تغيّر مستمرّ بشكل، يصعب معه تحديد الفترات أو الحالات اللّغويّة التي يعرفها تحديداً دقيقاً. وبالمقابل لا يمكن للتطور اللّغويّ مهما كانت درجته أن يحصل خارج الحالة الآنيّة. يقول جون لَيونز: «**من المستحيل أن نقوم بتمييز بين التّطوّر التّاريخيّ والتغيّرات الآنيّة**»[45]. وإذا كان الفرق بين الآنيّ والحركيّ قائماً على عنصر الزمن باعتباره عاملاً حاسماً في تغيير اللّسان، فإنّ ثمّة عناصر أخرى تعدّ فاعلة ومؤثرة في التّغيير والتّطوّر اللذين يصيبان اللّسان، ومنها الحاجة المستمرّة إلى مفردات جديدة، والاقتراض والقياس والتّداخل بين الألسن، والبيئة الاجتماعيّة وغيرها من العوامل.

(45) J. Lyons: *Linguistique générale: une introduction*, p. 41, Paris, Larousse, 1970.

وكان ميّيه من أبرز الذين اعتبروا تقسيم دو سوسير غير ذي جدوى من النّاحية العمليّة. إنّ ميّيه يرى في اللسان شموليّة، وأنّ كلّ التغيّرات اللّغويّة الخاصّة يجب النّظر إليها في مقام بنيانيّ أكثر اتّساعاً وشموليّة. ويأخذ ميّيه على دو سوسير تأكيده على الطّابع النّسقي للّسان، لدرجة أنسته حضور الإنسان نفسه في اللّسان، ويعتبر ميّيه اللّسان في مقام أكثر اتّساعاً من النّاحية التّاريخيّة والاجتماعيّة، مؤكّداً الرّوابط الوثيقة بين اللّسان والحضارة وباقي المظاهر الاجتماعيّة للشعب الذي يستعمل هذا اللّسان[46].

في السّياق نفسه، يتساءل مالمبرغ Malmberg في أيّ لحظة نعدّ نسقاً لسانياً قديماً قد انتهى، ونسقاً جديداً قد بدأ؟ وكيف نحكم على استشهادات (نصوص) حالة قديمة؟ كيف نعالج مختلف مستويات اللّسان من لسان منطوق ولسان أدبيّ وعاديّ؟ هل تعدّ هذه المستويات ألسناً مختلفة أم لساناً واحداً[47] إنّ اللّسان يظلّ ثابتاً في بعض الأساليب، رغم ما يصيبه من تطوّر.

وقد أثارت المنهجيّة البنيويّة باعتمادها المركزي على الجانب الآنيّ (السّانكرونيّ) نقاشاً واسعاً بين الباحثين بمختلف مشاربهم حول علاقتها بالتاريخ. يقال أحياناً بأنّ التّحليل البنيويّ يرفض التاريخ. وبالفعل ذهب كثير من الدارسين إلى ذلك، بالرّبط بين ما ذهب إليه دو سوسير من إعطاء الأهمّيّة للبحث اللّسانيّ الآنيّ، ورفض المنهج البنيويّ لكل إحالة على التّاريخ. يقول بياجيه: «في النّقاش العاديّ، يظهر لنا أن البنيويّة تهاجم التّاريخيّة والوظيفيّة وأحياناً كلّ أشكال اللجوء إلى الكائن الإنسانيّ بصفة عامّة»[48] غير أنّ هذا الفهم لموقف المنهجيّة البنيويّة من التّاريخ لا يوافق عليه جميع الدّارسين. «إنّ البنيويّة لا تعوّض التّاريخ، إنّها لا تعوّض التّغيير بالكائن»[49].

ومهما كان الموقف المتّخذ في هذا المجال، فمن الواضح أنّ هناك

---

(46) Antoine Meillet: *Linguistique générale et linguistique historique*, Editions H. de Champion. Paris.

(47) B. Malmberg: *Les nouvelles tendances de la linguistique*, Paris, PUF, 1968, p. 61.

(48) J. Piaget: *Le structuralisme*, p. 6.

(49) J.-M. Auzias: *Le structuralisme*, Paris, Seghers, 1968, p. 14.

غموضاً والتباساً في استعمال كلمة تاريخ. إنّ كثيراً من الباحثين الذين ناقشوا مسألة علاقة البنيويّة بالتّاريخ لم يحددوا المعنى الذي يقصدونه من مفهوم «التّاريخ» وهم يتحدثون عن رفض البنيويّة للتّاريخ. إذا كان المقصود بالتّاريخ هو التّسلسل الزّمنيّ كما تصوّره النّحاة التّاريخيّون، فإنّ الدّارسين البنيويّين عالجوا التاريخ بهذا المفهوم على نحو ما سنرى في الفقرة التّالية.

3.8. حضور التاريخ

يكفي النّظر في بعض نصوص محاضرات دو سوسير لندرك مدى إلحاحه على أهمية الدّراسات التّاريخيّة؛ وقيمتها النّظريّة في دراسة اللّغة. لقد أشاد دو سوسير بأهمّيّة النّحاة الجدد ودورهم في تطوّر البحث اللّسانيّ الحديث. وحينما حدّد مهامّ اللّساني ذكر الوصف والتاريخ جنباً إلى جنب؛ أي الحركيّ والآنيّ. يقول دو سوسير: «إنّ مهمة عالم اللّسانيّات وصف الألسن التي يمكن الوصول إليها ووضع تاريخ لهذا وهذا يقتضي وضع تاريخ للأسر اللّغويّة ومحاولة بناء اللّسان الأمّ لكل أسرة أو فصيلة لغويّة»[50].

كما أكّد دو سوسير أيضاً أنّ اللّسان نسق وتاريخ في الوقت ذاته، واعتبره مؤسسة حاضرة ونتاجاً تاريخيّاً. إنّ مفاهيم السانكرونيّة والدياكرونيّة متساوية من حيث الأهمّيّة المنهجيّة. إنّ فترة ما قبل لسانيّات دو سوسير كانت ترى كل شيء في اللّسان من منظور التاريخ، ومن ثمة كان رد الفعل (رد فعل دو سوسير) طبيعيّاً[51]. ويكشف تتبع الأدبيّات اللّسانيّة البنيويّة اهتماماً بالغاً بمفهوم التّاريخ بهذا المعنى لدى بعض أقطاب البنيويّة. ونشير هنا إلى دراستين هامتين:

- دراسة ياكبسون المعنونة **بمبادئ الفونولوجيا التّاريخيّة**، نشرت لأول مرة في أعمال حلقة براغ سنة 1931، ونشرت بالفرنسية مع ترجمة كتاب تروبتسكوي **مبادئ الفونولوجيا** سنة 1949.

-دراسة مارتينيه: اقتصاد التّغيّرات الصّوتيّة: دراسة في الصّواتة الحركيّة *Economie des changements phonologiques*[52].

(50) De Saussure: *Cours de linguistique générale*, p. 20.
(51) J.-M. Auzias: Idem, p. 21.
(52) *Economie des changements phonologiques*, Francke Berne, 1955.

وعلى العموم لم يهتمّ البنيويّون، لاسيما الأوروبيّون منهم، بالبنية في جانبها الآني فحسب، وإنّما اهتمّوا بها على المستوى الحركيّ أيضاً، مؤكّدين مبدأً أساسيّاً، هو أن يكون البحث في تاريخ الأحداث اللّسانيّة بحثاً نسقيّاً. إن التّطوّر اللّغويّ ليس شيئاً من قبيل الصدفة، وإنّما هو تطوّر بنيويّ يصيب البنية بأسرها، لأن عناصر الأحداث لا تتطوّر باستقلال بعضها عن بعض. وقد أكّدت مدرسة براغ ضمن برنامج عملها، أنّ الوصف الآنيّ لا يلغي بالضرورة مفهوم التّطوّر، بل إنّ الآنيّ والحركيّ يخضع كل منهما للآخر، ويظهران في علاقة جدليّة[53].

وأعطت براغ مفهوم التّاريخ بعداً جديداً، عندما ربطته بالمقارنة ووظفتهما معاً للوقوف على جوانب العلاقات التّاريخيّة وعلاقات القرابة بين عدّة بنيات، مما جعل مفهوم «القانون» كمبدإ للتّحليل التّاريخيّ، يتحول من مجموع أحداث نتجت عرضاً وبطريقة اعتباطيّة، كما هو الأمر عند النّحاة الجدد، إلى قانون يتحكّم في تطوّر منظومات (أنساق) متعدّدة داخل البنية الواحدة. وأصبح من الممكن الرّبط بين عدة أنساق لغويّة، مهما كانت متباعدة ظاهريّاً، مع محاولة الوصول إلى التّشابه في تغيير البنيات. ويعد رومان ياكبسون أكثر اللسانيّين البنيويين تأكيداً على أهمية الصواتة الحركيّة، ودورها في التّحليل الصّوتيّ عموماً من خلال ملاحظاته المتعلّقة بتطوّر الأصوات في اللّغة الرّوميّة.

يرى ياكبسون أنّ الوقت قد حان للتّخلّي عن التّمييز الذي وضعه دو سوسير بين الآنيّ والحركيّ داعياً إلى دراسة ما هو تاريخيّ في إطار يأخذ في الاعتبار المعطيات الوصفيّة والتّغيّرات داخل النّسق الذي وقعت فيه. «إنّ الوصف التّاريخيّ» ينبغي أن لا ينحصر في دراسة المتغيّرات المنعزلة، وإنّما يجب معالجة التّحوّلات الصّوتيّة من خلال وظائفها داخل النّسق الذي وقعت فيه. ومعنى هذا الكلام، أنّ ياكبسون يرفض الصّواتة التّاريخيّة التي لا تُعير الاهتمام إلى النّسق الذي تقع فيه التغيّرات. ويشير ياكبسون هنا إلى تصوّر النّحاة الجدد الذين كانوا يرون أنّ النّسق، لاسيّما اللّغويّ منه، مجموعة آليّة، وليس على الإطلاق صورة أو وحدة صوريّة أي شبكة من العلاقات والقيم.

---

(53) Jacqueline Fontaine: *Le cercle linguistique de Prague,* Tours, Paris, Mame, 1972.

كما حاول ياكبسون وضع منهج شامل ومتكامل للصّواتة التّاريخيّة، اعتبر فيه أن أيّ ظاهرة صوتيّة يجب أن تعالج على أنّها بناء يرتبط ببنيات صوتيّة أخرى أكثر تعقيداً. إنّ أوّل مبدإ في الصّواتة التّاريخيّة هو دراسة التّطوّرات بالنّظر إلى النّسق الذي وقعت فيه، وأن كلّ تغيير يطرأ على الأصوات اللّغويّة، لا يمكن توضيحه إلا داخل نسق صوتيّ محدّد. ويتحتّم علينا حين دراسة تطوّر كل وحدة صوتيّة من الوجهة التّاريخيّة، أن نبحث في أوجه العلاقات المتبادلة بين هذه الوحدة وباقي وحدات النّسق، قبل التّغيير الحاصل وبعده، اعتماداً على المعطيات المتوافرة لدينا حول الحالات اللّغويّة قبل التّغيير وبعده.

4.8. الإنسان والتاريخ

هذا فيما يتعلّق بالمعنى الأوّل للتّاريخ. أمّا إذا كان المقصود بإبعاد التّاريخ في التّحليل البنيويّ هو إهمال المعطيات الخارجيّة للظّواهر المدروسة من قبيل المعطيات الاجتماعيّة والنّفسيّة والثّقافيّة، وما إلى ذلك، وبعبارة واحدة، إبعاد الإنسان من حيّز الدراسة البنيويّة، أو ما وصفه البعض «بموت الإنسان» في التّحليل البنيويّ (عبارة روجيه غارودي)، فإنّ هذا الحكم لا ينطبق على كلّ التّيّارات البنيويّة سواء في اللّسانيّات أو في غيرها، وبالتالي يحتاج الأمر إلى نوع من التّدقيق والتمحيص.

إن الدّراسات البنيويّة ليست كلّها دراسات شكليّة مثلما هو الحال عند هاريس وهيلمسليف، بل هناك لسانيّون بنيويّون وظيفيّون يدعون إلى ضرورة إدماج البُعد الوظيفيّ للّغة في التّحليل الإنسانيّ والاجتماعيّ، مع ما ينتج عن هذا الإدماج من الاستعانة بمعطيات اجتماعية ونفسيّة وثقافية تخصّ الفرد والمجتمع على السّواء. فاللّسانيّات الوظيفيّة Fonctionnalisme بمختلف مشاربها (براغ ــ لندن ــ باريس) لسانيّات واقعية تهتم بدراسة الواقع اللّغويّ للفرد والجماعة، وتركّز على ما يجعل من الوظيفة الأساس للّغة هو التّواصل داخل المجتمع. إنّ اللّسان وسيلة لتحقيق بعض الأهداف من بينها نقل التّجارب اليوميّة. كما أنّنا نستعمل اللّسان لتحقيق بعض الوظائف. نحن نستعمل اللّسان لوظيفة معيّنة أو لوظائف محدّدة على نحو ما بيّن ياكبسون في نموذج الوظائف. إنّ وصف اللّسان في عرف الوظيفيّين، يعني بالدرجة الأولى، توضيح وإبراز العوامل التي يستعملها اللّسان

(من خلال المتكلّم) لتحقيق هذه الوظائف. وتعتبر الوظيفية أنّ أهمية الممارسة اللّسانيّة وقيمتها النّظريّة والمنهجيّة تكمن في مدى قدرتها وفعاليّتها على إبراز هذه العوامل، وفي مقدمتها الإنسان في مختلف تمظهراته اللّسانيّة.

هذا التيّار الواقعي في اللّسانيّات وغيرها من العلوم الإنسانيّة (مالينوفسكي في الأنثروبولوجيا)، يقابله تيار آخر في الدّرس اللّسانيّ وفي العلوم الإنسانيّة، هو التيّار الشّكلانيّ الذي يركّز اهتمامه على المصادرات الأساسية التي ينبغي أن تتوافر في نظريّة لسانيّة معيّنة لتحليل الوقائع اللّسانيّة أو الاجتماعيّة. إنّ الوظيفية تنظر إلى السُّلوك اللّغويّ ووظائفه المتعددة في شتى المناحي، بينما يركّز التّصوّر الشّكلانيّ اهتمامه على نتائج الوصف اللّسانيّ لا في إطار علاقتها بالسُّلوك اللّغويّ وإنما بالنّظر إلى التّماسك النّظريّ مع المبادئ والمقدّمات النّظريّة التي ينطلق منها الباحث[54].

على أنّ ما تقدّمه المقاربة اللّسانيّة البنيوية يطرح العديد من التّساؤلات التّصوّريّة التي يمكن تلخيص بعض منها فيما يلي[55]:

- إنّها تعتقد اعتقاداً راسخاً بماديّة البنية اللّسانيّة، وهو ما يصعب تبريره من وجهة نظر علميّة محضة. من النّاحية الفلسفيّة، إنّها مسألة عبثيّة جدّاً، لأنّ اللّسان لا يملك أيّ ماهية ماديّة قارّة، ولكنها ماهيّة عَرَضِيّة. إنّ اللّسان بِناءٌ يقوم على بثّه الأفراد ويتناقلونه عن طريق الاكتساب.
- الاعتقاد بأنّ عالمنا محكوم قَبْلِيّاً بأفكار محكومة بدورها باللّغة. وفي هذا الموقف مثاليّة مفرطة لا تختلف كثيراً عن مثاليّة أفلاطون وديكارت وكانط.
- الطابع الاختصاريّ: تختصر اللّسانيّات البنيويّة كل ما هو فكريّ وثقافيّ في اللّغة معتبرة أنّ الحقيقة الوحيدة القادرة على كشف تجلّيات اللّغة ومظاهرها وجوانبها المتعددة هي البنية. والواقع أنّ كلّ ثقافة شبكة معقدة من العلامات الدّالّة التي تسمح بعدة أنواع من التّواصل، وليست اللّغة إلا نوعاً واحداً منها.

---

(54) A. Martinet: *La linguistique: guide alphabétique*, Paris, Denoël Gonthier, 1968.

(55) Patrick Guelpa: *Introduction à l'analyse linguistique*, Paris, Armand Colin, 1997, p. 46.

خاتمة

كان سعينا في فصول هذا الكتاب تقديم عرض مختصر ومركّز لأهمّ القضايا المرتبطة باللّسانيّات في صورتها العامّة. وقد حاولنا تتبع التحوّلات التّصوّرية والمنهجيّة التي عرفها الدّرس اللّغويّ في بعدها التّاريخيّ من خلال تقديم مفصّل للمراحل التي مرّ بها الفكر اللّغويّ الإنسانيّ عارضين لكلّ الآراء والتّصوّرات ـ من دون أن نسقط في اعتقادنا ـ في التّاريخيّة المباشرة التي تحوّل التّاريخ أيّاً كان المجال إلى سرد حكائيّ وعجائبيّ للأفكار والاقتراحات، كما حاولنا من جهة ثانية النّظر إلى هذا التّاريخ بعيون الحاضر تاركين للتّصوّرات والأحداث الفكريّة في مجال اللّغة حقّها في عرض نفسها. والمرحلة التوفيقيّة بروافدها الثلاثة (هنديّة/ يونانيّة/ عربيّة إسلاميّة) تكشف عن القواسم المشتركة بين هذه الحضارات في المجال اللّغويّ. وعرضنا في الباب الأول والثّالث أساسيّات الرؤية اللّسانيّة للموضوع الذي هو اللّسان/ اللّغة، نظراً إلى ما لهذا التّحديد من أهمية نظريّة ومنهجية في تأسيس اللّسانيّات وعلميّتها. وأخيراً، قدّمنا جملة من المفاهيم الأساس في التّحليل اللّساني البنيويّ المتّبع في مختلف المدارس اللّسانيّة الوصفية، انطلاقاً من بعض الأمثلة التّوضيحيّة. وحرصنا رغبة في التوضيح، على عدم الخوض في العديد من الموضوعات اللّغويّة التي قدّمتها بدرجات متفاوتة من التّوفيق العديد من الأدبيات العربيّة، وهي موضوعات لم يعد اليوم للكثير منها أيّ أهمّيّة، على الأقلّ بالكيفيّة التي تُعرض بها في المؤلفات العربيّة. كما حاولنا الابتعاد عن صميم الدّرس اللّسانيّ بمعناه الدقيق حتى لا نساهم في تيه القارئ العربيّ على الأقلّ حتى يشتدّ عُوده وتزداد حمولته المعرفيّة. ولهذه الغاية عملنا على تجنّب التّفريعات والتّفاصيل النّظريّة والمنهجيّة حتى الاصطلاحيّة والاختلاف في وجهات النّظر، على أمل تناولها في مؤلّف مقبل حول المضامين النّظريّة والمنهجيّة في مختلف الاتجاهات اللّسانيّة الحديثة. ولم

يكن بإمكاننا أن نعرض لكلّ الأمور المتعلّقة باللّسانيّات العامّة، فذلك ما ليس في مقدور مؤلّف من هذا النوع أن يتحمّل مسؤوليّته، والأمل معقود على أقلام وكفاءات عربيّة أخرى تساهم بدورها في نشر معرفة علميّة باللّسانيّات تكون واضحة ومفهومة. فأمّا الوضوح في الفهم والإدراك فقد حاولنا الاقتراب منه ما أمكن بالابتعاد عن التّأويلات الخاطئة للأفكار والتّصوّرات اللّسانيّة مفهومات ومصطلحات والتّخلّي ولو مؤقّتاً عن الرّبط بين المفاهيم والمصطلحات اللّغويّة المستعملة في الدرس اللّغويّ العربيّ القديم وذلك كي نضع المفاهيم والتّصوّرات اللّسانيّة الحديثة في سياقها التّاريخيّ ونضبط مرجعيّتها والعوامل المؤدّية إليها. ولم نجد بدّاً من الإشارة إلى العديد من مظاهر الخلط في بعض الكتابات العربيّة «اللّسانيّة» سواء فيما يتعلق بنوع المادّة المقدّمة أو فيما يتعلّق بالمصطلحات المستعملة أو التمثيل لها. وليس معنى هذا أنّنا استنفدنا جميع القضايا اللّسانيّة التي يتعيّن الإلمام بها. فما قدّمناه ليس سوى جزء يسير من ثقافة واسعة الأطراف يحتاج الإلمام بها ليس فقط إلى التّحلّي بالقدرة على سبر أغوار المصادر والمراجع، بل كذلك إلى الاستعداد للتّنازل عن كثير من الأفكار الجاهزة حول اللّغة البشريّة وحول الأنساق اللّسانيّة الخاصّة. وعزمنا قويّ على الاستمرار في القيام بهذه المهمة النّبيلة حتّى لا تبقى المعرفة أيّاً كانت طبيعتها حكراً على فئة من النّاس دون أخرى.